

مقدمة المؤلف

وحيثما راى

ناراً تنور

Чингиз Айтматов

И ДОЛЬШЕ ВЕКА ДЛИТСЯ ДЕНЬ

РОМАН

на арабском языке

والله اعلم

## مقدمة المؤلف

من المعروف لدى الجميع ان الشغف بالعمل واحد من المقاييس الاكيدة لمزايا الانسان . ومن هذه الناحية فان يديغي جانغلدين او يديغي البوراني ، كما يدعوه معارفه ، شغيل بحق وحقيق . هو واحد من اولئك الذين يقال عنهم وفيهم ان الارض عليهم تدور وهم الذين يمسكونها فلا تغور . وهو مرتبط بمرحلة عصره الى الحد الذي يمكننى الحكم عليه باوثق ما يمكن وفى هذا كنه جوهره ، انه ابن عصره .

ولهذا بالذات كان مهما بالنسبة لى حين تناولت المشاكل التى تمسها الرواية ، رؤية العالم من خلال مصيره كجبهوى قاتل ابان الحرب وعامل فى السكك الحديد . وقد حاولت انجاز ذلك بالقدر المتاح لى . وشخصية يديغي البوراني يمثل موقفى ازاء المبدأ الجندرى للواقعية الاشتراكية الذى كان ويبقى هدف دراستها الرئيسى انسان العمل .

بيد انى بعيد كل البعد عن المطلقية فى مفهوم «الشغيل» لمجرد كونه «انسانا بسيطا وعلى الطبيعة» يفلح الارض مجتهدا او يرعى القطعان . ان موقف الانسان الشغيل يتجلى فى الاصطدام ما بين الدائم والزائل فى الحياة ، لهو ذو اهمية بقدر تفرد كشمسية ومدى ثراء عالمه الروحى ومدى تركيز عصره فيه . ولهذا حاولت تصوير يديغي البوراني فى قلب عالمى المعاصر وحومة المشاكل التى تشغل بالى .

وليس يديغي البوراني مجرد شغيل بالطبيعة ومن حيث

© حقوق الترجمة الى اللغة العربية محفوظة لدار وادوفا ١٩٨٩

A 4702300100-481 082-89  
031(01)-89

ISBN 5-05-002009-3



اشغاله بل انه انسان له نفس عامل . والانسان ذو النفس المحبة للعمل يهب نفسه كلها للاستئالة التي لدى الاخرين عنها جواب حاضر وجاهز ولهذا يقومون بالعمل الذي يزاولونه متكاسلين وحتى حينما ينجزونه بشكـل جيد وانما يعيشون كمستهلكين فحسب .

اما الاشخاص اصحاب النفس المحبة للعمل فكانما تجمعهم رابطة قريبي وهم دوما قادرين على تمييز الواحد عن سواه وفهم بعضهم البعض فان لم يفهموا فانهم يعكفون على التفكير لكسى يفهموا . ويهيب لهم وقتنا هذا مادة كثيرة للتفكير والتأمل كما لم يهيب اى وقت آخر سبق . ويمكن القول بان حبل الافكار او سلسلة ذاكرة الانسان اصلها فى الارض وفرعها فى الفضاء .

ويبدو ان التناقض الاكثر تراجيدية اواخر القرن العشرين يكمن فى لامحدودية العبقرية البشرية وتعذر تحقيقها بسبب العوائق السياسية والايديولوجية والعرقية المتولدة عن الامبريالية .

فى ظروف اليوم الحاضر اذ لا يقتصر الامر على ظهور الامكانات التكنيكية للخروج المستقر الى الفضاء بل ان حاجات الانسان الاقتصادية والايقولوجية تتطلب بشكل مسيطر تحقيق تلك الامكانات ، يمثل افطع الجرائم الشنعاء النكراء بحق البشرية والانسان تاجيح الشحنة والحزازات بين الشعوب وبعثرة الموارد المادية والطاقة الدماغية على سباق التسلح .

وبوسع انفراج التوتر الدولى وحده لا غيره ان يعد اليوم سياسة تقدمية . وما من مهمة اخرى اكثر شعورا بتقدير المسؤولية منه فى العالم كله .

وان لم تتعلم البشرية العيش تحت ظلال السلم فانها سوف تفنى . ويشكل جو الارتياب والاحتراس والترقب والتهييب والمجابهة واحدا من اخطر التهديدات التى تتعرض لها حياة الانسان الهادئة والسعيدة .

يستطيع الناس ان يكونوا متسامحين بعضهم لبعض ولكنهم لا يستطيعون ان يفكروا بشكل واحد مع بقائهم لدى ذلك بشرا محافظين على خواصهم البشرية . ان الرغبة فى سلب الانسان

تفرده رافقت منذ اقدم الازمنة ولحد الآن غايات الاطماع الامبراطورية والامبريالية والهيمنية .

والانسان بدون ذكرى الماضى والموضوع امام ضرورة ان يحدد من جديد موضعه فى العالم والانسان المحروم من الخبرة التاريخية لشعبه والشعوب الاخرى يجد نفسه خارج الافق التاريخى ولديه القدرة على العيش يومه الحاضر وحده فحسب . ويكفينا تذكر «الثورة الثقافية» فى الصين والتلاعب بوعى الشعب الذى انزل ديالكتيك تعقيد الحياة المتعدد الى مستوى بضع عبارات مقتبسة مما يدعى «كراريس ماو الحمراء» ومصير الشعب مالك اعرق التقاليد لكى تقتنع بتضافر هذه الظواهر . ومهما كان يبدو ذلك مفارقة ولكن تتصاحب ايضا امور اخرى : انكار أو تزييف الماضى والشوفينية المتغطسة المتعجرفة التى لا بد لها ان تقيم حولها سور الصين لانه لا يمكن الا خلفه التمسك بالخرافة حول تفوق شعب واحد على الشعوب الاخرى قاطبة .

وانا اعتمد هذه المرة ايضا شأنى فى مؤلفاتى الاخرى على الاساطير والخرافات وعلى الماثورات باعتبارها الخبرة الموروثة لنا تركمة من الاجيال السابقة . وبنفس الوقت الجا للمرة الاولى فى ممارستى ككاتب الى استخدام المحتوى الخيالى العلمى وهذا وتلك هما بالنسبة لى لا غاية بحد ذاتها وانما مجرد منهج للتفكير وكواحد من اساليب معرفة الواقع الراهن وتاويله .

وبالطبع فان الاحداث المرتبطة بأوصاف الاتصالات بالتمدن غير الارضى وكل ما يجرى بهذا السبب لا يقوم مطلقا على أى اساس واقعى . وليس ثمة فى اى مكان من العالم فى الواقع المطاران الفضائيان بمنطقتى ساروزيكى ونيقادا . والعالمان المختلفان وهما النظامان المختلفان تناولتهما هنا خارج نطاق الواقع التاريخى وبصورة اصطلاحية مشترطة تماما كقواعد لعبة مصطلح عليها . وكامل القصة «الفضائية» موضوعة من قبلى لغرض واحد فحسب هو العمل على زيادة الحدة فى شكل متناقض مبالغ للحالة المنظرية على المخاطر المحتملة التى تهدد كل البشر فى العالم كله .

اما بخصوص اهمية الابتداع الخيالى العلمى فان دستويفسكى كان قد كتب فى حينه يقول : «للخيالى فى الفن حد محدود وله



فاليكم - بدلا من جسدي - هذا الكتاب  
واليكم - بدلا من روحي - هذا الخطاب

غريغور ناريكاسي  
وكتاب الأسي والأشجان  
القرن العاشر

## الفصل الاول

اقتضى البحث عن قنيص في المساييل المتيبسة والوهاد  
الجرداء طول اناة . واقترتب الثعلب صائد الفئران ، الذي  
امضى به الجوع ، متعقبا الجرى السريع لدبببة صغيرة ملتبكة  
حتى الدوخان او منتبها التراب بسرعة فائقة من جحر سولق او  
منتظرا ان يقفز اخيرا يربوع توارى تحت سفح وقط قديم على  
موضع مكشوف فيكون باستطاعته اقتناصه بلمح البصر ،  
اقترتب بخطى وثيدة وثابتة من السدة الترابية القاتمة الممتدة  
بارتفاع متساوي في السهوب التي تستميله وتخيفه في آن ،  
وتمر فوقها قطارات صاحبة ، تارة في هذا الاتجاه وتارة بعكسه  
هازة الارض من حوالها ، تاركة وراءها دخانا وزائحة حادة  
منتنة ، ورياحا متلاحقة متدرجة فوق الارض .

عند المساء ربض الثعلب بقعر مسيل على طرف خط  
التلغراف في جزيرة صغيرة نبتت فيها حموض كثيفة عالية  
يايسة ، متكورا على نفسه ومتحولا الى كتلة صفراء مذهبة بالقرب  
من السيقان الحمراء القانية غزيرة البذور . وراح يترقب حلول  
الليل متجملا بالصبر ، محركا اذنيه في حذر ، متسمعا بسلا  
انقطاع الى الصفير الرفيع للرياح الهابة منخفضة على الحشائش  
الميتة المخشخشة خشخشة عنيفة . كانت اعمدة التلغراف ايضا  
تصفر صفيرا مملا ، بيد ان الثعلب لم يكن يهابها ، لانه يراها  
دائما منتصبة في مواضعها ، غير قادرة على تعقبه .

لكن الضجيج المصم للسمع من القطارات المتسارعة تباعا  
يجعله يجفل متوترا بين حين وآخر وينكمش على نفسه انكماشاً

قواعد . يجب على الخيالي ان يكون له تماس مع الواقع الى الحد  
الذي يجعلكم معه تكادون تصدقون به» . لقد وضع  
دستويفسكي بدقة صيغة قانون الخيالي في الفن . وبالفعل ،  
اذا اخذنا خرافة اساطير القدماء او خيالية واقعية غوغول  
ويولغاكوف وماركيز او الخيالية العلمية المعاصرة على حد سواء  
رغم كل ما بينها من فروق فانها جميعا مقنعة بالذات من حيث  
قوة تماسها مع الواقع والواقعية . وتعزز الخيالية جوانب ما من  
الواقع الرامن وبعد اعطاء «قواعد اللعبة» حقها تبين هذه الجوانب  
موحدة فلسفيا محاولة الكشف الى الحد الاقصى عن القدرة  
الاحتمالية لتطور سمات الواقع المنتقاة .

ان الخيال العلمي هو مجازية الحياة التي تتيح روءيتها من  
زاوية نظر جديدة غير متوقعة . وقد غدت المجازات لازمة  
خصوصا في قرننا ولا يقتصر السبب على اقتحام المنجزات  
العلمية - التكنيكية مجال الخيال العلمي بالامس وانما هو على  
الارجح ان عالم الخيال الذي نعيش فيه تمزقه التناقضات  
الاقتصادية والسياسية والايديولوجية والعرقية .  
ولهذا اريد من المجازات الساروزيكية في روايتي ان تذكر  
الانسان العامل مرة اخرى بمسؤوليته عن مصير  
كوكبنا ، الارض ، وعالمنا . . .



أشد ، وهو يشعر بجميع مسامات جسده النحيف واضلعه بهذه القوة العجيبة الخارقة للأرض المدوية المهتزة تحته وعنق حركة قطارات الحمولة ، مع ذلك لبث فسى المسيل متغلبا على الفرع والرائحة الدخيلة المقرفة ، منتظرا ان تحين الساعة التي تغدو فيها الطرق ، مع حلول الليل ، اهدا نسبيا .  
والثعلب لا يلتجئ الى هذه المنطقاة الا نادرا ، وفي اقصى حالات الجوع . . .

في الفترات التي تخللت مرور القطارات ران صمت مفاجئ كالذي يعقب الانهيار على السهب ، وتسنى للثعلب في هذا الصمت المطلق ان يلتقط من الاعلى صوتا غير واضح محلقا فوق البرية المعتمة ، يكاد لا يسمع ولا يخص احدا ، صادرا اما عن تلاعب تيارات الريح ، أو عن تغير مرتقب لحالة الطقس . شعر به الحيوان غريزيا ، وتجمد في مكانه منقبض الصدر ، واحس برغبة في ان يعوى بصوت عال ويضبح لحدس غامض منه .  
يوقوع مصيبة شاملة . بيد ان الجوع خنق اشارة الطبيعية المحذرة تلك .

ولم يتمكن الثعلب الذي كان يلحس نهايات اطرافه اللاعبة من التراكض ، الا ان يهر هريرا واحنا .

في تلك الايام ، كان الجر في الامسيات يميل الى البرودة ، ذلك ان الخريف كان يقف على الابواب ، والتريبة ما تلبث ان تفقد حرارتها في الليالي ، ويتغطى السهب ، مع الفجر ، بندى متثلج ابيض ، كالملح ، لا يدوم طويلا . ودنا موسم القحط والكرب للحيوان السهبي . اذ توارت تلك القنائض القليلة التي تعيش في هذه الاصقاع صيفا ، ورحلت الى مختلف المناطق ، بعضها هاجر الى اماكن دافئة ، وبعضها كمن في جحوره ، وبعض آخر اندس في الرمال لقضاء الشتاء هناك . واصبح كل ثعلب الآن يجتس السهوب بحثا عن الطعام وحيدا تماما ، وكان ذرية الثعالب انقرضت عن بكرة ابيها في العالم . وكبرت هذه الحيوانات الصغيرة المولودة هذا العام وتراكضت في شتى الجهات ، وموعد الحب لم يحن بعد ، الذي تيدا فيه الثعالب بالتجوال شتاء في كل مكان من اجل لقاءات جديدة ، تنشب فيها

بين ذكورها معارك ضارية بكل ما اوتيت من قوة منذ خلق الدنيا .

مع حلول الليل خرج الثعلب من المسيل ، ووقف يتسمع ، ثم خب نحو السدة ، وركض يخطو خطوات خرساء تارة على هذا الجانب من الطريق وتارة على ذاك باحثا عن فضلات طعام يرميها المسافرون من نوافذ عربات القطار . واضطر ان يركض امدا طويلا على امتداد القضبان الحديد متشمما كسل الاشياء المشيرة فضوله والفواحة رائحة مقرفة الى ان عثر على شيء حقير صالح للاكل . وكان طريق مرور القطارات من اوله الى آخره يعج بمختلف الاوساخ من مزق الجرائد وكسر القناني والقشور وعلب الصفيح الفارغة وزباله مماثلة ، ولا سيما كانت تفوح رائحة مقرفة وكريهة تصيب بالخد من فوهات قنن زجاجية ظلت غير مكسورة ، واذ داخ رأس الثعلب غير مرة من تشمها اصبح يتجنب رائحة الكحول وينخر ويرتد جانبا في الحال .

وكانما نكابة به ، لم يلتق ذلك الشيء الذي بحث عنه ، واستعد له مصارعا خوفا دب في نفسه . فتراكض على سكة الحديد بهمة آملا في ان يفلح في الحصول على لقمة اخرى ، وهو لا يكف عن الانتقال بعجالة من جانب الى جانب على السدة الترابية .

بيد انه تسمر فجأة رافعا قدمه الامامية كالمباغت ، ولبث واقفا غارقا في ضوء خافت اشهب للقمر السديمي العالي بين سكتي الحديد كشبح لا يحرك ساكنا . ولم ينقطع الصغير البعيد الذي شد انتباهه . كان لما يزل ناظيا للغاية . وخطا الثعلب خطوة مترددة رافعا ذيله متهيئا للانصراف . لكن بدلا من ذلك انطلق فجأة يتراكض على طرفي سكة الحديد مسرعا في عدوه ، وهو لا يزال يأمل ان يجد شيئا ما يؤكل . وانباه حدسه انه سيصادف لقية بين لحظة واخرى ، على الرغم من اقتراب صليل ضربات الحديد وطققات العجلات بضجيج متزايد لا مفر منه . تباطأ الثعلب بضع ثوان ، وكانت هذه الثواني كافية ليندفع ويتشقلب مثل فراشة مشدوهة حين طعنته فجأة اضوية القاطرات القريبة والبعيدة ، المزدوجة والمتعاقبة ، عندما ارسلت المصابيح الكشافة اضواءها واغشت المساحة الممتدة



امامها برمتها ، مبيضة السهب لهيئة ، حاسرة بلا رحمة يبوسته الشاحبة شحوب الموت . اما القطار فمرق مروقا خاطفا على السكة . وفاحت في الهواء رائحة حريق حادة وغبار ، وهبت الريح هبوا شديدا .

وما لبث الثعلب ان لاذ بالفرار ، وهو يتلفت وراءه مرة اثر اخرى ، ملتصقا بالارض من فزعه . اما المارد ذو الانوار الراكضة فظل يقرع طويلا وينشر ضجيجا ويواصل الطقطة فترة مديدة . ومع كل التفاتة كان الثعلب يتوثب وينطلق بكل ما اوتي من قوة . . .

ثم استعاد انفاسه ، ومن جديد استمالته سكة الحديد ، حيث كان من المتوقع ان يسد رمقه . لكن الاضواء بانث مجددا على السكة ، ومررت قاطرتان تجران سلسلة طويلة من عربات الحمولة .

عندئذ ولي الثعلب عائدا الى السهب ، يطوف فيه ، متوقعا ان تفضى به الدروب الى موضع من سكة الحديد لا يمر عليه القطار . . .

كانت القطارات في هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق .

وعلى جانبي خط سكة الحديد كانت تمتد مساحات شاسعة من الاراضي الصحراوية سارى اوزيكي ، الاراضي الوسطى من البراري الصفراء . . .

وفي هذه الانحاء كانت المسافات تقاس نسبة الى خط السكك كانه خط غرينيتش . . .

اما القطارات فواصلت سيرها من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق . . .

في الليل ، رأى من كشك التحويل شبعا قادما ، كان يسير اول الامر عبر العوارض مباشرة ، ثم مسح ظهور القطار هبط المنحدر متحدرا عليه ، وشق طريقه كما وسط عاصفة ثلجية مخفيا وجهه بيديه من الريح والغبار المندفعين كالعصار من تحت قطار الحمولة السريع . (كان هذا قطارا خاصا ينطلق دون

توقف ، لكونه من القطارات ذات المهمات الخاصة التي تتوجه فيما بعد ، على سكة متفرعة ، الى منطقة ساروزيكي المغلقة ، حيث توجد ادارة السكة الخاصة بها وكان يتوجه الى المطار الفضائي . لذلك سار القطار مغطى «بشمع» وتحست الحراسة العسكرية) . وحدث يدغي راسا ان القادم هو زوجته ، وهي تسرع نحوه ، وانها لم تات دون قصد ، ولا بد ان سببا في غاية الجدية حملها على المجيء . وهذا ما اتضح فيما بعد . لكن كان لا يحق له ، بمقتضى واجبه الوظيفي ان يترك مكانه ، ما لم تمر آخر عربة من عربات القطار والكمسارى يقف في مدخلها المفتوح . تبادل الاشارات بالمصباح دلالة على ان كل شيء على ما يرام في الطريق ، وعندئذ فقط تلفت يدغي الذي اصممه الضجيج المتواصل الى زوجته التي وصلت الكشك في اللحظة المناسبة .

- ماذا حدث ؟

القت اليه نظرة مضطربة وحركت شففتيها . لم يسمعها يدغي ، غير انه فهمها ، وهذا ما كان يتوقع .

اخذا الى الكشك ، وهو يقول :

- تعالى الى هنا من الريح .

بيد ان شيئا آخر تماما راعه في تلك اللحظة ، قبيل ان يسمع فيها من شففتي زوجته ما كان ينبئه به حدسه . مع انه كان يعلم ان مرد ذلك يعود الى الدنو من مشارف الشيوخة ، لكن عز عليه ان يراها ، في هذه المرة ، كيف تلهث من المشى السريع ، وكيف تزخر زحارا شديدا وعسيرا ترتفع اثناءه كتفاها الضامرتان على نحو غير طبيعي . شعر بالرافة عليها وتجلت له على الضوء الساطع للمصباح الكهربي في الكشك الصغير المملط من الداخل بالابيض تجاعيد لن تزول ابدا على وجنتي اوق بالا القاتمتين المزرقتين . (بينما كانت وجنتاها في الماضي سمراوين كسمرة سنابل الحنطة ، وعيناها متالقتان تشعان شعاعين اسودين) ولاحظ ان فيها ذا الاسنان المفلجة يثبت بالدليل القاطع مرة اخرى ، عدم جواز بقاء هذه المرأة ، حتى وان تصرمت سنوات انوثتها ، بلا اسنان (كان ينبغي له ان ياخذها الى المحطة منذ زمن بعيد ويركب لها اسنانا



اصطناعية ، ذلك ان الجميع ، شبابا وشيوخا ، يركبون الآن مثل هذه الامتنان) . فضلا عن ذلك فقد تركت خصلات شعرها المشتعلة شيئا والتمتدلة على وجهها من تحت المنديل المنحسر اما عميقا في قلبه «آخ ، كم بلغ بك العمر !» وتأسف عليها بقلب يضيق حسرة من الشعور بالذنب ، واحس بتأثير ذلك ، بموجة عارمة من مشاعر الامتنان على السنوات الطويلة التي عاشها سوية تجتاح كيانه ، ولا سيما على قطعها الآن هذا الطريق كله ، وفي هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ومجيئها الى ابعد نقطة مراقبة احتراما له ، وشعورا بالواجب ، وتقديرا منها لمدى اهمية ذلك ، فهرعت لتنعى اليه العجوز المسكين قازانغاب الذي عاش وحيدا في شيخوخته ومات وحيدا في كوخ طينى خاوي . انها تدرك ان يدغي هو الشخص الوحيد في هذا العالم الذي يتاثر لوفاة هذا الانسان المهتمل من الجميع ، مع ان المرحوم لا يمت له بصلة قريبا لا من قريب ولا من بعيد .

واذ دخلا الكشك قال يدغي :

- اجلسي واستعيدي انفاسك .

اجابت :

- وانت ايضا ، اجلس .

وجلسا .

- ماذا حدث ؟

- توفي قازانغاب .

- متى ؟

- قبل قليل عرجت عليه لاقف على حاله ، وارى ان كان

يحتاج عوننا ، فالفيت الضوء مشتعلا ، وهو مستلق في مكانه رافعا ذقنه الى اعلى . دنوت منه وقلت : يا قازانغاب ، جلبت لك شايا حارا ، لكنه كان قد انتهى . - وتقطع صوتها ، فترقرق الدمع في عينيها المحمرتين واجهشت ، ثم بكيت بكاء خافتا . - هكذا انقلب الامر في آخر المطاف . وارى انسان رائع كان ! لكنه مات وحيدا ولا احد بجانبه حتى يسبل جفونه . - اردفت متحسرة وهي تواصل البكاء . - من كان يتصور ! لقد مات الرجل . . . - وارادت ان تقول - كالكلب ، لكنها لاذت بالصمت ، ولم تر موجبا للتدقيق . فالكلام واضح بلا ذلك .

واذ استمع يدغي البوراني كما كان يدعى في المنطقة وهو يعمل في المفرق بوراني-بوراني للسكك الحديد منذ ان عاد من الحرب - الى زوجته ، جلس مكفها على دكة لصق الحائط ، واضعا يديه الثقيلتين كجذمورين على ركبتيه ، وحاجبة قبعته - التي هي جزء من بزة عمل شغيلة سكك الحديد - الرثة المتسخة جيدا تظلل عينيه . بم كان يفكر ؟

قالت زوجته :

- ماذا علينا ان نفعل ؟

رفع يدغي راسه ورمقها بنظرة تراقفها ابتسامة مرة .  
- ماذا علينا ان نفعل ؟ ماذا يفعل الناس في مثل هذه الحالات ! ندفنه . - ورفع جسده قليلا عن الدكة كمن اتخذ قراره . - وانت يا زوجة عليك ان ترجعي بسرعة . اما الآن فاسمعي .

- نعم .

- ايقظي عثمان ، لا يهم وان كان مديرا للمفرق . كلنسا سواسية امام الموت . اخبريه ان قازانغاب مات . لقد عمل الرجل اربعا واربعين سنة في هذا المكان . على الارجح لم يكن عثمان قد ولد بعد عندما التحق قازانغاب بعمله هنا . وفي ذلك الوقت كان يستحيل ارغام اي كلب ، ومقابل اية اموال على المجيء الى ساروزيكى . لقد مرت من امام عيني المرحوم قطارات يفوق عددها عدد شعر الراس . . . فليفكر في ذلك . هكذا قولي له بالنص . اسمعي ايضا . . .

- نعم .

- ايقظي الجميع ، واحدا اثر آخر . دقي على جميع النوافذ . فلا يزيد عدد البيوت عن ثمانية ، فهي تعسد بالاصابع . . . اقيمي الدنيا واقعيديها . لا ينبغي لاحد ان ينام اليوم ، وقد مات مثل هذا الانسان . اقيمي الدنيا واقعيديها .

- واذا انهالوا على بالشماتم ؟

- من واجبنا ان ننهي اليهم الخبر ، فليشتموا اذا ارادوا . قولي لهم انى انا امرتك بايقاظهم . فلتكن لديهم ذرة من ضمير قفى !

- ماذا بعد ؟



- امرعى اولاً الى الخفير شاييميردين ، فهو المناوب فى قسم الحركة اليوم ، واخبريه بتفاصيل الحادث ، عساه يجد حلاً . وقد يجد بديلاً عنى فى هذه الوردية . واذا تعذر عليه ذلك فليبلغنى . فهمتيني ! هكذا قولى له نصاً .

- ساخبره ، - اجابست اوق بالا ، ثم وكأنها تذكرت الموضوع الاهم الذى لا يجوز نسيانه . - اما اولاده ! لقد نسيناهم ! واجبنا الاول ان نرسل خبرا اليهم ، فكيف لا ؟ لقد توفى والدهم . . .

قطب يديغى نافرا من هذه الكلمات ، وقد ازداد عبوسا . لكنه لم يجب .

- مهما كانوا فانهم اولاده . - اردفت اوق بالا تسوغ كلامها هذا ، وهى تعرف ان يديغى لا يطيب له سماعه .

- اعرف ، - ولوح بيده فى الهواء . - اتصورين اننى لا اقدر ذلك ؟ تلك هى المسألة ، كيف يجوز دفنه بغيابهم ، على انه ، لو كان الامر بيدي ، لما سمحت لهم بالاقتراب !

- هذا لا يخلصنا يا يديغى . وليأتوا ويدفنوه بانفسهم . والا فسوف تشاع شائعات يتعذر اتقاها .

- هل انا اصدهم ؟ فليأتوا .

- هل يستطيع ابنه الوصول فى الميعاد ؟  
- يستطيع اذا اراد . اول امس عندما كنت فى المحطة ارسلت له برقية ، وكتبت ان الامر كذا وكيت ، وان اباك على حافة الموت . ماذا يريد اكثر ! انه يعد نفسه ذكيا وممن المفروض ان يفهم كيف يتصرف . . .

- مادام الامر على هذه الشاكلة فلا بأس . - اقتنعت الزوجة ببراهين زوجها قناعة مشوبة بشك موارب ، وامر ما خاص بها لا يزال يشغل بالها ، واردفت : - ليته جاء برفقة زوجته ، مهما يكن فهى تدفن حميها وليس ايا كان .

- فليقررا ذلك بنفسيهما ، ولا حاجة لتعليههما . انهما انسانان بالغان .

- اجل ، بالغان ، بالطبع ! - قالت اوق بالا موافقة والشك ما زال يخامرهما .

ولزما الصمت .

وقال يديغى يذكرها :

- لا تتأخرى ، هيا اذهبى .

لكن الزوجة لم تشأ ان تنصرف قبل ان تفرغ جعبتها .  
- يجب ان تحضر ايضا ابنته - آى زاده المسكينه التى تعيش فى المحطة مع زوجها المدمن على الخمر واطفالها .

ابتسم يديغى ابتسامة عفوية ، وربت على كتف زوجته :

- اراك تتحملين همّ الجميع . . . آى زاده تعيش على مبعده رمية عصا . سيخبط الى المحطة احدهم من الصباح ويخبرها . وستصل فى الميعاد بالطبع . وانت يا زوجة افهمسى ان لا نفع فى آى زاده ولا فى ثابت جان ، وان كان هذا الاخير رجلاً . سترين ، انهما سيايتان لا معالة ، لكنهما سيقفان جانباً كضيفين وسنقوم نحن بمراسيم التشييع . هذا ما سيحصل . . . اذهبى ونفدى ما اوصيتك به .

انصرفت زوجته ، ثم ترددت فتوقفت . لكنها مضت فى دربها من جديد ، وفى اللحظة نفسها هتف يديغى فى اعقابها :

- لا تنسى ان تعرجى فى الاول على الخفير ، على شاييميردين ، ليرسل احداً مكانى . ساعمل فيما بعد يوماً اضافياً . المرحوم مسجى فى بيت خالٍ ولا احد الى جانبه ، لا يجوز . . . هكذا قولى له نصاً .

غادرت الزوجة موافقة ، وفى هذه الاثناء زمر المنبه فى لوحة المسافة ، وتلألا ضوء احمر ، وهذا يعنى ان قطار حمولات آخر يقترب من المفرق . ووفق اوامر الخفير ينبغى استقبال القطار على الخط الاحتياطى لكى يفسح فى المجال لمرور القطار القادم من الجهة المقابلة ، الواقف الآن عند مدخل تقطة المرور ، لكن من الطرف الاخر لكشك التحويل . وليست هذه الامتداد عادية معتادة . بينما كان القطاران يسيران على خطيهما كان يديغى يتلفت من حين الى آخر الى اوق بالا المتناثية عند طرف خط سكة الحديد ، وكأنه نسى ان يقول لها شيئاً . وبالطبع ، كان عنده مايقوله فعلاً . اذ ان المشاغل التى تسبق الدفن كثيرة ومتشعبة ، ولا يتذكرها المرء دفعة واحدة . لكن يديغى كان يتلفت ليس لهذا الغرض ، فهو لم ينتبه الا الآن ، وبأسى ، كيف هربت واحدودبت زوجته فى الفترة الاخيرة ، وكان هذا



ملحوظا جدا خلل الضوء الاصفر الشاحب الذي كان ينيير خطوط  
سكك الحديد .

وفكر في سره : «ألت الشيخوخة بخطوبها على كاهلينا .  
لقد عشنا وشفنا تالي العمر !» ومع ان الله لم يبخل عليه  
بالصحة ، ولا يزال يتمتع بالقوة ، الا ان السنوات كانت تمضي  
سراعا ، وما قد عاش الستين منها بالتمام والكمال ، وما هو قد  
دخل الحادية والستين . «ما هي الا بضعة سنوات واحال على  
التقاعد» \* . فكر يديغي في سره دون ان يخفى تهكمه ، لكنه  
كان يظن انه لن يحال على التقاعد في وقت قريب ، ولن يجدوا  
بسهولة بديلا عنه في هذه المناطق . لانه يشتغل في آن واحد  
عامل صيانة وعامل تصليح وعامل تحويل حين يمرض احدهم او  
يتمتع باجازة . هل ثمة من يعمل في منطقة نائية ومحرومة من  
الماء طمعا بمرتب عال ؟ لا اظن ، فليبحثوا عن امثالهم بين  
شباب اليوم .

لكي يعيش المرء في مفارق سكة الحديد في ساروزيكي عليه  
ان يكون ذا عزيمة ، والا يهلك . لان السهب شاسع واسع  
والانسان صغير ضعيف . السهب لامبالي ، سواء عنده ان يعيش  
الانسان في سراء ام في ضراء . لذا ينبغي التعامل معه كما هو  
على حقيقته ، بينما الانسان ليس سواء عنده كيف  
تسير الامور في الحياة ، فهو يتعذب ، ويكابد ، ويخيل اليه ان  
من الاوفق له لو كان في مكان آخر ، بين اناس آخرين ، وحياته  
في هذا المكان ما هي الا خطأ من القدر . . . ولذلك يضيع امام  
هذا السهل الشاسع الذي لا يرحم ، ويضعف ، مثل بطارية الدراجة  
النارية ذات العجلات الثلاث لشايميردين . وشايميردين هذا  
يفال في صيانة دراجته والمحافظة عليها ، مع انه لا يستعملها  
ولا يسمح لاحد باستعمالها . وهكذا تقصف الدراجة بلا شغل ،  
حتى نفدت قوتها المحركة ولم تعد تشتغل كما يجب . هكذا هو  
الانسان ايضا في المفرق في ساروزيكي . ان لم يلتذ بالعمل  
وينغرس في السهب ويكابد استحال عليه الصمود . . . عندما

\* تقضى القوانين السوفيتية باحالة الرجل على التقاعد بعد بلوغه  
الستين اذا رغب بذلك . الناشر .

ينظر الاغراب من القطارات العابرة بسرعة يسكون رؤوسهم  
بايديهم من الدهشة - يا الهى كيف يستطيع الناس العيش في  
هذه المنطقة ؟ لا شيء فيها غير السهب والجمال ! لكنهم  
يعيشون ، وكل على قدر صبره وتجده . قد يصل صبر البعض  
الى ثلاث او اربع سنوات ، ثم كـل شيء تمام \* . يتعاسب  
ويسافر الى حيث يشاء . . .

اثنان فقط اتخذوا من بورانلي-بورانى محلا لاقامتتهما الدائمة ،  
هما قازانغاب ويديغي البورانى . وكـم من الناس ترددوا على  
المنطقة او اقاموا فيها مؤقتا ! من الصعب على يديغي ان يحكم  
بنفسه على نفسه . كان يعيش ويشتغل ويصمد ، بينما قازانغاب  
عمل هنا اربعا واربعين سنة ، وليس لانه كان اسوا الجميع ،  
الحق يقال كان وحده يعادل عشرة رجال . . . لكن قازانغاب ،  
لم يعد له من وجود . . .

سار القطاران احدهما جنب الآخر ، لكن في اتجاهين  
معاكسين ، احدهما صوب الشرق والاخر صوب الغرب . واصبحت  
خطوط سكك الحديد في مفرق بورانلي-بورانى شاغرة حينما من  
الزمن . وتكشف فجأة كل ما يحيط بالمنطقة : النجوم المتلألئة  
في السماء القاتمة بالسق اسطع واوضح والرياح الهابة من  
المنعطفات هبوا اشد على العوارض والارضية الحصوية بين  
قضبان سكة الحديد الباعثة رنينا وفرقعات خافتة .

لم يلج يديغي الكشك ، بل اتكا على عامود واطرق يفكر .  
ورأى امامه ، في البعد ، اشباحا قاتمة لرعد من الابل فى  
المراح . كانت الابل تقضى ليلها واقفة تحت ضوء القمر لا تاتي  
بحراك . وميز يديغي بينها جملة قره نار ذا السنامين والراس  
الكبيرة - الجمل الراحلة في ساروزيكي ، والملقب مثل صاحبه  
«البورانى» . وكان الجمل الذي يعد قوة حيوانية نادرة مثار  
فخر واعتزاز يديغي ، على الرغم من كونه صعب الاتقياد لبقائه  
غير مخفى ، لان يديغي ابي إخصاءه في صغره .

\* وردت باللفظ العربى : هذه الكلمة وغيرها من الكلمات التى  
سترد باللفظ العربى هي من المفردات العربية في لغات شعوب آسيا  
الوسطى . المترجم .



وتذكر يدبغي ان عليه في الغد ان يسوق من الصباح الباكر جملة قره نار الى البيت ، ويشد عليه الرجل ، اذ سيحتاجه للسفر اثناء الدفن . وخطرت في ذهنه ايضا مختلف المشاغل التي كان عليه ان يؤديها . . .

الناس في المشرق لا يزالون يغطون في نومهم . وهم يسكنون بيوتا متشابهة ذات سقف اردوازية منحدره السطوح ، اتخذت من احد طرفي سكة الحديد موقعا لها . وهي ستة المباني وضعت تحت تصرف مصلحة سكك الحديد ، اضافة الى بيت يدبغي الذي شيده بنفسه ، والكوخ الطيني لقازانغاب المرحوم ، ومختلف المرافق الاخرى والملحقات والزرائب المكشوفة المسيجة بالقصب وما شابهها ، نصبت في وسطها دوار هوائية ، تستعمل احيانا كمضخة كهربائية ، وعند الحاجة كساحبة ماء يدوية ، وقد اقيمت في هذا المكان في السنوات الاخيرة . هذه هي كـل موجودات قرية بورانلي-بوراني .

هذه هي المشرق على الخط العظيم لسكة الحديد ، في سهوب ساروزيكي الشاسعة ، وهي حلقة وصل صغيرة في شبكة من النقاط والمحطات والمراكز والمدن المتشعبة مثل الـأوعية الدموية . . . وهي قرية ، منبسطة امام جميع الرياح ، من اية اتجاه هبت . ولا سيما الريح الشتوية التي تنفخ بعواصفها الساروزيكية طامرة البيوت حتى النوافذ بالكتبان الثلجية ، والسكك الحديد بتلال من الجليد المرصوص . . . ولذلك تسمى منطقة المشرق السهبية هذه بورانلي-بوراني ، وحتى اسمها مركب من كلمتي بورانلي الغازاخية وبوراني \* الروسية . . .

يتذكر يدبغي انه في تلك الازمنة قبل ظهور مختلف انواع جارفات الثلوج من على قضبان الحديد في المسافات المحصورة بين محطتين ، والتي ترمى بالثلج سيولا وتزيحه في الجانبين بمجارف ذات اتصال حادة وما اشبه ، كان يصارع هو وقازانغاب ركام الثلوج على الطرق صراعا ، لا يمكن ان يوصف الا بانـه صراع المستميت . وكان ذلك لم يكن الا قبل عهد قريب . واما اي شتائين قارسين حلا في العامين العادي والخمسين والثاني

\* صفة من العاصفة . المترجم .

والخمسين ! كان الوضع هنا يشبه جبهات القتال اذ يضطر المرء للتضحية بحياته في سبيل قضية واحدة ، بهجوم واحد ، او بالقاء قنبلة واحدة تحت دبابه وان لم تكن هنا عرضة للقتل فانك تكاد تقتل نفسك بنفسك حتى اخر قطرة من الدم . وكم من ركم ثلجية ازاها بايديهما ، وجراها جرا ، وحتى تقلا الثلج اكياسا الى الاعلى ، وكان هذا عند الكيلومتر السابع حيث يمر خط سكة الحديد في الاسفل مخترفا رابية ، وفي كل مرة . كان يخيل ، ان هذه هي آخر معركة ضد العواصف الدوارة ، ويمكن ان يهب المرء في سبيل ذلك هذه الحياة بلا تردد ، على ان لا يسمع فقط كيف تعوى القاطرات في السهوب ، معالبة بفتح الطريق امامها !

بيد ان تلك الثلوج ذابت ، والقطارات مرت مسرعة ، والسنون انقضت . . . ولا من احد يتذكر الآن ذلك الذي طرته دائرة النسيان . ويأتي الآونة عمال سكك الحديد من فرق التصليح والمراقبة الى هنا للعمل لفترات قصيرة ، وهم ليسوا الا انماط صاخبين عاجزين عن تصديق ذلك وفهمه ، بل وغير قادرين ان يتصوروا كيف ان بضعة افراد يعملون بالرفوش تمكنوا من ازالة السدود الثلجية على الخطوط بين المحطات في ساروزيكي ! يالها من اعجوبة ! وثمة اخرون يضحكون علينا : ولماذا كان عليكم ان تفعل ذلك وتحملا ما تحملتماه من عذاب ، لماذا ضحيتما بصحتكما ، ولاي مناسبة ! لو عرض علينا القيام بذلك لما رضينا ! ولو كنا في مكاننا لرفضنا هذا العمل وتركناه وذهبنا الى مكان آخر ، في اسوا الاحتمالات الى مشاريع البناء ، او الى اي مكان يكون كل شيء فيه كما يجب . ولاستلمنا اجورا تساوي اعمالنا ، اما في حالة الاستنفار ، فلا بد من تشغيل عدد اكبر من الايدي العاملة ودفع اجور اضافية . . . لقد كنتمنا عرضة للاستغلال ايها الشيخان ، وكنب عليكم الموت وانتما على غباكتما هذا . . .

عند الالتقاء بامثال هؤلاء «المقيمين الجدد» لم يكن قازانغاب ليعبر اذنا صاغية ، وكان ذلك لا يعنيه . ويكتفى بالابتسام ابتسامة ساخرة كمن يطوى في صدره دفيئة ليس بامكانهم



بلوغها ، فى حين كان يديغى يستسلم للانفعال فينفجر احيانا ،  
ويناقش بحرارة ، لكنه لا يهلك بذلك الا اعصابه .

على ان نقاشات كانت تجرى بينه وبين قازانغاب حول نفس  
الموضوعات التى يسخر منها الآن الانماط العاليون القادمون فى  
عربات خاصة بالصيانة والتصليح ، واشياء اخرى كثيرة حدثت  
فى السنوات الغابرة عندما كان هؤلاء «الاذكياء» اولادا صغارا .  
وكان الصديقان حتى حينئذ وبعده ايضا يحلان امور الدنيا  
صغيرها وكبيرها قدر ما تتيحه لهما بصيرتاهما ، ثم اخذت  
الحقبة الزمنية التى تفصلهما عن تلك الايام - العام الخامس  
والاربعين - تزداد اتساعا يوما بعد يوم ، ولا سيما بعد ان  
احيل قازانغاب على المعاش ، وحدث ان رحل الى المدينة للسكنى  
مع ابنه ، لكنه لم يوفق ، فعاد ادراجه بعد ما يقرب من ثلاثة  
اشهر . لقد تبادلا الاحاديث عند ذلك عن مختلف الامور ، وسيرها  
فى هذه الدنيا . كان قازانغاب رجلا حكيما ، وترك عن نفسه  
ذكريات ثرة . . . وفجأة ، ادرك يديغى بجلاء تام انه لم يبق  
بعد الآن من صديقه الا تلك الذكريات ، فداهمته نوبة من  
الاسى العميق . . .

وحين سمع يديغى قرعة مفتاح ميكرفون الهاتف الداخلى  
اسرع الى الكشك ، خرخس الجهاز وفحغ ، ثم هدر كالعاصفة ،  
قبل ان يصدر عنه صوت شاميردين خفير نقطة المرور :

- يديغى ، هلو يديغى ، اتسمعنى ؟ اجب !

- نعم ، اسمعك .

- اتسمع ؟

- اسمع ، اسمع .

- كيف تسمعنى ؟

- كانت تتحدث من العالم الآخر !

- لماذا من العالم الآخر ؟

- هكذا يعجبنى !

- ها . . . يعنى حدث للعجوز قازانغاب ذلك الشئ نفسه !

- ما هو ذلك الشئ نفسه ؟

وحاول شاميردين ان يبحث عن الكلمة المناسبة لمثل هذه

العال ، لكن دون جدوى .

- يعنى ، مات . لا ادرى كيف اعبر ؟ اتقضى ذلك الشئ  
نفسه ، هذا نفسه ، اجله الموعود .  
- اجل .

اجاب يديغى باختصار ، وفكر فى سره : «يا للحيوان \*  
الاحمق ، لا يستطيع ان يعبر كما ينبغي حتى عن الموت !»  
خرس شاميردين لدقيقة . لكن الميكرفون ازّ وخشخش  
وفحغ على نحو اشد من السابق ، ونقل انفاسا صاخبة . ثم  
اردف شاميردين بصوت مبجوح :

- يا عزيزى يديغى ، لكن هذا الشئ نفسه ، ماذا يسمونه ،  
لا تصدع راسى . طالما قد مات فليس باليد حيلة . . . لا احد  
عندى . ما حاجتك ان تجلس الى جانبه ؟ المرحوم باعتقادي هذا  
الشئ نفسه ، ماذا يسمونه ، لن يعود الى الحياة . . .  
استاء يديغى :

- وباعتقادي ، انت لا تفهم شيئا ! ما معنى لا تصدع  
راسى ! انت تعمل هنا منذ عام ، اما نحن الاثنان فلقد عملنا هنا  
سوية ثلاثين عاما . فكر جيدا : المتوفى انسان وليس من المتبع  
ترك جثمانه وحده فى بيت خاوي .

- من اين له ان يعرف ، هذا الشئ نفسه ، ماذا يسمونه ،  
ان كان وحده ام لا ؟

- لكننا نحن نعرف !

- طيب ، لا تصرخ ، ماذا يسمونه ، لا تصرخ يا شيخ !

- انا اشرح لك الامر .

- قل ماذا تريد ؟ لا احد عندى لينوب عنك . وليس

بامكانك ان تفعل فى البيت شيئا . . . الليل ما زال فى

اوله . . .

- اصلى عليه واجهزه ، وادعو له بالدعاء الحسن .

- تصلى ؟ انت تصلى ، يا يديغى البوراني ؟

- بلى ، انا ، واعرف الصلاة جيدا .

- واعجبا ! عمر السلطة السوفييتية ، ماذا يسمونه ،

ستون عاما .

\* وردت مكتوبة بلفظها العربى . المترجم .



- دعك عن هذا . ما شأن السلطنة السوفيتية بهذا الامر ؟  
يصلي الناس على الموتى منذ غابر العصور . المتوفى انسان لا  
حيوان !

- طيب ، صلِّ ، هذا نفسه ، لكن لا تصرخ . سأرسل  
في طلب عادل باى الطويل ، اذا وافق سيايتك ، هذا نفسه ،  
ويحل محلك . . . والآن هيا اسمح للرقم ١١٧ بالعبور ، فهو  
ينتظر على الخط الاحتياطي الثانى .

وبهذا قطع شايميردين الخط ، وفرق مفتاح الهاتف  
الداخلى . اسرع يدبغى الى المحولة . وفكر وهو منشغل بعمله  
ان كان سيوافق عادل باى ويأتى . لكنه عندما رأى النور  
يضبى ساطعا فى عدد من النوافذ ، خالج قلبه بعض الامل ،  
وقال فى نفسه ان الناس لم يفقدوا ضمائرهم ، ثم نبجت الكلاب ،  
وهذا دليل على ان زوجته ايقظت الناس وبعثت هرجا ومرجا  
بينهم .

فى هذه الاثناء تقدم القطار رقم ١١٧ على الخط الاحتياطى .  
وجاء من الطرف الاخر قطار ناقل للنفط متألف من عربات  
صهاريج . وسار كل منهما فى اتجاه معاكس . احدهما صوب  
الشرق والاخر صوب الغرب . . .

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل . تالقت النجوم فى  
السماء ، وكل نجمة تضى وحدها وتميز عن الاخرى . وارسل  
القمر ضياء اسطع من المعتاد قليلا ، وهو يفعم قوة اضافية  
متدفقة تدريجيا . وكانت سهوب ساروزيكى تمتد امتدادا متناهما  
لا حدود له تحت السماء المرصعة بالنجوم ، وليس فى وسع  
المرء ان يميز الا اشباح الابل ، وبينها الجمل العظيم ذو السنامين  
قرة نار والملامح غير الواضحة للتلال القريبة منه ، وفيما عدا  
ذلك كان كل شىء فى كلا جانبي سكة الحديد يدخل فى غور  
الليل . حتى والرياح لم تخف ، فواصلت صغيرها وحفيها فى  
القمامة .

وكان يدبغى تارة يخرج من الكشمك وقارة يدخل اليه  
مترقبا ان يلوح عادل باى الطويل فى الطريق ، وفى هذا  
الوقت رأى فى البعد حيوانا ، وتبين انه ثعلب . كانت عيناه  
تبرقان بلون متألّق ضارب الى الخضرة . وكان الثعلب واقفا

منكس الرأس تحت عامود التلغراف ، دون ان يهم بالدنو او الهرب .  
- ماذا تفعل هنا ؟ - تتم يدبغى مهددا اياه باصبعه من  
باب المزاج . لكن الثعلب لم يخف . - حذار ! سأريك ! -  
وخبط الارض بقدمه .

ابتعد الثعلب واقعى ملتفتا نحوه . وكان ينظر نظرات ناقبة  
متفجعة كما تراهى له ، دون ان يرفع عينيه عنه او عن شىء اخر  
بالقرب منه . ما الذى استماله ، ولماذا جاء هنا ؟ هل الانوار  
الكهربائية استدرجته ام الجوع فتك به ؟ لقد بدا ظهور الثعلب  
غربيا ليدبغى ، فلماذا لا يقذفه بحجر ما دامت الفريسة ترمى  
بنفسها بين يديه . ووجد يدبغى على الارض حجرا كبيرا ، وسدّد  
على الثعلب . ثم رفع يده وانزلها ، فسقط الحجر تحت قدميه ،  
وتصعب يدبغى عرقا . تصور ، ما اغرب الافكار تخطر فى  
راس الانسان احيانا ، فما ان هم بضرب الثعلب حتى قفز الى  
ذهنه فجأة حديث احدهم ذات يوم ، ولا يتذكر ان كان احد  
مؤلا ، الانماط القادمين او المصور الذى خاض معه نقاشا عن  
وجود الله ، او شخصا آخر ، لا ، لم يكن لا هذا ولا ذاك . لقد  
حدثه ثابت جان . وياله من رجل سيبى ثابت جان هذا ! يخلق  
دائما مختلف الاعاجيب غايته فقط ان يصغى الناس له ،  
ويتملكهم الدهول ليس الا . اجل ، ثابت جان بن قازانغاب حدثه  
عن تناسخ الارواح بعد الموت .

لقد حشا المهذار راسه بكل ما لا نفع فيه . اذا نظرت اليه  
تجسبه من الوهلة الاولى رجلا لا بأس به ، يعرف كل شىء ،  
ويسمع كل شىء ، لكن ليس فى هذا كله الا نورا يسيرا من  
الفائدة . درس سنوات طويلة فى المدرسة الداخلية ، ثم فى  
المعهد ، لكن ، وا اسفاه للنتيجة ! يجب ان يتباهى ، بانسه  
يشرب ، ويعد خبيرا برفع الانتخاب ، اما بالعمل فلا . باختصار ،  
انه انسان فارغ ، لذلك لا يمكن ان يساوى ما كان يساويه  
قازانغاب ، مع انه يلوح بدبلومه . اجل ، لم يوفق بأن يكون  
خير خلف عن ابيه ولم يرث منه خلقه . لكن ، ما العمل ، فهو  
موجود ، هذا المخلوق .

وهكذا ، فقد حدثه ذات مرة ، ان قوما فى الهند يعتقدون  
مذهبا يؤمن بأن الروح بعد الموت تتقمص جسد مخلوق اخر ،



ايا كان ، حتى جسد النملة ، ويذهب هؤلاء اليوم في قولهم ، الى ان كل انسان كان في الاصل ، في زمن ما قبل ميلاده ، طيرا او حيوانا او حشرة . لذلك يُعد قتل الحيوان خطيئة ، حتى وان كان ذلك الحيوان افعى الكوبرا ، وفيما اذا التقوها في الطريق مثلا لا يمسونها بأذى ، بل يسجدون امامها ويفسحون لها الدرب .

العالم يحفل بمختلف انواع الاعاجيب ، من يعرف مدى صحة هذا كله . العالم واسع كبير ، اما الانسان فلم يتسن له ان يعرف كل شيء . وما قد خطر له عندما تاهب لرمسى الثعلب بالحجر : واذا كان يتمص روح قازانغاب ؟ قد يكون قازانغاب المتمص ثعلبا جاء الى صديقه الافضل ، لان كوخه اصبح فارغا وخاوريا وكثيبا بعد وفاته . «بدات اخرف !» وعاتب يديغى نفسه : «كيف يمكن ان يخطر لي هذا ؟ تفو ، لقد خرقت تماما !» ومع ذلك حين اقترب من الثعلب بحيطه وحذر خاطبه كمن يخاطب شخصا يفهم كلامه :

- اذهب ، مكانك ليس هنا . . . اذهب الى ماواك فسي السهوب . اتسمعنى ؟ اذهب ، اذهب ، لكن ليس في هذا الاتجاه ، ثمة الكثير من الكلاب . الله معك ، اذهب الى ملاذك في السهوب .

استدار الثعلب ولاذ بالفرار . وما هي الا لحظات حتى اختفى في العتمة .

في هذه الاثناء وصل قطار آخر الى المفرق . وراح يبطن من حركته مطلقا حاملا معه الغبار المتطاير فوق العربات . وعندما توقف اطل سائق القاطرة التي كانت تهدر هديرا خافتا من الدوران البطيء للمحرك ، راسه :

- يا يديغى ، يا بورانى ، السلام عليكم !

- عليكم السلام ! \*

ورفع يديغى راسه ، لكى يرى جيدا من عساه يكون هذا . ذلك ان جميعهم ، على هذا الطريق ، كانوا يعرفون بعضهم بعضا . واتضح انه احد معارفه . وكان يديغى قد طلب اليه ان ينقل

\* التحية والرد وردنا باللفظ العربى . المترجم .

الى قمبيل ، الى المحطة الرئيسية ، حيث تسكن آي زاده خبر وفاة والدها . والسائق وافق عن طيب خاطر ان يلبى هذا الطلب احتراماً لذكرى قازانغاب ، ولا سيما ان تبادل ورديات عمال القطارات يتم فى قمبيل ، وحتى ان السائق هذا وعد بان يأخذ معه آي زاده وافراد عائلتها فى طريق عودته اذا ما استطاعت الوصول الى القطار قبل موعد تحركه .

كان رجلا ثقة . حتى ان يديغى احس ببعض اليسر . لانه تاكد من ان احدى المهمات قد نفذت .

تحرك القطار بعد دقائق معدودة . وراى يديغى اثناء توديع السائق رجلا طويلا نحيفا يتقدم نحوه من طرف السكة ، على امتداد القطار الذى تزداد سرعته ، فدقق النظر فيه ، وتبين انه كان عادل باي .

اثناء تسليم يديغى الوردية لعادل باي الطويل وتجاذبهما الحديث حول المصائب الجلل وتاوهما متذكرين المرحوم ، وصل مفرق بورانى-بورانى قطاران آخران وغادراهما فى اتجاهين معاكسين . واذا تحرر يديغى من كل اشغاله توجه الى البيت . واخيرا خطر له فى الطريق انه نسي ان يذكر زوجته ، او بالاحرى ان يستشيرها كيف يتصرف بشأن اىصال خبر وفاة العجوز قازانغاب الى ابنتيه وزوجيهما . وكانت ابنتا يديغى المتزوجتان تعيشان فى طرف آخر تماما ، بالقرب من قزل-اوردا . الكبرى تعمل فى سوفخوز لزراعة الرز وزوجها سائق تراكاتور . والصغرى عاشت فى البدء فى محطة قرب قازالين ، ثم انتقلت مع افراد اسرتها الى السوفخوز نفسه لتكون اقرب الى اختها . وعمل زوجها سائقا . ومع ان قازانغاب ليس قريبا مقربا لهما كى يتحتم عليهما حضور جنازته ، الا ان يديغى يعتبره اعز من اى قريب آخر . اذ ولدت البنتان بوجوده فى بورانى-بورانى ، وترعرعتا فى هذه النقطة ودرستا فى المدرسة الداخلية للمحطة فى قومبيل ، الى حيث كان يأخذهما بالتتابع اما يديغى نفسه او قازانغاب . وتذكر كيف كان يأتى بهما من المدرسة فسي بداية العطلة ويعيدهما اليها فى نهايتها ، معتلين ثلاثتهم ظهر



جمل واحد - الصغرى فى الامام والكبرى فى الخلف والاب يتوسطهما ، ويقطعون على هذا النحو مسافة تستغرق ثلاث ساعات او اكثر فى الشتاء . كان يدعى يحدو قره نار حدوا فيركض خبيا من بورانلى-بورانى الى قومبيل . وعندما يداومه الوقت يؤدى قازانغاب المهمة بدلا منه . وكان قازانغاب لهما بمثابة الاب . ولذلك ارتأى يدعى الابراق لهما فى الصباح ، ولتصرفا وفق امكانياتهما . . . لكن كان ينبغى اعلامهما بان قازانغاب قد غاب عن الوجود . . .

ثم فكر وهو فى طريقه الى البيت ان اول عمل يجب ان يقوم به فى الصباح هو سوق جملة قره نار من مرتعه ، اذ سيكون بامس الحاجة اليه ، ذلك ان وفاة انسان ليست مسألة سهلة ، كما وليس من اليسير ايضا ايداعه متواه باكرام واجلال فى هذا العالم . . . ما يلبث المرء ان يكتشف بين حين وآخر نقص هذا الشيء او ذلك ، ويضطر الى تدبير الحاجات اللازمة بعجالة بدءا من الكفن وانتهاء بالحطب لطبخ عشاء الماتم .

وفى هذه الاثناء بالضبط برق ضوء خاطف فى السماء ، مذكرا بما كان يحدث فى الجهة اثناء وقوع انفجارات راعدة فى البعيد ، واهتزت الارض تحت قدميه ، فرأى امامه مباشرة فى تلك الجهة حيث يقع ، كما يعرف ، مطار ساروزيكى الفضائى شيئا ما يصاحبه لهب عظيم قد طار الى الاعالى وما لبث ان تبعه اعصار من النيران يسبقه صاروخ منطلق الى الفضاء . لم ير فى حياته ابدا ما يماثل هذا . كان يعرف شأن جميع الساروزيكيين بوجود مطار ساروزيكى - ١ الفضائى الذى يبعد عنهم نحو اربعين او اقل من الكيلومترات . ويعلم ان خطا منفصلا من قضبان الحديد 'مد' اليه من محطة تغريك-تام ، ويقال ايضا ان مدينة ضخمة ذات حوانيت كبيرة شيدت فى تلك الجهة ، وسمع من الاذاعة وقرا فى الصحف كثيرا من المواضيع حول رواد الفضاء والرحلات الفضائية . وهذا كله كان يحدث فى مكان قريب . او على الاقل فى حفلات فرق الهواة فى مدينة هى مركز محافظة حيث يعيش ثابت جان - هذه المدينة تبعد عنهم مسافة لا بأس بها ، تقدر بنحو يوم ونصف يوم من السفر بالقطار كان الاطفال يغنون اغنية تقول انهم اسعد الاطفال فى العالم لان رواد الفضاء ينطلقون

الى الفضاء من اراضيهم . ونظرا لكون المطار وكل ما يحيط به منطقة مغلقة - فان يدعى الذى يعيش غير بعيد عنه كان يكتب بمعرفة اشياء يسمع عنها من الاخرين ، وها هو للمرة الاولى يرى بام عينيه كيف ينطلق الصاروخ الفضائى انطلاقا جامحا الى السماء القائمة المرصعة بالنجوم يرافقه صخب شديد ولهيب عظيم يضىء الدائرة المحيطة به بوميض مختلج . والثالث الامر عليه . ايعقل ان انسانا يجلس فى هذه النار المضطربة ؟ انسان واحد ام اثنان ؟ لماذا لم ير فى السابق ، وهو الذى يعيش هنا بصورة دائمة لحظة الانطلاق ، لا سيما وقد انطلق الناس الى الفضاء مرات يتعذر احصاؤها . قد تكون السفن الفضائية انطلقت فى تلك المرات نهارا ؟ من المستبعد ان يرى المرء شيئا من هذه المسافة والشمس مشرقة . لكن لماذا اطلق هذا الصاروخ ليلا ؟ اكان ذلك على سبيل الاستعجال ام اقتضاه الضرورات ؟ لعله ينطلق من الارض ليلا ويصل الفضاء الخارجى نهارا ؟ ذات مرة حدثه ثابت جان وكانما قد حلق فى الفضاء هو نفسه وقال ان الليل والنهار يتناوبان كل نصف ساعة . ينبغى الاستفسار من ثابت جان مرة اخرى . ثابت جان يعرف كل شئ ويسعى حثيثا لان يغدو رجلا ذا شأن ، واسع المعرفة . مهما يكن فهو يعمل فى مركز المحافظة . لكن لولا تظاهره وتباهيه ! ولماذا هذا التظاهر ؟ كن ما انت عليه . «كنت مع فلان ، جلست مع فلان ، وقلت كذا وفعلت كيت» . وحدته عادل باى الطويل انه صادف ان زاره ذات يوم فى موضع عمله فراه بلا عمل لا ينفك يركض من الهاتف الى باب المكتب فى غرفة الاستقبال ، ولا ينسى يكرر «سمعا وطاعة يا جبار قهرمانوفيتش ! حاضر يا جبار قهرمانوفيتش ! فى الحال يا جبار قهرمانوفيتش !» بينما ذلك يجلس فى مكتبه ويحث الناس ضاغطا على ازرار الميكروفون . ولم يستطع عادل باى ان يتبادل معه حديثا معقولا . . . يبدو ان هذا هو حال صاحبنا السهبي . سامحه الله ، هذا المخلوق . . . اسفى على قازانغاب ، كان يتعذب جدا من تصرفات ابنه لم يقل بحقه حتى الايام الاخيرة كلمة سوء واحدة . ولكن قد انتقل الى المدينة يعيش عنده وعند كنته . لقد دعياه واخذاه الى بيتهما ، لكن ما حصل . . . هذا موضوع اخر .



قاعدة عائمة للمركز الموحد لتوجيه برنامج «ديميورغ» الفضائي  
السوفريكي .

كانت حاملة الطائرات «كونفينتسيا» عائمة في منطقة مرابطتها  
الدائمة في المحيط الهادي ، الى الجنوب من جزر البيوت ، في  
المربع الذي يتوسط تقريبا المسافة بين فلاديفوستوك وسان  
فرانسيسكو . وكان مركز التوجيه المشترك - «اوبتسينوبر»  
في تلك الاثناء يرصد بمزيد الاهتمام خروج كلتا المركبتين الى  
مدار «ترامبلين» . ولقد سارت الامور جميعها ، الى ذلك الوقت ،  
بنجاح ، وكان من المقرر التحام المركبتين مع مجمع البحوث  
الفضائية «باريتيت» ، وكانت مهمتهما من اعقد المهمات ، لان  
الالتحام ينبغي ان يتم في آن واحد تماما من طرفي المحطة  
وليس بالتتابع وفي فترات زمنية متباعدة .

لم تستجب «باريتيت» لنداءات «اوبتسينوبر» من متبن  
«كونفينتسيا» منذ اكثر من اثنتي عشر ساعة ، ولم ترد ايضا  
على اشارات المركبتين الفضائيتين المنطلقتين نحوها  
للاتحام . . . وكان ينبغي معرفة ماذا حدث لطاقم «باريتيت» .

## الفصل الثاني

كانت القطارات في هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب ،  
ومن الغرب الى الشرق .

وعلى جانبي خط سكة الحديد كانت تمتد مساحات شاسعة  
من الاراضي الصحراوية - ساري اوزيكي الاراضي الوسطى من  
البراري الصفراء . . .

وفي هذه الانحاء كانت المسافات تقاس نسبة الى خط  
السكك كانه خط غرينيتش . . .

اما القطارات فواصلت سيرها من الشرق الى الغرب ومن  
الغرب الى الشرق . . .

كانت المسافة من مفرق بورانلي-بورانلي حتى مقبرة الاسلاف

استغرق يدغي بمثل هذه الافكار في ذلك الليل العميق  
بعد ان شيع المركبة الفضائية حتى اختفائها التام . وكان قد  
راقب هذه الاعجوبة امدا طويلا . وعندما طوت الهوة السوداء  
السفينة النارية التي راحت تتضاءل تدريجيا ، وتحول الى  
نقطة بيضاء من الضباب من راسه وانصرف تعتمل في قلبه مشاعر  
غريبة ومتناقضة . وكان يظن وهو يندهش مما يراه ان هذه  
المسألة بعيدة عن اهتمامه ، لكنها تثير لديه الدهشة والفرع .  
وتذكر في تلك الاثناء فجأة ذلك الثعلب الذي تراكض عند سكة  
الحديد ، ماذا حدث له يا ترى عندما داهمه في السهب الاجرد  
هذا الاعصار ؟ ربما لم يعرف اين يلتجئ . . .

بيد ان يدغي البوراني الشاهد على انطلاق الصاروخ الى  
الفضاء في الليل لم يخامره ادنى شك ، بل ولم يجز له ان يعرف  
ان ذلك الاقلاع كان اقلاعا استثنائيا طارئا لسفينة فضائية  
على متنها رائد فضاء وبلا اى احتفال رسمي وصحفيين وبيانات  
ذات العلاقة بالحادث الاستثنائي في المحطة الفضائية  
«باريتيت» \* الموجودة منذ اكثر من عام ونصف عام ضمن  
البرنامج \* \* في المدار ، والذي اصطلح على تسميته مجازا  
«ترامبلين» \* \* \* . من اين ليدغي ان يعرف هذا كله ، وكان  
لا يتبادر الى ذهنه ان هذا الحدث سيمسه ويمس حياته ، وليس  
بسبب وجود اواصر قوية لا تفصم عراها بين الانسان والبشرية  
بمغزاها العام فقط ، بل بشكلها المباشر والعملى . لا سيما  
كان لا يعرف ، ويستحيل عليه ان يخمن انه بعد مضي زمن  
قصير على اطلاق السفينة الفضائية من ساروزيكي ، اطلقت من  
الطرف الاخر للارض ، من مطار نيفادا الفضائي مركبة فضائية  
امريكية لتؤدي المهمة ذاتها وفي المحطة المدارية «باريتيت»  
عينها ، وفي المدار «ترامبلين» نفسه ، لكن من الجانب الاخر .  
ارسلت المركبتان فورا الى الفضاء وفق الامر الصادر من  
حاملة الطائرات للبحوث العلمية «كونفينتسيا» \* \* \* التي تعد

\* التكافؤ . المترجم .

\* \* نحت من السوفيتي-الامريكي . المترجم .

\* \* \* المنط . المترجم .

\* \* \* \* الاتفاقية ، المترجم .



آنا-باييت تبلغ نحو ثلاثين كيلومترا في اقل تقدير ، اذا شق  
المسافر لنفسه دربا مستقيما في براري ساروزيكي معتمدا على  
تخمينه ، واما اذا ارتأى ان يتجنب المخاطرة حتى لا يضل دربه  
عرضا في السهوب ، فمن الافضل له ان يلزم خط سكة الحديد  
ويسير بموازاته ، لكن في هذه الحالة ستطول المسافة وسيضطر  
الى قطع طريق منحني طويل بما فيه الكفاية حتى منعطف وادي  
كيسيكساي المؤدى الى آنا-باييت . وليس ثمة من طريق اخر ،  
وتقدر المسافة في احسن الاحوال بنحو ثلاثين فرسخا ذهابا وما  
يعادلها ايابا ، لكن لا احد غير يديغي ممن بين البورانليين  
الحاليين جميعهم كان يعرف كيفية الوصول اليها ، على انهم سمعوا  
عن المقبرة القديمة التي تشاع عنها شتى الحكايات ، سواء كانت  
واقعية او خيالية لكن لم يزوروا بانفسهم ، لعدم اقتضاء  
الحاجة . وكان هذا اول حدث من نوعه خلال سنوات طويلة في  
بوراني-بوراني ، القرية الصغيرة ذات البيوت الثمانية الواقعة  
على خط سكة حديد ، التي توفى فيها انسان ويتطلب الأمر  
دفنه . قبل بضع سنوات حين توفيت طفلة بخناق الصدر أخذها  
والداها لدفنها الى موطنهم الاصل في محافظة الاورال ، اما  
العجوز بوكيه ، زوجة قازانغاب ، فقد ووريت الثرى في مقبرة  
المحطة في قمبيل . وكانت قد فارقت الحياة في مستشفى المنطقة  
قبل عدد من السنين ، وارتأوا في حينه دفنها هناك ، اذ لم  
يكن ثمة من طائل لنقلها الى بوراني-بوراني لان قمبيل هي اكبر  
محطة سكك حديد في ساروزيكي ، فضلا عن ان ابنتها آي  
زاده تعيش في البلدة ، وكذلك صهرها ، وان كان طائشا ومدمنا  
على شرب الكحوليات ، فهو على اية حال من الاقرباء . وانهما لا  
بد ان يعتنيا بقبورها . بيد ان قازانغاب نفسه كان آنذاك على قيد  
الحياة ، وهو الذي قرر كيف يتصرف .

اما الآن فبدأوا يضربون اخماسا باسداس ولا يعرفون كيف  
يتصرفون .

الا ان يديغي اصر على رايه . وقال في محاولة منه لاقناع

الشباب :

- ليس هذا بكلام الرجال . كفوا عنه . لا ندفن هذا  
الانسان الا في آنا-باييت ، حيث تثوى رفات الاسلاف وارضى

المرحوم نفسه . ولننتقل من الاقوال الى الاعمال ، ولننزود  
فالتريق طويلة . . . نتحرك غدا منذ الصباح الباكر . . .  
وكان الجميع يعلمون ان ليديغي الحق في اتخاذ القرار  
فوافقوا . لكن ، والحق يقال ، حاول ثابت جان ان يعترض .  
وكان قد تمكن من المجيء في ذلك اليوم في قطار حمولات  
عابر ، اذ لا تتوقف قطارات المسافرين في هذه المحطة  
الصغيرة . لقد جاء ثابت جان لحضور مراسم الدفن وهو لا يدري  
هل ابوه حي ام ميت ، وهذا وحده كان يكفي ليؤثر في عواطف  
يديغي ويفرج عنه . وبالفعل ، احتضن احدهما الاخر في لحظة  
اللقاء ، وبكيا يوحدهما المصاب نفسه والحزن عينه . وتعجب  
يديغي من نفسه فيما بعد ، اذ لم يتمكن ان يتمالك نفسه .  
وهو يضم ثابت جان الى صدره ويبكي ، وراح يقول خلل  
نسيجه : «حسنا فعلت بمجيتك ، حسنا فعلت يا عزيزي» وكأنه  
كان يستطيع بمجيتيه ان يبعث قازانغاب الى الحياة . ولم يقو  
يديغي على ان يفهم لماذا انخرط في البكاء مثلما لم يبك من  
قبل قط . بكيا طويلا في الفناء امام باب الكوخ الطيني المهجور .  
وتحرك وازع ما في نفس يديغي وهو يعيد الى ذاكرته كيف  
ترعرع ثابت جان امام عينيه ، كان صبيا ، محبوب والسده ،  
وكانا - هو ووالده - يأخذانه للتعلم في المدرسة الداخلية  
لاطفال شغيلة سكك الحديد في قمبيل وكلما توفر لديهما متسع  
من الوقت ، وكانا احيانا يسافران لزيارته اما يقطار عابر او على  
ظهر جمل ليريا كيف يعيش في القسم الداخلي ، ويقفا على شؤون  
دراسته ، وراى المعلمين فيه ، او لعل احدا اساء اليه ، او قد  
يكون ارتكب حماقة ما . . . وكم من مرة حملاه ، اثناء العطلات  
المدرسية ، مدترا بمعطف فرو على ظهر الجمل قاطعين سهوب  
ساروزيكي المغطاة بالثلوج ، متحملين العواصف والصقيع ،  
وذلك كله من اجل الا يتأخر عن دروسه .

آه لتلك الايام التي لن تعود ! انقضت جميعها وتلاشت  
كالحلم . وها هو ذا ثابت جان وقد بلغ مبلغ الرجال لا يشبه  
ذلك الذي كان عليه في طفولته الا قليلا . كان جاحظ العينين  
ودائم الابتسام ، بينما الآن يضع نظارات على عينيه ويعتصر  
قبة مقلطحة ويعقد ربطة عنق رثة . ويعمل ثابت جان حاليا في



مركز المحافظة - ويبدل قصارى جهده ليبدو رجلا ذا شأن ، وموظفا كبيرا . بيد ان الحياة شيمتها الغدر وليس من السهل ان يصبح رئيسا اشتكى من ذلك غير مرة بنفسه وقال انه لا يستطيع ان يتولى منصبا رفيعا بلا سند قوى متنفذ من معارف واقرباء . فى حين هو ، من هو ؟ ابن قازانغاب ، الانسان النكرة ، من مفرق بورانلى-بورانى . فيالها من تعاسة ! حتى هذا الاب لم يعد له وجود الآن ، الاب الذى كان لا ينفع فى شيء ، مع ذلك فان الحى المغمور ، مهما كان ، افضل الف مرة من الميت المشهور ، وحتى هذا ايضا لم يعد له وجود . . .

ثم كفكفا دموعهما وانتقلا الى الحديد ودخلا صلب الموضوع . فى هذه الاثناء تبين ان هذا الابن العزيز العارف بالامور كلها لم يات لدفن ابيه وفق ما يليق به ، بل ليواريه فى حفرة كيفما اتفق ويتخلص من عبئه ويعود ادراجه على عجل . واخذ يدلى باراء مقادها : ما جدوى تحمل هذه المشقة حتى مقبرة آنا-باييت ، طالما هذه الارض الواسعة كلها تحيط بنا ، وتمتد سهوب ساروزيكى المقفرة من عتبة البيت وحتى اقصى طرف الدنيا ، ويتيسر حفر قبر فى موضع قريب ، على مرتفع ما ، الى جانب سكة الحديد ، ويدفن فيه عامل الصيانة العجوز متسعسا للقطارات التى تنطلق فى رواحها ومجيئها على الخط الحديد الذى عمل فيه طول حياته . وبهذه المناسبة تذكر حكمة قديمة تقول : خير اكرام للميت دفنه فى الحال . . . ولماذا الاطالة والامعان فى التفكير . اليس سواء اين يحفر القبر ؟ كلما اسرع المرء فى مثل هذه الامور كان افضل . . .

هذه هى آراؤه ، غير انه كان يبررها بان اشغالا هامة لا تؤجل تنتظره فى العمل ، ويتذرع بمحدودية وقته ، ولا سيما ان المسؤولين ، كما هو معروف ، لا يهمهم ان كانت المقبرة بعيدة او قريبة ، ويفترض عليه ان يرجع الى عمله فى يوم محدد ، وساعة معينة . فالمسؤولون هم هم والمدينة هى . . .

لعمري يدعى نفسه فى سره واحس بالخجل والاسف لانه غص بالبكاء تائرا لمجىء هذا النمط وان كان ابن المرحوم قازانغاب .

وهب واقفا . كانوا نحو خمسة اشخاص يجلسون على عوارض خشبية قديمة ثبتت لصق الجدران بدلا من الكراسى ، وتحتم عليه ان يستجمع مزيدا من القوة لكى يتمالك ، ولا تفلت من لسانه كلمة مشيئة امام الناس فى مثل هذا اليوم . واجلالا لذكرى قازانغاب اكتفى بالقول :

- الارض فسيحة بالطبع ، لكن الناس ، مثلما نعرف ، لا يدفنون موتاهم اينما كان ، وهم لا يفعلون ذلك دون قصد . والا فمن يبخل بالارض ؟ - وتوقف عن الكلام ، واصاخ له البورانليون صامتين فاردف : - فكروا مليا واتخذوا القرار ، اما انا فذهبت لتفقد الاحوال فى البيت .

وذهب بوجه مكفهر ، وقد قطب حاجبيه . كان يديفى صارما محتدا ، وعلى طبعه هذا الذى لا ند له سمي «البورانلى» التى تعنى العاصف . وفى هذه اللحظة ايضا لو وجد نفسه على انفراد مع ثابت جان لقال له ما يستحق من الكلام فى وجهه الصفيق ، حتى يتذكر ذلك طول حياته ! لكنه لم يشأ ان ينجر الى الاحاديث على طريقة النسوان . انهن يتهامن ويبيدين امتعاضهن . جاء الابن ليدفن ابيه كما ياتى غريب ، جاء بيدين خاويتين . ليته جلب حتى ولو علبة شاي وليس اى شيء آخر . وزوجته المتمدنة ، كان عليها هى الاخرى ان تحترم حماها وتأتى وتبكيه وتندبه كما هو متبع . لا ضمير لها ولا حياء . عندما كان العجوز حيا وميسور الحال لديه ناقتان حلويتان ونحو خمسة عشر راسا من الاغنام - كان يعامل بالحسنى ، وهى كانت تزوره ، ولم تنقطع عنه الا بعد ان حققت مرامها ، واقنعتة بان يبيع ما عنده من ثروة . ثم اخذت العجوز الى المدينة ، لكى يعيش عندها كما ادعت . فعاد الى كوخه . وعما هى الآن حتى لم تطل بوجهها . ارادت النسوة اثاره ضجة لكن يديفى منعهن الا تتجران على فتح افواههن فى مثل هذا اليوم ، ثم ان هذا الامر لا يخصنا ، فليفصلوا فيه بانفسهم . . .

وخطا نحو الزريبة التى كان يقف جملة قره نار البورانلى على مقربة منها . يرغم بيسن حين واخر غاضبا . وكان قره نار



طيلة الاسبوع بايامها ولياليها يتجول بحرية تامة ، اذا لم تأخذ بالحسبان اضطراره مرة او مرتين لورود الماء من البئر عند المضخة مع ذود الابل . لكن قره ناز كان لا يطيع صاحبه فاخذ الآن يعبر عن سخطه فاتحا فمه ذا الاسنان الكبيرة بشراسة ، وهو يرغو بين حين واخر كاني به يقول ، انك تريد ان تقيدني من جديد وانا الحر الذي لم اعتد القيد .

اقترب يديغي من بعيره متكدرا من الحديث الذي جرى مع ثابت جان ، مع انه كان يعرف مسبقا الام سينتهي . واتضح ان ثابت جان صنع معروفا بمجيئه لدفن والده الذي ليس الا عبنا عليه ينبغي التخلص منه باسرع ما يكون . ولم يفض يديغي في الكلام ، فالامر ما كان يستدعي الافاضة طالما هو بدون ذلك مضطر ان يفعل كل شيء بنفسه ، ثم ان الجيران بدورهم لم يقفوا مكتوفي الايدي ، فمن لم يكن مشغولا منهم ساعده في تجهيز الميت للدفن والتحضير لعشاء الماتم ، اذ جمعت النساء الأوائى من البيوت وجلبن السماورات واعددن العجين ، وبدان بالخَبز ، بينما نقل الرجال الماء ، واتخذوا عوارض السكة القديمة حطباً - ويعدن الوقود في السهوب الجرداء دائما من اولى الضروريات ، شأن الماء . سوى ثابت جان وحده اذ كان يعوق الناس عن اعمالهم متحدثا في هذا الموضوع او ذاك ، ولا سيما عن توزيع المناصب العليا في مركز المحافظة : من رقي الى منصب جديد ومن نحي ، دون ان يشعر باى خجل او حرج على غياب زوجته عن دفن حميها ، والله عجيب ! عندما اجتماع يحضره ضيوف اجانب . اما الاحقاد فلم يات على ذكروهم . انهم يعملون كل ما في وسعهم لحضور الدروس والنجاح حتى يحصلوا على توصية جيدة للالتحاق بالدراسة الجامعية . واحس يديغي بالسخط والامتعاض : «عجيب امر هؤلاء الناس ! الوقائع كلها يعدونها مهمة الا الموت !» وكانت تؤرقه فكرة «ان كان الموت لا يعنى شيئا ، فان الحياة ايضا لا تعنى شيئا . اين مغزى الحياة اذن ؟ لماذا وكيف يعيشون ؟»

وخاطب يديغي جملة بغضب :

- لماذا تهدر يا تمساح ؟ لماذا تهدر رافعا رأسك الى

السماء ، وكان الله يسمعك ؟ - وكان يديغي ينعت جملة بالتمساح في اقصى الحالات ، عندما كان يخرج عن طوره كليا . ولقد اطلق عمال سنك الحديد القادمون الى المفرق هذا اللقب على قره ناز البوراني بسبب من اسنانه الكبيرة الحادة ، وطبعه الحرون . - ساتركك تهدر حتى تنفجر . يا تمساح ، واكسر جميع اسنانك !

كان على يديغي ان يضع رجلا على ظهر الجمل . ولم تهدا تاثرته الا بعد ان شرع بالعمل ، وروا الى قره ناز معجبا به . كان جملا قويا وبهيا ، لا تبلغ اليد المرفوعة رأسه ، مع ان يديغي كان طويلا بما فيه الكفاية . لذلك انتهنز فرصة واحنى رقبة الحيوان قليلا ، ثم ربت بالكرباج على ركبتيه منيخا له بحزم لكي يجعله يبرك . احتج الجمل بصوت جهورى ، لكنه ، رغم ذلك ، اطاع ارادة صاحبه . وعندما برك اخيرا طاويا قوائمه تحته واناخ بكلكله على الارض وسكن ، عندئذ فقط انكسب يديغي على العمل .

يعد تركيب الرجل على البعير عملا كبيرا اشبه بتشبييد بيت . ولكل رحلة جديدة يصنع رجل جديد ، وينبغي ان يكون للرجال كثير من الحذاقة والقوة ، لا سيما اذا كان الرجل لجمل بضخامة قره ناز ، ومعنى قره ناز الجمل الاسود ، ولم يكن عبشا اطلاق هذا الاسم عليه . فراسه الاشعث اسود ، وغاربه مكسو بشعر كثيف اسود ، ورقبته مغطاة من الاسفل بوبر اسود يسدل حتى ركبتيه كثيفا وفي غاية من الغرابة - وهذه هي زينة الذكر الرئيسية - وسنامان مرنان ينتصبان مثل برجين اسودين على ظهره . ويأتى اخيرا الطرف الاسود لذيله الابتر . اما باقى من جسمه - اعلى الرقبة والكلكل والجنيان والقوائم والبطن - فكان ذا لون فاقع ضارب الى الكستنائي الفاتح . ولم يكن مصدر جماله وذبوع صيته الا هذا التناسق في جسده وهذا السواد في لونه . وكان قره ناز الذي تخطى عقده الثاني ، فى اوج جماله وقوته .

والابل حيوانات معمرة . وقد يكون هذا هو سبب عدم قدرة النوق على الانجاب الا فى السنة الخامسة من عمرها . ثم



ليس كل سنة متوالية ، بل مرة كل سنتين . وتحمل النسوق اجنتها في ارحامها اثني عشر شهرا وهي اطول مدة بين جميع الحيوانات . والشئ الاهم بالنسبة للحوار (ولد الناقة) هو حمايته في الاشهر الثمانية عشرة الاولى من تيارات الريح السهبية ، ثم تراه يكبر يوما بعد يوم لا يهاب شيئا ، لا البرد ولا الحر ولا العطش . . .

وكان يديغي ملما بالابل ، وحرص على تربية قره نار البوراني صحيحا معافي . وليس بروز سنمايه الاسودين مثل نتوين من حديد الا دليل باس وصحة . حين اهدى له قازانغاب سقبا صغيرا مزغبا كفرخ البط عقب عودته من الجبهة والتحاقه بالعمل فسي مفرق بوراني-بوراني كان يديغي لما يزل شابا ، واني له ان يعرف انه سيقضى عمره حتى الشيخوخة في هذا المكان احيانا ، يتطلع الى الصور الفوتوغرافية لتلك السنوات ولا يصدق عينيه . تغير كليا واصبح ذا لون رمادي ، وقد وخط الشيب حتى حاجبيه . بالطبع ، تغيرت طلعته ، لكن جسمه لم يكتنز كما يحدث في مثل هذا العمر . وقد حدث عفويا ان اطال ، اول الامر شاربيه ، ثم لحيته ، ومنذ ذلك الحين لا يستطيع التخلي عنهما . . . فبدونهما يشعر نفسه كالعارى . ولقد انقضى دهر باكملة على ذلك اليوم .

وما هو الآن ، اذ رحل قره نار موبغا اياه تارة بصوته واخرى بتلويفة من يده ، حين كان ذاك يعاند ويكشر عن اسنانه ويزار كالاسد متلفتا براسه الاشعث الاسود الى الورا ، تذكر احوال تلك السنوات واخبارها واحس بفرج في قلبه . . . كد يديغي طويلا ورتب كل شئ . في هذه المرة قبل ان يضع الرجل البس قره نار افضل جل بصنعة قديمة ، ذي شراشيب طويلة ملونة وموشاة بزخارف السجاجيد . ولا يتذكر متى زان قره نار آخر مرة بهذا الجبل النادر الذي احتفظت به اوق بالا بشكل يغبط عليه . واتفق ان يحدث هذا الآن . . . بعد وضع الرجل على قره نار البوراني ، ارغمه صاحبه على النهوض وشعر بارتياح كبير ، بل وافتخر بعمله . كان قره نار المزدان بالجبل ذي الشراشيب والرجل المصنوع بمهارة فائقة والمثبت على مرتحله يبدو محاطا بالابهة والعظمة . اجمل

ليتمتع الشباب بالتفرج عليه ، وثابت جان بوجه خاص ، وليفهموا ان دفن انسان عاش حياته معتبرا ليس عبثا ، ولا يشكل عقبة ، بل يعد حدثا عظيما وان كان مريرا ، ولذلك يجب ان يعطى بالاعتبار المناسب . تقام مختلف الطقوس عند التشييع ، البعض يعزف الموسيقى الجنائزية وينكس الاعلام ، والبعض يطلق الرصاص في الهواء ، والبعض الآخر ينثر الزهور ويضع اطواقا منها على النعش . . .

اما هو ، يديغي البوراني فنسوف يتوجه غدا منذ الصباح الباكر معتليا ظهر قره نار المزدان بالجبل ذي الشراشيب الى مقبرة آنا-باييت مودعا قازانغاب الى مثواه الاخير . . . وسيغفر به طول الطريق ، عبر براري ساروزيكي الشاسعة . ومع استعادة ذكره يودعه الرمس في مقبرة الاسلاف وفق الاتفاق المسبق بينهما . اجل ، كان ثمة اتفاق كهذا . ومهما طالت رحلته او قصرت فلن يتمكن ان يصدده احد ، حتى ابن المرحوم نفسه ، عن تنفيذ ارادة والده . . .

وليعرف الجميع ان قره نار جاهز لهذا الغرض ، وعليه الرجل والجبل . ولكي يرى الجميع . قاد يديغي جملة من الزريبة ودار به حول جميع البيوت واوقفه امام كوخ قازانغاب ليراه الجميع . ليس في وسع يديغي البوراني الا ان يفى بوعدته . لكن عبثا يصر على اثبات ذلك ، ففي الوقت الذي انشغل فيه بصنوع الرجل انتهز عادل باي الطويل الفرصة وانتحي بثابت جان جانبا .

- لنخرج الى الفى ، وتحدث .

وكان حديثهما قصيرا . اذ قال عادل باي مباشرة دون ان يلح على صاحبه في العدول عن رايه :

- احمد ربك يا ثابت جان لوجود يديغي البوراني ، صديق والدك ، على قيد الحياة . ولا تحل دون دفن والدك كما يجب . ان كنت على عجلة من امرك فانتنا لا نمسكك . انا اميل حفنة زائدة من التراب في القبر بدلا منك !

- هذا والدي وانا اعرف . . . - اراد ثابت جان ان يعترض ، لكن عادل باي ما لبث ان قاطعه :



- الوالد والدك ، لكنك انت لست ملك نفسك .

نكص ثابت جان على اعقابه :

- طيب ، لن نتخاصم في مثل هذا اليوم . فلتكن مقبرة آنا-باييت . هي او غيرها سواء . لكني انما فكرت بكونها بعيدة . . .

الى هنا وانتهى حديثهما . ولما اوقف يديغى الجمل على مرأى من الجميع ، عاد الى البورانيين وقال : « ليس هذا كلام الرجال ، كفوا عنه ، لن ندفنه الا في آنا-باييت . . . » لم يعارضه احد . وكان سكوتهم هذا دليل الرضا .

امضى المعارف والحيران جميعهم تلك الامسية والليل فسي فناء كوخ المتوفى . اذ ان الطقس كان قد استقر وحلت برودة مطلع الخريف الساروزيكي المفاجئة بعد حر النهار . وساد الكون سكون اخرس وصمت جليل تنسدل عليه ستارة خفيفة من الظلام . والى ان فرغوا من سلخ الخروف المذبوح للماثم وتنظيفه وتقطيعه كان الليل قد اسدل ستائر ظلمته ، فجلسوا يرتشون الشاي عند السماور الداخن ويتبادلون الاحاديث فسي مختلف المواضيع ، وفي هذه الاثناء كان قد اعد كل شيء للدفن ، ولم يبق الا ان يتحركوا في الصباح باتجاه آنا-باييت . ومضت تلك الساعات من الليل هادئة ساكنة ، كما ينبغي ان تكون عند وفاة عجوز عاش بما فيه الكفاية . . .

والقطارات كانت تاتي الى المفرق وتغادره - تلتقى عنده قادمة من الشرق ومن الغرب وتفترق منه متجهة الى الشرق والى الغرب . . .

هكذا كانت الحال في تلك الليلة عشية التوجه الى آنا-باييت ولكانت الامور كلها قد سارت على ما يرام لولا وقوع حادث غير مستحب . اذ وصلت في تلك الاثناء آي زاده بصحبة زوجها في قطار حمولة عابر . وما ان اعلنت عن وصولها بولولة وعويل الا واحاطتها النساء منتحبات . ولا سيما اوق بالا التي انضمت اليها لتفرج عن كربها ورافقة بحالها . وبكت المرأتان الميت بكاء مريرا وبعدها ماثره . وحاول يديغى ان يهدى آي زاده : لا حول لنا ولا صول ولا يجوز ان تموتسى كمدا على الميت ، ينبغي الاستسلام لحكم القدر والتسليم به . . . لكن آي زاده

لم تثب الى رشدما .

هذا ما يحدث في احيان كثيرة ، ان تجعل البنت من وفاة والدها ذريعة للافراج عن كربها والتفريج عن نفسها بالبكاء ، والافاضة امام الناس بمكنون قلبها ، بكل ما لم يجد مخرجا مفتوحا له في الكلمات . وكانت آي زاده وهي تنتحب وتخطب والدها المتوفى شعئا ومتورمة تتشكى بطريقة النسوان من حالها ، وما آل اليه مصيرها التعس ، وتريد ان تقول ان لا احد يفهمها او يعيرها اذنا صاغية ، هي التي لم توفق منذ شبابها . فزوجها سكير واولادها يتسكعون من الصباح حتى المساء في المحطة بلا رقيب او حسيب ، ولذلك فقد اصبحوا شقاة ، وربما يستحيلون فسي الغد عصاة ويبدأون ينهب القطارات . وما هو الكبير يسكر منذ الآن ، ولقد جاء رجل الميليشيا وحذرها من مغبة مثل هذا السلوك . وسيقدم قريبا للنيابة . ماذا في وسعها ان تفعل وحدها امام ستة اولاد ! بينما والدهم وكان الامر لا يعنيه . . . وبالفعل كان يبدو على زوجها وكان الامر لا يعنيه ، فجلس لامباليا بهينة كنيية ومعتزلة يدخن سيكاير رخيصة ننتة الرائحة ، ويتظاهر انه جاء لتشييع جنازة حميه . ولم يكن هذا الكلام جديدا عليه ، كان يعرف ان المرأة ستزق وتولول ثم تكف . . . لكن ثابت جان تدخل في هذه الاثناء بغير مناسبة . ومن هنا بدأت المشكلة . انشا ثابت جان يؤنب اخته : اين رايتم هذا ، ما هذا الاسلوب ، لماذا جاءت ، التدفن اباهام لتخزي نفسها ؟ اهكذا يليق بالبنت الغازاخية ان تبكسى اباهام المعترى ؟ الم تتحول البيكانيات العظيمة للنساء الغازاخيات الى اساطير وانا شيد يتداولها الاحفاد منذ مئات السنين ؟ لم تقتصر تلك البيكانيات على رثاء الموتى حسب ، بل حتى الاحياء جعلتهم يسترسلون في البكاء . وكانت تعدد مناقب الميت وخصاله الحميدة حتى تصل اسماع السماء . هكذا كانت تبكى النساء ! بينما هي ، ارايتموها كيف تبكى ؟ تنوح وتندب حظها وشقاءها وسوء طالعها في هذه الحياة !

وكان آي زاده ما كانت تنتظر الا مثل هذا الكلام . فصرخت بكل ما اوتيت من قوة وغضب . يا لك من فهم حكيم ! اذهب وعلم زوجتك في الاول ! لماذا لم تات وترينا كيف يكون البكاء



العظيم . كان عليها ان تاتي وتقدر ابانا حق قدره . مكارة واثم  
مثلها يا سافل ورذيل ، لقد نهيتم وسلبتم ما عنده من ثروات !  
زوجي وان كان سكيراً فقد جاء لكن اين زوجتك المتاجرة فسي  
ذكاء ؟

عندئذ شرع ثابت جان يصرخ بوجه زوجها لكي يرغمها على  
السكوت ، لكن ذلك استشاط غضباً واخذ بخناق ثابت جان . . .  
ولم يفلح البورانليون الا بمشقة بالغة في تهدئة الاقرباء  
المتقاتلين ، واعربوا جميعاً عن عدم ارتياحهم لهذا التصرف  
وشعروا بالخجل . وتكدر يديغي كدراً شديداً . فهو يعرف قيمة  
كل منهم ، لكنه لم يتوقع ان تتفاقم الامور الى هذا الحد .  
وحذرهم بمنتهى الصرامة : اذا كنتم لا تحترمون بعضكم بعضاً ،  
فلا تسيئوا على الاقل الى ذكرى والدكم . والا فلن اسمح لاحد  
منكم بالبقاء هنا . ولن آخذ بعين الاعتبار اي شيء ، ولن تلووموا  
الا انفسكم . . .

اجل ، لقد وقع مثل هذا الحادث المشيئس عشية الدفن .  
وكان يديغي حزينا اشد الحزن . فزوى ما بين حاجبيه عاقداً  
اياهما على جبينه المقطب وراحت الاسئلة تفتسه مرة اخرى :  
لماذا وكيف آل الابناء الى ما هم عليه الآن ؟ وهل كان هو  
وصديقه يحلمان بذلك عندما كانا ياخذانهم في الحر والبرد الى  
المدرسة الداخلية في قمبيل ، من اجل ان يتلقوا العلم ويشقوا  
دربهم في الحياة ، ولا يتورطوا في العمل باحدى محطات  
ساروزيكي ، ولا يندبوا حظهم فيما بعد : والدانا لم يعتنيا بنا .  
لكن حصل العكس . . . ما الذي حال دون ان يصبحوا اناساً لا  
تاباهم النفس ؟

وهب عادل باي ليكون عوناً لهم ، وايدى عناية ، هي  
معهودة لديه ، يسرت من حال يديغي في ذلك المساء . ذلك  
انه كان بلا ريب يفظن الى مدى الضيق الذي كان عليه يديغي .  
ثم ان ابنا الميت هم دائماً الشخصيات الرئيسية في التشييع ،  
وهذا امر ثابت في العالم كله . فلا يمكن التخلي عنهم او ابعادهم  
مهما كانوا قليلي الحياء او غير نافعين . ولكي يحل عادل باي  
المشكلة التي كدرت الجميع ويصالح بين الاخ والاخت دعا جميع  
الرجال عنده الى البيت ، بحجة اننا لم نأت لاحياء النجوم في

النساء حتى نقف في هذا الفناء ، فالاحسن ان نذهب عنسدى  
ونشرب الشاي ونثرثر . . .

وجد يديغي نفسه في بيت عادل باي الطويل وكأنه في عالم  
آخر . كان في السابق يزور هذا البيت كجار ، وفي كل مرة ،  
كان يشعر بالرضا والارتياح ، ويمتلئ قلبه بالسرور لعائلة عادل  
باي . واليوم ايضا تملكته رغبة بالبقاء وقتاً طويلاً ، ولقد شعر  
بمثل هذه الحاجة كمن يتوجب عليه ان يعيد الى نفسه في هذا  
البيت قوته المفقودة .

كان عادل باي الطويل عامل صيانة كسائر العمال الآخرين ،  
ويتقاضى مرتباً لا يزيد عن مرتبهم ، ويسكن مثل الآخرين في  
بيت مركب من الواح خشبية يتألف من غرفتين ومطبخ . غير ان  
نمطاً اخر من الحياة كان يسود البيت . اذ كان دائماً نظيفاً ومرتباً  
ومثيراً ، الشاي نفسه الذي يرتشفه الآخرون بدا ليديغي في  
فناجين بيت عادل باي شفافاً كالشهد . وزوجة عادل باي انسانة  
طيبة وربة بيت جيدة واطفاله مؤدبون . . . وافترض يديغي  
انهم سيعيشون في ساروزيكي قدر ما يستطيعون ، ثم ينتقلون  
الى مكان افضل . سنتأسف جداً عندما يرحلون من هنا . . .  
وضع يديغي جزمته في غرفة المدخل ، وجلس في الغرفة  
الداخلية وقد ثنى رجله في الجوارب تحته . وشعر للمرة  
الاولى ، خلال اليوم كله ، انه قد تعب وجاع . ولزم الصمت  
متكناً بظهره على الجدار الخشبي . بينما تحلق حول طاولته  
مستديرة واطلة بقية الضيوف يتبادلون الاحاديث باصوات خفيفة  
عن احوال الدنيا .

ولم تأخذ احاديثهم مساراً جاداً الا فيما بعد ، عندما تطرقوا  
لموضوع غريب . وكان يديغي قد نسي امر السفينة الفضائية  
التي اطلقت في الليلة الفائتة . ولكن الناس العارفين جاؤوا على  
ذكر شيء جعله يسترسل في التفكير . وهذا لا يعني انه اكتشف  
شيئاً جديداً لنفسه ، بل انه انما اندهش من احكامهم وجهله هو  
بتفاصيل الموضوع . لكنه اثناء ذلك ما كان يشعر بلوم من  
نفسه ، اذ كانت هذه التحقيقات الفضائية التي يهتم الجميع  
بامرها الى هذه الدرجة بعيدة جداً عن فهمه وادراكه وسحرية  
تقريباً وحتى غريبة . ولذلك كانت علاقته بهذا كله اجلائية



وشديدة الحذر كعلاقته بظهور ارادة عظيمة مجردة من الصفات الخاصة ، والتي تستحق في احسن الحال ان تؤخذ بعين الاعتبار . بيد ان منظر السفينة المنطلقة الى الفضاء روعه واستحوذ على ذهنه وهذا الامر كان موضوع الحديث الذي جرى في بيت عادل باى الطويل .

شربوا اولا شيئا من الشوبات - وهو لبن النوق المختمر - وكان باردا مرغوا مسكرا بعض الشيء . وكان عمال الصيانة الاغراب يحسونه برغبة عارمة ويسمونه الجعة الساروزيكية . ومع الوجبة الحارة قدم اهل البيت فودكا . وكلما حدث امر كهذا لا يمانع يديغي ، فيشرب نزولا عند رغبة الجماعة . لكنه في هذه المرة لم يشرب ، وبهذا افهم الاخرين ، كما خيل اليه ، انه ينصحهم بان لا يُغرموا به ، لانهم غدا سيواجهون يوما شاقا ورحلة طويلة . وأقلقه ان يلج الاخرون وخاصة ثابت جان فسي عب كؤوس الفودكا وشرب الشوبات عليها . لا سيما وان الشوبات والفودكا يتألفان جيدا مثل حصانين اصيلين يجريان مقرونين معا ، ويرفغان الانسان الى قمة الانتشاء . ولم يكن لكل هذا ما يبرره اليوم . لكن كيف يأمر المرء اناسا بالغين بالا يشربوا؟ عليهم ان يعرفوا حدودهم بانفسهم . وكان امتناع زوج آى زاده عن الفودكا حتى تلك اللحظة على الاقل يبعث الطمانينة في قلبه . لان السكير اذا بدأ فلن يتوقف حتى الثمالة . بيد انه كان يشرب الشوبات فقط . ويبدو ، انه مع ذلك ، فهم ان الفودكا زائدة عن اللزوم وانها ستجعله حتما يترنح في موكب تشييع حميه . لكن الله وحده يعلم كم سيبقى متمالكا نفسه . كانوا جالسين على هذه الهيئة يتجادبون اطراف مختلف الاحاديث عندما تذكر عادل باى فجأة اثناء تقديم الشوبات للضيوف ، وقال وهو يمد قدحا ليديغي من الطرف الآخر للطاولة :

- يا يديغي ، ما ان استلمت خفارتك في الليلة الفائتة ، وابتعدت انت مسافة الا وصعق شيء في الهواء بحيث بدأت اترنح في مكاني . نظرت فرأيت صاروخا انطلق من المطار الى عنان السماء ! كان هائلا جدا كعريش مركبة . أرايته ؟ - طبعا ، وفغرت فاهي متعجبا ! هذه هي القوة ! يتوهج

نارا ويندفع اعلى فاعلى لا يلوى على شيء ! شعرت بالرهبة ، ذلك انى لم ار مثيلا له منذ وجودى فى المنطقة . واعترف عادل باى :

- وحتى انا ، للمرة الاولى اراه بام عينى . وقال ثابت جان يعزح من طوله على سبيل الدعابة : - اذا كنت تراه انت للمرة الاولى ، فان امثالنا ليس باستطاعتهم ان يروه اطلاقا .

اكتفى عادل باى بابتسامة ساخرة . ولوح بيده : - ما هذا الكلام . انظر اليه ولا اصدق عينى . كان يهدر وسط النار وينطلق الى السماء ! وقلت فى نفسى ان انسانا آخر صعد الى الفضاء ، فلترافقه السلامة ! ثم اسرعت بفتح المذياع الذى احمله معى دائما معتقدا اننى لا بد وان اسمح نيا عنه . فى مثل هذه الاحوال يبث الخبر مباشرة من المطار ، ويتحدث المذيع من شدة فرحه بلهجة خطيب فى حفل مهيب . واقشعر بدني ! كنت متشوقا جدا لمعرفة من هو هذا الذى رايت تعليقه بام عينى . لكننى لم اعرفه حتى الآن رغم ما بذلت من جهد . - لماذا ؟ - رفع ثابت جان حاجبيه بحركة تعجب تنم عن الاهتمام وعميق المغزى ، مستبقا بها الجميع ، وقد غمره العرق واكتسته الحمرة .

- لا اعلم لماذا . لم يذيعوا عن امره اى شيء . وكنت طول الوقت استمع الى اذاعة «مايك» ولم تنطق حتى بكلمة واحدة . . . - هذا عجيب ! لا بد ان هنالك امرا ليس كما يجب ! - ارتاب ثابت جان ، وهو يتسرع فى شرب جرعة من الشوبات على الفودكا - ان كل تحليق فسى الفضاء لهو حدث عالمى . . . مفهوم ؟ هو سمعة علمية وسياسية !

- لا اعلم لماذا ، ولقد سمعت آخر الاخبار خصيصا ، وكذلك عرض ما كتبتة الصحف . . . هز ثابت جان رأسه :

- هيم . . . لو كنت فى محل عملي لعرفت ! اسفنا ، فليأخذه الشيطان . لربما ان شيئا ما ليس على ما يرام ؟ - من يعلم ، اى الاشياء على ما يرام وايها ليست كذلك .



لكن والله يعز علي شخصيا ان اكون في منأى عن معرفة هذا الامر - كان عادل باى الطويل يعرض رأيه بصفااء قلب - انه بالنسبة لى رائد فضاء صديق . لقد حلق امام ناظرى . وفكرت . قد يكون احد شبابنا . وكم ستكون السعادة اذا التقينا فجأة فى مكان ما . . .

وما لبث ثابت جان ان قاطعه مستثيرا بهاجس ما :

- انا اعلم ! لقد اطلقوا سفينة فضائية تجريبية بلا رائد

فضاء .

اعتدل عادل باى فى جلسته :

- كيف ؟

- تجريبية ، يعنى اختبارية . وانطلقت السفينة بلا رائد فضاء . اما لتلتحم مع سفينة اخرى او لتخرج الى المدار ، ولأن غير معروف ماذا وكيف سيحصل . واذا تم كل شئ بنجاح سيعلن عنه فى الاذاعة والصحف . واذا لم ينجح ، لن يعلن عنه ، مجرد تجربة علمية .

ومسح عادل باى جبينه وقال مغموما :

- ظننت ان انسانا من لحم ودم حلق فى الفضاء .

وساد صمت . ولكن الحديث فى هذا الموضوع قد افلح بعد بضعة توضيحات اخرى مخيبة للامال من ثابت جان ، لكن يديغى نفسه هو الذى فتح بابا آخر له مصادفة :

- فهمت من كلامكم ان سفينة بلا انسان قد اطلقت الى

الفضاء ؟ فمن يوجهها اذن ؟

- كيف من ؟ - صفق ثابت جان بيديه والقى نظرة ظافرة الى يديغى الجاهل - الاعمال كلها تؤديها السفينة بالراديو ، وبتوجيه من الارض ، من مركز التوجيه . مفهوم ؟ حتى اذا كان رائد فضاء على متنها ، يوجه تحليتها بالراديو . وعلى رائد الفضاء ان يحصل على موافقة اذا اتخذ اجراء ما . . . هذا يا «كوكيتاى» ليس الرحيل على متن قره نار فى ساروزيكى . الامور جند معقدة هناك . . .

\* كوكيتاى كلمة تحبب وتلاطف فى آن . المترجم \*

فقال يديغى بصوت غير واضح :

- هذا ما لم اكن اعرفه . . .  
وبالفعل لم يكن يديغى البورانى يفهم مبدا التوجيه بالراديو . وان الراديو بتصوره هو الكلمات والاصوات المذاعة عبر الاثير عن بعد . ولكن كيف يمكن توجيه اجهزة غير حية بهذه الطريقة ؟ اما اذا وجد فى داخلها انسان حتى فتلك مسألة اخرى . اذ يقوم بتنفيذ الاوامر : افعل كذا افعل كيت . ورغب يديغى ان يستفسر عن هذا كله ، لكنه ارتأى ان لا داعى ، ابت نفسه ، ولاذ بالصمت . ثم عرض ثابت جان معارفه فى الموضوع بلهجة جد متسامحة ، وكأنه يريد ان يقول : انكم لا تعرفون شيئا وتحسبونى انسانا لا نفع فيه . وحتى صهرى ، هذا الكحولى العزمن اراد ان يخنقنى ، بينما انا افهم اكثر منكم جميعا فى هذه الامور . وفكر يديغى : «حفظك الله ، فى سبيل هذا بالذات علمناك طول حياتك . ولذلك فانه لمن البديهي ان تتفوق علينا فى بعض الامور ، نحن الجهلة .» ثم خطر له ايضا : «اذا كان انسان مثل هذا فى مقام السلطة فائسه يرهق الجميع ويرغم مرؤوسيه ان يتظاهروا بمعرفة كل شئ ، اما الاخرون فلن يتحملوه باية حال من الاحوال . انه برغم كونه مازال يعمل ضمن اشارة الاخرين يريد ان ينظر الجميع الى فمه فاغرى الافواه مشدوهين حين يتكلم ، وحتى هنا فى ساروزيكى .

اما ثابت جان فكان كمن يريد ان يضع نصب عينيه مباشرة ادعاش البورانيين واخضاعهم له ، غايته فى ذلك ان يرفع بهذه الطريقة من قيمته امامهم بعد الحادث المخزى مع اخته وصهره . فقرر ان يستزيد من الحديث ويصرف انظارهم عن الحادث . وراح يتكلم عن وقائع غريبة ومنجزات علمية وهو اثناء ذلك لا يكف عن ارتشاف الفودكا فى رشقات متتالية تعقبها فى كل مرة جرعات من الشوبات . وكان بتأثير ذلك يزداد جسراة ويسرد اشياء خرافية حتى ان البورانيين المساكين احتاروا فى امره ، وهم عاجزون عن تمييز الصدق من الكذب .

واستطرد ثابت جان ماسحا الجميع بنظراته السحرية العاقدة :

- احكموا بانفسكم . اذا امعنا النظر فى احوالنا ، فانه يتجلى



في حقيقة الامر ، انما يفعل ذلك بتوجيهات من اعلى ، ووفق نظام صارم . واذا اردت ان تشرب لا بد من إذن يأتيك بإشارة فيسمح لك ، واذا اردت ان ترقص لا بد من إذن يأتيك بإشارة فترقص ، واذا اشتغلت فانك ستعمل بلا كلل ! وسينسى الناس معنى السرقة والشقاوة والجريمة ، ولن يصادفوها الا طي الكتب القديمة . لان كل شيء في تصرفات الانسان سيستدرك مسبقا . الافعال كلها ، الافكار كلها ، الرغبات كلها . لنقل مثلا ، ثمة انفجار ديموغرافي في العالم الآن . يعنى ان الناس يولدون بكثرة ، ولم يعد الطعام يكفيهم لسد الرمق . ماذا ينبغي القيام به ؟ تقليص الولادات . وستصل بزوجتك فقط عندما تستقبل اشارة بذلك ، وانطلاقا من مصالح المجتمع .

وصحح عادل باي الطويل تعبيره المعتاد بلهجة لا تخلو من خبث :

- المصالح العليا ؟
- بالضبط . مصالح الدولة فوق كل شيء .
- واذا اردت ان افعل ، هذا الشيء نفسه ، مع زوجتى او غيرها دون مراعاة هذه المصالح ؟
- لن تحصل على شيء ، يا عزيزى عادل باي . لن تخاطر مثل هذه الفكرة على بالك ، وحتى لو عرضت لك اجمل النساء فانك لن تلقى عليها نظرة اهتمام . لانه سيفرض في هذا الشأن نظام تام . كن على ثقة . او لناخذ قضية الحرب . سيكون كل شيء رهن الاشارات . اذا توجب القفز في النار تقفز ، او بالمظلة تفعل بلحم البصر ، وان تطلب تفجير لغم ذري تحت دبابية تفجره بلحظة واحدة . قد تسألوننى لماذا ؟ لان معطيات التيارات الحيوية في جسم الانسان تمتاز بالشجاعة ، وتجعله يتخلص من الرعب . . . هكذا !

وتملك عادل باي عجب صادق :

- يا للكذب العاذق ! تعرف كيف تهرف ! ماذا علموك طيلة هذه السنوات كلها ؟

كان الجالسون يضحكون علنا من حين لآخر ، ويعدلون من اوضاع جلساتهم ويهزون رؤوسهم ، وكانهم بذلك يقولون : اوغل الرجل في دعاويه لكنهم ، مع ذلك ، واصلوا الانصات الى

لنا اننا أسعد الناس في تاريخ البشرية . ها انت يا يديعى ، انت اكبرنا جميعا في السن ، وتعرف كيف كانت الاحوال سابقا وكيف هي حاليا . ماذا اقصد من هذا الكلام ؟ في الماضى كان الناس يؤمنون بالآلهة ، وكانت هذه الآلهة عند الاغريق تعيش على جبل الاولمب . اية آلهة كانت تلك ؟ سخيفة . وماذا كان فسى استطاعتها ان تفعل ؟ كانت تعادى بعضها بعضا ، ومن هنا استمدت شهرتها . لكنها اخفقت في تغيير حياة الناس ، وحتى لم تفكر بهذا . واساسا لم يكن من وجود لهذه الآلهة ، هذه كلها اساطير وحكايات . اما آلهتنا فهي تعيش الى جانبنا ومعنا . ها هنا فى المطار الفضائى على ارضنا الساروزيكية ، وهى مفترتنا امام العالم كله . لا احد منا يراها او يعرفها ولا يجوز لكل من هبّ ودبّ ان يتقدم اليها ويقول لها : مرحبا ، كيف الاحوال ؟ لكنها الهة حقيقية ! وها انت يا يديعى تندهن من توجيه السفن الفضائية بالراديو . هذا امر بسيط ، لقد اجتزنا تلك المرحلة ! تلك الاجهزة والمعدات تعمل مبرمجة . وسيأتى يوم يوجه فيه الناس بالراديو مثل تلك الاجهزة الآلية . الناس جميعهم بلا استثناء ، صغيرهم وكبيرهم . وثمة معطيات علمية من هذا النوع . لقد توصل العلم الى ذلك انطلاقا من المصالح العليا . وقاطعه عادل باي الطويل :

- مهلا ، مهلا ، ما ان نحقق انتصارا الا وتربطه بالمصالح العليا . ارجو ان توضح ، فانتى لا اجد فى هذا معنى يذكر . ويتضح من اقوالك ، انه على كل انسان ان يحمل معه دائما مذياعا صغيرا كالترانزيستور ، لكى يسمح التوجيهات ؟ وهذا موجود فى كل مكان الآن !
- ارايت كيف تناقش ! وهل حديثنا عن هذا ؟ هراء . وهذه لعب اطفال ! لن يحمل احد شيئا معه . امش عاريا اذا شئت ، لكن موجات لاسلكية غير مرئية - هى ما يسمى بالتيارات الحيوية - ستؤثر عليك ، على وعيك تأثيرا مستمرا . اين لك ان تتوارى عندئذ ؟
- كذا ؟

- نعم ! كل شيء يعمله الانسان يكون مبرمجا من المركز . ويتراى له انه يعيش ويتحكم بنشاطه الذاتى ، بإرادته . لكن



كلامه . ذلك لأن حديثه الشيطاني كان مشوقا لم يسبق ان سمعوا  
مثيلا له وان كانوا لا يثقون به ، ويدركون ان الشراب قد ائمه  
بتجرعه الشروبات على الفودكا بين فينة واخرى ، ولذلك فليهنر  
بما يريد ، فهو على اية حال لا يرتجى منه شيء . وقد يكون  
سمع بعضا عن هذا الذي يقوله في مكان ما ، لكن ربمسا لا  
يستحق هذا الكلام ان يتعب المرء رأسه لكي يميز فيه الصدق  
عن الكذب . اجل ، بيد ان الرعب تملك يديغي فعلا . وظن ان  
هذا المهذار ليس ينبغي دون قصد . واستحوذ عليه القلق ، لأنه  
قرا هذا في مكان ما او سمعه بطرف اذنه ، وانه يدرك بسرعة  
اين وماذا ليس على ما يرام . وماذا اذا كان ثمة اناس من هذا  
النوع بالفعل . وهم علماء كبار يتعطشون بحق وحقيق لتوجيهنا  
وكانهم الآلهة ؟

وبما انهم واصلوا سماعه انشأ ثابت جان ينسج الاحاديث  
بلا رادع . واتسعت حدقاته تحت نظاراته المتعركة كحدقتي قط  
في الظلمة . وظل يرتشف تارة الفودكا واخرى الشروبات . ثم  
اخذ ملوحا بيده يخترع حكاية عن منطقة تسمى مثلث برمودا في  
المحيط ، حيث تختفي السفن بشكل غامض ، ولا احد يدري اين  
تتوارى الطائرات المحلقة فوق المنطقة .

كان عندنا في المحافظة شخص عمل كل ما في وسعه  
للسفر الى الخارج . وهل من غرابة في هذا ؟ وفي آخر المطاف  
حصل ما كان يستحقه . لقد نحى الآخرين جانبا وغامر وسافر  
عبر المحيط اما الى اورغواي او الى باراغواي ، وقضى نخبه . اذ  
اختفت الطائرة التي كان يستقلها فوق مثلث برمودا مباشرة وكان  
شينا لم يكن . ولم يعثر على اي اثر للطائرة ! لهذا السبب لا  
اعتقد انه ثمة من داع للسعي من اجل هذا الشيء او ذاك ، او  
الحصول على موافقات وابعاد الآخرين . لا يا اصدقاء ، اننا بلا  
مثلث برمودا ندبر امورنا ونعيش على ارضنا اصحاء معافين .  
وهلم بنا نشرب نخب صحتنا !

اطلق يديغي شتيمه في سره : «ها قد عب عبايه ! سيتذكر  
ديباجته المفضلة . يا لهذه الأذية ! كلما شرب فقد زمام  
اموره !» وهكذا حصل بالفعل .  
- نخب صحتنا ! - كرر ثابت جان متفحضا وجوه الجالسين

بنظرة عكرة زائفة ، لكنه ظل يجاهد ان يعطى لوجهه تعابير  
انسان على جانب كبير من الاهمية - وصحتنا هي ثروة عظيمة  
للبلاد . حتى تكاد تكون ذخرا للدولة . هؤلاء نحن ! لسنا اناسا  
بسطاء ، نحن رجال حكوميون ! واريده ايضا ان اضيف . . .  
نهض يديغي البوراني بغتة وغادر البيت قبل انتهاء ذاك من  
سرد نخبه . ثم صدر عن سطل فارغ او نحوه دويا وطلقت اثار تعثر  
يديغي به في المدخل المظلم للبيت . واذا احتذى يديغي جزمتيه  
المتين كاتنا قد بردتا الى ذلك الوقت في الهواء الطلق وتوجه  
الى البيت متكدرا مغتاظا . وزحر زحيرا غير مسموع تقريبا  
معضضا شاربيه من الضيم : «آه لغازانغاب المسكين ! لا موته  
يشبه الموت ولا اساه يشبه الاسى ! جلس ابنه يعب الشراب  
كما في سهرة ليلية ، وكان الامر لا يخصه ! لقد ابتدع لنفسه  
هذه الديباجة الشيطانية : صحة حكومية . هكذا هو في كل مرة .  
اذا سهل الله امرنا ومر يوم غد بشرف وكرامة واودعنا المرحوم  
منواد الاخير واقمنا العاتم الاول ، فلن يحط هذا الدعوى رجله  
هنا بعد الآن وتخلص من شره ، فمن هو بحاجة اليه  
هنا ؟»

مع ذلك ، يظهر انهم ظلوا مدة طويلة جالسين عند عادل باي  
الطويل . والليل يكاد ينتصف . استنشق يديغي ملء صدره من  
هواء ساروزيكي الذي ابعشه الليل . وكان من المتوقع ان يكون  
الطقس في يوم غد ، كعادته ، صافيا جافا حارا بما فيه الكفاية .  
النهار شديد الحرارة والليل شديد البرودة . ولهذا السبب  
اينما تنظر لا ترى غير السهوب المقفرة ، اذ من العسير جدا على  
النباتات ان تتكيف مع هذا المناخ . انها تندفع نهارا للقضاء  
الشمس ، وتفتح اوراقها متعطشة الى الرطوبة ، فيأتي الليل  
فيما بعد ليقتلها برذا ولا يبقى منها الا التي تتكيف مع هذه  
الظروف القاسية ، وهي مختلف الاشواك ، يحتل الشيح حصه  
الاسد منها ، واعشاب متنوعة منفردة يمكن حشها في مصبات  
مسائل المياه . وكان صديقه القديم الجيولوجي يليزاروف قد  
حدثه ذات مرة وهو يرسم صورة زاهية للمنطقة ، انها كانت  
غنية باعشابها وتمتع بمناخ آخر تماما ، وتسقط فيها الامطار -  
لثلاثة اشعاف ما تسقط عليها الآن . الامر مفهوم ، حتى الحياة



كان لها بفعل ذلك طعم آخر . كانت تسرح فسى هذه السهوب قطعان ماشية وخيل وغنم . اعتقد ان ذلك كان منذ زمن قديم . وربما قبل ظهور اولئك المحتلين الهمج - وهم الجوانجوانيون الذين انقرض نسلهم فى غابر العهود . والا فكيف كانت تنسج ساروزيكى لهذا العدد العديد من السكان . وليس عبثا قول يليزاروف : ساروزيكى هى الكتاب المنسى لتاريخ السهوب . . . وكان يعتقد ان تاريخ مقبرة آنا-باييت ايضا ليس تاريخا عرضيا . لكن ثمة اناس لا يعترفون الا بما هو مكتوب على الورق من التاريخ . واذا كانوا فى تلك الازمنة لم يبلغوا بعد مرحلة التدوين ، فكيف يمكننا الحكم ؟

وشرح يديغى وهو يستمع الى دوى القطارات العابرة فسى المفرق يعيد الى اذهانه بتناظر غريب عواصف بحر آرال الذى ولد على شاطئه وترعرع وعاش قبل الحرب . وقازانغاب ايضا كان قازاخيا من منطقة آرال . ولذلك عندما صادف احدهما الآخر فى سكة الحديد تقاربا وهما يشتمقان فى ساروزيكى الى البحر . وقبل وفاة قازانغاب بفترة قصيرة سافرا معا الى آرال . ويبدو ان العجوز ذهب ليتوادم مع البحر . ليتها لم يذهبا ! لم يحصل الا على الهموم وتكدير البال . ذلك ان بحر آرال ، كما اتضح ، اصبح ينأى ويضمحل بالضخالة . ولقد سارا نحو عشرة كيلومترات فى الطفال الرملى الذى كان مغطى بالمياه سابقا ، الى ان وصلا حافة الماء . وفى هذه الاثناء قال قازانغاب : «هذه المساحة كلها كانت مغطاة بالمياه . حتى البحر يجف احيانا فكيف ب حياة الانسان» . وادرف : «اودعنى القبر فى آنا-باييت يسا يديغى . . اما البحر فهذا لقانى الاخير معه» .

مسح يديغى البورائى دمة فاضت من عينه ، وتنحج ثم توجه الى كوخ قازانغاب ، حيث كانت آى زاده واولادى والنساء الاخريات جالسات وفق مألوف العزاء . وكانت النساء البورانيات ياتين الى الكوخ بالتناوب ليكن رهن الاشارة حين يتطلب الامر . واذا مر يديغى بجانب الزريبة توقف لحظة بالقرب من الجذامير المعروزة فى الارض ، والتي كان يقف عندها قره نار البورائى مرحلا ومجلا بالجل ذى الشراشيب . ولاح الجمل فى ضوء القمر ضخما عظيما رصينا كالغليل . لم يتمالك يديغى نفسه ، فرب

على جنب الجمل :

- يا لك من معافى !

وعندما وصل يديغى الى العتبة تذكر وهو نفسه لا يدري لماذا ، ليلة امس ، وكيف لجأ الثعلب السهوبى الى سكة الحديد وكيف لم يتجرا على قذفه بحجر ، وكيف انطلقت السفينة الفضائية الملتهبة الى فجوة السماء المظلمة فيما بعد حين كان يقصد البيت . . .

## الفصل الثالث

وفى تلك الاثناء حل الصباح فى خطوط العرض الشمالية من المحيط الهادى ، وكانت الساعة تشير الى الثامنة . وغمرت اشعة الشمس الساطعة بفيض نورها المتدفق المنطقه ذات الاربعاء الواسعة المتلاثة والغارقة فى سكون عظيم . وما عاد يترى فى تلك الاماد اى شىء اخر غير الماء والسماء . بيد انه فى هذه المنطقه بالذات ، وعلى متن حاملة الطائرات «كونفينتسيا» ، وقعت مأساة عالمية بقيت حتى تلك اللحظات غير معروفة لاحد خارج نطاقها ، ترتبط بحدث لم يسبق له مثيل فى تاريخ غزو الفضاء على المحطة المدارية السوفيتية-الامريكية المشتركة «باريتيت» .

ولذلك عمدت حاملة الطائرات «كونفينتسيا» - المقر العلمى الاستراتيجى للمركز السوفريكى الموحد لتوجيه برنامج الابحاث الكونية «ديميورغ» - فى الحال الى قطع كل اتصال لها بالعالم الخارجى ، ولم تغير موقع مرابطتها الدائم الى الجنوب من جزر الوشن فى المحيط الهادى ، بل على الضد ، تمركزت فى تلك المنطقة بدقة متناهية ، وفى نقطة تقع بالضبط فسى منتصف المسافة بين فلاديفوستوك وسان-فرنسيسكو .

وحدثت بعض التغييرات فسى السفينة العلمية نفسها . اذ عزل بأمر من القائدين العامين للبرنامج العاملان المناوبان لوحدة الاتصالات الفضائية - وهما سوفيتى وامريكى - كانا قد استقبلا الانباء عن الاحداث الاستثنائية على «باريتيت» ، عزلا مؤقتا ،



وفرضت عليهما رقابة مشددة وصارمة تحاشيا لتسرب المعلومات عما يحدث . . .

ووضع العاملون في «كونفينتسيا» في حالة من التامسب القصوى علما بان السفينة لم تكن مكلفة بمهام عسكرية ، ولا مزودة باية تجهيزات حربية ، وكانت تتمتع بالحصانة الدولية وفق قرار خاص من هيئة الامم المتحدة . ذلك انها كانت حاملة الطائرات الوحيدة غير العسكرية في العالم .

في نحو الساعة الحادية عشرة قبل الظهر كان يتوقع وصول اللجنتين المسئولتين لكلا الطرفين الى «كونفينتسيا» بفارق زمني امدته خمس دقائق . وكانت اللجنتان ، بلا شك ، مغولتين باتخاذ القرارات الاستثنائية العاجلة والاجراءات العملية التي تراها ضرورية لصالح الامن في بلديهما والعالم .

وهكذا ، فان حاملة الطائرات «كونفينتسيا» كانت في تلك الساعة في عرض البحر الى الجنوب من جزر اليوت عند نقطة تتوسط بالضبط المسافة بين فلاديفوستوك وسان-فرنسيسكو . ولم يأت مثل هذا الاختيار للمكان عرضا ، بل اظهر الفريقان المشرفان على برنامج «ديميورغ» حدة ذهن وبعد نظر لم يسبق لهما مثيل في هذا المجال ، لذلك جاء اختيار موقع السفينة التي كانت تنفذ على متنها الخطة المشتركة المعدة للابحاث الكونية ليعبر عن مبادئ المساواة التامة على اساس التكافؤ المطلق في هذا التعاون الدولي في المجال العلمي-التقني البحث .

وكانت حاملة الطائرات «كونفينتسيا» بتجهيزاتها ومعداتنا واحتياطي قدراتها ملكا للفريقين بالتساوي ، وعلى هذا الاساس عدت السفينة تعاونية مشتركة للبلدين المساهمين فيها . وكانت لها اتصالات لاسلكية وهاتفية وتلفزيونية مباشرة ومفتوحة مع مطاري اطلاق السفن الفضائية في نيفادا وساروزيكي في آن واحد . وكانت ثمانى طائرات نفائة ، اربع لكل فريق ، ترابط على متن السفينة وتواظب على نقل جميع الحمولات وتقسوم بالتحركات اللازمة ل«اوبتسينوبر» في اتصالاته اليومية بالقارات . كان ثمة قبطانان متكافئان في المسئولية على متن «كونفينتسيا» القبطان ١ - ٢ والقبطان ٢ - ١ ، احدهما سوفيتي والاخر امريكي ، وكل منهما يعمل بمثابة الرئيس اثناء السورديات .

وبمقتضى ذلك كانت المسئوليات جميعها ثنائية ، من كلا الطرفين : مساعد القبطان ، الملاح ، الميكانيكي ، الكهربائي ، البحارة ، الخدم . . .

وبالنظام نفسه شكل ترتيب الملاك العلمي-التقني ل«اوبتسينوبر» على «كونفينتسيا» ، اذ وزعت المهام العلمية توزيعا ثنائيا بحيث يمثل الفريقان فيها بالتساوي : ابتداء من القائدين العامين للبرنامج - من كل فريق عالم مختص في الدراسات الكونية ١-٢ و ٢-١ - وانتهاء بجميع الباحثين العلميين والعاملين في جميع الاختصاصات . ولذلك سميت المحطة الفضائية الواقعة في ابعد مدار يمكن بلوغه عن الكرة الارضية «قرامبلين» ب«باريتيت» مجسدة جوهر العلاقة المتبادلة على الارض .

لقد سبق هذا كله ، بطبيعة الحال ، عمل علمي تحضيرى كبير عديد الواجه من قبل المؤسسات العلمية الدبلوماسية والادارية للبلدين وتطلب هذا العمل سنوات طويلة من المساعي لكي يتوصل الطرفان في عدد من اللقاءات والاجتماعات التي لا تخص الى التنسيق في القضايا الخاصة والعامة ذات العلاقة ببرنامج «ديميورغ» .

ووضع برنامج «ديميورغ» نصب عينيه حل مهمة عظيمة للغاية في مجال علم الفضاء في هذا العصر ، وهي تلخص في دراسة كوكب اكس لغرض استخدام ثرواته المعدنية التي تحتوي ، وفق تصورات الارض ، على احتياطي من الطاقة الداخلية (الكامنة) يفوق التصور . وتشير التصورات الى ان مئات الاطنان من المواد الخام تترقد مكشوفة على سطح الكوكب ، ويمكن ، بمعالجة مناسبة ، ان تحرر طاقة داخلية تعادل ما تصرفه اوروبا من الطاقة المحولة الى كهرباء ووقود خلال عام كامل ، هذه هي مواصفات الصخور الصلدة المحتوية على الطاقة في كوكب «اكس» الذي تكون في ظروف المجرة الخاصة بتأثير تفاعلات نشوء الكوكب دامت آمادا طويلة ، مليارات السنوات . وكانت العينات التي جلبتها الاجهزة الفضائية غير مرة من سطح اكس تشهد على ذلك ، فضلا عن نتائج البعثات التي ارسلت العديد من المرات للترول على سطح هذا الكوكب الجميل من منظومتنا الشمسية .







حين تم الالتحام التزامنى ، الذى كان بطبيعة الحال على اقصى درجة من الصعوبة ، كانت الاخبار الاولى المرسله من رائدى الفضاء المراقبين المتسللين الى المحطة المدارية «باريتيت» مذهلة وصاعقة . اذ انهما اعلنا بعد تفتيش الاقسام كلها والمختبرات جميعها ، وكذلك الطوابق بزواياها ومخابئها ، انهما لم يعثرا فى المحطة على رائدى الفضاء ، لا حيين ولا ميتين . . . لم يكن من الممكن ان يخطر هذا ببال احد . ذلك ان المخيلة عاجزة ، اية كانت ، عن تصور ما حل فجأة بانسائين كانا لاكثر من ثلاثة اشهر يعملان على المحطة المدارية ويؤديان لحد الآن بدقة تامة كل المهام الموكولة اليهما . لا يعقل ان يكونا قد تغيرا او خرجا من المحطة الى عرض الفضاء الخارجى !

وكان تفتيش المحطة المدارية «باريتيت» يتم على خط اذاعى تلغزيونى مباشر مع «كونفيكتسيا» وبالمشاركة المباشرة للقائدين العاملين من كلا الطرفين ، اى كبيرى علماء الابحاث الكونية . وكان يشاهد جيدا على الشاشات الكثيرة فى «اوبتسينوبر» كيف كان رائدا الفضاء المراقبان يتحدثان ويفتشان ويعومان بانسياب فى حالة انعدام الجاذبية وفقدان الوزن متنقلين فى جميع اقسام المحطة المدارية وغرفها . وكانا يفحصان المحطة خطوة بخطوة واثناء ذلك يدليان بنتائج عملهما . وتم تسجيل هذا الحديث على اشرطة فى آلات خاصة .

«باريتيت» : اترقبون ؟ لا احد فى المحطة . لم نعر على احد .

«كونفيكتسيا» : هل هناك آثار اشياء مكسورة او عطب او اختلافات فى المحطة ؟

«باريتيت» : كلا . كل شىء يبدو على حاله ، وعلى ما يرام . كل شىء فى مكانه .

«كونفيكتسيا» : ألم تشاهدا اثرا للدم ؟

«باريتيت» : لا ، ابدأ .

«كونفيكتسيا» : اين العاجيات الخاصة برائدى الفضاء ، وبأية

حال هى ؟

«باريتيت» : يبدو ان كل شىء فى مكانه .

«كونفيكتسيا» : مع ذلك ، تاكدا وتحققا .

«باريتيت» : هنا انطباع بانهما كانا هنا قبل قليل ، الكتب والساعات والمسجلات وكل الاشياء الاخرى فى مكانها .

«كونفيكتسيا» : حسنا ، هل من كتابات على الحيطان او الورق ؟

«باريتيت» : لم نلاحظ شيئا من هذا القبيل . لكن مهلا ! سجل الوردية مفتوح على مقطع كبير ، ولكن اوراقه لا تتطاير رغم حالة انعدام الوزن فقد ثبت بمشدات وهو مفتوح لكى ينتبه اليه الداخل مباشرة . . .

«كونفيكتسيا» : اقرأ ما كتب فيه !

«باريتيت» : سنحاول الآن . ثمة نصان كتبنا على عمودين متجاورين بالانكليزية والروسية .

«كونفيكتسيا» : لماذا تتباطآن ؟ هيا اقرأ !

«باريتيت» : العنوان : «رسالة الى سكان الارض» . وبين قوسين «رسالة توضيحية» .

«كونفيكتسيا» : كفا . لا تقرأ . سينقطع الاتصال الآن . انظرا سندعوكما بعد قليل من جديد . كوننا مستعدين .

«باريتيت» : او كى !

وهنا انقطع الحوار بين «باريتيت» و«اوبتسينوبر» واذ تبادل القائدان العامان لبرنامج «ديمورغ» حديثا قصيرا بينهما طلبا من الجميع ان يتركوا وحدة الاتصالات الفضائية عدا عاملى التشغيل الخفيرين من الفريقين . بعد ذلك فقط اعيد الاتصال بين المحطة والمركز الموحد للتوجيه . وهو ذا النص الذى تركه رائدا الفضاء المتكافئان على متن «ترامبلين» :

«ابها الزملاء المحترمون : بما اننا نغادر المحطة المدارية «باريتيت» فى ظروف غير عادية للغاية ، ولفترة غير محددة ، وقد تكون طويلة للغاية - والامر مرهون بمجموعة من الوقائع المتعلقة بمشروعنا الذى لا سابق له - نرى لزاما علينا شرح بواعث سلوكنا هذا .

انا نعرف تمام المعرفة ، ان سلوكنا هذا يبدو ليس غير متوقع فحسب ، بل وغير جائز من وجهة نظر الانضباط الاولى . الا ان الحوادث الاستثنائى الذى واجهناه اثناء وجودنا فى المحطة المدارية فى الفضاء وهو الحادث الذى لا نظير له فى تاريخ



الحضارة البشرية يغولنا ان نأمل ، على اقل تقدير ، فى التفهم من جانبكم . . .

قبل مدة غير طويلة بدأنا نلتقط من بين الاعداد الهائلة من الذبذبات اللاسلكية الآتية من المحيط الفضائى ، وبالدرجة الاولى من الايونوسفير المشبع بالضجيج والتشوش المتواصل ، اشارة لاسلكية موجهة على الموجات القصيرة ، وكانت بيئة جدا ، ولذلك كان يسهل تمييزها بوضوح وتعلن عن نفسها فى زمن واحد معين يتكرر باستمرار وبوقفات متساوية المدة . فى البدء لم نعر لها اهتماما خاصا . غير انها تواصلت بالحاح مذكرة عن نفسها وصادرة بانتظام من نقطة محددة من الكون ، وكانت موجهة حسب مراقباتنا الى محطتنا المدارية بالضبط . اننا الآن نعرف بالتحديد ان هذه الموجات اللاسلكية الموجهة اصطناعيا كانت تصل عبر الاثير حتى قبل فترة طويلة من رديتنا التى هى الوردية الثالثة . اذ ان «باريتيت» موجود فى مدار «ترامبلين» فى الفضاء الخارجى الثانى منذ سنة ونصف سنة . من الصعب علينا التفسير لماذا كان ينبغي ان نكون نحن الاثنين بالصدفة المحض اول المتلقين لهذه الاشارات الصادرة من الكون ، مهما كان فاننا بدأنا نترصد ، ونسجل ، وندرس طبيعة هذه الظاهرة ، ولقد ازدادت قناعتنا تدريجيا وتوصلنا الى نتيجة تؤكد منشأ الاشارات الاصطناعى .

لكننا لم نستأنس بهذه الفكرة بسرعة . ذلك ان الظنون لم تبارحنا طول الوقت . كيف يمكننا الحكم بوجود حضارة غير ارضية استنادا الى حادث وحيد ، وهو الاشارات اللاسلكية الاصطناعية الصادرة وفق تخميناتنا من اعماق الكون المجهولة ؟ ومما كان يردعنا عن هذا القرار كون المحاولات العلمية السابقة التى جرت غير مرة لاكتشاف اى دليل من دلائل الحياة حتى فى ابسط اشكاله ، وان فى جزء متاخم من الكون كانت كلها عقيمة ومخيبة للأمال واعتبر اكتشاف الحياة فى كواكب اخرى أمرا نادر الاحتمال . ثم بعد فترة عدّ ذلك مجرد عمل غير واقعى وطوباوى بما ان هذه الاحتمالات كانت تتضال مع كل خطوة جديدة من الابحاث فى الفضاء الخارجى ، حتى فى البرامج النظرية ان لم نقل انها كانت تتلاشى نهائيا . ولم نتجاسر على الاعلان عن جدسنا ولم

تقدم على مناقضة الفكرة التى تواصلت فى شتى ارجاء العالم بان الحياة على الارض نسيج وحدما ولا مثل لها فى الوجود حتى الآن ، وهى ظاهرة بيولوجية شاذة موجودة على كوكب الارض وحده لا شريك له فيها . ولم نعتبر نفسينا ملزمين بمبادلتكم شكركنا بهذا الصدد ، ما دام هذا النوع من البحوث لم يدرج فى برنامج مهمتنا على المحطة المدارية .

فى برنامج مهمتنا على المحطة المدارية . ونحن اصبح حادث آخر شهادة اخيرة على وجود حياة واعية اخرى فى الكون اضافة الى الحياة على الارض ، لم يبق امامنا متسع من الوقت . لقد اجتزنا قفزة فى الوعى او انقلابا فى الفكر وتغيرا فى تصوراتنا عن الكون ، واكتشفنا فجأة اننا اصبحنا نفكر وفق مقولات اخرى مغايرة عن مقولات الماضى . ان نوعية الادراك الجديد لتكوين الكون واكتشاف مساحات جديدة مأهولة وموطن جديد للطاقة الفكرية قد جعلتنا نتحاشى مؤقنا ابلاغ سكان الارض عن اكتشافنا ، وذلك انطلاقا من المفاهيم الجديدة للعناية بالارض . وقد اتخذنا هذا القرار لصالح مجتمع اكثر معاصرة .

والآن نحدثكم عن جوهر الامر ، وكيف حدث هذا كله . اشباعا لرغبة الفضول ارتاينا ذات مرة ارسال اشارة جوائية لاسلكية موجهة ، بنفس طيف الذبذبات تقريبا ، نحو تلك الجهة من الكون التى كانت تأتى منها الذبذبات اللاسلكية الغامضة باستمرار . وهنا حدثت الاعجوبة ! استقبلت اشارتنا مباشرة ! والتقط جوابنا وفهم ! وردا على اشارتنا ظهر على خط استقبالنا خط اضافى آخر الى جانب الخط السابق ، ثم خط ثالث . وكان ذلك بمثابة تحية . تلقيت ثلاث اشارات لاسلكية فورية من الكون ولعدة ساعات على التوالى مثل مارش احتفالى وحملت الينا اخبارا مبهجة ومغبطة عن وجود كائنات عاقلة خارج مجرتنا تتمتع بإمكانيات عالية للاتصال مع كائنات مماثلة لها على مسافات خارقة البعد . وكانت هذه ثورة فى تصوراتنا عن البيولوجيا الكونية ومعرفتنا لتكوين الزمن والفضاء والمسافات . آمن من المعقول اننا لسنا وحدنا فى هذا العالم ، اى لسنا الجنس الفريد من الكائنات العاقلة فى سرمدية هذا العالم الخاوى على نحو



يستحيل تصديقه . وهل يعقل ان تجربة الانسان على الارض ليست ظاهرة الحياة الوحيدة في الكون ؟ !

ولكى نتأكد من حقيقة اكتشاف حضارة في كوكب آخر ارسلنا عن طريق اشارات لاسلكية موجهة رسما كتلوريا كروكيا لمعالم شكل الكرة الارضية التي نشأت حياتنا عليها بادي ذي بدء . وتستمر فيها لحد الآن ، فاستلمنا جوابا على شكل شفرة تحوى رسما كتلوريا مماثلا لكوكبهم . ولقد توصلنا الى استنتاج مفاده ان ذلك الكوكب المأهول ذو ابعاد كبيرة للغاية وقوة جاذبية مقبولة ومعقولة تماما .

وهكذا تبادلنا المعارف الاولى للقوانين الفيزيائية ، وهكذا باشرنا الاتصال بكائنات عاقلة في كوكب آخر .

واتضح ان سكان الكوكب الارضى رفقاء نشطون في مجال تعميق علاقاتنا وتقريبها . وبفضل مساعيهم ما لبثت ان تشبعت صلاتنا بمضامين جديدة . وسرعان ما علمنا ان بحوزتهم اجهزة طائرة تساوى سرعتها سرعة الضوء . ولقد تمكنا ان نتوقف على هذا كله وغيره بفضل مقدرتنا على تبادل الاراء في الاول عن طريق المعادلات الكيماوية والرياضية ، ثم اخبرونا انهم قادرون على الكلام . وتبين انهم منذ سنوات طويلة قبل ان يخرق سكان الارض جاذبية الكرة الارضية ، ويغزوا الفضاء الخارجى ويستطيعوا الاستقرار فيه ، كانوا يدرسون لغاتنا بواسطة اجهزة فلكية سمعية خاصة تصنعت للمجرة تصنتا دقيقا وتلتقط اشارات الاتصالات اللاسلكية بين الفضاء والارض بصورة منتظمة ، ولقد تمكنا عن طريق المقارنة والتحليل من فك رموز كلماتنا وعباراتنا . وتأكد لنا ذلك عندما حاولوا ان يتفاهموا معنا باللغتين الانكليزية والروسية : وكان هذا اكتشافا مذهلا وخارقا بالنسبة لنا . . .

اما الآن فنحدثكم عن الأمر الأهم . لقد اقدمنا على زيارة هذا الكوكب الواقع خارج الحضارة الارضية . واصطلحنا على تسميته «الصدر الغابى» . وتعود فكرة الزيارة للصدرغابيين الذين وجهوا الينا الدعوة واتخذنا نحن قرارنا بتفكير سليم : اوضح لنا الصدرغابيون ان اجهزتهم الطائرة التى توازى سرعتها سرعة الضوء ستصل الى محطتنا المدارية خلال سنت او سبع وعشرين

ساعة ، وتعيدوا باعادتنا الى محطتنا فى مدة زمنية مماثلة ، متى رغبنا بذلك . وقالوا ردا على استفسارنا حول مسألة الالتحام ان تلك ليست مشكلة ، لان الجهاز الصدرغابى الطائر يمتاز بخاصية الالتحام المحكم بأية مادة مهما كان شكلها او تركيبها ، وقد تكون هذه خاصية الالتحام الكهرومغناطيسى . وراينا انه من الأفضل ان يلتحم جهازهم الطائر بكوننا المؤدية الى الفضاء الخارجى مباشرة ، وسيكون بإمكاننا الانتقال من خلالها اليهم من محطتنا المدارية . وبالطريقة نفسها نزمع العودة أدرجنا ، بالطبع ، فيما اذا نجحت رحلتنا الى «الصدر الغابى» . . .

وهكذا ، فائنا نترك رسالتنا هذه على متن «باريتيت» ، ولكم ان تسموها رسالة توضيحية او مفتوحة او نداء . . . ليس هذا بالجوهر . . . اننا ندرك ادراكا سليما ما تقدم عليه ، وعبء المسؤولية التى اخذناها على عواتقنا . ونعي ان الاقدار شاءت ان تسنح لنا بالذات الفرصة الاكثر اصالة لنؤدى مثل هذه الخدمة للانسانية والتسى لا تتصور خدمة اسمى منها . . .

بيد ان الشعور بالواجب والارتباط والمسؤولية واخيرا الانضباط بالنظام يعذبنا عذابا اليما . . . ذلك الشعور الذى تربى عليه كل منا بتقاليد القديمة وقوانينه ومعاييره الاخلاقية الاجتماعية . اننا نغادر «باريتيت» دون اخطاركم بذلك ، ايها المسؤولون فى مركز التوجيه ، ودون اخطار أى انسان آخر على وجه الارض عموما ، ودون ان ننسق غايتنا وهدفنا مع احد ولا بأى شكل من الاشكال ، لا استغفانا منا بمبادئ الحياة الاجتماعية على الارض ، بل ان هذا الامر اخذ متسعا من وقتنا قضيناه فى تفكير عويص . ونحن الآن مضطران لاتخاذ مثل هذه الخطوات ، ذلك انه من اليسير على المرء ان يتصور اية أمزجة وتناقضات ورغبات تضطرم حين تتحرك القوى التى ترى فى كل هدف من مبادئ الهوكى انتصارا سياسيا وعظيمة نظامها الاجتماعى . لكن ، هيات ! اننا نعرف معرفة جيدة واقعنا الارضى . من يقدر ان يضمن ان امكانية عقد الصلات مع حضارات الكواكب الاخرى لن تصبح سببا آخر للنزاعات العالمية بين سكان الارض ؟



يصعب على الارض ، بل يستحيل ، الابتعاد عن النضال السياسي . لكن اثناء وجودنا امدا طويلا - اياما واسابيع - في الفضاء النائي ، من حيث تبدو الكرة الارضية بحجم لا يزيد عن حجم عجلة سيارة ، كنا نفكر بانتقاض القلب واسف بان ازمة الطاقة العالية التي تدفع المجتمع العالمي الى الهيجان والياس بحيث يجعلان امتلاك بعض الدول للقنبلة النووية - ليست الا قضية تقنية كبيرة . ويا ليت هذه الدول اتفقت على هذا الامر فكان هذا هو الأهم . . . .

وخوفا من تعقيد وضع سكان الارض الوخيم بالاطوار اصلا وبدون ذلك ، تجربانا ان نأخذ على عاتقنا مسؤولية لم يسبق لها مثيل ، هي ان نخاطب سكان هذا الكوكب الارضى باسم الجنس البشرى كله وفقا للمعتقد والضمير . اننا نأمل ونشعر بثقة داخلية اننا سنؤدي هذه المهمة الطوعية على اكمل وجه . . . .

وأخيرا نقول ، اننا كنا في ترددنا وارتيابنا وحيرتنا كنا نهتم اكبر الاهتمام بالا نلحق ببرنامج «ديميورغ» الخسارة ، هذا البرنامج - المبادرة الاعظم في تاريخ الجيوفضائي للانسانية الذي توصل اليه بلدانا بعد سنوات طويلة من انعدام الثقة المتبادلة والتعاون الذي عاش حالة المد والجزر . ومع ذلك انتصر العقل وخدمنا كلانا بنزاهة وانخلاص قضيتنا المشتركة بحدود ما نملكه من قوة وامكانيات ، ولكن بعد تقليبنا الامور من كل وجوها ، ورغبة منا في تجنب برنامج «ديميورغ» المحن بسبب المخاوف المذكورة اعلاه ارتأينا ان نتصرف وفق قرارنا : وهو ان نترك «باريتيت» مؤقتا على ان تقدم للبشرية بعد عودتنا تقريرا عن نتائج زيارتنا لكوكب الصدرغابي . واذا لم نعد او اعتبرتنا القيادة غير جديرين بمواصلة دوريتنا على متن «باريتيت» فليس من الصعوبة احلال آخرين محلنا ، اذ يمكن دائما العثور على شباب يعتمد عليهم وليسوا اسوا منا من حيث اهلية العمل .

اننا نغادر قاصدين المجهول ، ويقودنا الى هناك التعطش الى المعرفة وحلم الانسان الابدى في اكتشاف كائنات عاقلة مثله في عوالم اخرى ، لكي يتوحد فكرها مع فكره . بيد ان لا احد

يعرف ما الذي تخبئه تجربة حضارة الكوكب المجهول : الخير ام الشر للبشرية ؟ اننا سوف نسعى ان نكسب موضوعيين في تقييمنا . واذا ما شعرنا ان اكتشافنا يعود باخطار على الارض ويؤدي الى فناء البشرية فاننا نقسم اليمين حالفين على كون تصرفنا لن يجلب اية ويلات على كرتنا الارضية .

وفي الختام نقول وداعا . اننا نرى الارض عبر كوة السفينة المستديرة ، فهي تضيء كعاسة مشعة في بحر من فضاء اسود . الارض رائعة بزرقتها النادرة المنقطعة النظير . فهي هشة مثل راس الوليد . ويخيل لنا من هنا ان جميع الناس الذين يعيشون في العالم هم اخوتنا واخواتنا ، ولا نتجرأ ان نتصور انفسنا بدونهم . على اننا نعرف انه من المستبعد ان تنحسر العلاقة على الارض هذا النحو بالذات .

اننا نودع الكرة الارضية . ويتحتم علينا ان نغادر مدار «ترامبلين» بعد ساعات معدودة ، وعندئذ تختفي الارض عن انظارنا . ان الصدرغابيين لقادمون ، وهم قريبون من مدارنا . وسيصلون قريبا ، ولم يبق الا القليل ، ونحن بانتظارهم .

ونحن نترك ايضا رسالتين لعائلتينا . ونرجو رجاء حارا من جميع ذوي العلاقة بهذه القضية ايصال رسالتينا الى العنوانين المعينين .

ملاحظة : معلومات لمن يحل محلنا على متن «باريتيت» ، لقد اشرفنا في سجل الدورية الى قناة استقبال الموجات اللاسلكية وذئبتنا ، تلك القناة التي عقدنا بواسطتها الصلات مع سكان الكوكب الاخر . عند الضرورة سنتصل بكم عبر هذه القناة ونقدم تقاريرنا . وقد استوضحنا قدر امكاننا من خلال الاتصالات اللاسلكية التي جرت مع الصدرغابيين ان الوسيلة الاوفى والواحد للاتصال هي بواسطة الاجهزة الموجودة في المحطة المدارية ، لان الاشارات اللاسلكية الموجهة من الكون الى الارض مباشرة لا تصل سطحها نظرا لوجود حاجز لا يقهر ، وهو محيط مؤين جبار في الجو حول الارض .

هذا كل شيء . وداعا .  
حرر نص الرسالة باللغتين الانكليزية والروسية .



رائد الفضاء ١-٢

رائد الفضاء ٢-١

متن المحطة المدارية «باريتيت»

الوردية الثالثة . اليوم الرابع

والتسعون» .

في الميعاد المحدد تماما ، عند الساعة العادية عشرة ، بتوقيت الشرق الأقصى ، هبطت بالتتابع على سطح حاملية الطائرات «كونفينتسيا» طائرتان نفاثتان تحمل لجننتين ذات صلاحيات خاصة من الجانبين الامريكى والسوفيتى .

تم استقبال اعضاء اللجننتين وفق قواعد البروتوكول الصارمة . وأعلن لهم مباشرة ان فترة الغداء ينبغي ان لا تتجاوز نصف ساعة . وبعد الغداء فوراً كان يتوجب على اعضاء اللجننتين عقد اجتماع مغلق في قمرة الضباط ارتباطا بجلسة الطوارئ على المحطة المدارية «باريتيت» .

وقطع الاجتماع الذى بدأ لتوه اذ بث رائدا الفضاء المراقبان الموجودان في «باريتيت» تقريرهما الاول الى مركز التوجيه فى «كونفينتسيا» والذى حصل عليه من رائدى الفضاء المناوبين ١-٢ و ٢-١ عن المجرة المجاورة ، من الكوكب «الصدر الغامى» .

## الفصل الرابع

كانت القطارات فى هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق .

وعلى جانبي خط السكة الحديد كانت تمتد مساحات شاسعة من الاراضى الصعراوية - سارى اوزيكى ، الاراضى الوسطى من البرارى الصفراء . . .

وفى هذه الانحاء كانت المسافات تقاس نسبة الى خط السكك كانه خط غرينيتش . . .

اما القطارات فواصلت سيرها من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق . . .

مهما قلبنا الامور على عواصنا فان المسافة حتى مقبرة الاسلاف آنا بايت ليست قصيرة ، فهى تقدر بنحو ثلاثين فرسغا اذا سار المرء فى ساروزيكى بخط مستقيم تقريبا .

استيقظ يديغى البورانى فى ذلك اليوم مبكرا . بل ولم تكذ تكتحل عيناه بالنوم ، وما ذاقه الا لاما عند مطلع الفجر ، وقبل ذلك كان مشغولا بتجهيز المرحوم قازانغاب وتكفينه . ويجهز الميت عادة فى يوم الدفن قبيل اخراج جثمانه من البيت ، اى قبل صلاة الجنائز . وتحتم عليه ان يؤدى ذلك كله ليلا عشية الدفن . لكى يشد الرحال فى الصباح دون تاخير . وقام بنفسه بكل ما تطلب القيام به ، اذا لم تأخذ بعين الاعتبار ان عادل باى الطويل جلب الماء المدفأ لغسل الميت . عادل باى الطويل توجس قليلا وتجنب الدنو من المرحوم . بالطبع كان ذلك مرعبا . وقال له يديغى معاتبا :

- عليك ان تعاد يا عادل باى . سيفيدك هذا فما دام الناس يولدون فهذا يعنى ايضا انهم يموتون .

اجاب عادل باى بلهجة غير واثقة :

- نعم ، افهمك .

- هذا ما اردت ان اقله ، بالمناسبة ، اذا مات انسانا

غدا ، فهل ستعترون على من يجهزنى ؟ ام سترموننى فى حفرة ما كيفما اتفق ؟

- ما هذا الكلام ! - تعكر عادل باى وهو يضىء بالفانوس

ويحاول ان يتكيف بالقرب من المرحوم - لا نفع فى هذا المكان دونك ، ومن الافضل ان تعيش ، اما الحفرة ففى وسعها ان تنتظر .

استغرق التجهيز نحو ساعة ونصف ساعة ، لكن بالمقابل شعر يديغى بالرضا . فلقد غسل المرحوم كما ينبغي ، وعدل من وضع يديه ورجليه كما يجب ، ثم لفه بكفن ابيض كما جرت عليه العادة دون ان يبخل بالقماش . واثنا ذلك ارى لعادل باى كيف يلف جثمان الميت بالكفن وبعد ذلك هتدم قيافته وحلق ذقنه حلقة ملساء ، وحدد شاربيه . وشارباه كنيغان مثل حاجبيه ، بيد ان الشيب بدا فى وخطهما . وحتى لون الجلد صار اقرب الى الرمادى . ولم ينس يديغى مدالياته



العسكرية . فمسخ الاوسمة والشارات التي كوفى بها الى درجة الصقل وشبكها على صدر سترته ، واستعد ليوم غد .

هكذا انقضى الليل . وكان يديغي البوراني يتعجب طول الوقت من نفسه . كيف انجز هذا كله بهذه البساطة ورباطة الجاش . ولو كان احد قد ذكر له في السابق انه سيؤدي هذه المهمة المفجعة بهذا الشكل لما صدقه . ويبدو انه كان قد كسب عليه ان يدفن قازانغاب بيديه ، هذا حكم القدر .

هكذا بالضبط من كان يتصور ذلك عندما التقيا للمرة الاولى في محطة قمبييل . تسرح يديغي بعد اصابته بالصدمة العصبية اواخر العام الرابع والاربعين . كان يبدو في مظهره وكأنه غل ما يرام : يداه ورجلاه في اماكنها وراسه فوق كتفيه ، لكن كان يخيل اليه وكأنما راسه غريب عنه . كان الضجيج لا يكف في اذنيه ، مثل الريح التي لا تهدأ ثائرتها . وما ان يسير عند خطوات حتى يترنح ويشعر بدوار الرأس وبالغشيان بينما يفرق جسده بعرق حار تارة وبارد تارة اخرى . واحيانا لا يطاوعه لسانه ، فيجهد نفسه كثيرا كلما نطق بكلمة . كانت موجة انفجار الصاروخ الالمانى قد هزته هزا عنيفا . صحيح انها لم تقتله ، لكنها جعلت حياته بلا معنى . ولقد تكدر يديغي حينذاك الى آخر حد . اذ كان بمظهره شابا صحيح البدن معافى ولكن ، ما هو يعود الى مسقط راسه ، الى بحر آرال وهو بهذه الحال ، ماذا سيفعل ، واية فائدة ترتجى منه ؟ ولحسن حظ عالجه طبيب قدير ، والحق يقال انه لم يعالجه ، بل فحصه واختبره كما يتذكر الآن . كان رجلا اشقر ضخما يرتدى صدرية بيضاء ويعتمر قلباقا ، وذا عينين صافيتين وانف كبير ، ربت على كتفه بمرح وضحك قائلا :

- ارايت يا اخي ، الحرب ستضع اوزارها قريبا ، والا لكنت قد اعدتلك الى الجبهة من جديد ، لكى تقا تل فترة اخرى من الوقت . طيب ، اننا سنحقق النصر ونفوز به دون اسهامك . لكن لا تذهب بك الظنون كل مذهب فبعد سنة او اقل سيكون كل شىء على ما يرام . وستكون سليما معافى كالتور . هذا ما اقوله لك ، وستتذكر كلامى فيما بعد . اما الآن ، فهيا اجلس

حاجياتك وسافر الى منطقتك ، ولا تتباطأ . ان امثالك يعيشون

مائة عام . . . ان ذلك الطبيب الاشقر لم يقل الا الحقيقة . ولقد يظهر ، ان ذلك القول «بعد سنة» لم يكن سهلا الا حصل ذلك تماما . ولكن القول «بعد سنة» لم يكن سهلا الا باللفظ ، عندما خرج من المستشفى العسكري - بمعطف الجنود المدعسوك وعلى ظهره قمطر وفسى يده عكاز تحسبها لكل الاحتمالات ونزل الى المدينة ، شعر كأنه دخل غابة كثيفة ، كان يحس بضجيج فى راسه وقشعريرة فسى رجليه وعتمة امام عينيه . ومن يهتم بحالك فى المحطات والقطارات ، فالناس هناك لا يعدون ولا يحصون ، والقوى منهم يندس حيث يريد ويتنحى سواء جانبا . ومع ذلك جرح قدميه وتمكن من الوصول . وبعد شهر من الحل والترحال توقف القطار ليلا فى محطة آرال . وكان ذلك القطار «المشهور» يسمى «قطار ٥٠٧ المرح» ، لا قدر لاحد ان شاء الله ، ان يسافر فى قطار مثله . . .

كان عند ذاك مسرورا حتى بمثل هذا النصيب . نزل من عربة القطار فسى العتمة مثلما ينحدر المرء من جبل ، وتوقف حائرا ، والدنيا ظلام دامس من حوله ، فيما عدا مصابيح المحطة التي كانت تضىء . وكانت تهب رياح عاتية . وهذه الرياح وحدها هي التي كانت فى استقباله . رياح آرال العزيز ! وسرعان ما واجهه البحر . وكان البحر فى تلك الايام قريبا ، يطرطش تحت السكة الحديد . اما الآن فلا يرى حتى بالمنظار المقرب . . .

واذ هبت رائحة خفيفة ، بالكاد محسوسة لنبات الشيب من السهب ، هي رائحة استيقاظ الربيع الذى حل من جديد فسى المراتح المحيطة بأرال ، احتبست انفاسه . ما هو مسقط الرأس العزيز مرة اخرى !

وكان يديغي يعرف جيدا المحطة وبلدتها الواقعة على شاطئ البحر بشوارعها الصغيرة المنحنية . التصق الطين بجزمته ، وهو يذهب الى بيت صديقه لكى يقضى عنده ليلته ، على ان يتوجه فى الصباح الى اوول جانغيلدى لصيادى الاسماك ، والذي يبعد مسافة لا يستهان بها . ولم ينتبه لنفسه كيف قاده الشارع الصغير الى نهايته ، الى الشاطئ نفسه . وفى هذه



الاثناء لم يتمالك يدبغي نفسه فاقترب من البحر . وتوقف عند الحد الذي كان الماء يطبطب فيه على الرمل . وكان البحر المملح بالظلام ينبي عن نفسه من خلال لطخات ضوء غير واضحة على اعراف الامواج التي كانت تظهر اشبه ما يكون بشطبة من قلم رسام ، وتختفى حالا . وكان القمر في الهزيع الاخير من الليل قبيل الفجر ، وضربت بقعة وراء غيمة في الاعلى الى البياض . يبدو انهما التقيا . همس يدبغي :

- مرحبا يا آرال .

ثم اقتعد حجرا ، واشعل سيكارة ، مع ان الطبيب نصحا كثيرا بعدم التدخين نظرا لحالته . لكنه ترك هذه العادة السيئة فيما بعد . اما في ذلك الوقت فقد فكر في داخله ما اصبه الدخان طالما ليس واضحا كيف سيعيش مستقبلا . والجل انه يجب ان يكون للمرء ، عند مزاوله صيد السمك في البحر يدان قويتان ، وقطن متين في الشبكة ، والا هم رأس ثابت ، لئلا يترنح في الصندل . كان قبل الحرب يعمل صيادا للسمك على متن سفينة ، اما الآن فمن هو ؟ حتى انه ليس معوقا بمعسر الكلمة ، وعلى العموم لا ينفع في اى عمل . وفي المقام الاول ليس رأسه بذى نفع للصيد ، وهذا واضح تمام الوضوح .

وكان يدبغي قد هم بالتهوض عندما ظهر من مكان ما كلب ابيض ، كان الكلب يركض خيبا على حافة الماء . ويقف احيانا متشمسا الرمل الرطيب بعد العمل . استماله يدبغي واستدعاه ، فاقترب بثقة وتوقف جانبه هازا ذيله . ربت يدبغي على رقبته الشعثاء .

- من اين جئت ، ها ؟ ما اسمك ؟ ارستان ؟ جولبارس ؟ بوريباشر ؟ افهمك ، انك تبحث عن سمكة على الساحل . انت شاطر ! شاطر ! لكن البحر ليس دائما يقذف الى شاطئه بسمكة ميتة . ليس باليد حيلة ! انت مضطر الى الركض ، ولذلك فانت ضعيف هذا الضعف . اما انا يا صديقي فعائد الى البيت من مشارف كنزبرغ . ولم تكن قد بقيت الا مسافة قصيرة لبلوغ هذه المدينة حين انفجر صاروخ بقرى . وبقيت على الحياة بقدره

\* اسد ؟ نمر ؟ كلب ذئبي ؟ المؤلف .

قادر . وما انتى الان اقلب الامور على اوجها كافة ، وافكر كيف يجب ان اتصرف . لماذا تحلق بسى هكذا ؟ لا شى عندى لك . هذه اوسمة وميداليات . . . الحرب لا تزال دائرة يا صديقي والوجع قد حل في كل مكان . والا لها بخلت عليك . . . مهلا عندى قند احملة لابنى ، ومن المفروض انه يركض الآن . . . ولم يتكاسل يدبغي ، ففك صرته الصغيرة التي كان يحمل فيها حفنة من القند ملفوفة بمزقة من جريدة ، وخمارا لزوجته اشتراه من المسافرين في المحطة ، وعسدة قطع من الصابون اقتناها ايضا من المضاربين بالسوق السوداء . وكانت صرته تحوى كذلك زوجا من الملابس الداخلية وحزاما وطاقيّة وقميصا عسكريا وينطلونا . هذه محتويات جعبته كلها .

التقط الكلب بلسانه قطعة القند من راحة يد يدبغي ، وبدا يقرقشها معترقا له بالجميل بهزة من ذيله ناظرا باهتمام وولاء ، بعينين ملتعتين مفعمتين بالأمل .

- والان وداعا .  
نهض يدبغي ومشى على امتداد الشاطئ ، وارتابى الا يضايق معارفه في المحطة ، فقد اتشوق عمود الفجر ، ولا ينبغي له التأخر عن السفر حالا الى اوول جانغيلدى .

ولم يصل جانغيلدى الا عند انتصاف النهار . كان يسير طول الوقت بمحاذاة البحر . قبل اصابته بالصدمة العصبية كان يركض هذه المسافة في ظرف ساعتين تقريبا ، وفي الاوول صمقه نيا مفزع ، اذ اتضح ان ولده قضى نحبه منذ زمن . عندما جند يدبغي كان الصغير يبلغ من العمر نصف عام . ولم يرحمه القدر فمات في شهره الحادى عشر . وكان قد اصيب بمرض الحسبة وبسبب ارتفاع درجة حرارته توقف قلبه عن الخفقان . ولم يكتبوا عن هذا لوالده في الجبهة . والى اين يكتبون ولماذا ؟ في الجبهة بلا هذا تكفى المصائب السوداء . اذا عاد حيا سيعرف بالأمر حال وصوله ويحزن ويكابد ، حكم الاقرباء في المسألة حسب تصوراتهم ، وتشاوروا مع اوق بالا حول الامر . ونصحوها بالا لكتب لزوجها عن موت ابنه . ذلك انهم اعتبروا ان الحرب ستنتهى ، وان الزوجين الشابين سينجبان اطفالا آخرين ، والله سيعطيها ويمن عليهما بفضل . «اذا انكسر غصن من شجرة



دلب فليست هذه بمصيبة ، الأهم ان يبقى الجذع سالما ،  
وكانت ثمة تصورات اخرى ، لم يتجرأوا ان يصرحوا بها علنا ،  
لكنها كانت مفهومة من قبل الجميع : الحرب هي الحرب ، واذا  
اصابت والده رصاصة ، على الاقل ، سيودع العالم في اللحظات  
الاخيرة وقلبه مغمم بالامل معتقدا انه ترك خلفا له في البيت ،  
ولن ينقطع نسله . . .

اما اوق بالا فراحت تعذب نفسها عذابا اليما . انطلقت  
باكية منتحبة وضمت الى صدرها زوجها العائد . ذلك انها كانت  
قد عقدت آمالها على هذا اليوم ملوعة بعذاب الانتظار . وراحت  
تحدثه والدمع مدرار ان العجائز نبهنها ان الولد مصاب  
بالحصبة ، وان هذا المرض غادر ، وعليها ان تلف الطفل بلحاف  
دافئ مضرب من وبر البعير ، وتبقيه في غرفة مظلمة ، وتعطيه  
الماء المبرد بين فينة واخرى ، ثم تتركه وهو على هذه الحال  
لرحمة الله ، فاذا تحمل الحرارة ، شفى وابل ، بيد انها امرأة  
تعيسة ، لم تسمع نصيحة عجائز الاول . استعارت عربة من  
الجيران واخذت الطفل المريض الى الطبيب في المحطة ، وحين  
بلغت آرال في تلك العربة الكثيرة الارتجاج كان الوقت قد  
فات . وقضى الولد نجه في الطريق . صبت عليها الطبيبة سيلا  
من الشتائم ، ووبختها لكونها لم تسمع كلام العجائز . . .

كانت اخبار كهذه تنتظر يدبغي فسي البيت ، ما ان اجتاز  
غيبته . فتحجر في مكانه واسود من الغم منذ تلك اللحظة . فما  
كان يتوقع سابقا انه سيعانى مثل هذا الحنين وبهذه القوة الى  
صغيره ، الى وليده البكر الذي لم يهدمه كما ينبغي . وبسبب  
من هذا الشعور راح يحس بالم عمق لفقدانه . لم يستطع ان  
ينسى تلك الابتسامة الطفولية المضيئة الواثقة التي كلما تذكرها  
تقطر قلبه دما .

وابتدا كل شيء من ذلك الحادث . فقد مل يدبغي الاول .  
في غابر الازمان كان على هذا التل الرملي من الساحل نحو خمسين  
بيتا يعيش سكانها على صيد الاسماك في بحر آرال . وكانت ثمة  
جماعة تعاونية لصيد الاسماك . اما الآن فلم يبق الا عشرة اكواخ  
قرب الجرف ، لا احد فيها . طحنت الحرب الرجال كلهم برحاما  
وتركت الشيوخ والاطفال ، وحتى هؤلاء يعدون بالاصابع ، ذلك

ان الكثير منهم رحلوا الى آرول فيه كلخوز للانتاج الحيواني  
لئلا يموتوا جوعا . وحلت التعاونية ، ولم يبق احد ليركسب  
البحر .

وكان في وسع اوق بالا ايضا ان ترحل الى ذويها ، وهي  
تتحد من قبيلة سهبية . وقد جاء الامل في طلبها ، واعربوا عن  
رغبتهم في استصحابها معهم ، على ان تنتظر عندهم بضع سنين ،  
فما ان يعود يدبغي من الجبهة حتى تعود هي ايضا الى  
جانغيلدي ، قرية صيادي الاسماك ، ولن يمنعها من ذلك احد .  
بيد ان اوق بالا رفضت رفضا قاطعا قائلة : «سأنتظر زوجي .  
لقد فقدت ولدي . واذا عاد زوجي حيا فانه على الاقل سيجد  
زوجته في البيت . وانا لست وحدي في القرية ، بل ثمة عجائز  
واطفال ، سأساعدهم ، ونصمد سوية» .

لقد تصرف اوق بالا تصرفا صحيحا . بيد ان يدبغي ، منذ  
الايام الاولى ، انشأ يقول انه لم يعد قادرا على تحمل البقاء في  
القرية ، على شاطئ البحر ، بلا عمل . وكان محقا في ذلك . اقترح  
اهل اوق بالا الذين جاءوا لزيارته ان ينتقل الى منطقتهم ،  
عارضين عليه العيش مع رعاة قطعان الضأن في السهوب ،  
ولعله سوف يستعيد بذلك صحته ، على حد قولهم ، ويشغل  
نفسه بعمل ما ، سيما وهو قادر على رعي الماشية . . . عبر  
يدبغي عن امتنانه لهم ، لكنه لم يوافق . كان يدرك انه  
سيغدو عالة عليهم . ففي امكان ذوي زوجته واقربائها ان  
يستضيفوه بضعة ايام لا اكثر ، ثم ، اذا اتضح لهم انه غير  
قادر على العمل كما ينبغي فسوف تنتفي الحاجة اليه .

عندئذ عزم يدبغي واوق بالا على المجازفة ، وقررا الارتحال  
الى سنك الحديد ، ظنا منهما ان عملا ما مناسب ، لا بد ان يتوفر  
هناك ليدبغي ، كخارس مثلا او مراقب على حاجز طريق ، لا سيما  
وان هذا العمق القادم من الجبهة حقيق بالمساعدة وجدير بها .  
وغادرا الاول في الربيع مع هذا الامل . كانا شابين لا  
يرتبطان بشيء . في بداية الامر كانا يقضيان الليالي في  
المحطات ، بيد انهما لم يوفقا فسي العثور على العمل المناسب .  
ليوما بعد يوم اصبحا يعانيان معاناة شديدة بحثا عن المأوى .  
وسكنا كيفما اتفق واينما كان . واعتاشا على مختلف الاعمال



المؤقتة في محطة القطار . وكانت اوق بالا عونا له ، تؤدي  
الجزء الاكبر من العمل ، لكونها شابة وصحيحة الجسم . امسا  
يديفي الذي يبدو بمظهره صحيحا معافى فكان ملتزم مقاولة  
تحميل وتفريغ العربات ، بينما اوق بالا هي التي تؤدي العمل .  
وعلى هذا المنوال وجدا نفسيهما ذات مرة ، وكان ذلك في  
اواسط الربيع في محطة قمبيل الرئيسية الضخمة . وعملا هناك  
في تفريغ الفحم من العربات ، كانت العربات المملوءة بالفحم  
تصل الى خطوط سكك الحديد الاحتياطية ، والى الابواب الخلفية  
لعناير المستودعات مباشرة . وهناك كانا ينزلان الفحم على  
الارض اول الامر ، وذلك لتفريغ العربات بسرعة ، ثم ينقلان  
هذا الفحم بعربات يدوية ويرميانه على كومة كبيرة بحجم البيت .  
وكان هذا احتياطي الفحم للسنة كلها . لقد كان عملا شاقا  
ومغبرا وقذرا للغاية . لكن لا بد من العيش ، وكان يديفي يملأ  
عربة يدوية بذلك الفحم مستخدما المجرفة . فتدفعها اوق بالا  
الى فوق ، وتفرغها وتعود بها الى الاسفل من جديد ، ويعيد  
يديفي مجددا ملء العربة بالفحم وتجرها اوق بالا مرة اخرى ،  
وهي تسحب هذا الحمل الذي لا يناسب النساء الى كومة الفحم  
بكل ما اوتيت من قوة . فضلا عن ذلك كان حر النهار يتزايد  
باطراد ، حتى يقدو قائظا وكان يديفي بسبب هذه الحرارة  
والسخام الاسود المتصاعد من الفحم يشعشع بالعثيان والقى ،  
ويحس بانهييار قواه . وكم ود لو انطرح على الارض ، وبين  
اكوام الفحم مباشرة ، فلا ينهض ابدا . لكن اكثر ما كان يعذبه  
هو ان زوجته كانت تأتي لاهثة تغمرها سحابة من الغبار الاسود  
لكي تؤدي بدلا منه ما كان يفترض ان يؤديه هو . كان يصعب  
عليه النظر اليها وهي مكسوة من قمة رأسها حتى اخمص قدميها  
بالسخام ، ولا يلوح منها سوى عينيها وأسنانها ، وهي مبتلة  
تماما بالعرق ، وقد سالت مسارب سوداء وسنخة منه على رقبته  
ونحرها وقفاها . وهمل كان يسمح بهذا لو انه كان متسما  
بسابق قواه ! لكان قد فرغ لوحده عشرات العربات من هذا  
الفحم اللعين ، لثلا يلمح ما تكابده زوجته من تكال العذاب .

حين تركا جانغيلدي أوول صيادي الاسماك المقفر آملين  
بان يجد المصايب القادم من الجبهة عملا مناسباً ، لم يحسبا

حساب امر واحد ، الا وهو ان امثال هذا القادم من الجبهة  
كثيرون ، وتكتظ بهم الاماكن كلها . تحتم عليهم جميعا ان  
يتكيفوا من جديد للحياة ولحسن الحظ كان يديفي قد عاد  
باطراف سليمة . وكم من المشوهين مبتورى السيقان او  
السواعد وعلى عكازات كانوا يتسكعون آنذاك في محطات القطار .  
في ذلك الوقت ، بعد ان كانا يظفران بمكان لهما في ركن زاوية  
من بناية المحطة العفنة المكتظة بالناس متريشين انتهاء الليل ،  
كانت اوق بالا ، تطلب العفو والمغفرة ، رافعة  
الحمد والشكر الى الله العلي القدير بهمس ومناجاة على وجود  
زوجها الى جانبها لم تلحق به الحرب تشوها مروعا مستديما ،  
فان ما شاعده في المحطات جعلها تقاسى الرعب والمعاناة . كان  
الناس مقطوعى الارجل والايدي جرحى ومشوهين يرتدون معاطف  
عسكرية متهرقة وشتى الخرق البالية ، ويسيرون على عكازات  
او على عربات او يقودهم مرافقون ، لا ملاذ لهم ، ينتقلون من  
قطار الى قطار ومن محطة الى محطة ، ويسعون الى المقاصف  
والحوانيت ، مروعين نفوس الناس بزعاتهم الهستيرية  
ويكاثمهم . . . اي مستقبل ينتظر هؤلاء ، وبماذا يمكن تعويضهم  
عما فقدوه ؟ وكانت اوق بالا مستعدة ان تؤدي اشق الاعمال في  
العالم لسبب واحد فقط ، هو سلامتها من ماساة كهذه ، مع  
العلم بانها كان يمكن ان تصيبتها ، وكون زوجها قد عاد . وان  
كان مرضوضا ، لكنه ليس مشوها . ولذلك لم تتذمر ، ولم  
تضجر ولم تجار بالشكوى ، حتى عندما كان متعذرا عليها جر  
قدميها وبدا لها انها لم تعد قادرة الصبر .

غير ان يديفي لم يشعر من ذلك باليسر . وكان حتما عليه  
اتخاذ خطوة ما لكي يستقر في الحياة على نحو اكثر ثباتا ، اذ  
ليس ممكنا الترحل على مدى العمر . وكانت دائما تلح على رأسه  
فكرة : ماذا لو قلت لنفسي «تاوباكيل» \* ، ورحلت الى المدينة ،  
ههنا كان من امر ؟ آه ، لو عادت الي صحتي ، لو تخلصت من  
هذه الرضوض اللعينة . اذن لاصبح في مقدوري مصارعة  
الحياة ، والدفاع عن نفسي . . . كان من الممكن ، بالطبع ، ان

\* تاوباكيل - فليكن ما يكون . المؤلف .



تحول الحياة وجهتها الى اية جهة ، وفسى المدينة كان ممكنا ان يتكيفوا مع الزمن لظروفها ويصبحوا من اهل المدن شأن الكثيرين الآخرين ، لكن شاء حكم القدر امرا مغايرا . اجل ، هذا هو مصيرهما وهو المكتوب لهما على الجبين . . .

فى تلك الايام ، عندما كانا يجوبان ارجاء محطة قومبيل ، ويلتزمان المقاولات بتفريغ عربات القطار من الفحم ونقله الى الكداس ظهر فى الباحة الخلفية لعنبر الفحم ذات مرة قازاخي يمتطى ظهر بعير ، ولعله جاء من السهوب لقضاء بعض الاعمال . هكذا ، على اية حال ، كان يبدو من مظهره . اناخ القسام بعير فى ارض خلية وعقله ، وتلفت للتحقق ، ثم تركه وسار وهو يتأبط كيسا فارغا . ولما مر الرجل بجانب يديفى خاطبه بقوله :  
- ايها الاخ ، هلا اسديت لى معروف ومنعت الاطفال من مشاكسته . لقد تعلموا عادة سيئة هسى مشاكسة الحيوانات وضربها . بل وربما يفكون وثاقه من باب التسلية . لن اغيب الا فترة قصيرة .

- اذهب ولا تقلق بالك سيكون تحست عهدتى . - وعد يديفى وهو يتحكم بالمجرقة ماسحا وجهه بخرقه سوداء مبتلة من العرق .

كان العرق يسيل على وجه يديفى بلا انقطاع ، وهو يستغل بالقرب من كومة الفحم جارا العربية . وليس من العسير عليه ان يتلفت بين حين واخر ليتحقق ان الاولاد العابثين من ابناء العاملين فى المحطة لا يهيجون ولا يؤذون البعير المسكين ؟ سيما وانه ذات مرة كان شاهدا على شيطانهم ، اذ اوصلوا الحيوان الى حالة اصبح معها يرغو ويبصق ويركض نحوهم وخلفهم . بينما هم كانوا يستمتعون بذلك ، ويحيطون به مصدرين اصواتا وحشية مثل الصيادين البدائيين ، ويرجمونه بالحجارة والعصى ، ويتحمل البعير المسكين كل هذا العبث الى ان جاء صاحبه . . .

وفى هذه المرة ، وكانما نكاية به ، اينما نظر راي شلثة من الاطفال الطائشين يلعبون فى الشارع كرة القدم . واخذوا يصدمون البعير المعقول بالكرة بكسل ما اوتوا لهم من قوة . والبعير يحاول الابتعاد عنهم ، وهم يضربون الكرة على جنبه ، وكل يحاول ان يسدد الضربة اقوى وامهر من صاحبه . وما ان

تصيب البعير حتى يبتهج وكأنه سجل هدفا فى مرمى الفريسق الخصم . . .  
- ويحكم يا اولاد ، انقلعوا من هنا ، ولا تضايقوه ! -  
- والا اريتمكم !

ولوح لهم بمجرفته مهددا : - والا اريتمكم !  
انسحب الاولاد لاعتقادهم ان حمال الفحم هذا هو صاحب البعير ، او بسبب مظهره المرعب . فابتعدوا راكلين كرتهم خوفا من ان يكون سكران فتحل بهم على يده مصيبة ، غير عارفين انه كان يوسمهم ان يعذبوا البعير ما شاؤوا دون خشية من اى عقاب ، ذلك ان يديفى مددهم بالمجرقة على سبيل التظاهر ليس الا . فانه فى حقيقة الامر ما كان ليستطيع ، وهو فى تلك الحال التى كان عليها ذلك الوقت ، ان يجرى وراءهم ويلحقهم بالمرّة . كان كل جاروف من الفحم يرميه فى العربية يكلفه جهودا مضنية . ولم يخطر له قط من قبل ان الضعف مذلل ومهين لهذه الدرجة ، وانه يجعل الانسان اشبه ما يكون بسقط المتاع . كان الدوار يعذبه باستمرار ويتصعب عرقا غزيرا ، وقواه تخور تحت ثقل الفحم وانفاسه تضيق وتثقل الرطوبة على صدره فيحس بالاختناق . وكانت اوق بالا لا تنفك حريصة ان تتولى الجزء الاعظم من العمل على عاتقها ، لكى يرتاح قليلا ويجلس جانبا ، وفى هذه الاثناء كانت تدفع العربية وترفع الى الاعلى كومة الفحم . بيد ان يديفى لم يستطع ان يراقب بهدوء بال كيف تضنى نفسها ، فينهض من جديد ويشرع بالعمل وهو يترنح . . .

وسرعان ما عاد ذلك الرجل الذى رجاء ان يتعهد البعير بنظره واضعا على ظهره حملا ، وبعد ان ثبته على ظهر البعير ونهيا للرحيل تقدم من يديفى ليبادله بضع كلمات . ولا يتذكر كيف دخلا فى الحوار ، وكان هذا قازانغاب القادم من بورانلى-بورانلى . . .

واتضح انهما من ابناء منطقة واحدة . وذكر قازانغاب انه ينحدر فى اصله ايضا من ساحل آرال . ولقد قربهما هذا الامر من بعضهما البعض بسرعة .

ولم يخطر ببال احد ، آنذاك ، ان هذا اللقاء سيعين مسبقا الحياة اللاحقة ليديفى واوق بالا . كل ما فى الامر هو ان قازانغاب اتنعهما بالانتقال معه الى مفرق بورانلى-بورانلى ،



ليعيشنا ويعملنا هناك . يلتقي المرء أحيانا بالفعل مثل هذه الانماط من الناس الذين يميل الآخرون اليهم منذ اللقاء الاول . ولم يكن في شخص قازانغاب اى مظهر مميز ، بالعكس ، كانت البساطة نفسها تتوسم فيه انسانا اكتسب ذكاهه بمشقة الصبر . وكان يظهروه كازاخيا عاديا يرتدى ملابس باهتة رثة اتخذت شكلا ملائما عليه . وليس من الصدفة ان يرتدى سروالا من جلد الماعز المضروب وهو الآخر لم يكن عاديا ، فهو مناسب للسفر على ظهر بعير . غير انه كان يعرف قيمة الملابس فاعتصر سدازة لبدلة عمال سكك الحديد جديدة نسبيا وهو يحتفظ بها خصيصا للسفرات ، وانتعل جزميتين من الجلد المطلى بالكروم بقيطان من المشمع كثرت فيهما الرقع لطول استعمالهما . وكان فى وسع المرء ان يلاحظ انه ابن سهوب وشغيل من وجهه الاسمر الداكن الخشن من الشمس الواحفة والرياح اللائحة ويديه الجاسنتين المعروقتين . وبسبب احدياب ظهره قبل الاوان من العمل تهدل كتفاه ، لذا بدت رقبتة طويلة وممدودة مثل رقبة اوز مع انه كان متوسط الطول . وكانت عيناه عجيبتين تشعان بابتسامة وعندما تضيقان تتجمع حولهما التجاعيد والغضون .

وكان قازانغاب آنذاك قد ناهز الاربعين . ولعله بان كذلك لان شاربيه القصيرين المقصوصين ولحيته الصغيرة بدت ملامح رجل كبير فى السن . لكنه كان يوحى بالثقة فيه اكثر من خلال حديثه . وحظى هذا الرجل مباشرة باحترام اوق بالا . وكان حديثه ، وكل ما يتحدث به ، يجد له عندهما وقعا حسنا . وكان بالفعل معقول الكلام . وقال فيما قال ما دمت قد تعرضت لمثل هذه المصيبة - الرضوض - لا ينبغي لك ان تزهق نفسك وتسىء صحتك ، واذف ، اننى لاحظت راسا ان هذا العمل فوق طاقتك يا يديغى . لم تشتد صحتك بعد لمثل هذه الاعمال وانت بالكاد تجر جر قدميك . من المفروض ان تزاوول فى الوقت الحاضر عملا سهلا ، وفى الهواء الطلق ، وان تشرب حليبيا صرفا بكثرة . وعلى سبيل المثال ما اشد الحاجة عندنا فى المرفق الى عمال صيانة ، ويقول لى مديره فى كل مرة : انت من سكتة المنطقة القدماء فاطلب الناس المناسبين للعمل عندنا . لكن اين هؤلاء الناس ؟ الجميع فى جبهات الحرب . ومن عاد يتوفر



المختص بساروزيكي يليزاروف الذي ارتبط معه يدعى  
البوراني فيما بعد بصداقة قوية . وهو على درجة كبيرة من  
الذكاء .

اما يدغي الذي لم يكن وقتئذ يدعى بالبوراني بل كان  
مجرد كازاخى من آرال وجريج عائد من الجبهة وعاطل النفاذ  
قازانغاب العامل فى سكة حديد المنطقة واولاه ثقته واعتماده .  
فكان يسير برفقة زوجته باحثا عن عمل وماوى بمفرق بوراني .  
بوراني غير حاسب انه سيبقى هنا طيلة العمر .

أذهلت يدغي المساحات العظيمة ، اللامتناهية ، التى لا  
تكسوها الخضرة الا فترة قصيرة فى الربيع . وما اكثر السهوب  
والسهول التى تكتنف بحر آرال ، فلناخذ مثلا عضبة اوست  
اوت العظيمة ، بيد انه لم يتفق له من قبل ان رأى مثل هذه  
البادى الصحراوية . وكما ادرك فيما بعد ، لا يستطيع البقاء  
هنا وحيدا فى مواجهة ساروزيكي الا من كان قادرا على مقابلة  
هول الصحارى بقوة ارادته وعزيمته . اجل ، ان ساروزيكي  
لعظيمة ، لكن الفكر الحى للانسان يستوعبها ويحتويها . كان  
يليزاروف فطنا ذا حكمة فقد تهيأ له ان يشرح ويفسر ذلك الأمر  
الخفى الذى كان يعتمل فى الهواجس الغامضة داخل النفس .

ومن الذى يدري ما سيشعر به يدغي واولق بالا على قدر  
توغلها فى عمق ساروزيكي عدا قازانغاب الذى كان يتخطى الى  
الامام قائدا زمام البعير .

كان يدغي راكبا بعيره بين احمال شتى . بالطبع ، كان  
يفترض ان تكون اولق بالا هى الراكبة لا هو وان يكون هو  
الراجل لانها امرأة وهو رجل . لكن قازانغاب ، واولق بالا على  
وجه الخصوص العا عليه بالرجاء ، الى حد الحمل والارغام تقريبا  
لكى يعتلى يدغي ظهر البعير قائلين : «نحن من الناس الاصحاء ،  
بينما عليك انت ان تصون قسواك فلا تناقش ولا تؤخرنا . ان  
الطريق طويلة جدا . . . » كان البعير لا يزال صغير السن .  
وضعيها امام الاحمال الكبيرة . ولهذا كان اثنان يسيران بجانبه  
والثالث يمتطيه . لو كان هذا هو بعير يدغي الحالى لأمكن ان  
يعتلى ظهره ثلاثتهم ، ولكانوا وصلوا الى المكان اسرع بكثير .

ربما بثلاث ساعات ونصف ساعة او بأربع ساعات . . . بينما  
لم يبلغوا حينذاك بوراني-بوراني الا فى ساعة متأخرة من الليل .  
غير ان ذلك الطريق انقضى دون احساس منهم بطوله نظرا  
لما دار بينهم من الاحاديث والتطلع الى الاماكن غير المألوفة . كان  
قازانغاب يتحدث فى الطريق عن شؤون الحياة والمعيشة ، وعن  
كيفية مجيئه الى منطقة ساروزيكي والى العمل فى السكك الحديدية  
بالمئات . واتضح انه ليس كبيرا فى السن ، فى ذلك العام قبل  
انقضاء الحرب دخل السادسة والثلاثين من عمره . وكان ينتمى  
الى الكازاخيين القاطنين بالقرب من بحر آرال . وكان اوله  
(قرينه) بيش اغاتش يبعد بنحو ثلاثين كيلومترا على طول  
النظامى من جانغيلدى . وعلى الرغم من ان قازانغاب غادر الاول  
عند امد بعيد ، وقد مرت سنوات طويلة على ذلك الزمن ، لكنه  
لم يزر اوله حتى ولا مرة واحدة . كانت ثمة اسباب وجيهة  
لذلك . على ما يظهر ، ذلك ان اياه نفى اثناء القضاء على  
الكولايين كطبقة ، ومات فى طريق عودته من منفاه بعد ان  
اتضح انه لم يكن كولاكا ، وراح ضحية المغالاة فى أمره . ودون  
جدوى ، بل اذا اردنا الدقة على سبيل الخطأ تعرض هذا الفلاح  
ذو الدخل المتوسط الى مثل هذه المعاملة القاسية . ثم اعلنت  
براهته لكن بعد فوات الاوان ، بعد ان تشتت جميع افراد  
العائلة - اخوته واخواته - واختبأ كل واحد فى مكان ، تحاشيا  
من انظار الناس ليس الا . ومنذ ذلك الحين كانا الارض  
انشتت وابتلعتهما . وكان قازانغاب آنذاك شابا والنشطاء  
المتحمسون يلحون عليه ان يلقي الخطب فى الاجتماعات منتقدا  
والده ، ومعلنا امام الناس انه يؤيد النهج بحرارة ، وان والده  
تعرض للمحاسبة بحق لكونه عنصرا غريبا وانه يتبرا من أب  
كهذا ، ولا مكان للاعداء الطبقيين على الارض ، وينبغى ان يقضى  
عليهم فى كل مكان .

واضطر قازانغاب ان يرتحل الى منطقة نائية جدا لكى يتجنب  
ذلك العار . وعمل ست سنوات كاملة فى بيتباكداليه فى  
سهوب وادى الجوع بضواحي سمرفند . وتلك الارضى لم تمسها  
يد الانسان منذ قرون ، وكان استصلاحها قد بدأ آنذاك لزراعتها  
قطنا . وكان يشعر بمسييس الحاجة الى الناس . عاش الناس



هناك في اكشاك خشبية مؤقتة وكان مطلوباً حفر القنوات . وعمل  
قازانغاب حفاراً للأرض ، وسافقاً للتراكتور ، ورئيس فريق ،  
ومنح شهادة تقدير على عمله الجيد . وهناك تزوج . وكان  
الناس في ذلك الزمن يسعون الى سهوب وادي الجوع من جميع  
ارحاء البلاد طمعا بالمرتب العالي . وجاءت بركيه القراقلياقية من  
ضواحي مدينة حيوى مع عائلة اخيها للعمل فسي بيتباكـداليه .  
ويبدو انه كان مكتوباً على الجبين ان يلتقيا . وتزوجا فسي  
بيتباكـداليه وقررا ان يعودا الى مسقط رأس قازانغاب ، الى  
بحر آرال ، الى اهله وذويه ، الى ارضه ودياره . لكنهما لم  
يقلبا المسألة على كافة جوانبها . سافرا فترة طويلة منتقلين  
من قطار الى قطار ولما بقيت تحويلة واحدة فقط ، التقى  
قازانغاب في قمبيل صدفة ابنا منطلقته القادمين من آرال .  
وفهم من احاديثهم انه لا ينبغي له ان يرجع الى بيش اغاتش .  
يبدو ان هؤلاء الرؤساء الذين اخطاوا في تصرفاتهم كانوا لا  
يزالون يديرون دفة الامور ، وطالما ظل الامر يجرى على هذا  
النموال عدل قازانغاب عن فكرة العودة الى اموه . ليس لانه  
كان يتوجس خيفة من شيء ، فانه يحمل الآن شهادة تقدير على  
حسن عمله من اوزبكستان . وانما لكونه لم يشأ ان يرى  
الناس الذين كانوا وقتذاك يزدرون به ممثلين حقدا عليه  
وحتى الآن لم ينزل بهم الجزاء المستحق والقصاص العادل .  
وكيف كان يستطيع بعد هذا كله ان يسلم عليهم بطيبة  
خاطر ويتظاهر بالدعة وكان شيئاً لم يكن ! لم يكن قازانغاب  
يجب ان يتذكر ذلك ، ولم يدرك ان الجميع ، ما عداه ،  
قد اقلعوا منذ امد بعيد عن التفكير بما جرى في ذلك الوقت ،  
بعد تعاقب سنوات طويلة على انتقاله الى سارووزيكى لم يشعر  
الآخرون الا مرتين بانه لا يعرف للغفران معنى . فى المرة الاولى  
عندما كدره ابنه وعكر عليه صفوه ، وفى المرة الثانية حين  
مازحه يديغى مزاحاً طائشاً .

فى احدى زيارات ثابت جان كانوا جميعهم يتحلقون حول  
صينية الشاي ، يتبادلون الاحاديث ، ويسمعون اخبار المدينة .  
وبينما كان ثابت جان يتحدث فى شأن من الشؤون ضحك ساخرا  
من اولئك القزاقيين والقرغيزيين الذين هاجروا ابان سنوات

الكلمة الى سينتزيان وهم يعودون الآن ، لأن الصين ضمتهم الى  
الكومونات . ومنع عليهم الاكل فى البيت ، ولم يسمح لهم  
بتناول الطعام الا من القدر العمومى ثلاث وجبات فى اليوم ،  
فيقف صغارهم وكبارهم فى الطابور حاملين قصعاتهم . لقد  
التمهم الصينيون حجراً وساموهم سوء العذاب مما جعلهم يهربون  
من هناك كالمسومطين تاركين ممتلكاتهم كلها ، يقبلون الايدي  
والارجل طالبين اخلاء سبيلهم والسماح لهم بالعودة .

وما هو المضحك فى هذا ؟ - تكدر قازانغاب وارتعشت  
شفاه من الغضب . ونادرا ما كان يحدث معه هذا ، وايضا من  
النادر ان لم يحدث قط ان يتحدث بمثل هذه اللهجة مع ابنته  
الذى احبه وعلته ولم يرد له طلباً يقينا منه بانه - اى  
ولده - سيشتق طريقه فى الحياة كاتسان ذى شأن - لماذا  
تسخر من هؤلاء ؟ - اضافة بصوت خفيض وقد ازداد توتره من  
الدفاع الدم الى راسه . - هذه مأساة انسانية .

كيف تريدنى ان اعبر ؟ يا للغرابة ! - عارضه ثابت  
جان - اننى اذكر الواقع .

لاذ الوالد بالصمت ، وابتعد قدح الشاي عن نفسه منزعجاً ،  
وبات صمته ثقيلاً لا يحتمل .

- وعلى العموم ، ممن تشعر بالاستياء ؟ - قال ثابت جان  
مستغرباً ، هازاً كفيه - اننى لا افهم . اكرر مرة اخرى - ممن  
تستاء ؟ من الوقت ؟ انه قد فات ولا يمكن ادراكه وارجاعه .  
من السلطة ؟ لا يعنى لك ذلك .

- يا ثابت جان ، ان قضيتى تخصنى ، وهى شأنى  
ويوسعى . ولست اتمدخل فى القضايا الاخرى . لكن تذكر يا  
بنتى ، فانتى تصورت انك قد ادركت هذا بنفسك ، تذكر اذن ،  
ان الله وحده لا تظن به الظنون وهو فوق الشك والتهم فاذا  
اخذ روح الانسان فهذا معناه ان حياته قد بلغت منتهاها ، وقد  
ولد لكى يموت . اما التصرفات الاخرى على الارض فينبغى ان  
يسأل عنها ويحاسب عليها - ونهض قازانغاب وخرج من البيت  
مستعصاً ، غاضباً بصمت دون ان ينظر الى احد ، وخرج الى حيث  
لا يدري احد . . .

وفى المرة الثانية ، وكانت هذه بعد سنوات عديدة من ذلك



اللقاء في قمبيل ، عندما استقروا في بورانلي-بوراني ، واعتادوا  
وانجبوا اطفالا ترعرعوا وكبروا ، وكان ذلك عشية الربيع بعد ان  
ساق يدبغي الماشية الى الزريبة قال له مازحا وهو يتطلع الى  
الاغنام المتكاثرة شيهاها وخرافا :

- غدونا اثرياء يا قازانغاب . وحين وقت انتزاع ملكيتنا  
الكولاكية من جديد !

رماه قازانغاب بنظرة شزراء ، حتى لقد قف شارباه :

- لا تهرف بما لا تعرف .

- ماذا دهاك ، الا تفهم المزاح ؟

- هذا الموضوع ليس موضع مزاح .

- كفاك تاثرا يا قازانغاب . لقد مضى قرن كامل .

- تلك هي المسألة . اذا اخذوا ممتلكاتك ، لن تهلك ،

بل تبقى حيا . ولكن عندما يدوس الناس على مشاعرك ، لن تغفر  
لهم مطلقا . . .

ولكن في ذلك اليوم ، حين اجتازوا ساروزيكي من قمبيل الى  
بورانلي - بوراني ، كانوا بعيدين جدا عن التطرق الى امثال هذه  
المواضيع . ولم يكن احد ليعرف ماذا ستكون حصيله سفرتهم  
الى مفرق بورانلي - بوراني وكيف ، وعما اذا كانوا سوف  
يستطيعون الصمود هناك طويلا وهل سيتأقلمون ام سوف  
يعاودون ترحلهم في هذا العالم . دار الحديث عن الحياة  
والعيش ، واثنا الاحاديث استفسر يدبغي من قازانغاب عن سر  
صرف النظر عن ارساله الى الجبهة ام ان داءا ما اعاقه ؟

- لا والحمد لله انا صحيح الجسم معافى البدن - اجاب  
قازانغاب - لم اكن اعانى من اية امراض ، ولكن قاتلت ، على  
ما اعتقد ، ليس اسوا من الاخرين . لكن حادثا ما قلب الامور  
راسا على عقب . . .

بعد امتناع قازانغاب عن العودة الى بييش اغاتش توقف في  
محطة قمبيل ، وهو لا يرى مكانا يلجأ اليه . ايرجع ادراجه الى  
سهوب وادي الجوع ؟ انها نائية جدا ، ثم ما الذي استوجب  
يومذاك ترك هذه المنطقة . وغيرا فكرتهما في العودة الى آرال  
من جديد . وكان مدير المحطة طيب القلب والنفس ، فقد لاحظ  
هذين الزوجين المتوادين وسألهما من اين جاء وماذا يريدان ان

يعملا ثم ارسلهما في قطار حمولة عابر لينزلا في مفرق بورانلي -  
بوراني وقال انهم هناك محتاجون الى الناس للعمل ، وانتما زوجان  
مناسبان ، وكتب رسالة الى مدير المفرق ولم يكن على خطأ .  
فهما بدا هذا المفرق مقفرا بالقياس الى سهوب وادي الجوع -  
فقد كانت السهوب تكتظ بالناس وتموج بالعمل - ومهما كانت  
الحياة مفرجة في ساروزيكي القاحلة فانهما قد الفاها بعض الشيء  
وتكيفتا لها ومعها وشرعا يعيشان فيها . الفاقسة سيئة لكنهما  
مستقلان . عين كلاهما عامل صيانة للسكك الحديد ، علما بانهما  
كانا يضطران لتأدية كل الاعمال التي كان يتطلب القيام بها في  
المفرق . هكذا ، في الواقع ، شرعت حياتهما المشتركة حياة  
قازانغاب وزوجته الشابة في مفرق بورانلي - بورانلي  
بساروزيكي القفراء . صحيح انهما في تلك السنوات ، وبعد ان  
جمعا بعض المال ، فكرا في الانتقال الى مكان آخر ، اى مكان ،  
اقرب الى المحطة او الى المدينة ، لكن ريشما كانا يستعدان لذلك  
نشبت الحرب .

وراحت قوافل القطارات المكتظة بالجنود تغادر عبر بورانلي -  
بوراني صوب الغرب ، مزدحمة بالمجلبين صوب الشرق ، وحاملة  
وناقلة غلال الحبوب الى الغرب والجرحى نحو الشرق . وغدا المرء  
يتحسس في مثل هذه المفرق الصغير النائي بورانلي-بوراني  
تغير الحياة تغيرا حادا . . .

وكانت القاطرات تصفر واحدة اثر الاخرى ، مطالبة بفتح  
السيمافور بينما كانت تقابلها صفارات مثلها . . . ولم تتحمل  
العوارض ثقل النقلات ، فالتوت ، وتحطمت قبل الاوان ،  
وتشوهدت تحت عبء العربات المملأ حتى آخرها . ولا يكادون  
ينتهيون من تبديل القضبان في موضع ، حتى يستدعى الامر  
تصليحها بسرعة في موضع آخر . . .

وسارت القطارات بلا انقضاء ولا انتهاء . ولا احد يدري من  
اين تجمع هؤلاء العساكر الذين لا عد لهم ولا حصر . قافلة وراء  
قافلة تاتي وتغادر من والى الجبهة ليل نهار اسابيع واشهرها ، ثم  
سنوات وسنوات ، وكلها الى الغرب ، الى هناك حيث يتواجه  
عالمان . . .

بعد مضى فترة قصيرة جاء دور قازانغاب ايضا . فاستدعى



الى الحرب . وارسل له تبليغ من قمبيل : الحضور فى مركز التجنيد . شد مدير المفرق رأسه بيديه ياسا وراح يثن - لقد اخذوا احسن عامل صيانة ، وهم معدودون بالاصابع ، فى بورانلى - بورانى . ولكن ماذا فى وسعه ان يفعل ، ومن يعيره اذنا صاغية وهو يقدر ان قابلية التمير فى المفرق ليست مطاطية . . . القطارات تزار عند السيمافورات . . . ولسوف يضحكون منه ان قال انه يحتاج وبسرعة الى خط اضافى آخر . من الذى يعير هذا اهتمامه ، سيما وان العدو متخندق فى ضواحي موسكو . . .

طرق الابواب اول شتاء من الحرب . وهو شتاء مبكر قصير النهارات ، حالك الليالى ، قارس البرد . وفى عشية ذلك الصباح سقط الثلج ، ولم يقلع فى الليل ايضا . اول الامر تساقط خفيفا شحيحا ثم كثيفا غزيرا مواظبا . وفى صمت ساروزيكى المهيب تواصل سقوط الثلج على السهول والهضاب والوهاد مفترشا اياها بردا ناصع البياض . وتحركت مباشرة رياح ساروزيكية متلاعبة بقشرة الثلج المتجمدة غير المتلبدة بعد . وكانت تلك الرياح تمهيدية لا تلبث ان تعصف وتهيج وتحدث الزوابع . فماذا سيحل ، يا ترى ، بهذا الخيط الدقيق من قضبان الحديد التى تقطع اواسط البرارى الصفر الكبرى من اقصاها الى اقصاها كعروق الصدغ ؟ وكان هذا العرق الحديدى ينبض ، والقطارات تروح وتغدو فى الاتجاهين . . .

فى ذلك الصباح غادر قازانغاب قاصدا الجبهة . غادر وحيدا وبلا اية مراسيم توديع . عندما خرج من البيت برفقة زوجته بوكيه ، توقفت هى ، وقالت ان رأسها بدأ يدور من الثلج . تناول قازانغاب الوليد المقمط من يديها - كانت آى زاده ، فى ذلك الوقت ، حديثة الولادة - وسارا بجانب بعضهما البعض تاركين اثار اقدامهما على الثلج ربما لن يتكرر هذا المشهد بعد هذا . لكن ليست زوجته هى التى ودعته ، بل هو ، فى آخر الامر قادها حتى كشك التحويل قبيل ان يستقل قطار حمولة عابرا حتى قمبيل . وحلت بوكيه محل زوجها لتشتغل عاملة تحويل . فى هذا الكشك توادعا . وقد قيل كل ما لزم قوله ، وذرفت الدموع على ما كان يلزم ان تذرف عليه فى الليل

الغائت . كانت القاطرة واقفة تحت غيوم من البخار . وكان سائقها على عجلة من امره . ينادى قازانغاب ويدعوه . فما ان استجاب له قازانغاب الا وصفرت القاطرة صفيرا طويلا وتحركت بسرعة ، وكانت بوكيه تراه من كشك التحويل ، حيث فتحت الطريق للقطار ، معصوبة الرأس ، ومتحزمة ، ومحتذية جزمة رجالية ، ترفع فى احدى يديها الشارة وتمسك بالآخرى طفلتها . ولوح احدهما للآخر للمرة الاخيرة . . . وافترقا بسرعة : اختفى وجهها اولاً ، فنظرتها ، قيدها فالسيمافور . . .

وفى تلك الاثناء انطلق القطار بأقصى سرعته ، صامتا بدويه الاذان عبر ساروزيكى المكسوة بالثلج والمشمولة بالصمت ، والمترامية الاطراف مثل حلم ابيض . هببت الرياح على القطار مضافة الى رائحة الفحم المحترق القوية فى فرن القاطرة العبثى الطرى للثلج السهبى الازلى . . . حاول قازانغاب ان يستنشق مله رنتيه هذا الريح الشتوى للاماد الساروزيكية ، اذ انه كان يدرك ان فراق هذه الارض لن يهون على نفسه . . . كان المجندون يرسلون الى الجبهة من قمبيل ، فينتظمون فى صفوف تم يدعون بالاسماء فردا فردا ، ويوزعون على العربات . وهنا ، فى هذه الاثناء وقعت حادثة غريبة . عندما تقدم قازانغاب مع رتله للصعود الى العربة لحقه احد العاملين فى لجنة التجنيد : - حسن بايف قازانغاب ! من منكم حسن بايف ؟ اخرج من الصف واتبعنى .

واطاعه قازانغاب .

- انا حسن بايف !

- وثائقك ! . . . صحيح ، هو نفسه . اما الآن فامض خلفى .

وعادا ادراجهما الى المحطة ، حيث كان يقع مركز التجنيد وقال له ذلك الرجل :

- انت يا قازانغاب ارجع الى بيتك . هل فهمت ؟

- فهمت - اجاب قازانغاب مع انه لم يفهم شيئا .

- اذن فاذهب . ولا تتدافع هنا . انت حر .

لبث قازانغاب بين حشد المودعين والمسافرين الهادر ذاهلا ايسا ذاهول . حتى انه اول الامر سر بهذا التغيير المفاجئ ، ثم



فجأة احس بحرارة لا تطاق من التخمينات التي خطرت في اعماق وعيه . اخ ، الآن فهمت ! وحاول ان يشق طريقه عبر الزحام صوب باب غرفة مدير مركز التجميع .  
- الى اين ، لماذا تتدافع ؟ - صرخ اولئك الذين ارادوا مراجعة المدير .

- عندي قضية مستعجلة ! القافلة تغادر ، قضية مستعجلة !

وتمكن من بلوغ الباب .  
في غرفة تعج بدخان السيكاير حتى العتمة ، وبين اجهزة الهاتف والاوراق ، وعدد من الرجال الكهل المحتردين ، رفع رجل ابع الصوت وجهه المعوج من الطاولة حين حشر قازانغاب نفسه امامه .

- من انت ، وماذا تريد ؟

- انا غير موافق .

- على ماذا ؟

- لقد برئت ساحة والدي الذي وقع ضحية المغالاة ولم يكن كولاكا ! تاكد من الاوراق التي عندك ! لقد برى من التهمة لكونه فلاحا متوسط الحال .

- مهلا ، على مهلك ماذا تريد ؟

- اذا كان عدم سوقكم لي يعود الى هذا السبب ، فليس بصحيح .

- اسمع ، لا تهذر بالحماقات . كولاك ، متوسط الحال . . . من الذي يعنيه هذا الآن ! من اين اتيت ؟ من انت ؟

- انا حسن بايف من مفرق بورانلي - بوراني .

ومضى المدير يعاين القوائم .

- قل هكذا من الاول . لقد جئت تصدع راسي . متوسط ، فقير ، كولاك ! انت مؤجل ! دعيت سهوا . هناك امر الرفيق ستالين نفسه بعدم سوق شغيلة السكك الحديدية . كلهم يتقون في اماكن عملهم . هيا لا تعرقل عملنا . اذهب الى نقطتك وواصل شغلك . . .

داصمهم الغروب في الطريق ، على مقربة من بورانلي - بوراني . وانشأوا يقتربون من السكة الحديد مجددا ، وراح صغير القطارات المقترية من هذه الجهة او تلك يسمع جيدا ، وكان في وسع المرء تمييز قوام العربات . وكانت تبدو فسي ساروزيكى من بعيد صغيرة جدا . والشمس الآيلة الى الغروب وراهم كانت تضيئ وتظلل الوهاد الجراء والتلال المحيطة بها . وكانت تظهر على الارض في الوقت نفسه عتمة خفيفة ، تزداد قتامة بالتدرج مفعمة الهواء وزرقة السماء برائحة الارض الربيعية المتبردة التي لا تزال تحتفظ ببقية من رطوبة الشتاء .

- ها هو مفرقنا بورانلي ! - اشار قازانغاب بيده مستديرا نحو يديغي الراكب على ظهر البعير وابق بالا تحت الخلى الى جانبه - لم يبق الا القليل . سنصل قريبا ان شاء الله . وتستريحان .

كان ثمة بضعة بيوت في الامام على رقعة صحراوية منبسطة ، حيث تنطفئ سكة الحديد انعطافة غير حادة بينما كان واقفا على السكة الاحتياطية قطار عابر ينتظر انفتاح السيمافور . وعدا ذلك كانت تمتد في كل الاتجاهات مساحات من الارض الجرداء ومضاب معتدلة الانحدار : انها ارجاء خرساء لانهاية لها من البراري القفراء وانتاب يديغي الهلع فلم يستوعب ، وهو من سكان السهول الساحلية لبحر آرال وراعه هذا الانتقال من البحر الازرق المتموج الذي ترعرع على شواطئه الى الصحراء القاحلة الجرداء . كيف سيعيش هنا ؟ !

مدت اوق بالا التي كانت تسير الى جانبه يدها وامسكت برجل يديغي ، ومشيت قاطعة عدة خطوات دون ان ترفع يدها عنه . فادرك هو انها تريد ان تقول له : «المهم ان تستعيد صحتك . ثم سنعيش ونرى . . .»

هكذا دنوا من المكان الذي كتب عليهما كما اتضح فيما بعد ان يمضيا فيه سنوات مديدة وعديدة ، هي كل البقية الباقية من حياتهما .

بعد قليل غربت الشمس ، وواصلوا في الظلام طريقهم الى



بوراني - بوراني ، حين تلالا في سماء ساروزيكي مجموعة لا تحصى من النجوم بوضوح وجلاء .

عاشا لعدة ايام في بيت قازانغاب . ثم في بيت مستقل . اذ استلما غرفة في بيت خشبي مؤقت اقيم خصيصا لعمال الصيانة . ومن ذلك اليوم بدأت حياتهما في المكان الجديد . رغم كل المشاق والمصاعب ، ولا سيما في السنوات الاولى ، افاد يديغي في ساروزيكي المقفرة من شينين : الهواء وحليب النوق . كان الهواء صافيا رائقا ، اذ من الصعب العثور على مثل هذه البراري العذراء ، اما الحليب فقد وفره قازانغاب ، اذ سمح لهما بحلب احدى ناقتيه ، قائلا :

- لقد تبادلنا المشورة انا وزوجتي ، وتوصلنا الى القناعة بان حليب ناقتي يكفيننا ، اما الاخرى ، ذات الراس الابيض ، فاحلبها انما . فهي ناقة شابة حلوب ومدرار ، فهذه ستكون ولادتها الثانية . اعتنينا بها بنفسيكما واستفيدنا منها . ولكن احذرا لئلا يهلك حوارها جوعا ، وهو لكما . فقد قررنا اننا وزوجتي ان تقدمه هدية اليكما . تقبله يا يديغي منى لتربيته كبداية . فاذا ما صننته ربطت ذودا من الابل حوله . واذا فكرت بالرحيل من هنا بعته ووفرت مالا .

كان حوار الناقة ذات الراس الابيض اسود الراس ، ضئيل الجسم بسنامين صغيرين قاتمين ، وقد ولد قبل عشرة ايام فقط . لكنه ذو عينين واسعتين مؤثرتين . كانت عيناه كبيرتين جاحظتين ورطبيتين تشعان بحنان وفضول طفوليين . احيانا كان يشرع بالركض بصورة مضحكة فيتقافز ويلعب بمرح بالقرب من امه ويناديا عندما يبقى في الزريبة بصوت ينضح بالشكوى اقرب ما يكون الى صوت الانسان . من كان بإمكانه ان يتصور ان ذلك الحوار سوف يغدو قره نار البوراني هذا . وهو جل عملاق شديد البأس يذيع صيته مع الزمن ويشيع في المنطقة برمتها . وترتبط به ، كما سيرى فيما بعد ، احداث ووقائع جمة من حياة يديغي . وكان الحوار في ذلك الوقت محتاجا الى اعتناء متواصل . وتعلق به يديغي تعلقا شديدا ، اذ كان يقضى معه وقت فراغه كله . وعندما حل الشتاء كان قره نار الصغير قد كبر بشكل ملحوظ ومع هجمة البرد خاطلوا له جلا دافئا يزد

عند اسفل بطنه . وكان يبدو في هذا الجبل مدعاة الى الاضحاك ، اذ لم يكن يظهر من جسده الا راسه وعنقه وقوائمه والسنامان الصغيران . ومكث طيلة الشتاء وبداية الربيع مكتسبا هذا الرداء ، وراح يمضي اياما وليالي في السهوب .

ومع حلول شتاء ذلك العام شعر يديغي بانه بدأ يستعيد قواه تدريجيا . ولم يلاحظ متى اقلع راسه عن الدوران . واختفى رويدا رويدا الضجيج المتواصل في اذنيه وشح تعرقه اثناء العمل . اما في اواسط الشتاء اثناء تراكن سدود الثلج الغزير على الطريق فقد صار بإمكانه الخروج الى العمل في الاستنفار العام سواسية مع الآخرين . ثم تقوى الى درجة انه نسي - اذ انه كان شابا ، وكان بطبيعته قوى العزيمة كبير الهمة - كيف كانت صحته سيئة قبل فترة قصيرة ، وكيف كان يجرجر قدميه بالكاد . وتحققت عبارة الطبيب ذي اللحية الحمراء ، احيانا ، في لحظات الانشراح كان يديغي يمزح مخاطبا الحوار ، وهو يمسد جلده ويربت عليه ويحيط رقبتة بيديه :

- انا وانت اخوان بالرضاعة . انظر كيف كبرت بحليب امك ، وانا على ما يبدو تخلصت من صدمتي العصبية ، وان شاء الله نهائيا . والفرق بيننا هو انك رضعت من الضرع مباشرة اما انا فقد كنت احلب الضرع واصنع من حليبه شراب الشوبات . . .

بعد انقضاء سنوات طويلة ، بلغ قره نار البوراني ما بلغه من الشهرة في ساروزيكي بحيث صار اناس يقدمون خصيصا بغية تصوير لقطات فوتوغرافية له . وحدث هذا بعد ان وضعت الحرب اوزارها وشرع الاولاد بالدراسة ، وعندما ظهرت في المفرق مضخته المائية وبهذا قضى نهائيا على مشكلة شحة الماء وتنقصه . اما يديغي فقد شيد لنفسه بيتا معدنى السقف . وبايجاز ، عندما اخذت الحياة بعد كل ما كان فيها من الحرمان والمحن تسيير ، اخيرا ، في مجراها الطبيعي اللائق بالانسان . عند ذلك شاع حديث ظل يديغي يتذكره طويلا فيما بعد .

كان قدوم المصورين الصحفيين ، كما قدموا انفسهم ، زيارة نادرة المثال ، ان لم نقل انها حادثة فريدة بل ویتيمة في تاريخ بوراني - بوراني . كان اولئك المصورون الصحفيون



- وماذا ستفعلون بهذه القياسات ؟

- نحتاجها كمعطيات علمية .

بصدد الصحف والمجلات ، بالطبع ، ذر القادمون الرماد في عيون البورانيين زيادة في الأهمية ، غير أنهم بعد ستة أشهر أرسلوا طردا بريديا يحوى كتابا دراسيا مخصصا لمادة تربية الابل في كليات تربية الحيوانات والدواجن يزين غلافه البكتريان الكلاسيكى قره نار البوراني ، وأرسلوا كذلك عددا كبيرا من الصور بعضها ملونة . ويمكن للمرء ان يحكم حتى من الصور ان ذلك الزمن كان سعيدا وسارا . وكانت مصائب سنوات ما بعد الحرب قد انقضت ، والاطفال لم يجتازوا بعد مرحلة الصبا ، والكبار كلهم احياء واصحاء ، والشيخوخة كانت ما تزال بعيدة . عند ذلك ذبح يديفي خروفا على شرف الضيوف واقام مأدبة كبيرة دعا اليها البورانيين جميعهم . وكانت المائدة غامرة بالشروبات والفودكا ومختلف المأكولات . وكان قد جاء الى المفرق آنذاك حانوت فى عربة قطار متحركة ، فيه كل ما تتمناه النفس . لو توفرت النقود فقط لكان فى وسع المرء ان يشتري مختلف انواع السرطانات والكافيار الاسود والاحمر والاسماك باصنافها والكورنيك والسجق والحلويات وغيرها الكثير . ومن الغريب انه عندما يتوفر كل شيء لا يقبل الناس على الشراء بكثرة . لماذا عليهم ان يشتروا ما يزيد عن اللزوم ؟ لقد اختفى هذا الحانوت المتحرك منذ زمن ولم يعد له وجود . . .

وجلسوا يومذاك حول المائدة واحتسوا الخمر حتى فى صحة قره نار البوراني . وتبين من خلال الاحاديث ان الضيوف سمعوا عن قره نار من يليزاروف . وقد اخبرهم ان صديقه يديفي البوراني ، يعيش فى ساروزيكي وهو صاحب اجمل بعبير فى العالم : قره نار البوراني ! آه يا يليزاروف ! انه رجل رائع ، خبير بساروزيكي ، وعالم . . . حين زار يليزاروف بوراني - بوراني ، جلسوا ثلاثتهم ، يليزاروف ، وقازانغاب وهو ، وتجادبوا اطراف الحديث ليالى بطولها . . .

وراحا يتحدثان الى الضيوف بالتتابع ، تارة قازانغاب واخرى يديفي ، مواصلين كلام احدهم الآخر او مضيفين اليه ، يسردان اساطير ساروزيكي وتاريخ الناقة الام الاصلية لفصيلة الجمال

ثرارين ومهذارين - وعددهم ثلاثة - لم يبخلوا بالوعود العريضة قائلين ، اننا بالطبع ، لم نأت الا لننشر فى جميع الصحف والمجلات صور قره نار البوراني وصاحبه . وضاق قره نار ذرعا بما اثير حوله من الهرج والمرج ، فراح يشخر وينخر غاضبا متهيجا ، ويصدر صريفا عن انيابه ، ويشيح براسه ويرفعه ، لكى يتركوه وشانه مما اضطر المصورين الصحفيين القادمين الى الاستعانة باستمرار بصاحبه يديفي لكى يهدى نائرة البعير ، ويديره تارة كذا وتارة كيت . اما يديفي فكان فى كل مرة يدعو الاطفال والنساء وقازانغاب نفسه حتى لا يصورونه لوحده ، بل يصورون الجميع سويا معتبرا ذلك خيرا وابقى . وكان المصورون الصحفيون يوافقون على هذا عن طيبة خاطر ، ويطلقون بمختلف الآلات واجهزة التصوير . وكانت اللقطة الاهم ، عندما ارتقى جميع الاولاد على قره نار البوراني ، اثنان على رقبته ، ونحو خمسة على ظهره ، وفى الوسط يديفي نفسه فى صورة كان معناها : هاكم انظروا اية قوة لهذا البعير ! وكم احدثوا انذ من ضجيج المرح وعجيج الفرع ! لكن المصورين الصحفيين اعترفوا فيما بعد بان الاهم بالنسبة لهم كان التقاط صور الجمل وحده بلا اناس . تفضلوا ، بكل سرور !

عندئذ انشأ المصورون يلتقطون صوراً لقره نار البوراني من جانب من الامام ، من قريب ومن بعيد ، قدر ما تمكنوا وتفطنوا ، ثم راحوا يقيسون بمساعدة يديفي وقازانغاب طول العنق وعرض الصدر ، طول المعصم ، طول الجسم ، ويسجلون ويدونون كل هذه المعلومات ويقولون فى اعجاب :

- بكتريان رائع ! انظر اين تناسقت الجينات فى عملها اروح تناسق ! نمط كلاسيكى من بكتريان ! يا له من صدر ضخيم واى مظهر ممتاز !

اما يديفي فسر ان يسمع ، بالطبع ، مثل هذه التعليقات وردود الفعل لكنه اضطر ان يسأل عن معنى كلمة «بكتريان» غير المفهومة بالنسبة له . واتضح انها تسمية النوع فى التصنيف العلمى لفصيلة عريقة من الجمال ذات السنامين .

- اذن هو بكتريان ؟

- ذو نقاوة نادرة ، الماس .



فيها ، وهي الناقصة المشهورة اكماى ذات الراس الابيض  
وصاحبيتها نايمان - آنا التي لم تكن اقل شهرة منها والتي تتوى  
رفاتها في مقبرة آنا-باييت ويعود اصل قره نار البوراني الى تلك  
الناقطة ! وكان البورانليون يأملون من الضيوف ان ينشروا في  
الجريدة ، شيئا عن هذه القصة القديمة . ولقد اصغى اليهم  
الضيوف جيدا ، وباهتمام ، لكنهم تصوروا ان هذه القصة قد  
تكون اسطورة محلية ، تناقلتها الالسننة والافواه من جيل الى  
جيل . لكن يليزاروف كانت لديه وجهة نظر اخرى انه كان يعتبر  
ان اسطورة اكماى ، في وسعها ان تعبر تعبيرا كاملا عما كان ،  
كما كان يقول ، في ذلك الواقع التاريخي . وكان يحب سماع  
مثل هذه الاشياء ، وهو بنفسه ايضا كان يعرف الى حد ما  
اساطير من الماضي العريق . . .

عند المساء ودعوا الضيوف . وكان يديغي راضيا وفخورا .  
ولهذا قال دون تفكير ، طبعاً لانه شرب قليلا مع الضيوف .  
لكن قد قيل ذلك ان حقا وان كذبا :

- اعترف يا قازانغاب ، الست متأسفا على اهدائك قره  
نار لي وهو حوار ؟

رماء قازانغاب بنظرة ساخرة . وعلى ما يبدو فانه لم يكن  
يتوقع منه هذا السؤال . وبعد صمت قصير اجاب :

- بالطبع ، كلنا بشر . ولكنك تعرف : ثمة قانون متبع  
منذ عهود الاسلاف يقول ان «مال يوسى خودا يخان» \* . هو عمل  
من الله . هكذا كتب . ينبغي ان يكون قره نار ملكك وانت  
بالذات صاحبه . ولو افترضنا انه وقع في يد اخرى لما كان  
يدري احد كيف كان سيكون . ولربما لما عاش ونفق او اوقع  
له ما لا يتوقعه احد من وقائع . لكان قد سقط من جرف . انه  
يجب ان يكون ملكك . لقد كانت عندي قبله ابل وكانت جيدة ،  
ومن الانثى نفسها . من الناقطة ذات الراس الابيض التي ولدت  
قره نار . وبينما كان هذا جملك الوحيد ، الموهوب . . . ان  
شاء الله سيخدمك مائه سنة . لكن رأيك هذا ليس بسديد . . .  
- اعذرني ، اعذرني يسا قازانغاب - قال يديغي خجلا .

\* مالك الماشية أمر من الله وبمشيئته . الناشر .

واسف على فلتة اللسان هذه . وحين واصلا حديثهما شاطره  
قازانغاب مشاهداته . وفق الاساطير انجبت الانثى الذهبية اكماى  
سبعة من الصغار هم اربع نوق وثلاثة جمال . ومنذ ذلك الحين  
تولد جميع النوق شقراوات بيضاوات الرؤوس ، بينما الجمال  
ذوو الوان لوزية غامقة . ولهذا ولد قره نار على هذه الشاكلة  
فهو اسود من ناقطة بيضاء الراس . وهذه اشارة اولى على كون  
اصله من اكماى . ومنذ تلك الازمان الغابرة في ساروزيكي لم  
تنقرض فصيلة الجمال من اصل اكماى واستمرت على مدى زمن  
طويل ، ولا احد يعرف كم يبلغ من السنين اهو مانتان ،  
ثلاثانة ، خمسمائة او اكثر . وها قد ظهر فجأة مثل هذا  
البعير - سرتان \* قره نار البوراني . اما يديغي فقد اسعده  
الحظ بكل بساطة ، ولحسن حظه ولد قره نار ووقع بين  
يديه . . .

وعندما جاء الوقت الذي ينبغي فيه اتخاذ قرار ما بشأن  
قره نار : اما اخصاؤه او حفظه معقولا لانه اخذ يعربد ايما عريضة .  
ولا يسمح للناس بالاقتراب منه ، فيتراكم ويختفي حيث لا  
يدري احد عدة ايام ، قال قازانغاب مباشرة ليديغي حين لجأ هذا  
الاخير اليه طلبا للمشورة :

- هذا شأنك . اذا اردت ان تعيش مطمئن البال فعليك  
ان تخصيه . واذا اردت بالشهرة فاتركه على حاله ، ولكنك  
عندئذ سوف تتحمل كل المسؤولية ، فيما اذا حدث شيء . وان  
وجدت في نفسك ما يكفي من القوة والصبر فانتظر سينتفض  
قراية ثلاث سنوات ثم سيسير وراءك طائعا .

وهكذا ترك يديغي البوراني قره نار دون ان يمسه . اذ ان  
يديه لم تطاوعانه . فابقاه حرا طليقا ، لكن صادفته اوقات كان  
يعض فيها بنان الندم . . .

\* ما فوق المخلوق ، على سبيل المثال ما فوق الكلب ، ما فوق  
الذئب . الناشر .



## الفصل الخامس

كانت القطارات في هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب  
ومن الغرب الى الشرق .  
وعلى جانبي خط سكة الحديد كانت تمتد مساحات شاسعة  
من الاراضي الصحراوية - سارى اوزيكى ، الاراضى  
الوسطى من البرارى الصفراء . . . .  
وفى هذه الانحاء كانت المسافات تقاس نسبة الى خط  
السكك وكانه خط غرينيتش . . . .  
اما القطارات فواصلت سيرها من الشرق الى الغرب ومن  
الغرب الى الشرق . . . .

فى الصباح الباكر كان كل شىء جاهزا ، لف جثمان  
قازانغاب المكفن بلباد سميك مشدود بشريط من صوف ،  
ووضع فى عربة ملحقة بالجرار ، وقد فرشت ارضيتها مسبقا  
بالنشارة وبطبقة من القش التنظيف . كان ينبغي الا يتأخروا  
كثيرا فى الخروج لكى يفلحوا فى العودة من المقبرة مساء قبل  
الساعة الخامسة او السادسة . ذلك انهم يجب ان يقطعوا ثلاثين  
كيلومترا ذهابا والمسافة نفسها ايابا ، اضافة الى الوقت الذى  
سيستغرقه الدفن وعلى هذا الاساس توجب اقامة طعام الجنازة  
فى حدود الساعة السادسة مساء . وسافروا وفق هذه الحسابات  
حتى يتمكنوا من حضور عشاء الماتم . كان كل شىء على اهبة  
الاستعداد . وشرع يدعى البوراني يستعجل الناس ماسكا بزمام  
قره ناز المرحل والمجلل منذ امس . انهم دائما بطيئون ، بينما  
هو ، وان لم يغمض له جفن طول الليل ، فقد كان يبدو منتظم  
الحركات ، مركز الانتباه ، على الرغم من تضمر وجهه . ارتدى  
يديعى ذو الشاربين والحاجبين الرماديين والحليق حلاقة ملساء ،  
اجمل ملابسه : جزمين من جلد الكروم وسروالا من القטיפسة  
معبعا سروال الخيالة ، وسترة سوداء فسوق قميص ابيض ،  
وسدارة عمال السكك الحديد التى تعتمر فى ايام العطل عادة .  
وكانت تلمع على صدره اوسمة وميداليات حربية ، وحتى شارات

الشغيل الطليعى للخطة الخمسية . وقد ناسبه هذا كله ومنحه  
وقارا وعبية . على الارجح كان لا بد ان يظهر يدعى البورانى  
بهذا المظهر فى تشييع قازانغاب .

حضر التشييع البورانليون جميعهم ، بصغارهم وكبارهم .  
فاحتشدوا عند العربة فى انتظار انطلاقها . وبكت النساء فسى  
عويل متواصل ونحيب . وخاطب يدعى البورانليين المجتمعين من  
تلقاء نفسه مرتجلا :

- نتوجه الآن الى آنا - باييت ، الى المقبرة الأعرق والاكثر  
اجلالا فى ساروزيكى . والمرحوم قازانغاب يستحق هذا كله .  
لقد اوصى هو نفسه ان يودع فيها جثمانه . - فكر يدعى  
لحظة فيما عليه ان يقول ، ثم استطرد : - انتهى الماء والملح  
المقدرات له فى سلالته . لقد عمل هذا الانسان فى مفرقنا  
اربعة واربعين عاما بالتمام والكمال ونستطيع ان نقول طول  
حياته . حين بدأ المرحوم قازانغاب العمل هنا لم  
يكن يتوفر شىء من مستلزمات الحياة فيها ، حتى  
مضخة الماء كانت لا اثر لها . وكان الماء يجلب الى المفرق فى  
صهاريج مرة فى الاسبوع . ولم تتوفر آنذاك منظفات الثلج  
وغيرها من المكائن المستخدمة حاليا . كما لم يكن ثمة من وجود  
لمثل هذا التراكتور الذى نحمله فيه للدفن . لكن ، مع ذلك ،  
لم يتوقف سير القطارات وكانت الطريق امامها مفتوحة دائما .  
كان قازانغاب وفيا فى عمله طول حياته فى بورانلى - بورانى ،  
وادمى خدمته باخلاص . كان انسانا طيبا ، واتم جميعا تعرفون  
ذلك . وهلم بنا فلنتحرك الآن . ولا داعى لذهاب الجميع لانه  
اولا ليست لدينا وسائل نقل كافية ، وثانيا لا يحق لنا ان نترك  
السكة دون احد ، سنذهب سنتنا الى المقبرة ونقوم بكل ما ينبغي  
القيام به كما يليق . اما انتن ، ايها النسوة ، فانتظرن هنا  
وتهيانن ، ولتجتمعن جميعا مع موعد عودتنا لعشاء الماتم .  
وادعوكم جميعا باسم ولديه ، وها هما : ابنه وابنته . . . .

وتتج عن ذلك ، دون تفكير مسبق من يدعى ، ما يشبه  
العفل التايينى المختصر . وسار بورانليون قليلا وراء النعش ،  
وتبعتهم بورانليات ثم مكثن متجمعات خلف البيوت . وبات يسمع



نحيب لبعض الوقت . وذلك النحيب كان نحيب آى زاده  
واوق بالا . . .

حين تلاشت الاصوات ، واخذ الرجال الستة يبتعدون اكثر  
فاكثر عن السكة الحديد ويتوغلون عميقا فى ساروزيكى تنفس  
يديغى البورائى الصعداء . انهم الآن وحدهم ، وهو يعرف ماذا  
عليه ان يفعل .

ارتفعت الشمس عاليا فوق الارض غامرة المراتع الساروزيكية  
بالضوء . ومع ان الطقس كان لا يزال باردا فى السهوب ، فانه  
لم يكن ثمة من عارض خارجى يعوق سيرهم . اذ كانت السماء  
صافية صاحبة وخالية الا من حداتين تحلقان عاليا كالمعتاد ،  
وبعض القبرات التى تطير من تحت الاقدام احيانا وتزقزق  
مضطربة خافقة بأجنحتها . «ستهاجر قريبا . مع سقوط اول  
ثلج ، تجتمع اسرابا وتهاجر» . قال يديغى فى نفسه متصورا  
للحظة الثلج المتساقط والطيور المهاجرة فى تلك الغشاوة  
الثلجية . ولا يدري لماذا تذكر من جديد ذلك الثعلب الذى ركض  
فى الليل صوب السكة الحديد . وحتى انه تلفت خلسة فيما  
حواليه لعله يراه متعقبا اثره . وفكر مرة اخرى بالصاروخ النارى  
الذى انطلق الليلة فى ساروزيكى نحو الفضاء ، لكنه ارغم نفسه  
ان ينسى ذلك رغم ذهوله من افكاره الغريبة هذه . ليس الآن  
وقت هذه الافكار وان كانت الطريق طويلة . . .

سار يديغى البورائى فى المقدمة معتليا قره نار وهو يدل  
على اتجاه الطريق المؤدية الى آنا - باييت ، وقره نار يخطو تحته  
خطوات واسعة متعودا اكثر فاكثر لايقاع الطريق . وكان هذا  
الجمل يبدو للمخبير بشئون الابل متناسقا فى حركته اقصى  
تناسق ، ورشيقا ، فراسه الشامخ المرتكز على الرقبة المقوسة  
يبدو وكأنه يسبح فوق الامواج دون ان يأتى بحراك تقريبا .  
اما قوائمه الطويلة الطنبا فكانت تشق الريح وتذرع الارض  
بخطوات لا تكل . وجلس يديغى بين سناميه جلسة ثابتة ومريحة  
وواثقة ، راضيا من ان قره نار لا يستدعى الحث ، ويسير بخفة  
ودقة منفذا توجيهات صاحبه . وكانت الاوسمة والمداليات على  
صدر يديغى ترن رنيننا خافتا اثناء السير وتلمع تحت اشعة  
الشمس ، بيد ان هذا الامر لم يكن يزعجه .

اعقب يديغى الجرار والعربة الملحقة به ، وكان ثابت جان  
يجلس فى قمرة التراكاتور الى جانب سائقه الشاب قالى بك .  
بالامس جرع ثابت جان كمية لا يستهان بها من الفودكا مسليا  
البورائيليين بشتى الخزعبلات عن الناس الموجهين بالراديو  
ومختلف السفاسف الاخرى اما الآن فتراه مقموعا ساكنا تترنح  
راسه حتى ان يديغى توجس خيفة لئلا تنكسر نظارته . وجلس  
فى العربة الملحقة الى جانب جثمان قازانغاب قرين آى زاده  
مكتنبا . كان يضيق عينيه فى الشمس ونادرا ما يتلفت يمنة او  
يسرة . هذا السكير الذى لا نفع فيه اظهر نفسه ، فى هذه  
المرة ، على احسن حالها . فلم يذق قطرة من الخمر وحاول تقديم  
العون فى الاعمال كلها ، وقد اجتهد اجتهادا خاصا اثناء اخراج  
جثمان المرحوم وساهم فى حمل جنازته على كتفه . وعندما اقترح  
عليه يديغى ان يركب وراءه على ظهر الجمل رفض وقال : «كلا ،  
سأجلس الى جانب حماى . وسأرافقه حتى ايداعه القبر» . لقد  
استحسن يديغى والبورائليون جميعهم الراى . وحين انطلقوا من  
البيت كان هو يبكى اكثر من الكل جالسا فى العربة الملحقة  
ساندا جثمان المرحوم الملفوف باللباد . وقال يديغى فى نفسه  
مؤملا : «ماذا لو يتعقل الانسان فجأة ويترك الشرب ؟ اية سعادة  
تكون لآى زاده والاطفال !»

وسارت حفارة من نوع «بلاروس» يستقل قمرتها عادل باى  
وجمعة على فى آخر هذا الموكب الصغير والغريب الذى يتقدمه  
راكب بعير ، البس بعيره جلا ذا شرائط ، فى هذه البرارى  
المقفرة . وكان جمعة على الاسود كزنجى جالسا وراء عجلة قيادة  
هذه الحفارة التى تستعمل عادة لتأدية شتى اعمال الصيانة .  
ولقد جاء سائقها الى بورائى-بورائى منذ فترة قصيرة نسبيا .  
ومن المتعذر ان يقول المرء ان كان سيتحمل البقاء طويلا فى  
المنطقة . بينما كان عادل باى الطويل يجلس الى جانبه ويزيده  
طولا براس كامل . وكانا الاثنان طول الطريق يتحدثان بحيوية  
فى موضوع ما .

ينبغى ان نقدر عثمان مدير المفرق حق قدره ، فهو الذى  
خصص لموكب الجنازة مجموعة من الآلات والمكانن . ولقد افتى  
المدير الشاب افتاء صحيحا فى الموضوع ، اذ قال ، انهم ، اذا



ما قطعوا هذه المسافة الطويلة ، ومن ثم حفروا القبر بأيديهم ، فمن غير المحتمل ان يفلحوا في العودة عند المساء ، ذلك لان القبر يجب ان يكون عميقا جدا ذا شق في وسطه وشقين في جانبه على طريقة مسلمي آسيا الوسطى .

هذا الاقتراح ، اربك في البدء يدغي البوراني بعض الشيء ، اذ لم يخطر بباله ان يحفر قبرا بحفارة وليس بيديه . وكان في تلك الاثناء يجلس امام عثمان مقطبا جبينه مستغرقا في التفكير حافلا قلبه بالشكوك . لكن عثمان وجد مخرجا للموضوع واقنع العجوز :

- يا يدغي ، اننى اقول لكم الصحيح . ولكى لا يحيركم شيء ، ابدأوا اولاً الحفر باليدى . ولنقل بضع مجارف . ثم تكمله الحفارة بسرعة . التربة في ساروزيكى صلبة كالجر ، وتعرف ذلك بنفسك . وبامكانكم فيما بعد تعميق القبر بالحفارة قدر ما تريدون . فى النهاية تعملون باليدى ايضا وتنهون بذلك الاعمال التكميلية ، كما يقال . انكم بهذا ستختصرون الوقت وتراعون جميع الاصول المتبعة . . .

وكلما توغلوا فى عمق ساروزيكى وجد يدغي نصيحة عثمان معقولة تماما ومقبولة . وحتى انه تعجب كيف لم يخطر هذا بباله هو . اجل ، هكذا سيتصرفون ، اذا وصلوا آنا - باييت ان شاء الله : سيختارون مكانا مناسباً فى المقبرة حتى يضعوا رأس المرحوم باتجاه القبلة ، ويبدأون اولاً بالرغوش والمعازق التى يحملونها معهم فى العربة الملحقة ، وبعد ان يحفروا قليلا ، يتركون مهمة الحفر عميقا للحفارة ، اما الشق الوسطانى والشقين الجانبيين فسيحفرونها باليدى . وهذا سيكون اسرع واوتق . هذه كانت غاية رحلتهم فى تلك الساعة عندما كانوا يقطعون برارى ساروزيكى وهم يلوحون على التلال تارة ويختفون اخرى فى المراعى الواسعة ثم يظهرون من جديد فى السهوب القصية يتقدمهم يدغي البوراني على جملة ، يتبعه الجرار بعربته الملحقة ، الذى كانت الحفارة «بيلاروس» تسير وراءه كجعل هامد مفتوح الذراعين .

لم يلاحظ يدغي ، ولفرط دهشته ، الا الآن ، عندما تلتفت للمرة الاخيرة الى المرفق الذى بقى فى الورا ، ان الكلب الاشقر

جولبارس يركض خبياً وبهمة الى جانبهم . متى افلح فى اقتفاء اثرهم ؟ يا للمعجب ! اثناء الرحيل من بورانى - بورانى ، على الاغلب ، لم يره . لو عرف انه سيمزح هذه المزحة لأركبه مربوطا . يا له من حيال ! فما ان يلاحظ ان يدغي يسافر الى مكان ما على قره نار الا وينتهز الفرصة ليتعقب اثره . وها هو فى هذه المرة كان الارض انشقت عنه وخرج منها . وقرر يدغي ان يدعه وشأنه ، لان الوقت قد فات لاجباره على العودة من حيث اتى . ثم لم يكن الامر يستحق ان يضيع وقته فى سبيل كلب ، فتركه وشأنه . وركض جولبارس مسابقا الجرار ، كأنه خمن افكار سيده ، واتخذ لنفسه مكانا متقدما الى جنب قره نار . هدده يدغي بالسوط الا انه لم يعر له بالا ، وكأنه كان يقول بذلك : لقد فاتك وقت التهديد . ثم ما وجه السوء فيه لكى لا يسمح له بمرافقتهم : فهو عريض الصدر وذو رقبة شعناء واذنان مقطوعتان وعينان هادئتان ذكيتان . باختصار ، كان الكلب الاشقر جولبارس جميلا وجذابا على طريقته .

فى هذه الاثناء قدحت شتى الافكار برأس يدغي وهو فى طريقه الى آنا-باييت . وتذكر ، متطلعا كيف ترتفع الشمس فوق الافق تقيس مجرى الزمن ، بعض المشاغل الحياتية . وعادت به الذكرى الى تلك الايام حين كان هو وقازانغاب شابين وفى عز قواهما ، وكانا يعتبران ، طالما جرى الحديث عنهما ، العاملين الدائمين الرئيسيين فى المرفق . والآخرين لم يواصلوا العمل فترة طويلة فى بورانى-بورانى ، فكانوا يذهبون مثلما يانون ، اما هو وقازانغاب ، فالوقت لا يكفيهما لكى يستردا انفاسهما . لانهما ، سواء اشاء ام ابيا يضطران لان يحسبا حساب اى شيء ويؤديان كل الاعمال التى تدعو الحاجة اليها فى المرفق . الآن ليس من اللائق ان يتذكر ذلك بصوت مسموع . الشيباب سيضحكون : عجوزان غيبان اهلكا نفسيهما ، ولماذا ؟ اجل ، فى سبيل ماذا بالفعل ؟ يعنى كان ثمة شيء ضحيا من اجله .

ذات مرة ، اثناء تراكم الثلوج ، بذلا جهودا مضنية فى عمل متواصل ليومين كاملين منظمين الطريق من الثلج . فى الليل جلبوا قاطرة لكى تضى المنطقة بصايبها . اما الثلج فكان يواصل سقوطه والرياح تعصف وتدوم . وهما ما ان ينظفا



- يا لك من شنيع ! - قال يديغي - اذا اردت ان تنفق فانفق انت بنفسك هنا ! - ولطمه على خده وتشابكا ليدميا وجه بعضهما البعض ، لكن لحسن الحظ قفز الوقاد من القاطرة وفرق بينهما في الوقت المناسب .

هكذا كان قازانغاب . وبالطبع ، لن تجد اناسا من امثاله حاليا . فلم يعد لهم من وجود . وهما هو آخر رجل من هؤلاء يوسد التراب . ولم يبق امام يديغي الا ان يودعه اللحد بكلمات الوداع الاخيرة ، ويقرأ عليه السلام .

مفكرا بذلك ، كرر يديغي في نفسه صلوات كان قد نسيها تقريبا ، لكي يعيد ترتيب كلماتها ويسترجع في ذاكرته على نحو ادق منطقية الافكار في مخاطبة الله ومناجاته ، لان الله وحده قادر على ان يوالف بين قطبي الحياة والموت المتنافرين في وعى الانسان . ولهذا الامر ، على اغلب الظن ، فُرضت الصلوات على الانسان ، لانه ليس بإمكانه ان يصرخ ، لكي يسمعه الله ، او يسأله لماذا خلق الكون على هذا النحو ، لكي يولد ويموت ! ويعيش الانسان منذ ذلك الوقت الذي خلق الله فيه العالم في حالة من الرفض والمساومة ، وهذه الصلوات هي الاخرى لم تتغير منذ تلك الايام ، وظلت تدعو الانسان الى الشيء نفسه ، لكي لا يتذمر ويواسى نفسه . هذه الكلمات قد صيغت منذ آلاف السنين . ها هي آخر الكلمات التي ينبغي للخي ان يتلوها على الميت وهي كسبيكة ذهب . هكذا هي التقاليد .

وفكر أيضا ، انه بصرف النظر عن وجود الله او عدم وجوده قطعا فان السواد الاعظم من الناس يفكر عنه على نسق واحد عندما تستدعي الضرورة . مسح انه لا يجوز ان يتصرف هكذا . ولعله لهذا السبب قيل ان الملحد لا يذكر اسم الله ان لم يؤلمه رأسه . سواء كان الامر هكذا او لم يكن ، لا بد ان يعرف المرء الصلاة .

متأملا رفقاء الطريق الشباب على الجرار والحفارة تحسر يديغي البوراني وتأسف أسفا صادقا ، ذلك ان احدا منهم لم يكن يعرف اى صلاة . كيف سيدفنون بعضهم بعضا؟ باى كلمات اخيرة سيودعون الانسان لدى انتقاله من الدنيا الى الآخرة؟ «وداعا يا رفيق سنتذكرك؟» او اى هراء آخر؟

الطريق من طرف الا وتتكدس عليه الكتبان الثلجية من طرف آخر . اما عن البرد فحدث ولا حرج . اذ كان وجهاهما ويداهما تتورم فيدخلان القاطرة للتدفؤ مدة خمس دقائق ، ثم يعودان من جديد الى هذا العمل الساروزيكي المهلك . حتى القاطرة نفسها غمرت بالثلج الى مستوى عجلاتها . ثلاثة من العمال القادمين الجدد غادروا في اليوم الثاني . وصبوا اقدح الشتائم على الحياة الساروزيكية . قالوا ، نحن لسنا معتقلين ، وحتى المعتقلون يسمح لهم بالتمتع بقسطهم الكافي من النوم . بهذه الكلمات عادوا ادراجهم . لكن في الصباح عندما مرت القطارات صرخوا في وجهيهما مودعين :

- اي ، يا مجانين ، جهودكم ستضيع سدى !

لكن ليس لان هؤلاء الشباب القادمين زجروهما ، بل حدث ان تخاصما ، هو وقازانغاب ، في اثناء تلك العاصفة الثلجية . اجل لقد حدث ذلك في الليل عندما بلغ العمل حدا لا يطاق . تساقط ثلج جديد ونفخت الريح من جميع الجهات وراحت تهجم عليهما ككلب مسعور ، وليس من مكان يلتجئون اليه منها . القاطرة تنفت دخانا ، والدخان ينشر الضباب ليس الا ، والمصابيح بالكاد تتمكن من اضاءة العتمة . وحين ذهب هؤلاء الثلاثة اخذ يديغي وقازانغاب ينقلان الثلج بجدل يجره بعيران . لكن المخلوقين كانا لا يسيران لانهما أيضا يشعران بالبرد والغثيان في هذه الدوامة . الثلج على جانبي الطريق يصل الصدر . جر قازانغاب البعيرين من مقوديها لكي يسيرا وراه . اما يديغي فكان يحتهما من الورا بالسوط . هكذا صارعا حتى منتصف الليل . بعد ذلك سقط البعيران في الثلج ، واخيرا انهارت قوامها . ما العمل؟ فاضطرا لترك العمل الى ان تسكن العاصفة . ووقفا قرب القاطرة يحتميان من الريح .

- يكفي يا قازانغاب ، ولندخل القاطرة ، وننتظر تغير الطقس - قال يديغي ضاربا قفازيه المتجمدين واحدا بالآخر .  
- الطقس يبقى مثلما هو عليه . وفي كل الاحوال ان عملنا هو تنظيف الطريق . هيا بالرفوش ، ولا يحق لنا الوقوف .  
- السننا نحن من بنى آدم؟ ماذا تقول؟  
- غير من بنى آدم اختفوا في جحورهم منذ زمن .



ذات مرة حدث وان ذهب يدعي البوراني لتشييع جنازة في مركز احد الاقضية . فتعجب اذ رأى في المقبرة نفس ما يراه في الاجتماعات . وقد تلا الخطباء امام جثمان المرحوم خطبا مكتوبة تحدث فيها جميعهم عن الشيء نفسه : ماذا عمل واى المسؤوليات تحمل ، وكيف اشتغل ، ومن خدم ، وكيف خدم ، ثم عزفت موسيقى واغرقوا القبر بالزهور . ولم يتفرغ احدهم ليقول اى شىء عن الموت كما يجرى الكلام عنه فى الصلوات التى تتوج وعى الناس منذ غابر الازمان فى تلك السلسلة من احداث الحياة وكانما لم يمض احد فى العالم قبل ذلك الشخص ، ولا ينبغي ان يموت احد بعده . وكان هؤلاء المساكين خالدون ! هكذا صرح الناس خلافا لما هو بديهي . «خلد اسمه !»

كان يدعى يعرف المكان جيدا . فضلا عن ذلك فانه كان يرى وهو على ظهر قره نار البوراني كل شىء امامه من مسافة بعيدة . واجتهد ان يلزم طريقا مستقيما قدر المستطاع فى سارووزيكى صوب آنا-باييت ، مستسلما فقط للتعرجات ، وذلك لكى يتجاوز الجرار والحفارة حفر الطريق .

وسار كل شىء ، كما خطط له . ليس سريعا ، وليس بطيئا ، لكنهم اجتازوا ثلث الطريق . . . كان قره نار البوراني يسير خبيبا بخطوات لا تكل ، منصاعا بدقة لتوجيهات صاحبه . وكان يتبعه الجرار والعربة الملحقة به هادرا . وسارت الحفارة «بيلاروس» وراء الجرار .

بيد ان ظروفنا طازنة واستثنائية كانت تنتظرهم . وهذه الظروف مهما كانت غير محتملة فانها بشكل او باخر ، كانت ذات صلة بما كان يجرى فى المطار الفضائى فى سارى-اوزيك . . . كانت حاملة الطائرات «كونفينتسيا» فى ذلك الوقت عائمة فى مكانها ، فى المنطقة نفسها من المحيط الهادى ، الى الجنوب من جزر ألوشن ، وفى نقطة تنتصف المسافة بين فلاديفوستوك وسان-فرانسيسكو .

لم يطرا اى تغير على الجو فى المحيط . وظلت الشمس فى النصف الاول من النهار تشع بسطوع يعشى الابصار على المساحات الشاسعة من المياه المتلألئة بلا حد . ولا شىء فى الافق ينبئ باى تغير فى الطقس .

اما على متن حاملة الطائرات فقد خيم التوتر على جميع مرافقها . ووضعت على اهبة الاستعداد بما فى ذلك اجنحة الطيران ، ومجموعة الامن الداخلى ، مع انه لم يكن ثمة اسباب محددة لذلك فى المحيط الواقعى . كانت الاسباب تكمن ما وراء حدود الفضاء الخارجى . ان الاخبار الواردة الى «كونفينتسيا» عبر المحطة المدارية «ترامبلين» من رائدى الفضاء المتكافئين المتواجدين فى كوكب الصندر الغابى قد اثارت القلق والاضطراب فى قيادة اوبتسينوبر واعضاء اللجنة ذات التخويل الخاص . كانت البلبلة شديدة لدرجة ان كلا الجانبين قررا فى البدء عقد اجتماعات منفصلة لمناقشة الوضع الناجم ، وقبل كل شىء انطلاقا من مصالحهما ومواقفهما الخاصة على ان يجتمعا بعد ذلك فقط للمناقشة العامة .

كان العالم لا يعرف بعد فى تاريخ البشرية اكتشافا لا سابقة له كهذا ، عن وجود حضارة غير ارضية على كوكب الصندر الغابى . حتى ان حكومتى الجانبين بعد ان احيطتا علما بما حدث بطريقة بالغة السرية ، كانتا لا تملكان اية معلومات عن التطور اللاحق للاحداث . كانتا تنتظران وجهة نظر موحدة من اللجنتين المختصتين و«قر» على متن حاملة الطائرات كله نظام صارم . اذ منع على الجميع ، بما فى ذلك اجنحة الطيران ، حق ترك اماكنهم . ولم يكن ، بموجب ذلك ، يحق لاحد ، ولاى سبب كان ، ترك السفينة ، كما لم تتمكن اية سفينة اخرى الاقتراب من «كونفينتسيا» ضمن دائرة نصف قطرها خمسون كيلومترا . وغيرت الطائرات التى كانت تمر فى اجواء المنطقة خطوط رحلاتها حتى لا تقترب اكثر من ثلاثمائة كيلومتر من موقع تواجد حاملة الطائرات .

وهكذا ، انقطع الاجتماع المشترك للجانبين ، وراحت كل لجنة تجتمع لوحدها ومع مشرفيها على برنامج «ديميورغ» لمناقشة الاخبار الواردة من رائدى الفضاء المتكافئين ١-٢ ، ٢-١ ، التى ارسلها من كوكب الصندر الغابى المجهول بالنسبة للعالم . وكانت كلماتها تخترق ابعادا كونية غير قابلة للتصديق .

«اسمعوا ، اسمعوا !»

انسا تقوم بالارسال للارض عبر المجرة ! من المستحيل



توضيح اشياء لا تحمل اسماء على الارض بعد ، لكن ثمة امور كثيرة مشتركة بيننا .

انهم مخلوقات شبيهة بالبشر اى اناس مثلنا ايضا ! عاش التطور العالمى ! لقد ابتدع التطور هنا موديلاً للمخلوقات البشرية على اسس عامة ! وهى نماذج رائعة من المخلوقات البشرية الساكنة فى كوكب آخر ! جلدهم اسمر ، شعرهم ازرق فاتح ، عيونهم خضراء ليلية وحواجبهم بيضاء زغبية .

لقد رأيناهم فى بدلات لرجال الفضاء شفاقة تماما ، عندما التحموا بمحطتنا المدارية . كانوا يبتسمون من متن السفينة داعين ايانا اليهم .

وخطونا نحن من حضارة الى حضارة .

واقطع الجهاز الطائر اولبيا وبسرعة الضوء ولم تكن نشعر بها ابدا داخل السفينة عمليا ، وانطلقنا مجتازين سبل الزمن الى الكون . ان اول ما لفت انتباهنا وجعلنا نشعر بيسر مفاجئ هو فقدان حالة انعدام الوزن . اما كيف تمكنوا من بلوغ هذا فنحن غير قادرين لحد الآن على تفسيره . وخاطبونا بالكلمات الاولى فى مزيج من اللغتين الروسية والانكليزية : «ويل كام ناش زفيزدا !» \* عندئذ ادركنا انه عند ابداء درجة معينة من الاهتمام يكون بإمكاننا ان نتبادل الافكار . وهذه المخلوقات ذات الشعر الازرق طويلة القامة ، يبلغ طولها نحو مترين . وكانوا خمسة : اربعة رجال وامرأة واحدة . ولم تكن امرأة تتميز بطولها ، وانما بقوامها الانثوى وجلدها الاكثر ضربا الى البياض . ان جميع سكنة الصدر الغابى ذوى الشعر الازرق سمر للغاية وهم اشبه بعربنا الشماليين . ولقد شعرنا معهم منذ الوهلة الاولى بالثقفة والطمأنينة .

ثلاثة منهم سواق الجهاز الطائر . اما الرجل الرابع والمرأة فهما خبراء بلغات الارض . وهما اول من درس ونظم عن طريق الالتقاط الاذاعى فى الفضاء الخارجى الكلمات الانكليزية والروسية والفا قاموسا للكلمات الارضية . وحتى لحظة لقائنا كانا يعرفان معانى اكثر من الالفين والخمسمائة كلمة ومصطلح . وبمساعدة

\* اهلا وسهلا بكم فى كوكبنا ! الناشر .

هذا الاحتياطى اللغوى بدأ تعاملنا معهم . هم يتكلمون بلغة ، بالطبع ، غير مفهومـة لنا ، لكنها تشبه بنبرتها اللغـة الاسبانية .

بعد مرور احدى عشرة ساعة على انطلاقنا من «باريتيت» خرجنا الى ما وراء حدود المنظومة الشمسية .

تم هذا الانتقال من نظامنا النجمى الى آخر بشكل غير منظور ، ودون ان يتميز بشيء على نحو خاص . ومادة الكون واحدة فى كل مكان . ولكن كانت تشع فى الامام على خط طيراننا بشكل تدريجى هالة حمراء (يبدو انه هكذا كان فى تلك اللحظة موضع الاجسام فى المنظومة الاخرى) . وكبرت هذه الهالة ، وتحركت فى البعد فى فضاء ملون لا حدود له . فى هذه الاثناء كنا قد اجتزنا فى طريقنا عدة كواكب كانت مظلمة فى تلك الساعة من احد الجوانب ومضيئة من جانب آخر . ورأينا عددا كبيرا من الشمس والاقمار فى الفضاء .

وكاننا انتقلنا من الليل الى النهار . وفجأة حلقتنا فى ضوء غامر ساطع يعشى العيون منبعث من شمس عظيمة وجبارة فى سماء غير مرئية .

- نحن فى مجرتنا ! ها هو «حاملنا» يضىء ! قريبا سيظهر صدرنا الغابى ! - قالت المرأة المختصة باللغة .

وبالفعل رأينا فى العلاء ما لا يقاس من الامتداد الفضائى الجديد لشمس جديدة بالنسبة لنا ، تسمى «بالحامل» . وهذا «الحامل» يفوق شمسنا بقوة اشعاعه وحجمه . بالمناسبة نقول اننا نميل الى شرح عدد كامل من الفوارق الجيوبولوجية بين هذا العالم وعالمنا بالاعتماد على هذه الميزة «للحامل» وعلى كون اليوم الكامل فى الصدر الغابى يتألف من ثمان وعشرين ساعة .

لكننا سنحاول ان نخبركم عن هذا كله فى المرة القادمة ، او حين عودتنا الى «باريتيت» . اما الآن فنقدم لكم بالمناسبة بعض المعلومات القيمة . يشبه كوكب الصدر الغابى من العلو ارضنا ، وهو محاط بفيوم جوية مماثلة . قام الصدرغابيون على مسافة قريبة من سطح الكوكب - خمسة او ستة آلاف متر - بتخليق اطلاقى خاص لنا . وكان منظرا جميلا يعجز عن الوصف : جبال ، سلاسل متوجة ، وهضاب مغطاة بالاخضر الساطع ،



بينها انهار وبحار وبحيرات ، اما فى بعض مناطق الكوكب ، ولا سيما فى الاطراف والقطبين ، فمساحات شاسعة من الصحارى الميتة تعج بالعواصف الترابية . بيد ان المدن والقرى تركت انطبعا عميقا فى نفوسنا . هذه الجزر ذات الابنية المصممة بين المناظر الطبيعية تتفوق بعمارها على فن الهندسة المعمارية الامريكية المعاصرة .

ان الصدرغابيين ، من وجهة نظرنا ، هم ظاهرة شاذة وفريدة من بين المخلوقات العاقلة فى الكون . فترة الحمل هى احد عشر شهرا صدرغابيا . الحياة طويلة الديمومة ، رغم انهم يعتبرون ان المشكلة الرئيسية للمجتمع ومغزى الوجود هو اطالة العمر . انهم يعيشون كمعدل بين مئة وثلاثين عاما ومئة وخمسين عاما ، وحتى ان بعضهم يعيش الى عمر المئتين ! وتعداد نفوس سكان الكوكب يناهز عشرة مليارات نسمة .

اننا الآن لسنا فى وضع يتيح لنا ان تقدم لكم كل شئ . مصنفا فيما يخص نمط حياة الصدرغابيين ومنجزات حضارتهم . ولهذا نرسل اليكم تقارير تتضمن مقاطع عما يدهشنا اكثر من سواء فى هذا العالم .

انهم يعرفون كيفية الحصول على الطاقة الشمسية او بالاحرى «الحاملة» محولين اياها الى طاقة حرارية وكهربائية ذات محصل قوة عالية يفوق وسائلنا الهيدروتنقية ، وكذلك من المهم بشكل استثنائى انهم ينتجون الطاقة من فرق درجات الحرارة الجوية النهارية والليلية .

لقد تعلموا اخضاع الظروف الجوية لارادتهم . عندما كنا نقوم بتحليق اطلاقى فوق الكوكب ، يبد الجهاز الطائر بواسطة الاشعاع وبسرعة خارقة الضباب والغيوم فى اماكن احتشادها . وعلمنا ان بمقدرتهم التأثير على حركة الدجج الطائرة والتيارات المائية فى البحار والمحيطات . وبالوسائل نفسها ينظمون عملية الترتيب والنظام الحرارى على سطح الكوكب ، والاكثر من ذلك انهم يستطيعون توجيه الجاذبية ، وهذا ما يساعدهم فى الطيران بين النجوم .

بيد ان مشكلة فى غاية الاهمية تواجههم ، بينما نحن ، على حد علمنا ، لم نواجه مثل هذه المشكلة على الارض بعد . انهم

لا يعانون من الجفاف ، ذلك لان بإمكانهم توجيه الطقس . وانهم حتى الآن لا يعرفون النقص فى انتاج المواد الغذائية . هذا كله فى ظل هذا العدد الهائل من السكان الذى يزيد بمرتين عن عدد سكان الارض . غير ان القسم الاكبر من الكوكب يغدو تدريجيا غير صالح للحياة . فى مثل هذه المناطق يموت كل ما هو حى . هذه هى ظاهرة ما يسمى بالجفاف الداخلى . ولقد رأينا اثناء تحليقنا الاستطلاعى عواصف ترابية فى الجنوب الشرقى من الصدر الغابى . وبنتيجة بعض التفاعلات الرهيبة فى بواطن الكوكب ، ربما تشبه هذه العمليات البركانية عندنا ، لكنها ، قد تكون فى الغالب ، شيكلا من اشكال التبدد البطيء لانفجار بركان اشعاعى ، تهدم التربة السطحية وتفقد بنيتها وتحترق فيها جميع المواد المشكلة للتربة . فى هذا الجزء من الكوكب ترحف صحارى بمساحة الصحراء الكبرى سنة بعد اخرى على المساحات الخضراء للسكان ذوى الشعر الازرق . ويعتبر هذا بالنسبة لهم من اكبر الكوارث . انهم لم يتعلموا بعد توجيه العمليات الجارية فى بواطن الكوكب . لقد وظفوا احسن القوى ووسائل مادية وعلمية هائلة لمكافحة هذه الظاهرة الرهيبة من الجفاف والتصحر . لا قمر فى مجرتهم ، لكنهم يعرفون عن قمرنا ولقد زاروه . انهم يفترضون ان قمرنا قد عانى من نفس الظواهر . واذ عرفنا بذلك استرسلنا فى التفكير ، ذلك ان القمر ليس جد بعيد عن الارض . فهل نحن مستعدون لهذا اللقاء؟ وماذا ستكون العواقب على الصعيدين الداخلى والخارجى ؟ الا يفكر الناس انهم اضاعوا كثيرا فى تطورههم الذهنى بسبب الاخفاقات الدائمة على الارض ؟

تجرى فى الوقت الحاضر فى الاوساط العلمية الصدرغابية نقاشات على نطاق عموم الكوكب : هل يستدعى الامر بذل الجهود سعيا الى فك اسرار الجفاف الداخلى والبحث عن طرق ايقاف هذه الكارثة المحتملة ام انه يتطلب ايجاد كوكب آخر فى الكون سلفا يستجيب لمتطلبات حياتهم والبدء مع مرور الزمن بالانتقال الجباعى الى المكان الجديد للمعيشة من اجل نقل وانبعث الحضارة الصدرغابية مجددا . ليس واضحا للآن الى اى كوكب جديد تتوجه انظارهم . على اية حال بإمكانهم ان يعيشوا على كوكبهم



ملايين اخرى من السنين ، غير انه من المدهش انهم منذ الآن يفكرون بمستقبلهم البعيد جدا ويعملون بحيوية ونشاط وكان هذه المشكلة تتعلق مباشرة بالسكان الحاليين . هل يعقل انه لا تخطر ببال احد فكرة : «فليكن بعدى الطوفان !» لقد شعرنا بالخجل - لان تفكيرنا بهذا الشأن كان مماثلا - عندما عرفنا ان القسم الاكبر من اجمالي الناتج ينفق لصالح برنامج منسج وقوع الجفاف الداخلى . انهم يسعون الى اقامة حاجز يمتد آلاف الكيلومترات على طول حدود الصحارى الزاحفة ، وذلك عن طريق حفر آبار ارتوازية عميقة جدا وادخال مواد معدلة بقوة التأثير لفترات طويلة الامد فى اعماق الارض ، وهذه المواد ، كما يتوقعون ، سيكون لها التأثير المطلوب على التفاعلات فى باطن الكوكب .

بالطبع ، انهم يعانون وينبغي ان يعيشوا مشاكل معيشية ، وهذه المشاكل التى هى من النوع الاخلاقى والمعنوى والذهنى تجعل العقل يجترح الآلام حاملا صليبيه الثقيل . ومن البيدهى تماما ان تكون معقدة حياة ما يزيد عن عشرة مليارات نسمة مهما بلغوا من الرقى واليسر . لكن الامر الاكثر مثيرا للعجب فى هذا كله هو انهم لا يعرفون الدولة كما هى عليه ولا يعرفون الاسلحة ولا يعرفون للحرب معنى . ويصعب علينا القول ، انه ربما فى الماضى السحيق دارت عندهم حروب وكانت ثمة دول ونقود وكل ما رافق المرحلة كلها من العلاقات الاجتماعية ، بيد انهم فى الوقت الحاضر لا يملكون اى تصور عن مؤسسات قمعية كالسلطة واشكال النضال كالحرب . واذا ما اضطررنا ان نشرح لهم كنه حروبنا الدائمة على الارض الا تبدو لهم سخيفة ولا معنى لها ، او اكثر من ذلك ، طريقة بربرية لحل المشاكل ؟

ان حياتهم باكملها منظمة على اسس مغايرة تماما غير مفهومة كليا لنا وصعبة المنال بالنسبة للتفكير الدارج على وجه الارض .

لقد بلغوا هذا المستوى من الوعى الجماعى المنظم الذى يستثنى قطعا الحرب باعتبارها وسيلة نضال ، حيث لا يبقى امامنا الا ان نفترض ان هذا الشكل من الحضارة ، فى اغلب الظن ، هو الاكثر تقدما فى اطار الابعاد التى يمكننا ان نتصورها

فى البيئة الكونية . ولعلمهم نالوا هذه الدرجة من التقدم العلمى عندما اصبحت عملية انسنة الزمان والمكان مدلولاً رئيسياً لحياة المخلوقات العاقلة ، وبهذا تكمن مواصلة تطور العالم فى طوره الجديد السامى الابدى .

اننا لا ننوى مقارنة الاشياء التى لا تقارن . مع مرور الزمن سيبلغ الناس على ارضنا ايضا هذا المبلغ العظيم من التقدم ، ولدينا منذ الآن ما نفتخر به ، لكن رغم ذلك ثمة فكرة ثقيلة تلاحقنا : ماذا لو بقيت البشرية على الارض فى ضلال مميت ، مقنعة نفسها بما معناه ان التاريخ هو تاريخ الحروب ؟ ماذا لو اتضح ان طريق التطور هذا كان منذ البداية طريقا خاطئا مسدودا ؟ فى مثل هذه الحال الى اين نذهب نحن والى اين يزدى بنا هذا الطريق ؟ واذا كان الامر على هذه الشاكلة ، فهل ستوفق البشرية فى ايجاد الجراة فى نفسها لتعترف بذلك ثم تتفادى الطوفان الشامل ؟ واذا وجدنا ان ارادة القدر ارتات ان نكون الشهود الاوائل على الحياة الاجتماعية اللارضية نحس بمشاعر غامضة : الخوف على مستقبل سكان الارض والامل ، فثمة فى العالم مثال للحياة المشتركة العظيمة التى لا يعود سير تقدمها الى تلك الاشكال المتناقضة التى تحلها الحروب . . .

الصدراغايون يعرفون عن وجود الارض فى مسافات بمنتهى البعد بالنسبة لحدودهم الكونية . وانهم مفعمون بالرغبة لتكوين علاقات مع سكان الارض ليس بدافع الفضول الطبيعى ، بل كما يخيل اليهم ، قبل كل شىء ، من اجل انتصار فذادة العقل ، من اجل تبادل التجارب الحضارية ، من اجل عصر جديد من تطور الفكر وروح الكائنات العاقلة فى الكون .

وانهم يتوقعون من هذا كله اكثر بكثير مما يمكن تصوره . وان اهتمامهم بسكان الارض ناتج ايضا من ايمانهم بان توحيد الجهود المشتركة لهذين الفرعين من العقل العالمى هو الطريق الرئيسى لضمان استمرارية الحياة اللامتناهية فى الطبيعة ، وهم بذلك يقصدون ، ان الطاقة ، ايا كانت ، تتعرض للانقراض الحتمى وان الكواكب ، اية كانت ، محكوم عليها بالفناء . . . انهم قلقون بصدد مسألة «نهاية العالم» التى قد تحدث بعد مليارات السنين ، ويعدون من الآن تصاميم علمية كونية



لتأسيس مراكز جديدة للعيش لجميع الكائنات الحية في الكون . . .

ونظرا لحوزتهم على اجهزة طائرة تبلغ سرعتها سرعة الضوء فبامكانهم ان يزوروا الارض الآن . لكنهم لا يريدون ان يفعلوا ذلك دون موافقة من سكان الارض ودعوتهم لهم . لانهم لا يرغبون باقتحام الارض كغرباء طارئين . فضلا عن ذلك فقد لمحا لنا بانهم كانوا يبحثون منذ زمن عن حجة للتعارف . ومنذ ان تحولت محطاتنا الفضائية الى محطات مقيمة في المدار لاماد طويلة اتضح لهم ان موعد اللقاء بيننا يقترب وان عليهم ان يبدأوا المبادرة . وكانوا قد استعدوا استعدادا دقيقا ، وانتظروا فرصة مؤاتية . وصادف ان وقعت هذه الفرصة على عاتقنا طالما وجدنا انفسنا في محيط يقع بين كوكبهم والارض ، في المحطة المدارية . . .

ومن الواضح تماما ان زيارتنا لكوكبهم اثارت ضجة لا تصدق . وارتباطا بذلك فتح في الاثير نظام الاتصالات الراديوي الشامل الذي يستخدم فقط في الاعياد الكبيرة . وزاينا في الهواء المضاء حولنا ، كما نرى في الحقيقة ، الى جانب وجوه واشياء تقع على مبعده آلاف الكيلومترات عنا ، وفي الوقت نفسه كان بامكاننا ان نتعامل معهم عن كذب ؛ مثلا ان ننظر في وجوه بعضنا البعض ، ونبتسم ، ونشد على الايدي ، ونحدث ، ونفرح وندهش ونضحك عاليا وكان كل هذا يحدث في العلاقات المباشرة . الصدرغابيون جميلون واي جمال ! ومتباينون تباينا كليا ، فحتى لون الشعر الازرق يتغير من الازرق الغامق الى الازرق اللازوردى ، اما الشيوخ فيشيبون ، كما يظهر ، مثلنا ايضا . والانماط الانثروبولوجية ايضا متباينة لانهم يمثلون مجموعات سلالية مختلفة .

عن هذا كله والكثير الكثير غيره مما يفوقه دهشة سنحدثكم بعد عودتنا الى «باريتيت» او الى الارض . والان نحدثكم عن الاله : الصدرغابيون يرجوننا ان نبلغكم عبر نظام الاتصال «باريتيت» عن رغبتهم بزيارة كوكبنا في اي وقت يراه سكان الارض ملائما . والى ان يتم ذلك فانهم يقترحون الاتفاق على برنامج لاقامة محطة وسطية بين النجوم ، وستكون هذه المحطة في البدء

مكان اللقاءات التمهيدية الاولى ، ثم تصبح في المستقبل مركزا دائما على طريق الرحلات المتبادلة . لقد وعدناهم بايصال هذه المقترحات الى اسماع اهل الارض . بيد ان ما يقلقنا في هذا المجال هو امر آخر .

هل نحن ، اهل الارض ، مستعدون لمثل هذا النوع من اللقاءات البيكونية ، وهل اننا ناضجون بما فيه الكفاية لهذا اللقاء ونحن في هذه المرحلة من التطور الذهني ؟ هل سنتمكن ونحن نعاني من التشتت ووجود التناقضات فيما بيننا من الوقوف امامهم موحدين ومخولين انفسنا باسم الجنس البشرى كله وباسم الارض برمتها ؟ اننا نتوسل اليكم ان تتفادوا اثاره منافسات جديدة والنضال من اجل اسبقية كاذبة وان لا تعرضوا حل هذه المشكلة الا في هيئة الامم المتحدة . واثناء القيام بذلك نرجوكم ان لا تسيئوا استخدام حق النقض (الفيتو) ، بل بالامكان في هذه المرة ، كاستثناء ان تلغوا هذا الحق . يعز علينا ويصعب ان نفكر بمثل هذه الاشياء ونحن موجودان خارج الابعاد الفضائية لكننا نحن من سكنة الارض ونعرف بما فيه الكفاية اخلاقيات سكان كوكبنا الارض .

واخيرا نعود ونحدثكم عن انفسنا وعن سلوكنا . اننا نقر بالارباك الذي احدثناه ، والاجراءات الاستثنائية التي اضطررتم الى العمل بها عقب اختفائنا من المحطة المدارية . ونحن نعرب عن عميق الاسف لهذا القلق الذي كنا سببه . بيد ان هذه كانت تلك الصدفة الفريدة في الممارسة العالمية بحيث لم تتمكن ، ولم يكن يحق لنا ان نرفض هذا العمل العظيم . ونظرا لكوننا من اناس يتبعون نظاما صارما كان يتوجب علينا من اجل هذا الهدف ان نتصرف خلافا لهذا النظام .

فلتبقى هذه القضية تثقل ضميرنا ، ولنتحمل فيما بعد العقوبة المترتبة . لكن لتنسوا مؤقتا هذا الامر . استجيبوا لنا رجاء ! لقد اعطيناكم اشارة من الكون ، اننا نعطيكم الاشارة من مجرة مجهولة : كوكب «الحامل» . الصدرغابيون ذوو الشعر الازرق هم اصحاب اسمى حضارة معاصرة . وان لقاءهم يمكن ان يؤدي الى تغييرات عميقة في حياتنا وفي مصير الجنس البشرى . هل نتجرا على هذا مراعين ، قبل كل شيء ، بالطبع ، مصالح الارض ؟



سكنة الكوكب الجديد لا يشكلون اى خطر علينا فى اقل تقدير ، هذا ما نعتقد به . لكن باقتباس تجربتهم نتمكن من احدثات تغير كبير فى حياتنا بدءا من طريقة الحصول على الطاقة من العالم المادى المحيط بنا الى تعلم الحياة بلا اسلحة وبلا عنف ، بلا حروب . ان هذه الاخيرة تبدو لكم غريبة حتى بالاسم ، لكننا نشهد شهادة حق ان حياة هذه المخلوقات العاقلة فى كوكبهم نظمت على هذا النحو لا غيره ، وانهم بلغوا هذا الكنز الكمالى عن طريق استيطان المسكن الجيولوجى الذى تساوى كتلته كتلة الارض . وباعتبارهم حملة نمط التفكير على التطور فى الكون فهم مستعدون لاقامة علاقات مفتوحة مع اخوانهم فى التفكير ، مع سكان الارض ، وبالشكال التى تستجيب لمطالب وكرامة كلا الطرفين .

على الرغم من ولعنا وانصعاقنا باكتشافات الحضارة غير الارضية ، نحن نتوق للمعودة سريعا ولكى ننقل للناس كل ما كنا شهودا عليه فيما وراء مجرتنا ، فى احد كواكب منظومة «الحامل» .

اننا ننوى ان نرجع الادبار الى «باريتيت» بعد ثمان وعشرين ساعة ، اى بالضبط بعد يوم كامل - حسب النظام الصندرقابى - من هذا البث . وما ان نصل «باريتيت» حتى نضع انفسنا تحت تصرف «اوبتسينيور» .

والآن الى اللقاء . وقبل التحليق صوب المنظومة الشمسية سنخبركم عن موعد وصولنا الى «باريتيت» . وبهذا نختم تقريرنا الاول من الكوكب الصدر الغابى ، الى لقاء قريب . نرجوكم رجاء حارا ان تبلغوا عائلتينا لئلا يساورهما القلق بشأننا . . .

رائد الفضاء - المتكافى ١-٢  
رائد الفضاء - المتكافى ١-٢

اختتمت الجلسة المنفصلتان للجنة المخلوتين بهام خاصة على متن حاملة الطائرات «كونفينتسيا» المجتمعين للبحث فى الحادث الاستثنائى على المحطة المدارية «باريتيت» بتوجه كلا

اللجنتين باعضائهما الكاملين بالطائرة للتشاور مع المراجع العليا . وطارت احدى الطائرات متوجهة صوب سان فرانسيسكو ، اما الطائرة الثانية فقد طارت بعد عدة دقائق فى الاتجاه المعاكس ، صوب فلاديفوستوك . وكانت حاملة الطائرات «كونفينتسيا» لا تزال فى نفس موقعها الدائم ، فى جنوب جزر الوشن فى المحيط الهادى . . . . وفرض عليها نظام صارم . واتخذ كل واحد موقعه فى العمل وكان على اهبة الاستعداد . . . . والجميع يلزمون الصمت . . . .

كانت القطارات فى هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق . وعلى جانبى خط السكة الحديد كانت تمتد مساحات شاسعة من الاراضى الصحراوية - سارى اوزيكى ، الاراضى الوسطى من البرارى الصفراء . . . .

وكانوا قد قطعوا ثلث الطريق الى آنا-باييت . وتوقفت الشمس التى ارتفعت فى البدء بسرعة فوق الارض فى نقطة واحدة هى سمت فوق ساروزيكى . وهذا يعنى ان النهار قد انتصف . واخذت الشمس تصلى بناورها المعروفة عنها فى وقت الظهيرة .

كان يديغى البورانى وهو ينظر تارة الى ساعته وتارة الى الشمس ، واخرى الى البرارى الشاسعة يخمن فى نفسه ان كل شىء يسير على ما يرام . ومشى كالسابق خبيا الى امام على ظهر بعيره يتعقب اثره التراكور والعربة الملحقة به ، ثم تتبعهما الحفارة «بيلاروس» . اما الكلب الاشقر جولبارس فكان يركض الى جنبهم على مبعدة خطوات .

«يظهر انه ليس فى وسع رأس الانسان ان ينقطع عن التفكير لحظة . وذلك ما خلق وجبل عليه هذا الرأس الاحمق . وسواء اردت ام لم ترد فان افكارا تنبثق من اخرى ، ولا تنقطع ما لم يمت الانسان !» لقد توصل يديغى الى هذا الاكتشاف الضحك بعد ان وجد نفسه يفكر باستمرار فى مختلف الامور اثناء الطريق . كانت الافكار تعقب الافكار مثلما تتعاقب الامواج فى



البحر . فى صغره كان يتابع لساعات كيف تظهر فى موقع بعيد من بحر آرال امواج اثناء هبوب رياح عاتية وكيف تقترب بأعراف مزبدة فواراة متوالدة من بعضها البعض . كانت تجرى فى تلك الحركة ولادة واختفاء الامواج فى آن ، ثم تولد وتختفى من جديد . عند ذلك ، فى صباح ، كان يود لو يتحول الى طائر نورس ويطير فوق الامواج وفوق رذاذ الماء المتلألئ حتى يرى من اعلى كيف تعيش المياه العظيمة .

كانت ساروزيكى ابان مقتبل الخريف بريحا البليل وانيساطها الكئيب ، ووقع أخفاف البعير السائر خبيبا تحت يديغى على التفكير اثناء الطريق ، وكان يستسلم له دون مقاومة ، ولحسن الحظ. كان الطريق فى الامام طويلا ، ولم يكن ثمة شئ يعوق سيرهم . وتحدى قره نار اثناء السير كعادته فى المسافات الطويلة واخذت تفوح منه رائحة المسك العادة . فلذعت هذه الرائحة المنبعثة من عرف وعنق البعير أنف صاحبه . وابتسم فى نفسه بارتياح : «يعنى انك غارق فى العرق ! حتى ما بين فخذيك ! يا لك من وحش صغير ! انت شنيع ! شنيع !»

وفكر يديغى بالايام الخوالى ، بالاعمال والاحداث عندما كان قازانغاب لا يزال قويا ومعافى ، وفى تلك السلسلة من الذكريات باغته حنين وشجن غائر فى اعماق الماضى . حتى الصلوات لم تسعفه . وراح يتمتم بها بصوت مجهور ويكررها عدة مرات لكى يبعد عن نفسه هذا الالم المدامم ويصرف ياله عنه ويلوذ منه باذيال النسيان نفسه . لكن نفسه لم تهدأ فتكدر وراح يسوط البعير السائر خبيبا بلا داع تارة على هذا الجنب وتارة على ذلك ، فنزلت سدارته على عينيه ، ولم يعد يلتفت الى التراكتور السائر وراه . فليتبعونه ، لن يتخلفوا ، ثم ما شان هؤلاء الشباب اليافعين بتلك القصة التى لم يتحدث عنها حتى مع زوجته بكلمة واحدة ، لكن قازانغاب حكهم فى القضية بتعقل ونزاهة كما فى كل مرة . وما كان فى وسع احد ان يبت فيها الآن ، والا لكان يديغى قد ترك مفرق بورانلى - بورانى منذ زمن بعيد . . .

فى ذلك العام ، وهو العام العادى والخمسون ، ومع انقضاء الشتاء تقريبا ، وصلت المفرق عائلة متكونة من الزوج والزوجة

وولديهما . الابن الاكبر داوول فى حدود الخامسة من عمره ، اما الاصغر ففى الثالثة ، وكان اسمه ايرميك . وكان رب الاسرة ابو طالب قطبايف نفسه تربا ليديغى . ولقد كان قبل الحرب شابا وعمل معلما لسنة واحدة فى مدرسة الاوول ، وفى صيف العام الحادى والاربعين كان من اوائل الذين سوقوا الى الجبهة . ويبدو انه تزوج ظريفة فى نهاية الحرب او بعدها مباشرة . وهى ايضا كانت الى ما قبل نزوحهما معلمة الصفوف الابتدائية ، وهما قد ارغهما المصير المقدر ودفعهما الى ساروزيكى فى بورانلى - بورانى .

واصبح جليا منذ اللحظة الاولى ان قدومهما للعيش فى ساروزيكى المقفرة له اسبابه الاضطرارية . وكان فى وسع ابي طالب وظريفة ان يجدا لنفسيهما عملا فى اماكن اخرى ، وبسهولة . لكن ، كما يظهر ، حتمت هذا الظروف ولم يبق قسى يديهما اى حل آخر . فى البدء فكر البورانليون انهم لن يطيلوا مكوثهم ، لانهم لا يصمدون ، وسرعان ما سوف يفرون الى اى مكان تسعى بهم اقدامهم اليه . ذلك ان اناسا ليسوا حتى بمستواهم قدموا الى بورانلى-بورانى ثم غادروها . وكان يديغى وقازانغاب ايضا يؤيدان هذا الراى . بيد ان العلاقة بأسرة ابي طالب اصبحت مع ذلك علاقة احترام ، فقد كانوا اناسا مستقيمين ومثقفين . لكنهم تعرضوا لفاجعة . وعمل كلاهما ، الزوج والزوجة ، كالجميع ، فقد تقلا العوارض على ظهريهما وتعرضا للبرد ايام العواصف الثلجية . وكانا يعملان ذلك العمل الذى يقوم به جميع عمال الصيانة على السكك الحديدية ، ولا بد من القول ان تلك العائلة كانت عائلة طيبة ومتفاهمة وودود ، رغم انها كانت تعيش لان ابا طالب ، على ما اتضح ، كان أسيرا عند الالمان . فى ذلك الوقت كان حماس سنوات الحرب قد هدا ولم يعد الناس يعاملون الاسرى السابقين معاملة الخونة والاعداء . اما بخصوص البورانليين فلم يتعبوا انفسهم ، ولم يهتموا لكون الرجل كان أسيرا سابقا ، فالجرب تكلمت بالنصر ، والناس قد اضطروا لتجرع الكثير من المأسى الفظيعة فى هذا الحدث العالمى الجلل والنكبة النكباء . وكان الكثيرون منهم حتى ذلك الوقت يجوبون الدنيا غير مستقرين . وشبح الحرب لا يزال



يلاحقهم . . . ولهذا لم يشأ البورانليون امطار القادمين  
بالاسئلة الخاصة ، على اساس قولهم : لماذا نسسم قلوب  
الناس ، وهم بدون هذا ، قد تجرعوا العلقم بما فيه الكفاية .  
وحدث ليدبغي ، مع مرور الزمن ، ان صادق ابا طالب بشكل  
عفوى . وكان ابو طالب رجلا ذكيا . ومن الأمور التي جعلت  
يديغي ينجذب نحوه هو ان ابا طالب رغم حالته المؤلمة لم يكن  
ذليلا . كان حسن السلوك وموقرا ، ولا يتشكى من مصيره  
عينا . وكان يأخذ بعين الاعتبار كل شؤون الحياة . ويظهر انه  
ادرك ان هذا المصير هو مصيره المقدر ، ولعل هذا ايضا قد  
تسلل الى وعى ظريفة . واذ ارتضيا في اعماقهما هذا الجزء  
المحتوم ، اصبحا يجدان معنى الحياة في حساسية فريدة وتقاربا  
من بعضهما البعض . وكما فهم يديغي فيما بعد فان هذا كان  
زادهما ، وبهذا دافعا عن نفسيهما وذاذا عن طفليهما رباح الزمن  
القاسية . ولا سيما ابو طالب . فلم يكن يقوى على العيش يوما  
واحدا في غير كنف عائلته . وكان ولداه يعينان كل شيء  
بالنسبة له . ويصرف عليهما كل دقيقة من فراغه . يعلمهما  
القراءة والكتابة ويخلق لهما مختلف الحكايات والاحاجي وبيدع  
لهما العابا بنفسه . وعندما بدأ هو وزوجته بالعمل مكث الطفلان  
اول الامر في البيت لوحدهما لكن اوق بالا لم تستطيع الوقوف  
مكتوفة الايدي حيال هذا ، فراحت تاخذ الولدين الى بيتها . كان  
بيتهم ادفا واتفق ان تكون معيشتهم في ذلك الوقت افضل من  
القادمين الجدد . وهذا الامر قرب بين العائلتين . ذلك ان  
اطفال يديغي ايضا كانوا يترعرعون ، وبالمناسبة كانت بنتاه  
في نفس عمر الولدين .

وذات مرة اقترح ابو طالب عندما جاء لأخذ ولديه :

- اسمح لي يا يديغي ان اعلم بنتيك سوية مع ولدي .  
ذلك انني لا اشغل نفسي مع الاولاد قتلا للوقت فقط . لقد عقد  
اطفالنا اوامر الصداقة بينهم واخذوا يلعبون سوية . وليكونوا  
في النهار عندكم وفي المساء عندنا . اما لماذا اقول هذا كله ؟  
ان الحياة هنا في منطقة نائية ، بالطبع ، حقيرة ، وهذا ما  
يستوجب تعليمهم اكثر . سيأتي زمن تكون المعرفة فيه ضرورية  
منذ الطفولة . ان الانسان الصغير في عصرنا الحاضر ينبغي ان

يعرف منذ نعومة اظفاره اكثر مما كان يعرف شباب راشد في  
السابق . والا فكيف يشق المرء طريقه نحو المعرفة .

ومرة اخرى ادرك يديغي البوراني مغزى الكلام الغريب لابي  
طالب متأخرا ، عندما وقعت المصيبة . آنذاك فقط فهم ان ذلك  
كان الشيء الوحيد الذي يستطيعه ابو طالب ، في وضعه الحالي ،  
بالنسبة لاطفاله في الظروف البورانية . فقد كان عجولا في  
منحهم المزيد من المعارف قدر الامكان ، وكأنه كان يريد بهذه  
الطريقة ان ينطبع في ذاكرتهم ، فيعيش من جديد في ابناؤه .  
وفي الامسيات عندما كان ابو طالب يأتي من العمل ينظم هو  
وظريفة ما يشبه المدرسة او روضة الاطفال لابناؤه وبنات  
يديغي . وكان الاطفال يتعلمون الحروف والمقاطع ، ويلعبون  
ويرسمون ويتسابقون ويستمعون الى محتوى الكتب التي كان  
الوالدان يقرأنها لهم ، وحتى انهم تعلموا سوية مختلف الاغانى .  
واتضح ان هذا عمل ممتع جدا حتى ان يديغي نفسه أخذ يتردد  
اليهم ويشاهد حسن توفيقهم فيه . واوق بالا ايضا غالبا ما هزعت  
الى هناك متظاهرة بوجود عمل ما ، لكنها في الواقع كانت تريد  
ان تلقى نظرة على بناتها وما يفعلن هناك . وحسب فؤاد يديغي  
البوراني عليهم ، ورق لهم قلبه . تلك اذن اهمية الناس  
المتعلمين ، اهمية المعلمين !

يطيب للمرء ان يراى معاملتهم الاطفال ، وكيف بوسعهم  
ان يكونوا كالاطفال الصغار على كونهم كبارا . في مثل تلك  
الامسيات كان يديغي يبذل جهده لئلا يزعجهم فينتحي جانبا  
بهدهو . وما ان كان يدخل البيت حتى يخلع قبعته من العتبة  
ويقول :

- مساء الخير ! ها هو تلميذكم الخامس قد جاء الى روضة  
الاطفال .

واعتاد الاطفال زيارته . فكانت ابنتاه تشعران بالسعادة  
من ذلك . وكانتا تحاولان اظهار مواهبهما امام والدهما . وكان  
يديغي واوق بالا يشعلان المدفئة لكي يعم الدفء البيت الخشبي  
في الامسيات .

واستقرت هذه العائلة في بوراني-بوراني تلك السنة ، لكن



الغريب ان مثل هؤلاء الناس لا يوفون عادة ولا يحفظون في الحياة  
بنصيب حسن .

كانت مأساة ابي طالب قطبايف لا تقتصر على سابق تواجده  
في الاسر الالمانى ، بل ، لعل هذا لحسن طالع ام لسوءه ،  
انه هرب مع مجموعة من اسرى الحرب من معسكر الاعتقال من  
جنوب بافاريا ووجد نفسه في العام الثالث والاربعين في صفوف  
الانصار اليوغوسلاف . وحارب ابيو طالب في جيش التحرير  
اليوغوسلافى حتى نهاية الحرب . وهناك جرح وعولج ، ومنح  
اوسعة حرب يوغوسلافية ، وكُتب عنه في جريدة الانصار  
ونشرت فيها صورته . ولقد ساعده هذا كله مساعدة كبيرة  
عندما درسوا قضيته في لجنة التفتيش والمراقبة بعد عودته الى  
الوطن في العام الخامس والاربعين . بقى على قيد الحياة من بين  
اولئك الذين هربوا من معسكر الاعتقال اربعة افراد من مجموع  
اثنى عشر . ولقد حالف الحظ هؤلاء الاربعة وساعدهم ، اذ زارت  
لجنة التفتيش والمراقبة السوفيتية مباشرة وحدات جيش التحرير  
اليوغوسلافى وقدم القادة العسكريون اليوغوسلاف لها رسائل  
شكر مكتوبة عن الخصال العسكرية والاخلاقية لهؤلاء الاسرى  
السوفيت السابقين ومساهماتهم في نضال الانصار ضد الفاشية .  
على العموم ، بعد مرور شهرين ، وبعد الكثير من التحقيقات  
والاستجابات ومواجهة الشهود والانتظارات والامال والافاقات  
عاد ابو طالب قطبايف الى قازاخستان بدون فرض اى قيود على  
حقوقه ، ولكن ايضا بدون اية امتيازات من التى يتمتع بها  
المسرحون . ولم يشعر ابو طالب قطبايف من هذا باستياء ،  
فعاد من جديد الى عمله السابق الذى كان يمارسه قبل الحرب  
وهو معلم الجغرافية فى المدرسة . وهنا فى مدرسة بواحد من  
مراكز الاقضية التقى بطريفة معلمة الصفوف الابتدائية . وان  
كانت مثل هذه الحالات للسعادة المشتركة نادرة لكنها تصدف ،  
والحياة لا تخلو منها .

وشهدت تلك الفترة خفوت ضجة سنوات النصر الاولى .  
وكانت تلوح عقب الانتصارات والافراح فى الهواء الندف الاولى  
من «الحرب الباردة» ، ثم اشتدت . وتقلصت نواپض وعى ما

بعد الحرب فى مختلف انحاء العالم ، وفى مختلف المواضع  
الحساسة . . .

فى احد دروس الجغرافية عملت هذه القوة الخفية . وكان  
يجب ان يحدث ذلك عاجلا ام آجلا ، بهذه الطريقة او تلك ،  
هنا او فى مكان آخر ، وان لم يكن معه فمع شخص آخر مثله .  
عندما كان يتحدث ابو طالب لتلاميذ الصف الثامن عن القسم  
الاوروبى من العالم فوه بانهم ذات مرة اخذوهم من معسكر  
الاعتقال الى جبال الالب بجنوب بافاريا الى مقلع الحجارة ، وكيف  
تسنى لهم ان يهربوا من هناك بعد ان نزعوا سلاح الحراس  
متوجهين صوب الانصار اليوغوسلافيين ، وحدثهم انه قطع نصف  
اوروبا اثناء الحرب ، وزار شواطئ الادرياتيك والبحر الابيض  
المتوسط ، وانه يعرف جيدا طبيعة تلك المناطق وحياتة سكانها  
المحليين ، وانه من المتعذر وصف هذا كله فى الكتاب المدرسى .  
واعتقد المعلم انه بهذه الطريقة يثرى المادة بالمشاهدات العيانية  
الحية .

ومرر عصاه على خارطة اوربا الملونة بالوان زرقاء وخضراء  
وبنية ، والمعلقة على سبورة الصف . وتتبع بعصاه الجبال  
والانهار ، وهو لا ينفك يمس تلك المناطق التى كان ولا يزال  
يحلم بها فى الليالى ، حيث دارت المعارك من يوم لآخر فى  
العديد من فصول الصيف والشتاء وربما مرت عصاه فوق تلك  
النقاط غير المتميزة التى اراق فيها دمه عندما لعلت من الجانب  
صلية رشاش للعدو وتدحرج هو ببطء من فوق المنحدر تاركاً  
خيطا من الدم على العشب والاحجار ، ذلك الدم القانى الذى كان  
ممكنا ان يلون الخريطة الدراسية كلها ، وحتى خيل اليه لهنيهة  
ان الدم القانى يسيل على الخارطة ، وتصور كيف داخ رأسه  
آنذاك واسودت الدنيا فى عينيه ، وكيف بدا له وكان الجبال  
اخذت تنهار عاليا سافلها المنقلبة وكيف صرخ مستغيثا ومستنجدا  
بصديقه البولندى الذى هرب معه فى الصيف الماضى من مقلع  
الحجارة ببافاريسا «كازيمير» ! «كازيمير !» بيد ان ذاك لم  
يسمعه ، لانه ترمى له فقط انه يصرخ بأعلى صوته ، بينما هو  
فى الحقيقة لم ينبس بأى صوت ، ولم يثب الى رشده الا فى  
مستشفى الانصار بعد نقل الدم اليه .



بامكانه» ، «لم يكن بامكانه» ، «صحيح» ، «غير صحيح» . ضرب المعلم بقبضته على الطاولة :

- كفوا عن الكلام والضجيج نحن الآن في درس الجغرافية ! اما كيف حاربت انا وماذا حدث لي فيعرفه من يجب ان يعرفوا . والآن نعود الى خارطتنا !

مرة اخرى لم ير احد من تلاميذ الصف تلك النقطة صعبة التمييز على الخارطة حيث لعلت من جديد صلية الرشاش من الجانب ، وكيف تدرج المعلم الواقف عند السبورة بعصاه على المنحدر على مهل غامرا خارطة اوروبا بالوانها الزرقاء والخضراء والبنية بدمه القاني . . .

وعقب مرور بضعة ايام استدعي الى مركز المنطقة . وهناك طلب من قطبايف دون كلام كثير ان يقدم طلبا لتسريحه من العمل بناء على طلبه الخاص اذ ان اسير الحرب السابق لم يكن ليملك الحق الاخلاقي في تعليم وتربية الجيل الفتى الطالع . واضطر ابو طالب قطبايف للانتقال برفقة زوجته ظريفة وابنه البكر داول الى قضاء آخر بعيد عن مركز المحافظة . والتحقا هناك للعمل بمدرسة الأول . وحسبوا انهم قد تأقلموا ، وتوفقوا في الحصول على السكن ، واصبحت ظريفة المعلمة الشابة القديرة رئيسة لقسم التعليم . لكن في تلك الآونة انفجرت احداث العام الثامن والاربعين ، المتعلقة بيوغوسلافيا . واخذوا ينظرون الى ابي طالب قطبايف ليس كاسير حرب سابق ، بل كشخصية مشكوك فيها ، قضى وقتا طويلا خارج البلاد . ومع انه كان يؤكد انه لم يشارك الا في حرب الانصار اليوغوسلافيين فانهم لم يعيروا له بالا . كان الجميع يفهمونه ، وحتى كانوا يشاطرونه المشاعر ، لكن احدا لم يتجرأ ان يتحمل اية مسؤولية في هذا المجال . واستدعي قطبايف من جديد الى مركز القضاء وتكررت ايضا قصة طلب الاستقالة بناء على الرغبة الشخصية . . .

وبعد ان انتقلت عائلة ابي طالب قطبايف مرات كثيرة من مكان الى مكان حطت الرحال والقست عصا الترحال اخيرا واواخر العام الحادي والخمسين ، في عز الشتاء ، بمنطقة ساروزيكي ، في مفرق بورانلي - بورانلي .

كان ابو طالب قطبايف وهو يحدث الاطفال عن القسم الاوروبي من اراضى العالم يتعجب من نفسه لكونه يستطيع بعد كل ما عاناه ان يتحدث بنبرة عملية وحيادية فقط عما يتعلق بموضوع درس الجغرافية .

وفي هذه الاثناء قاطعته يد ارتفعت فجأة في الصف :

- يا معلم ، اذن فقد كنت اسيرا ؟

وتطلعت اليه عينان صارمتان بنظرة باردة جامدة . كان وجه الفتى مرفوعا قليلا ، وكان يقف وقفة استعداد . وظل ابو طالب طول حياته وليسبب ما يتذكر اسنانه وكان يتذكر الصف الاسفل منها بارزا فوق الاسنان العليا .

- نعم ، ثم ماذا ؟

- لماذا لم تطلق النار على نفسك ؟

- لماذا كان يجب ان اقتل نفسي ؟ بلا هذا كنت جريحا .

- لانه لا يجوز الوقوع في اسر العدو . هناك امر بذلك !

- امر ممن ؟

- من السلطات العليا .

- من اين تعرف ذلك ؟

- انا اعرف كل شيء . ياتي الى عندنا اناس من الما - آنا وحتى من موسكو . يعنى انك لم تلتزم بتنفيذ امر السلطات العليا ؟

- هل كان والدك في الحرب ؟

- كلا ، كان يعمل في التجنيد .

- اذن من الصعب ان نتفاهم . وكل ما بوسعى هو قولى انه لم يكن امامى اى مخرج آخر .

- مع ذلك كان يتوجب عليك ان تنفذ الامر .

- لماذا تتعنت هكذا ؟ - قام تلميذ آخر من مكانه - لقد قاتل معلمنا الى جانب الانصار اليوغوسلاف . ماذا تريد بعد ؟

- مع ذلك كان يتوجب عليه ان ينفذ امر السلطات العليا !

- كرر ذلك بلهجة قاطعة .

وفي هذه الاثناء انفجر الصمت المخيم وعلا الضجيج في الصف : «كان يتوجب عليه» ، «لم يكن يتوجب عليه» ، «كان



كان صيف العام الثاني والخمسين قانظا فوق العادة . فجفت الارض ، وتوقدت لدرجة ان حراذين ساروزيكي لم تكن تجد مكانا تتوارى فيه ، فكانت تهرع دون ان تخاف الناس الى عتبات البيوت خائفة بلاعها باسى وفاغرة افواهاها ، لكى تتوارى عن الشمس اينما كان . اما النسور فكانت تحلق عاليا فى السماء بحثا عن البرودة وكان من المتعذر رؤيتها بالعين المجردة . كما انها لم تكن تشعر بوجودها الا بصيحات وبزعقات منفردة حادة ، ثم كانت تسكت طويلا فى السراب المتعوج .

بيد ان الواجب هو الواجب . وظلت القطارات تسير منطلقا من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق . وكم من القطارات تفرقت فى مفرق بورانلى-بورانى . وكان الحر مهما بلغ مبلغه عاجزا عن التأثير على حركة المواصلات فى الطريق الحكومى الكبير .

وسار كل شىء فى اوانه . واضطروا الى العمل فى السكة الحديد مرتدين القفافيز ، اذ كان من المتعذر مس اى حجر بايد مجردة ، ناهيك عن الحديد . وكانت الشمس تصلى فوق الرؤوس كالمجمرة . وكان الماء يجلب كالعادة بالصهاريج ، واثناء نقله يكاد يصل الى درجة الغليان . والملابس كانت تكاد تحترق وتتخرق على الاكتاف فى ظرف يومين . ان اشد الايام الصقيعية فى الشتاء كانت اخف وقعا على المرء من تلك الحرارة اللاهبة . حاول يديغى البورانى فى تلك الايام ان يستنهض همة ابيه طالب .

- ليس الصيف عندنا دائما هكذا . كل ما فى الامر هو ان هذه السنة حارة للغاية - كان يديغى يعتذر وكأنه هو المذنب - بعد خمسة عشر او عشرين يوما كاقصى حد ستخف الحرارة ، عليها اللعنة فلقد عذبت الجميع وحملتهم من امرهم رهقا . ويحدث احيانا فى ساروزيكي ان يعتدل الطقس بشكل مفاجئ عند نهاية الصيف . عندئذ سنعيش فى غبطة طول الخريف حتى مجيء الشتاء . يميل الجو الى البرودة وتسمن الحيوانات . ويبدو لى ان علائم ذلك ماثلة ، وسيتغير الجو مثل هذا التغيير . تحمل قليلا ، سيكون الخريف لطيفا .

- معنى هذا انك تضمن ذلك ؟ - كان ابو طالب يقول مبتسما وفاهما يديغى .

- تقريبا  
- شكرا لك على هذا . وما اننى احس كما لو كنت فى حمام ساخن لكنى لست اخاف على نفسى ، فانا وظريفة نتحمل ، لاننا تحملنا ما هو اقسى . اننى ارأف بحال الاطفال . . . لا اقوى على النظر اليهم . . .

كان اطفال البورانليين يعاونون الضنى ويكابدون العناء كل العناء ، وغدت وجوههم كالحة ، ولم يكن ثمة من مكان يمكن سترهم فيه من الهواء الخانق للانفاس والقيظ المنهك لقوى الناس ، وما من شجرة حوالىهم او ساقية مما هو ضرورى لعالم الاطفال . اما عند حلول فصل الربيع اذ تنتعش ساروزيكي وتخضر اطراف المراعى فقد كان الاطفال يجدون امامهم مجالا رحبا للتنزه واللعب . فكانوا يلعبون الكرة ولعبة الاستغفاء (الاستغماية) ويتراخضون متقافزين فى البرية ويطاردون السوالق . وكان الانسان يخالجه الفرح لدى سماعه اصواتهم تصدح من بعيد . حطم الصيف كل شىء . والحرارة المفرطة اضنت الاولاد كثيرى الحركة . وكانوا يخفون هربا من الحر الى الفىء جنب حيطان البيوت غير مبتعدين عنها الا عندما كان يمر قطار . كان هذا ولعهم ، تعداد القطارات المارة فى هذا الاتجاه او فى ذلك وكم من عرباتها كانت عربات لنقل المسافرين او عربات البضاعة والحمولة . وحين كانت قطارات المسافرين تعبر من المفرق مخفضة سرعتها كان الاطفال اذ يتراى لهم ان هذا القطار قد توقف ، يهرعون نحوه محاولين اللحاق به لاهئين محتمين من الشمس باكفهم وبايديهم ، وربما كان يداعب نفوسهم امسل ساذج بالارتحال عن هذا الجحيم ، وكان من الصعب رؤية الشعور غير الطفولى من الحسد والحزن الذى كان يراود افئدة الاطفال البورانليين وهم يتابعون مودعين بنظراتهم الاسيفة تلك العربات المغادرة . كان المسافرون فى تلك العربات المفتوحة الابواب والشبابيك على مصاريعها يكادون يفقدون عقولهم بتأثير الهواء الخانق والنتانة والذباب ، لكن هؤلاء على الاقل كانوا على ثقة



ويقين بانهم سوف يصلون بعد يومين او ثلاثة ايام الى حيث  
تجرى انهار منعشة وتتماوج غابات خضراء .  
لقد تآثر من اجل الاطفال في ذلك الصيف الجميع . الآباء  
والامهات ، اما بخصوص ما كان يكلف هذا ابا طالب فلم يفهمه  
احد سوى ظريفة ، ولربما يديغي وحده ، ايضا . وبالمناسبة لقد  
جرى الحديث الاول عن ذلك مع ظريفة . وذلك الحديث كشف  
ايضا اشياء اخرى من حياة هذين الزوجين .

كانوا في ذلك اليوم يعملون على خط السكة الحديد ،  
يجددون الحصى على متنها . كانوا ينثرون الحصبا ويدسونها تحت  
العوارض والقضبان ، وبهذا كانوا يقوون السدة ويحفظونها من  
الانهيار بتأثير الاهتزازات ، كان ينبغي القيام بذلك من حين الى  
آخر في الفترات التي تتخلل مرور القطارات . وكان في القيام  
بعمل كهذا في مثل ذلك الحر ولفترة طويلة منتهى الأذى . وحوالي  
الظهر تناول ابو طالب الصفيحة وذهب على حد قوله ، لجلب  
الماء الحار من الصهريج في العطفة المسدودة ، وفي نفس الوقت  
سيلقى نظرة ليري كيف هي حال الاولاد .

سار بموازاة العوارض بسرعة مع ان الشمس كانت تصلى  
باشعتها الحارقة . كان يستعجل الوصول بسرعة الى اطفاله ،  
ولم يفكر بنفسه . وكان يرتدى قميصا حائل اللون يبدو كالمعلق  
على كتفيه الناقتين ، ويعتمر قبعة رثة من القش وبنطلونه  
يرتخي على جسده الضامر ويحتذى جزمة عمالية متهترئة بلا  
قيطان . كان يسير خافقا كعبي حذائييه بالعوارض دون ان يعير  
اهتماما لاي شيء . حتى انه لم يلتفت عندما ظهر قطار خلفه ،  
فصاح به يديغي :

- ايه يا ابا طالب . ابتعد عن الخط ! هل طرشت ؟  
بيد انه لم يسمع . ولم ينزل من السدة الا بعد ان صفر  
القطار وحتى بعد ذلك لم يلتفت نحو القطار المار العابر من  
جنبه . ولم يشاهد سائقه الذي كان يهدده بقبضته متوعدا .  
هذا الرجل لم يكن يعاني من وخط الشيب في الحرب ،  
وفي الأسر ، بالطبع كان آنذاك صغيرا ، اذ غادر الى الجبهة  
وهو في سن التاسعة عشرة من عمره ، برتبة ملازم . اما في  
ذلك الصيف فقد لفع الشيب رأسه . انه كان شيب ساروزيكي .

زد على ذلك انه سرعان ما لاح هذا البياض الذي حل قبل اوانه  
هنا وهناك في شعره الكثيف ، واصبح يحمل الشيب على صدغيه .  
لو كان هذا في ازمة سعيدة لكان رجلا جميلا ومعتبرا . وكان  
ابو طالب عريض الجبهة ذا انف مقوس وجوزة عنق بارزة وفم  
متين وعينين مبسوطتين ، ومديد القامة فارعا . وكانت ظريفة  
تقول له مازحة ومداعبة : «لم يحالفك الحظ يا ابا طالب ، كان  
ينبغي لك ان تلعب دور عطيل على المسرح» وكان ابو طالب  
يمزح قائلا : «عندئذ لكنت خنقتك بيدي في حماقة ، فما حاجتك  
لهذا !»

ساور يديغي القلق الشديد لرد فعل ابي طالب البطيء على  
القطار القادم من ورائه ، فقال لظريفة معاتبا :

- حبذا لو طلبت منه الاقلاع عن امثال هذا الفعل اذ ان  
سائق القطار غير مسؤول ، لانه لا يجوز له السير على السكة .  
وحتى بدون هذا . لماذا يخاطر ويجازف بحياته ؟

جذبت ظريفة نفسها عميقا ماسحة العرق بكمها عن وجهها  
الملوح بالسواد من جراء لفع الشمس وقالت :

- اني اخشى عليه كل الخشية .

- ولماذا ؟

اتي خائفة عليه يا يديغي . ما من شيء عندنا نحرص على  
اخفائه على علمك . انه يؤنب نفسه من اجلي ومن اجل الاطفال .  
لأنني عندما تزوجته لم اسمع كلام اهلي . أخي الاكبر ، خرج  
عن اطواره وراح يصرخ : «ستندمين طول عمرك يا غبية ! انت  
لا تقدمين على الزواج ، بل على التعاسة ، وحتى اطفالك واطفال  
اطفالك حكم عليهم بالتعاسة قبل ان يولدوا . وخطيبك ايضا ،  
لو عنده عقل ، لسنق نفسه ولما فكر بان يتاهل . فهذا هو  
احسن مخرج بالنسبة له !» «لكننا عملنا كما اردنا ، وفكرنا  
انه طالما انتهت الحرب فاي حساب للاحياء والاموات ؟ وعشنا  
بعيدين عن الجميع ، عن اقاربه واقاربي . وتصور ان اخي في  
الغرة الاخيرة كتب بنفسه عريضة يقول فيها انه نهبني ووقف  
ضد زواجنا ، وانه لا يمت بصلة اليّ ، ولا سيما الى شخصية  
قضت ردحا طويلا من الزمن في الخارج كأبي طالب قطبايف .  
لكن بعد هذا بدأت المشاكل من جديد . اينما ولينا وجهنا راينا



الابواب مسدودة . وها اننا الآن هنا . ولم يبق اى مكان آخر  
امامنا .

وسكنت وهى تجرف بعنف الحصباء المتكسرة تحت العوارض .  
ولاح فى الامام قطار قادم آخر . ابتعدا عن الخط حاملين معهما  
الرفوش والحمالات .

وشعر يديغى ان من الواجب عليه ان يقدم المساعدة  
الطويلة عندما يكون الناس فى مثل هذا الوضع . ولكن لم يكن  
بوسعه ان يغير شيئا ، ذلك ان المصيبة كانت بعيدة جدا عن  
حدود ساروزيكى ، وقال يديغى محمدا فى وجه ظريفة :

- اننا نعيش هنا منذ سنوات طويلة . وانتم ايضا  
ستعتادون وتتكيفون . ثم انه لا بد من العيش .

واستغرق فى التفكير : «اجل ان خبز ساروزيكى مر . عندما  
جاؤوا الى ساروزيكى شتاء كانت ظريفة لا تزال بيضاء الوجه ،  
اما الآن فقد اصبح وجهها اسمر بسمره الارض - كان يتذكر  
ويتأسف لجمالها المتلاشى امام عينيه - اما اى شعر كان لها ،  
لقد بهت لونه ، حتى رموشها لفحت ، وتشققت شفتاها . ما  
اسوا حالها . انها غير معتادة على مثل هذه الحياة . الا انها تقاوم  
ولا تتراجع . والى اين تتراجع : فهى ام لطفلين . مع كل ذلك  
فانها شاطرة . . .»

فى هذه الاثناء مرق قطار عاصفا الهواء الساكن وملعلعا مثل  
صلية رشاش . رفعا عدتهما من جديد الى السدة وواصلتا  
عملهما .

وقال يديغى محاولا تقوية عزيمتها بشكل ما وجعلها ترتضى  
الواقع :

- اسمعى يا ظريفة . الحال هنا بالنسبة للاطفال ، بالطبع ،  
صعبة ، دون نقاش . وانا نفسى عندما انظر الى اطفالنا يتلوع  
قلبى . لكن هذا الحر لن يبقى هكذا الى الابد . سيزول . ثم  
اذا ما فكرنا فى الموضوع فانتما لستما لوحدهكما . ثمة فى  
ساروزيكى اناس اخرون يحيطون بكم ، فى اسوا الاحتمالات ،  
نحن موجودون . وليس من المعقول ان يموت المرء طالما حدث  
له هذا فى الحياة .

- انا ايضا اقول له الشيء نفسه يا يديغى . واننى حريصة  
على عدم النطق بكلمة واحدة زائدة . اننى افهم حاله .

- انت تصرفين تصرفا صحيحا . اننى وددت ان اتحدث  
اليك عن هذا يا ظريفة . وكنت انتظر فرصة . وانت تعرفين كل  
شيء . مجرد ان الشيء بالشيء يذكر . سامحيني .

- يحدث احيانا ان يخرج الامر عن حدود طاقة المرء . اننى  
اتأسف على نفسى وعليه ، اما على الاطفال فاكتر . مع انه ليس  
مذنبا بشيء لكنه يشعر بالذنب لانه جاء بنا الى هنا . ولا يقدر  
على تغيير اى شيء . لا لزوم للقول بان الحياة مغايرة تماما فى  
منطقتنا ، بين جبال وانهار الاتاو والمناخ يختلف كليا . نود ان  
نرسل الاطفال ولو لفترة الصيف الى هناك ، لكن عند من ؟ ليس  
لنا اهل ، لقد ماتوا مبكرا . يبقى الاخوان والاخوات والاقارب . . .  
من الصعب ان نحكم عليهم ، لان هذا الحكم يكون باطلا فى  
حقهم . فى السابق كانوا يتحاشوننا اما الآن فيتهربون منا كليا .  
ما حاجتهم لاطفالنا ؟ وهكذا فاننا نتعذب ونخاف ان نبقى هنا طول  
العمر ، مع اننا لا نتحدث عن هذا بصوت مسموع . لكننى ارى  
ما هى احواله . . . اما ماذا ينتظرنا مستقبلا فلا يعرفه الا  
الله . . .

كانا يلوذان بالصمت بصعوبة . بعد ذلك كانا لا يعاودان  
فتح هذا الحديث . فيعملان ويسمحان للقطارات بالمرور على  
الخط حين كانت تاتى ثم يعودان للعمل من جديد . ماذا كان قد  
تبقي امامهما ؟ وكيف ايضا كان عليه ان يبعث فيهما الصبر  
والسلوى ويساعدهما فى مصيبتهما ؟ وفكر يديغى : «بالطبع ،  
لن يشعذا . وسيعيشان على عملهما المشترك . لم يرغبهما احد  
على العيش فى هذا المكان . لكن فى نفس الوقت ليس لهما اى  
متفد آخر لتترك المنطقة ، لا غدا ولا بعد غد» .

علاوة على ذلك كان يديغى يندهش من نفسه ، ومن شعوره  
بالاستياء والحزن على هذه العائلة وكان مشكلتهم تخصه مباشرة .  
من هم بالنسبة له ؟ وكان يمكن ان يقول لنفسه ان هذه القضية  
ليست قضيته ، ما شأنه بها ؟ ومن يكون هو حتى يقاضى ويحكم  
على اشياء لا يحق له الحكم فيها ؟ انه شغيل وابن البرارى ، عدد  
اماله لا يحصى فى العالم ، ايقن له الاستياء والامتعاض وان



يشغل باله بمسألة ما اذا كان هذا عادلا ام غير عادل في الحياة .  
 وفي اغلب الاحتمال لا بد انهم هناك ، حيث يحدث هذا كله  
 يعرفون خيرا الف مرة اكثر من يدعى البوراني . وهناك يرون  
 المشكلة افضل مما يراها وهو في ساروزيكي . وهل هذه  
 المشاغل من اهتماماته ؟ ورغم ذلك لم يتمكن ان يركن الى  
 الهدوء . ولا يدري لماذا كان يكابد اكثر من اجل ظريفة ، لقد  
 أدهشته بوفاتها وصبرها ورباطة جأشها وصراعتها المستميت بوجه  
 المصائب . وكانت تشبه طيرا طائرا يحاول ان يحمي بجناحيه  
 العنق من الرياح . لو كانت امرأة اخرى فسي مكانها لبكت مدة  
 معينة وتم اذعنن لأهلها وركعت امامهم . بينما هي كانت تدفع  
 ثمن الحرب العاصية على قدم المساواة مع زوجها . وهذا الوضع  
 بالذات كان يشغل بال يدعى اكثر من اى شيء آخر لانه لم  
 يكن بإمكانه ان يدافع عن اطفالها وزوجها باى شيء . . . . وصادفت  
 بعد ذلك اوقات كان يتأسف فيها بمرارة لأن المصير ارتأى ان  
 يأتى بهذه العائلة الى يوراني-بوراني . ما حاجته الى كل هذا  
 التأثير ؟ لو لم يعرف هذه المشكلة ولم يراها بام عينيه لعاش  
 بهدوء وسكينة كما في السابق . . . .

## الفصل السادس

عند النصف الثاني من النهار اضطربت الامواج في المحيط  
 الهادى ، جنوب جزر الوشن . اشتدت الرياح الجنوبية-الشرقية  
 الهابة من القارة الامريكية رويدا رويدا ، وقوت من اتجاهها .  
 وشرعت المياه بالحركة فى الارحاء الشاسعة المترامية متهادية  
 بثقل مطرطشة ومكونة الامواج المتراسة اكثر فاكثر . وكان هذه  
 ينسب بعاصفة بل على اقل تقدير باضطراب طويل الامد .  
 مثل هذه الامواج على سطح المحيط ، لم تكن تشكل اية  
 خطورة على حاملة الطائرات «كونفينتسيا» ولما كانت قد فكرت  
 بتغيير موضعها لولا توقعها بين لحظة واخرى ان تهبط الى متنها  
 الطائرتان وفيهما اعضاء اللجنتين الخاصتين بعد التشاور مع

المراجع العليا ، ولذلك ارتأت حاملة الطائرات ان تستدير ضد  
 الريح لكي تقلل من تلاعب الامواج بها من الجانب . وجرى كل  
 شيء على ما يرام . فى البدء هبطت الطائرة القادمة من سان  
 فرنسيسكو ثم الاخرى القادمة من فلاديفوستوك .

عادت اللجنتان بكامل اعضائهما واكلتاهما تليزمان الصمت  
 نفسه وتبديان الاهتمام عينه . وبعد ربع ساعة جلسوا وراء  
 طاولة الاجتماع المغلق . وبعد خمس دقائق من عمل اللجنتين  
 ارسلت الى متن المحطة المدارية «باريتيت» فى الفضاء برقية  
 لاسلكية مكتوبة بالشفرة الى رائدى الفضاء المتكافئين ١-٢  
 و٢-١ فى منظومة كوكب «الحامل» : «الى رائدى الفضاء المفتشين  
 ١-٢ و٢-١ فى المحطة المدارية «باريتيت» . حلزا رائدى الفضاء  
 المتكافئين ١-٢ و٢-١ الموجودين خارج حدود المنظومة الشمسية  
 ان لا يقدموا على اى عمل . وان يبقيا فى مكانهما حتى صدور  
 الاوامر الخاصة لاوبتسينوير» .

بعد ذلك بدأت اللجنتان المخولتان بالمهمات الخاصة ، دون  
 ان تضيعا دقيقة واحدة بعرض موقفيهما واقتراحاتهما بخصوص  
 حل هذه الازمة الفضائية . . . .

كانت حاملة الطائرات «كونفينتسيا» واقفة ضد الريح وسط  
 الامواج المتلاطمة للمحيط الهادى . ولم يعرف احد فى العالم  
 انه فى ذلك الوقت كان يقرر مصير الكون على نحو شامل . . . .

كانت القطارات فى هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب  
 ومن الغرب الى الشرق .

وعلى جانبي خط السكة الحديد كانت تمتد مساحات شاسعة  
 من الاراضى الصعراوية - سارى اوزيكي ، الاراضى الوسطى  
 من البرارى الصفراء . . . .

وفى هذه الانحاء كانت المسافات تقاس نسبة الى خط السكك  
 وكأنه خط غريتشس . . . .

اما القطارات فواصلت سيرها من الشرق الى الغرب ومن  
 الغرب الى الشرق . . . .

كان قد تبقى حوالى ساعتين حتى مقبرة آنا - باييت . وكان  
 مركب التشييع يسير فى ساروزيكي على نفس منواله يهديه



يديغي البوراني راكبا بعيره . وكان قره ناره كالسابق يسير في المقدمة سيرا حثيثا بلا كلل ، يتبعه في الارض البكر التراكتور والعربة المقطورة التي كان يجلس فيها وحيدا وصابرا الى جانب جثمان المرحوم قازانغاب صهره ، زوج آيزادي ، وتسير وراه الحفارة «بيلاروس» ، وفي الجانب كان يركض الكلب الاشقر جولبارس واتقا من نفسه تارة يتقدم الموكب وتارة يتأخر عنه وتارة يتوقف لسبب ما مهم .

لفت الشمس مرتفعة الى السمات . تركوا في الخلف القسم الاكبر من المسافة . وكانت ترى في ساروزيكي العظيمة بعد كل مرتفع ارض صحراوية جديدة ممتدة في كل مرة حتى حدود الافق . تلك الرحابة البرية كانت عظيمة . في زمن ما كان يعيش في هذه المناطق الجوانجوانيون السيئو الذكر ، الغرياء الذين احتلوا لاماد طويلة منطقة ساروزيكي برمتها تقريبا . عاشت في هذه المناطق شعوب رحل اخرى . وكانت تنشب بينهم حروب دائمة على المراتع والابار ، تارة كان ينتصر هذا الطرف وتارة ذلك . بيد ان المنتصرين والخاسرين كانوا يبقون في نفس المنطقة ، بعضهم متضايقين وبعضهم موسعين مساحاتهم . قال يليزاروف ان ساروزيكي باعتبارها مجالا حيويا كانت تستحق هذا النضال . عند ذلك كانت الامطار تسقط على هذه المناطق بكميات اكبر منها في الربيع والخريف . وكان العشب يكفى الكثير من قطعان الماشية على اختلاف انواعها . في ذلك الوقت كان ياتي التجارة الى المنطقة وتتم فيها عمليات البيع والشراء . بيد ان الجوقد تغير فيهما بعد ، واقلعت الامطار عن السقوط وجفت الابار ، وزال عشب المراعي . وتفرقت الشعوب والقبائل القادمة الى ساروزيكي كل واحد منها الى حيثما اتفق ، اما الجوانجوانيون فقد انقرضوا نهائيا . فتوجهوا نحو ايديل - هكذا كان يسمى نهر الفولغا في ذلك الوقت - وانقطعت اخبارهم في تلك الجهة واطواهم النسيان . ولم يكن احد يعرف من اين جاؤوا والى اين ذهبوا . يقال ان اللعنة نزلت عليهم - عندما كانوا يجتازون جميعا نهر ايديل شتاء انشق الجليد المتجمد على النهر فجاء وغرقوا جميعهم بقطعانهم وامتعهم تحت الجليد . . . .

اما الساروزيكيون الاصليون - وهم النوماديون القازاخيون -

فانهم حتى في تلك الازمنة لم يهجروا منطقتهم ، واستقروا في الاماكن التي كانوا فيها يوقنون في الحصول على الماء من الابار المحفورة مجددا . بيد ان الوقت الاكثر نشاطا بالنسبة لساروزيكي توافق مع سنوات ما بعد الحرب . وظهرت آنذاك السيارات الصهاريج ، وكان في وسع سائق واحد ، فيما اذا عرف ذلك السائق المناطق جيدا ، ان يقدم الخدمات لثلاثة او اربعة محاط متنقلة لرعاة الماشية . وفكر مستأجرو المراعي في ساروزيكي - كلكوزات وسوفخوزات المحافظات المتأخمة - بانشاء مراكز ساروزيكية دائمة للمواشي الرعوية . وكانوا قد خمنوا وحددوا كيف سيتم مثل هذا البناء وكم سيكلف . ولحسن الحظ فانهم لم يسرعوا . اذ ظهرت في ضواحي آنا-باييت بغتة ودون ان يشعر بها احد مدينة بلا اسم - صندوق البريد . وهكذا بالضبط كان الناس يقولون : ذهب الى صندوق البريد ، كان في صندوق البريد ، اشترى في صندوق البريد ورأى في صندوق البريد . . . . وكانت المدينة - «صندوق البريد» - تتوسع وتبنى وتغلق بوجه الغرياء . وكان طريق معبد يربطها من طرف بالمطار الفضائي ومن طرف آخر بمحطة السكة الحديد . ومن ذلك الزمن ابتدا التأهل الجديد والتطور الصناعي للمنطقة . ولم يبق من الماضي كله في هذه المنطقة الا مقبرة آنا-باييت على تلتين متجاورتين مثل سنامي بعير ، وهي اغير - تيوبا من الاماكن المفضلة والمعتبرة لدفن الموتى في منطقة ساروزيكي . في الازمنة الغابرة كانوا يجلبون الموتى لدفنهم هنا من ارجاء بعيدة جدا حتى ان اناس كانوا يضطرون للمبيت في البرية . لكن ، بالمقابل كان خلف المدفونين في آنا-باييت يفتخرون بكونهم قدموا لذكرى سلفهم واجدادهم شرفا ساميا . وكانوا يدفنون هنا الناس الاكثر اعتبارا وشهرة والمعمرين وواسعي الاطلاع والمستحقين مجدا ساميا بالاعمال والاقوال . كان يليزاروف يعرف كل شيء ، وقد سمى هذه المنطقة بمدفن عظام الامة في ساروزيكي .

والى هذا المدفن كان يقترب في ذلك اليوم من مفرق بورانلي-بوراني للنسكك الحديد موكب جنائزي غريب مؤلف من بعير وتراكتورين ورافقه كلب . . . .



ولمقبرة آنا-باييت حكايتها الخاصة . وتبدأ الحكاية بان  
الجوانجوانيين الذين احتلوا ساروزيكى فى القرون الماضية كانوا  
يعاملون المحاربين الاسرى بوحشية فظيعة . وكان يصدق ان  
يبيعوهم كعبيد فى المناطق المجاورة . وفى مثل هذه الاحوال كان  
ذلك يعتبر نهاية سعيدة للاسير ، اذ كان بإمكان العبد المباع  
الهرب ، عاجلا ام آجلا ، الى وطنه . اما اولئك الذين يحتفظ  
الجوانجوانيون بهم عبيدا لديهم فكان ينتظرهم مصير مفرح . فقد  
كانوا يحون ذاكرة العبد بتعذيب وحشى ، بعد ان لبسوا راس  
الضحية «شبرى» . وكان مثل هذا المصير ينتظر الاسرى الشباب  
عادة : فى البدء تحلق رؤوسهم حتى لا يبقى فيها أثر لشعرة ،  
ثم تقلع بدقة كل شعرة من نصلها ، وفى تلك الاثناء يكون  
الجزاؤون الجوانجوانيون المحنكون قد ذبحوا بالقرب منهم جملا  
قويا ، وملسوا فى البدء الجزء المرصوص النخين ، الذى يكسو  
الرقبة ، من جلده المسلوخ . وبعد تقطيعه اوصالا ، يلبسونه  
مباشرة وبالقسوة على راس الاسير الحليق ، فيلصق به فورا  
كاللصقة - وهذه العملية تعنى لباس الاسير «الشبرى» . وكان  
كل من يتعرض لهذه العملية يفارق الحياة دون ان يصمد  
للتعذيب ، او يفقد ذاكرته طيلة حياته ، ويتحول الى مانكورت اى  
عبد لا يتذكر ماضيه . وكان جلد رقبة جمل واحد يكفى لخمس  
او ستة «شبريات» . بعد لباس «الشبرى» يوضع على عنق  
المحكوم عليه ، نير خشبى لكى لا يتمكن من حك راسه بالارض .  
ومن ثم ينقل الاسرى وهم بهذه الهيئة بعيدا عن الاماكن المأهولة  
كيلا تتناهى اليها صرخاتهم المفجعة . وهناك فى البرارى يرمونهم  
مشدودى الايدى والارجل ، تحت الشمس المحرقة ، بدون ماء  
وبدون غذاء . ويستمر هذا التعذيب عدة ايام . وكانت دوريات  
مشددة تحرس الطرق المؤدية الى هذه المناطق اذا ما حاول افراد  
قبيلة الاسرى انقاذهم طالما هم احياء . بيد ان مثل هذه المحاولات  
نادرا ما كانت تحدث ، لان اقل حركة فى تلك البرارى الواسعة  
تلفت الانتباه وسرعان ما تنكشف . واذا ما شاع ، فيما بعد ،  
ان اسيرا ما ، حوَّله الجوانجوانيون الى مانكورت ، فان اقرب  
الناس اليه لا يفكرون بانقاذه او شرائه ، لان ذلك كان يعنى  
استعادة جثة محنطة لانسان سابق . غير ان اماً نايمانية واحدة

فقط ، تحدثنا عنها الاساطير ، وتدعى نايان-آنا ، لم تقبل بمثل  
هذا المصير لابنها . ومن الحكاية الساروزيكية هذه ، التى تروى  
عنها ، جاء اسم مقبره آنا - باييت وتعنى راحة الام الابدية .  
وغالبية الاسرى المتروكين فى البرارى كان يلتهمهم عذاب  
اليم ، فيموتون تحت شمس ساروزيكية محرقة ، ولا يسلم من  
كل خمسة او ستة منهم غير واحد او اثنين . ولم يكن الجوع ،  
ولا حتى العطش سببا لموتهم ، انما عدم تحملهم الالم الفظيع ،  
اللانسانى ، المتولد من تيبس وانكماش جلد الجمل غير  
المدبوغ ، على رؤوسهم الحليقة . ذلك ان «الشبرى» كان  
يتقلص ، من دون رحمة ، تحت اشعة الشمس اللافتحة ضاغطا  
وعاصرا راس العبد الحليق مثل طوق حديدي . وفى اليوم الثانى  
يبدأ شعر الاسير الحليق ، المعذب ، بالنمو . وفى بعض الاحيان  
كانت هذه الشعرات الخشنة المستقيمة تفرز فى جلد الجمل غير  
المدبوغ وتنفذ من خلاله ، بيد انها ، فى اغلب الاحيان ، لم  
تكن لتجد مثل هذا المنفذ ، فتلتوى ، وتدخل نهاياتها من جديد  
فى جلد الراس مسببة آلاما اكبر واقطع . ومع الايام الاخيرة كان  
عقل الاسير يخلت نهائيا . وفى اليوم الخامس فقط يأتى  
الجوانجوانيون ليتأكدوا هل بقى منهم احد على قيد الحياة . فان  
عثروا على واحد حيا اعتبروا ذلك بلوغا للهدف المنشود ،  
فيقدم له الماء ، ويحرر من قيوده ، وتعاد اليه قوته رويدا  
رويدا ، الى ان يتمكن من حمل جسده على رجليه . وهذا العبد  
الحى هو المانكورت الذى فقد ذاكرته قسرا ، ولهذا فهو كبير  
القيمة ويساوى عشرة عبيد عاديين اصحاء . وظهرت فى حينه  
قاعدة قلو حدث ان قُتل عبدا مانكورت فى احدى المعارك بين  
القبائل فان الغدية التى كانت تعطى مقابل هذه الخسارة ، تزيد  
بنات مرات عما يعطى لقاء حياة ابن القبيلة الحر .

لم يكن المانكورت يعرف من هو ، والى اى فخذ او قبيلة  
ينتمى ، ولا يعرف اسمه ، ولا يتذكر طفولته ، امه ، ابيه ،  
باختصار ، كان لا يدرك انه انسان . اما من وجهة نظر سيده فقد  
كان المانكورت ، ذلك الانسان الذى انتزعت منه «انا» الخاصة ،  
يتمتع بالعديد من المزايا . فهو مخلوق ابكم ، ولهذا تراه دائما  
مطيعا ، غير خطر على الاطلاق ، ولا يفكر يوما بالهرب من سيده .



واكثر ما يخيف السادة ، ايا كانوا ، هو انتفاضة العبيد . اذ ان كل عبد يحمل في داخله روحا متمردة . بينما كان المانكورت حالة استثنائية من نوعها ، فقد قطعت عنه كل جذور ودوافع التمرد والعصيان ، فهو لا يعيش مثل هذه المعاناة ، لذلك لم تكن ثمة ضرورة تستدعى المراقبة عليه ، او حراسته ولا سيما التشكك من نواياه ومآربه الخفية .

كان كالكلب بالضبط يعترف فقط بصاحبه ولا يتعامل ابدا مع الاخرين . جل همه منصب على اشباع بطنه ولا يعرف الهوم الاخرى . وبالمقابل ينفذ العمل الموكل اليه بطاعة عمياء وبجد ومن دون انحراف . وعادة يرغم المانكورت على اداء اقذر الاعمال واقساها وافظعها ، وتسند اليه ايضا الاعمال المملة والمضجرة للغاية ، والتي تتطلب صبورا وتجلدا مطلقا . ولم يكن ثمة احد غير المانكورت يتحمل الوحدة ، ماكثا في مجاهل ساروزيكي الشاسعة الموحشة المقفرة ، فسي رعى اذواد الابل . فقد كان لوحده ، في هذا البعد النائي ، يعوض عن عدد كبير من العاملين ولا يحتاج الا الى التزود بالمؤونة حينئذ يواظب على عمله صيفا وشتاء غير متبرم من الوحشة ، غير متشكك من الفاقة ، متقيدا بأوامر سيده ، ولا يطلب شيئا عدا الأكل والثياب الرثة القديمة . . .

ان قطع رأس الاسير ، او الحاق اى اذى آخر به لتخفيفه ، اسهل بكثير من محو ذاكرته وسلبه عقله وقلع جذور الشيء الذى يحمله الانسان حتى النفس الاخير والذى يزول معه وهو بعيد المنال للاخرين ابدا . غير ان الجوانجوانيين الرحل الذين ابتدعوا خلال تاريخهم الاسود اعمالا بربرية فى منتهى الشراسة تطاولوا حتى على الجوهر الخفى للانسان ، وابتكروا تلك الوسيلة التى تسلب العبد ذاكرته الحية ، ملحقين بالسجية الانسانية اقسى انواع التعذيب وحشية ، والمعقولة منها وغير المعقولة . اذ ليس من قبيل الصدفة ان نايمان-آنا قالت فى رثاء ابنها الذى حولوه الى مانكورت ، فى شدة حزنها وتأثرها :

«عندما سلبوا ذاكرتك ، وضغطوا على رأسك يا بنى ، كما تضغط الكسارة على الجوز ، وعصروا قحف جمجمتك رويدا رويدا بقبعة من جلد الجمل المتبيس ، عندما ادخلوا رأسك فى

طوق لم تره عينك وهما جاحظتان مليئتان بسائل الخوف المفزع عندما عذبك العطش القاتل ، فى موقد ساروزيكي محترق من دون نار ، ولم تمطر قطرة من الماء على شفقتك ، هل اصبحت الشمس الواهبة الحياة للجميع تضيء بالنسبة لك بحقد نورا اعشى ، اشد سوادا من كل سواد فى العالم ؟

عندما دوى زعيقك العالى وسط الصحارى ، عندما كنت تصرخ وتتململ ، وتدعو الله ، ليالى واياما ، عندما كنت تنتظر الغوث من السماء الجائرة ، عندما كنت تختنق فى القيء الذى يخرج من جسدك المتعذب وانت تتضور فى الغائط النازف من جسدك المتشنج المبروم ، عندما خمدت انفاسك وانت فى تلك الرائحة الكريهة فاقتا عقلك وقد اصبحت فريسة لسحابة من الذباب ، هل لعنت الله بما تبقى لديك من قوة لانه خلقنا جميعا فى العالم الذى تركه هو نفسه بلاعبالة ؟

«عندما احتل الغسق بوشاحه الخافت للابد عقلك المشوه جراه التعذيب ، عندما فقدت ذاكرتك المشتتة ، المسلوية بالقوة ، التصاقها بالماضى ، عندما كنت تنسى نظرة امك وانت تتململ فى اسر آلام وكنت تنسى هدير النهر قرب الجبال حيث كنت تلعب ايام الصيف ، عندما اضعفت اسمك واسم ابيك فى وعى مهشوم ، عندما غابت وجوه الناس الذين ترعرعت بينهم من امام ناظريك ، وعندما اختبأ عنك اسم الفتاة التى ابتسمت لك بحياء مرة ، ألم تلعن وانت فى لجة فقدان الذاكرة امك اشنع اللعنات لانها تجرات على حملك فى بطنها ، وجعلتك ترى نور الحياة لهذا اليوم . . .»

يعود تاريخ هذه الحكاية الى تلك العصور عندما تسنى طرد الرحل الجوانجوانيين من المناطق الجنوبية لآسيا وتدفقوا نحو الشمال . وفى فترة سيطرتهم على برارى ساروزيكي ، الطويلة الامد ، شنوا حروبا متواصلة بهدف توسيع سيطرتهم والحصول على عبيد . لجأ الجوانجوانيون ، فى البدء ، الى شن هجمات مباغتة على الاراضى المتاخمة لساروزيكي ، واسروا الكثيرين ، بمن فيهم النساء والاطفال . وجعلوا منهم جميعا عبيدا . على انه مع ازدياد مقاومة المحتلين بدأت الاشتباكات الطاحنة . ولم يرد الجوانجوانيون التخلي عن ساروزيكي ، بل



بالعكس كانوا يطمعون الى تكريس احتلالهم وتوسيعه وصولا الى المناطق الرعوية من السهول . اما القبائل المحلية ، الساكنة في تلك الاراضي ، فلم ترضى عن سلب اراضيها ، وكانت تعتبر من حقها ، بل ومن واجبها ، عاجلا ام آجلا ، طرد المحتلين وكانت المصادمات بين الطرفين صغيرة كانت او كبيرة ، تنتهي عادة بنجاحات متبادلة غير ان ثمة فترات سكونية كانت تتخلل هذه الحروب المضنية .

وفي احدى فترات السكونية هذه ، وفي جلسة حول مائدة الشاي ، قال التجار ، المارون مع قوافلهم المحملة بالبضاعة في الاراضي النيامية انهم عبروا برارى ساروزيكي من دون عوائق عند الابار من جانب الجوانجوانيين ، وذكروا انهم صادفوا في ساروزيكي احد الرعاة الشباب يقود اذواذا كبيرة من الابل ، ولما فاتحوه بالحديث تبين انه مانكوروت . كان منظره الخارجى طبيعيا ولا يجعلك تفكر ابدا بان مصيبة مثل هذه قد حلت به ، وحسب رأيهم ، لم يكن يختلف بشيء عن الناس الآخرين حتما . فكان في زمن ما فطنا وطلق اللسان . وهذا المانكوروت لما يزل شابا بعد ، وذا وجه مقبول ، بدا ينبت له ، قوا ، شاربان ، غير ان المسكين كان يخطئ في الكلام وكأنه ولد بالامس ، لا يتذكر اى شيء ولا يعرف اسمه ، ولا اسم ابيه ولا اسم امه ، ولا ما فعل معه الجوانجوانيون ، ولا يعرف ايضا لاية قبيلة ينتمى ، وحين تطرح عليه اى سؤال تراه يظل سناكتا ، وقد يجيب بنعم او لا لا غير . ويمسك دائما بيديه قبعته التى يعتمر بها باحكام . ومع انه من الائم ان يسخر المرء من اصحاب العاهات ، فقد ضحك التجار من هؤلاء المانكوروتيين الذين يلتصق عند بعضهم جلد الجمل بعدة مناطق من راسهم الى الابد . ان حالة امثال هذا المانكوروت اسوأ من اى اعدام . اذا ما قلت له ما زحما ، هيا يا عزيزى دعنى انزع جلد الجمل من راسك بالعاء المغلى ، فسيخاف كأنك تعترم قتله ، فيضطرب وينفعل ولا يسمح لك ان تمس راسه . ان امثاله لا ينزعون قبعاتهم ليل نهار وينامسون وهم معتمرون بها . . . وواصل الضيوف حديثهم : مع ان المانكوروت غبى جدا ، الا انه يؤدي عمله بدقة ، فكان يتابع القافلة باهتمام الى ان ابتعدت بما فيه الكفاية عن

ذلك المكان حيث كانت تسرح ابله وقبل ان نودعه ما زحما احد افراد القافلة وقال له :

- امامنا طريق طويلة ، قل لمن نبلغ تحيتك ، لاية امرأه حسناء . وفى اى طريق ؟ تحدث ، لا تستر عنا شيئا ، اسمع ؟ لمن نهدي مندليك ؟

سكت المانكوروت طويلا وهو يحرق فى ذلك التاجر ثم نطق :

- انا انظر كل يوم الى القمر ، والقمر ينظر اليّ ايضا ولكن لا يسمع احدنا الآخر . . . ثمة شخص يجلس هناك . . .

اثناء هذا الحديث كانت ثمة امرأة موجودة فى اليورتا \* تسكب الشاي للتجار ، تلك كانت نايمان-آنا . وتحت هذا الاسم بقيت هى فى الاسطورة الساروزيكية .

سيطرت نايمان-آنا على نفسها امام الضيوف . ولم ينتبه احد كيف اذهلها هذا الخبر ، بشكل فجائى وغريب ، وكيف تغيرت اسارير وجهها . كانت تود طرح عشرات الاسئلة التفصيلية عن ذلك المانكوروت الشاب ، لكنها لم تفعل خوفا من ان تعرف عنه اكثر مما قيل . وتمكنت من التزام الصمت كاتمة فى نفسها فزعا شديدا كأنها خنقت طيرا جريحا يصيح . . . فى تلك الالثناء دارت الاحاديث عن اشياء اخرى وقد ابتعدت عن المانكوروت البائس . وما اكثر الحوادث التى تصادف الانسان ! اما نايمان-آنا فكانت تحاول السيطرة على الخوف الذى احتل كيانها ووقف اهتزاز يديها ، وكأنها بالفعل خنقت فى نفسها صيحة الطائر الجريح تلك . وانزلت وشاح الحداد الاسود ، الذى كانت تلغع به راسها الاشيب ليخفى وجهها جيدا .

مضى بعض الوقت ، ومضت القافلة فى طريقها . وادركت نايمان-آنا فى تلك الليلة المؤرقة انها لن تتمتع بالراحة وهدوء الببال مسا لم تبحث فى ساروزيكي عن ذلك الراعى-المانكوروت وتجده ، وما لم تتوصل الى قناعة بان ذلك المانكوروت ليس ابنها . واعادت هذه الافكار المخيفة ، من جديد ، الى قلب الام شعور الشك الغامض الذى بدأ يخبر نوره منذ زمن ، الشك فى

\* اليورتا - بيت من اللباد للقبائل الرحل فى آسيا الوسطى .  
الناشر .



ان يكون ابنها وقع قتيلا في ساحة المعركة . . لو كانت قد دفنته مرتين لكان افضل من تذوق هذا الالم الدائم والخوف الملح والشك المتواصل .

قتل ابنها في احدى المعارك الدائرة بينهم وبين الجوانجوانيين في ساروزيكي . واستشهد زوجها قبل ذلك بسنة واحدة وكان زوجها رجلا معروفا ومحمودا بين النايمايين ، ومن اجل ان يثار له تطوع الابن في اول حملة . وكانت العادة المتبعة تمنع ابقاء القتلى في ساحة القتال . فكان الاقرباء ملزمين بنقل جثة ابنهم الا ان ذلك كان مستحيلا . وقد شاهد الكثيرون عندما اقتربوا من الاعداء عن كثب في المعركة كيف وقع ابنهم على عرف الحصان ، فجفل الحصان الجامح الخائف من هول المعركة وعدا عدوا سريعا . عندئذ هوى من السرج وتعلقت رجله بالركاب واغمى عليه وهو معلق على جنب الحصان . اما الحصان الذي كان قد جن جنونه اثر ذلك فقد حمل جسده الهامد وانطلق بسرعة اكثر في البرية . وكانما لم تكن تلك النكايه به كافية له فانطلق الحصان نحو الاعداء . بالرغم من ان رحى المعركة كانت تدور ، وكان يجب ان يكون الجميع في الاشتباك ، وثب اثنان من ابناء القبيلة للحاق بالمقاتل الشاب وامسك الحصان الجامح المنطلق واعادة جثة القتيل . بيد انه في هذا الوقت خرج من كمين كان قد نصبه الجوانجوانيون في واد ضيق ، عدد من حملة القوس والشباب وسدوا عليهما الطريق وهم يصرخون فوق الاول قتيلا اثر اصابته بسهم ، وجرح الثاني جرحا بليغا ، وبالكاد تمكن من التراجع ، الالتحاق بفصيلته ، حتى وقع على الارض مغميا عليه . وساعدت هذه الحادثة النايمايين على اكتشاف فصيلة الجوانجوانيين المترصد لهم والذي كان يستعد لانزال ضربته من الجانب في اللحظة الحاسمة ، فاسرعوا في التراجع لاعادة تجميع قواهم والهجوم من جديد . ولم يعد احد يفكر بالطبع ، بما آل اليه مصير مقاتليهم الشاب ، ابن نايمان-آنا . وقال النايماي الجريح الذي التحق بفصيلته بالكاد انه عندما انطلقا في اثر الحصان وهو يجر وراءه ابنها اختفى من امام ناظريهما بسرعة في اتجاه غير معلوم . . .

كان النايمايون يأتون للبحث عن جثته لعدة ايام على

التوالي ، غير انهم لم يفلحوا في العثور على جثة القتيل ولا حصانه ولا سلاحه ، ولا اى اثر آخر له . ولم يبق اى شك لدى الجميع في انه قد مات . وحتى لو كان جريحا لمات خلال هذه المدة في البرارى من العطش او النزيف . حزنوا عليه اياما طويلة ورثوه ، لان مقاتلهم الشاب ظل غير مدفون في ساروزيكي المقفرة . وكان هذا يكفي ليشعر الجميع بالعار . والنساء المنتحبات النادبات في يورتا نايمان-آنا كن يدمن ازواجهن واخوتهن على ذلك ويرثينه قاتلات :

- تقرته الصقور وتقاسمته بنات آوى فيما بينها ، فكيف تجراون بعد ذلك على ان تسيروا معتمرين قبعات الرجال !

وطالت على نايمان-آنا ايام فارغة في الارض التي غدت خالية بالنسبة لها خاوية على عروشها بعد قتل ابنها . كانت تدرك ان الحرب يسقط فيها الناس قتلى . بيد ان التفكير بكون ابنها مرميا في ساحة الوغى جثة متعفنة لا يوارىها التراب ، كان يسلبها راحة نفسها وهدوء بالها . كانت سلسلة الافكار المتواصلة تعذب الام عذابا مريرا مبرحا ، ولم يكن ثمة انسان ما يقربها لتبوح له بما في صدرها ، ويخفف عنها الحزن ، كما لم يكن لها احد تطلب معونته غير الله . . .

ولكى تطرد عن نفسها مثل هذه الافكار كان يتوجب عليها ان ترى بام عينيتها ابنها مفارقا الحياة . ومن بمقدوره التصدى لارادة القدر ؟ واكثر ما كان يحير نايمان-آنا هو اختفاء جواد ابنها دون ان يترك اثرا خلفه . فلم يكن الحصان قد اصيب في المعركة ، انما انطلق يعدو في حالة شديدة من الهلع ، وكان حصانا اليقا من قطعانهم ولا بد ان يرجع ، عاجلا ام آجلا ، الى دياره ساحبا وراءه جثة فارسه معلقة بالركاب . وعندئذ ومهما كان مبلغ الاسى وحده اذن لكانت قد بكت واعولت على جثمانه وخذشت وجهها باظافرها ، ونعتت نفسها بمختلف النعوت . . .

تعيسة . . لعينة . . الى درجة ان الرب في السماء لو سمع دعائها ونحيبها لصعب عليه تحمل امرها . لكنها في هذه الحال ما كانت لتخزن في قلبها تلك الشكوك والكانت قد تهيأت لاستقبال الموت بصبر جميل ، في اية ساعة ، غير متشبثة بالحياة لكي ينعم عليها المولى عمرا اطول . بيد انهم لم يعثروا



على جثة ابنها كما لم يعد الحصان . وبالرغم من ان ابناء القبيلة بدأوا ، على مر الايام ، ينسون تلك الحادثة ، لانه كلما زاد بعد المرء عن العين طواه النسيان في الذاكرة ، الا ان الام لم تهدأ ولم تنس ولدها . فكانت الشكوك تساور قلبها وتعذبه وجعل افكارها تدور في نفس الحلقة دائما . ماذا حدث للحصان ؟ اين اصيحت عدته ؟ اين ضاع سلاح ابنها ؟ لانه من خلال تلك الاشياء كان يمكن التخمين بشكل غير مباشر ، ماذا يكون قد حل بابنها ، ربما استولى الجوانجوانيون على الحصان في مكان ما من ساروزيكى بعد ان انهارت قواه واستسلم لهم . حصان سائب مع عدة جيدة لى غنيمة ايضا . لكن كيف عاملوا ابنها المعلق من الركاب ، هل واروه التراب ام رموه فريسة للوحوش في البرارى ؟ ماذا لو ظهر فجأة انه لا يزال على قيد الحياة ؟ هل اجهزوا عليه وقطعوا بذلك حبل آلامه ورموا به لكي يلفظ انفاسه الاخيرة في البرارى المقفرة ؟ ام ؟ . . . ولكن ربما هو ؟ . . .

لم يكن للشكوك ثمة نهايات . وعندما زل لسان التجار وتحدثوا حول مائدة الشاي عن المانكورت الشاب الذي صادفوه في ساروزيكى ، لم يخطر ببالهم انهم اوقدوا في قلب نايمان-آنا شرارة تشعرها بان ذلك المانكورت الشاب هو ابنها وتشعل تلك الشرارة قلبها وعقلها بقوة . وادركت نايمان-آنا انها لن تهدأ ما لم تر ذلك المانكورت وتتحدث معه وتتأكد من انه ليس ابنها .

كانت تجرى في تلك الاراضى النايمايية المتموجة انهر صغيرة كثيرة الحجارة . وظلت نايمان-آنا تتسمع طوال الليل لخرير المياه الجارية . ما الذى اوحى به الى روحها المضطربة ؟ ازادت ان تهدأ ، ان ترتوى من المياه ذات الخريز قبل ان تبدأ سفرها في ساروزيكى الصامتة المقفرة . كانت الام تعرف مدى الخطورة والمجازفة في توجه المرء الى ساروزيكى بمفرده ، ومع ذلك عقدت العزم على زيارة ذلك المانكورت . لم يكن ثمة شخص يفهم كل هذه المعاناة ، وحتى اقرب الناس اليها لم يستحسنوا نيتها . اذ كيف يمكن ان يذهب المرء للبحث عن ابن مقتول منذ زمن ، لا سيما وقد تحول الى مانكورت ان كان قد بقى بالصدفة

على قيد الحياة . واى جدوى من البحث عنه ، وايلام القلب دون جدوى ، طالما المانكورت ليس غير غلاف خارجى او جثة محنطة لانسان !

في تلك الليلة ، عشية سفرها ، خرجت نايمان-آنا عدة مرات من البيورتا وهي تحدد طوليا حواليتها وتصيخ السمع محاولة تحديد وحصر افكارها . كان القمر في منتصف الليل يقف عاليا فوق رأسها في سماء خالية من الغيوم يغمر الارض بضوئه الحليبي الباهت . وكانت البيورتات الكثيرة المتناثرة هنا وهناك عند اقدام التلال تشبه سرىا من طيور كبيرة الحجم نزل الليلة هنا على ضفاف السواقي الهادئة . وكان يسمع هناك ، حيث تقع حظائر الاغنام وعلى مسافة قريبة من القرية وابعدها منها فى الوهاد حيث كانت ترعى قطعان الخيول كان يسمع نباح الكلاب واصوات ناس غير مفهومة . وتترك اصوات الغتيات ، المغنيات ، الساهرات عند الحظائر من طرف القرية القريب اثرا كبيرا فى نفسها . تذكرت انها كانت تغنى فى زمن ما ، مثل هذه الاغنيات الليلية . . . كانوا يقضون فى هذه المناطق كل صيف . انها تتذكر كيف جاءوا بها عروسا الى هنا ، وكيف قضت كل حياتها فى هذه المنطقة : زمن كان عدد افراد عائلتهم كبيرا ونصبوا لها اربع يورتات : فواحدة للطبخ ، واخرى للضيوف ، واثنان للسكن ، وتذكر ايضا كيف مكثت فيها بعد ذلك وحيدة ، بعد غزو الجوانجوانيين .

وما هى ايضا تغادر الآن يورتاها الوحيدة . . . استعدت للسفر منذ المساء . تزودت بالطعام والماء . وحملت قربتين ، تحسبا لكل الاحتمالات ، قد لا توفى مباشرة فى العثور على بئر فى برارى ساروزيكى . . . ومنذ المساء ايضا كانت الناقه اكماى تقف قرب البيورتا مربوطة الى وتد . . . اكماى ، املها ورفيقة دربها ، هل تتجرا ان تخطو خطوة فى ساروزيكى ان لم تتكل على قوتها وسرعتها . لقد اصيبت اكماى فى تلك السنة بالعقم بعد انجابها مرتين . وكانت راحلة ممتازة ، خفيفة ، ذات قوائم قوية ، طويلة لها اخفاف مرنة غير متهترئة من كثرة السير وكبير السن . كانت ذات سنامين متينين ورأس مغروس بشكل جميل فى عضلات رقبتها المفتولة ومنخارين متحركين كجناحي



تلك الساعة ، غير عديلتها - الغادمة النعسانة ، اخبرتها امس بانها ستزور املها وتحل ضيفة عليهم ، ومن هناك ، اذا ما صادفت حجاجا فستذهب معهم الى كابتشاك لتصلى عند مرقد ياسافى . . .

بكرت نايمان-آنا فى السفر ، لثلا تزعجها استفسارات الناس . وما ان ابتعدت عن القرية حتى استدارت نحو ساروزيكي بالكاد كان يتراءى فى البعد الغامض الذى يمتد امام ناظريها فى البرارى المقفرة الخرساء . . .

كانت القطارات فى هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق .

وعلى جانبي خط السكة العديد كانت تمتد مساحات شاسعة من الاراضى الصحراوية - سارى اوزيكي ، الاراضى الوسطى من البرارى الصفراء . . .

وفى هذه الانحاء كانت المسافات تقاس نسبة الى خط السكك وكانه خط غرينيتش . . .

اما القطارات فواصلت سيرها من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق . . .

ارسلت من متن حاملة الطائرات «كونفينتسيا» برقية لاسلكية مشفرة اخرى الى رائدى الفضاء المقتشين فى المحطة المدارية «باريتيت» . وطلبت هذه البرقية باللهجة المحذرة نفسها ، الا يتصلا برائدى الفضاء المتكافئين ١-٢ و ٢-١ الموجودين خارج المجرة الشمسية ، عبر الاتصالات اللاسلكية لغرض مناقشة وقت وامكانية عودتهما الى المحطة المدارية وانتظار اوامر من «اوبتسينوبو» .

كانت عاصفة خفيفة تجتاح المحيط ، وحاملة الطائرات تتمايل على الامواج . وكانت مياه المحيط الهادى تتلاعب مضطربة على امتداد كوئل السفينة العظيمة . اما الشمس فكانت على نفس المنوال تضى سطح البحر الشاسع الممتد الذى كانت حركة الامواج المعطرطشة المزبدة تستحوذ عليه بلا انقضاء . وهبت الريح بوتيرة واحدة .

قراشة . كانت الناقة البيضاء اكماى تساوى اكثر من ذود ابل كامل . ويبادل المرء مثل هذه الناقة بعشرات الرؤوس من الابل لكى يحصل منها خلفا فقط . وكانت هذه الناقة آخر كنز ذهبى تبقى لنايمان-آنا . آخر ذكرى لثروتها المبهذرة . اما الممتلكات الاخرى فقد اختفت كما يختفى الغبار عن اليد بعد غسلها . كانت مجالس العزاء - الاشوات ، تقام اياما عديدة ، فى اربعينية الشهداء او فى ذكراهم السنوية . لقد مر زمن قصير على ذلك اليوم الذى اقيم فيه مجلس عزاء ، حضره حشد كبير من الناس ، جميع النايمايين القرييين من المنطقة ، فى ذكرى مقتل ابنها ، الذى تستعد للبحث عنه الآن بهاجس قوى وحزن مفرط .

خرجت نايمان-آنا من اليورتا قبيل مطلع الفجر وهى متهيئة للسفر تماما . ولما عبرت العتبة توقفت واتكات على الباب ، وراودتها افكار كبيرة وهى ترمق بنظرها القرية النائمة قبل ان تغادرها . كانت نايمان-آنا التى ما تزال تحتفظ بقوام ممشوق ، وبسابق جمالها ، متمنطقة كما يتطلب امر المقبل على سفر طويل ، كانت تنتعل جزمة ، وسروالا طويلا ، وصدرية فوق رداها ، وتضع على كتفيها معطفا خفيفا ، وتعصب رأسها بمنديل ابيض معقود الطرفين فى الخلف ، ولسان حال افكارها الليلية يهمس لها انها مادامت تأمل فى رؤية ابنها حيا فليلم الحداد ؟ انها ستعصب رأسها بمنديل اسود فيما بعد والى الابد ان لم تتحقق آمالها . كان الصباح المظلم فى تلك الساعة المبكرة يخفى شيب شعرها وآثار الحزن العميق على وجهها - تلك التجاعيد العميقة التى حفرت اخاديدها فى جبينها . . . وفى تلك اللحظات دمعت عينها واخذت نفسا عميقا .

هل فكرت او تثبات بانها ستعانى مثل هذه المعاناة ! ثم استعادت ثقتها بقوتها وتمتمت مع نفسها : «لا اله الا الله ولا حول ولا قوة الا بالله» واتجهت نحو الناقة التى كشرت عن اسنانها كالعادة ، واطلقت صيحات قصيرة ثم بركت والصقت كللكها بالارض . وبعد ان وضعت نايمان-آنا الخرج فوق الرجل ، امتطت ظهر الناقة ، وحثتها فنهضت تلك حاملة صاحبته عاليا ، وهى قد ادركت ان طريقا طويلا يمتد امامها الآن . . . لم يعرف احد فى القرية بسفر نايمان-آنا ولا ودعها احد فى



جميع المرافق على متن حاملة الطائرات «كوفينتنسيا» بما في ذلك قسم الطائرات ومجموعات الأمن الدولي ، كانت في حالة استنفار وعلى اهبة الاستعداد . . .

كانت الناقة البيضاء اكماى تسير منذ ايام عديدة ، وهي تنط اطيحا خفيضا قاطعة مروج وسهول ساروزيكي الواسعة . اما صاحبها فتحنها على السير وتقودها نحو الاراضى الصحراوية القانطة . كانتا فى الليل تتوقفان عند بئر شحيحة الماء ، وفى الصباح تبدآن البحث عن اذواد الابل السارحة فى ساروزيكي الشاسعة . هنا ، فى هذا القسم الاوسط من السهوب الصفراء بالذات من ساروزيكي ، وليس بعيدا عن جرف ملكومديتشاب الرملى الاحمر الممتد عدة كيلومترات ، صادف اولئك التجار الراعى-المانكورت ، الذى تبحت عنه نايمان-آنا حاليا . وما هى لليوم الثانى تحوم حول منطقة قريبة من ملكومديتشاب خانفة ان تلتقى بالجوانجوانيين . بيد انها اينما كانت تمنع النظر ، وفى اى اتجاه كانت تسير ، لم تكن ترى غير السهوب الجرداء المقفرة والسراب . وذات مرة ، خدعها مثل هذا السراب ، وقطعت طريقا متعرجة الى المدينة - السراب المعلقة فى الهواء بمساجدها واسوار قلاعها . ربما ابنها هناك فى سوق العبيد ؟ لو كان هكذا لأردفته خلفها على الراحلة ، وليحاولوا ، عندئذ ان يلحقوا بهما . . . كانت الصحراء مضيئة ، ولهذا كانت تتراى لها مثل هذه الخيالات .

من الصعوبة ، بالطبع ، العثور على انسان فى ساروزيكي . الانسان هنا مثل حبة رمل ، اما اذا كان يقود اذوادا من الابل تحتل فى المراعى مكانا واسعا ، فلا بد ان تراه عاجلا ام آجلا . سترى فى البداية حيوانا واحدا ، ومن ثم ترى الاخرى ، وبعد ذلك تجد الراعى امام الذود . هكذا كان حسابان نايمان-آنا . الا انه لم يبد شبح فى اى مكان . وبدأت المخاوف تنتابها . يحتمل ان يكون الذود قد اقتيد الى مكان آخر ، او الانكى من هذا ان يكون قد ارسل الجوانجوانيون تلك الابل ، للبيع فى حيوى او بخارى . وهل سيرجع ذلك الراعى من تلك

المناطق النائية ؟ عندما غادرت الام القرية محملة بالشجون والشكوك ، كانت تعلم بشىء واحد هو ان ترى ابنها حيا . حتى ولو كان قد تحول الى مانكورت او اى كان . فيمكن انه لا يتذكر اى شىء ولا يعى ، لكن المهم ان يكون ذلك المانكورت ابنها ، ابنها حيا ، حيا فقط . . . وهل هذا قليل ! ؟ ولكن كلما توغلت فى قلب ساروزيكي ، وكلما اقتربت من المكان ، الذى يمكن ان يكون فيه ذلك الراعى الذى التفته قبل فترة قافلة التجار المارة من هنا ، ازداد خوفها ان ترى ابنها كائنا مشوه العقل ، وازدادت وطأة هلعها الشديد وضجرها . حينئذ كانت تتوسل الى الرب ان لا يكون ذلك المانكورت ابنها ، بل بانسا آخر . وكانت مستعدة فى قرارة نفسها بشكل غير قابل للاعتراض ، ان تستسلم لفكرة عدم وجوده بين الاحياء وتعتبر زيارتها هذه لمجرد القاء نظرة على ذلك المانكورت للتأكد من ان الشكوك خامرتها عبثا ومن ثم تعود ، مقتنعة ومتخلصة من العذاب لتعيش حياتها راضية تمام الرضا عما يزول اليه مصيرها . . . لكن ما ان تمر لحظات حتى تستسلم لضيقها ورغبتها الشديدة فى البحث فى ساروزيكي لا عن اى شخص كان بل عن ذلك الشخص الذى تريد البحث عنه ، ابنها بالذات . . .

كانت نايمان-آنا لا تزال تنتابها مشاعر متضادة عندما رأت فجأة اعدادا كبيرة من الابل بعد ان اجتازت تلا رمليا ، منات الرؤوس ترعى بحرية فى الوادى الواسع . كانت الجمل البنية الداكنة البدينة تتجول بين الشجيرات الصغيرة والادغال الشوكية وهى تخضدها وتقضها . شدت نايمان-آنا وناق ناقتها وقادتها ، فى البدء ، نحو الابل مباشرة وقلبيها يكاد يطير من الفرح لانها عثرت اخيرا على الذود . لكنهما ارتعبت بعد ذلك واحست بقشعريرة تجتاح جسدها . وسيطر عليها الخوف من رؤية ابنها قد تحول الى المانكورت . ثم فرحت من جديد ولم تفهم حقيقة شعورها وما الذى يحدث لها .

ها هو الذود يرعى ، فاين الراعى ؟ انه ينبغي ان يكون فى مكان ما هنا . ورات فى الطرف الآخر من الوادى انسانا كان من الصعب تشخيصه . كان الراعى يقف ماسكا عصا طويلة بيد



ويقبض بالآخرى من الخلف على زمام جمل محمل ، وينظر بهدوء  
من تحت قبعة مائلة على جبينه اليها وهي تتقدم نحوه .  
عندما اقتربت نايمان-آنا منه ، وعرفت فيه ابنها ، لم تدر  
كيف قفزت من فوق ظهر الناقة . خيل اليها انها وقعت لكن هل  
كانت تقدر على التفكير بذلك ؟  
- يا ولدى ، عزيزى . انسا ابحت عنك فى كل مكان ! -  
ارتمت عليه وكان غابة كثيفة تفصل بينهما :  
- انا امك !

وفهمت فى الحال كل شيء . وبدات تنتحب بشكلى مخيف  
ومحزن ضاربة الارض بقدميها وقد ارتجفت شفاتها وتشنجتا فى  
محاولة منها ان تكف عن البكاء ولكنها فقدت السيطرة على نفسها  
ولكى تحافظ على توازنها تشبثت بكتفى ولدها الواقف بلامبالاة .  
بكت ، وبكت ، وصعقت تحت سحابة الحزن المخيمة فوقها منذ  
زمن ، وتساقط الحزن عليها الآن وغمرها . كانت تتفرس فى  
ملامح ابنها المعروفة لها جيدا بعينين دامعتين ، ومن خلال  
خصلات شعر مبللة وخطها الشيب كانت تلتصق على وجهها ، من  
خلال اصابع مرتجفة تلتطخ وجهها بغيبار الطريق ، تتفرس فيه  
وهي تحاول ان تسرق منه ولو نظرة واحدة ، تنتظر وتأمل ان  
يعرفها . هل ثمة ايسر من ان يعرف الولد امه ! ؟

بيد ان ظهورها لم يحرك فيه ساكنا . وكأنها كانت تاتى الى  
هذا المكان دائما وتزوره كل يوم ، حتى انه لم يسأل من هي  
ولماذا تبكى . وفى لحظة ما ، ازاح الراعى يديها عن كتفيه  
وتخلص منها واتجه الى الطرف الآخر من الذود جارا وراءه الجمل  
الرحالة المحمل ، الذى لا ينفصل عنه ، وبدا يتابع بنظره بعض  
الابل التى كانت قد سرحت بعيدا ترعى .

تسمرت نايمان-آنا فى مكانها . وجلست القرفصاء متشنجة  
تمسك راسها بيديها . جلست هكذا دون ان ترفع راسها برهة  
من الوقت ثم جمعت قواها فنهضت وذهبت الى حيث كان يقف  
ولدها محاولة التزام الهدوء . نظر ابنها المانكورت اليها ببلاهة  
ولامبالاة من تحت قبعته المائلة على جبينه ، وارتسم على وجهه  
الهلزل ، المسود ، المخشوشن شيء ما يشبه الابتسامة . الا ان  
عينيه اللتين كانتا تعبران عن لامبالاة مطلقة باى شيء فى

العالم ، بقيتا كالسابق منقطعتين عنها . قالت نايمان-آنا وهي  
تجذب نفسا عميقا :  
- اجلس ، لنتكلم .  
وجلسا على الارض ، سألت الام ابنها :  
- هل تعرفنى ؟  
هزّ المانكورت رأسه علامة النفي .  
- ما اسمك اذن ؟  
اجاب :  
- مانكورت  
- هذا ما تسمى به الآن . لكن انتذكر اسمك القديم  
السابق ؟ تذكر اسمك الحقيقي .  
سكت المانكورت . ورات الام انه يحاول التذكر . وتصببت  
على اربعة انفه ، من شدة توتره ، قطرات كبيرة من العرق  
واغرورت عيناه بضباب مترجرج كأنما ارتفع امامه جدار منيع  
لم يتمكن من اجتيازه .  
- هل تتذكر اسم والدك ؟ من انت ، ومن اية قبيلة ،  
ابن ولدت ؟  
كلا ، انه لا يتذكر اى شيء ، ولا يعرف شيئا .  
- اه ، ماذا فعلوا بك !  
تمتمت الام وبدات شفاتها تتشنجان من جديد دون ارادة  
منها . وكانت تختنق من الغضب والحزن ، واخذت تنتحب من  
جديد . حاولت تهدئة روعها ولكن دون جدوى بينما لم يشعر  
المانكورت ابدا بمصائبها .  
قالت نايمان-آنا بصوت مرتفع :  
- من الممكن ان تسلب الارض ، تسلب الثروة ، تسلب  
الحياة . ولكن من يجرؤ على سلب الذاكرة من الانسان ؟ يا الهى ،  
ان كنت موجودا كيف اوعزت بذلك الى هؤلاء الناس ؟ هل الشر  
قليل على وجه الارض ؟  
آنذاك بدات نايمان-آنا ، وهي تنظر الى ابنها المانكورت  
تنشد مقطوعتها المحزنة عن الشمس ، عن الله ، عن نفسها ،  
تلك البكائية التى لا يزال ينشدتها الرعيان كلما دار الحديث عن  
تاريخ ساروزيكى . .



وبدأت نايمان-آنا رثاءها الذي يتذكره وجهاء القوم حتى اليوم :

مين بوتاسى اولغين بوز يايا ،  
تولبين كيليب ايسكيفن . . .

وندت المرثية من قلبها فتحولت الى ولولات طويلة لا سلوان لها وسط ساروزيكى المقفرة الواسعة . . . ولكنها لم تحرك ساكنا فى نفس ابنها المانكورت . وآنذاك ايضا قررت نايمان-آنا ان تحاول لا من خلال الاستفسارات ، بل بواسطة الايحاء عنه يعرف من هو . - اسمك جولامان ، هل تسمعى ؟ انت جولامان . والدك كان يسمى دونباى . الا تتذكر ذلك ؟ هو علمك ، فى طفولتك استعمال القوس والنشاب . انا امك ، انت ابنى ، انت من قبيلة النايمايين . هل فهمت ؟ انت نايمانى . . . كان يسمع حديثها بلامبالاة مطلقة . وكان الحديث لا يدور عن اى شىء . وربما بلامبالاة نفسها كان يسمع شقشقة جنذب فى الاعشاب .

وسالت نايمان-آنا ابنها المانكورت :

- ماذا حصل لك قبل ان تاتى الى هنا ؟

فقال :

- لا شىء .

- هل كان الوقت ليلا ام نهارا عندما جئت الى هنا ؟

- لا ادرى .

- مع من تود ان تتحدث ؟

- مع القمر . لكن احدنا لا يسمع الآخر . ثمة شخص ما

يجلس هناك .

- وماذا تريد ؟

- جديدة على راسى مثل التى عند سيدى .

\* انا الناقة الشكل ، جئت لاستنشاق جلد صغيرى المحشو بالقش .

ومدت نايمان-آنا يدها :

- دعنى ارى ماذا فعلوا براسك .

ارتد المانكورت الى الوراء بحدة ، وامسك قبعته بيديه ولم يعد ينظر الى امه . وادركت هى انه لا يجوز ابدا ان تذكره براسه .

فى هذه الاثناء بان من بعيد شخص قادم نحوها ممتطيا جملا . فسالت نايمان-آنا :

- من هذا ؟

اجاب ابنها :

- انه يجلب لى الطعام .

اعتراها القلق ، كان ينبغى عليها ان تسرع فى الاختفاء قبل ان يراها الجوانجوانى . ابركت ناقتها وجلست فى الرحل :

- لا تتحدث بشىء . ساعود قريبا .

قالت نايمان-آنا وذهبت . لم يجب ابنها فقد كان سيات عنده ان تعود او لا تعود .

ادركت نايمان-آنا ، وهى تبتعد راكبة مخترقة الذود السارح فى المرعى ، انها اخطأت فى التصرف ، اذ ربما يكون الجوانجوانى القادم نحو القطيع قد رآها وهى ممتطية ظهر ناقة بيضاء . بيد ان الامر قد فاتها . كان يجب المشى والاختفاء بين الابل المنهمكة بالرعى .

وما ان ابتعدت مسافة لا بأس بها عن المرعى حتى اتجهت نحو منحدر سحيق نبتت على جانبيه شجيرات الشيع ، ترجلت هنا وابركت اكماى فى قاع هذا المنحدر . ومن هناك بدأت تراقب الموقف . اجل ، مثلما توقعت ، لقد رآها . وبعد مضي وقت قصير ظهر الجوانجوانى وهو يقود جملة خببا . كان الرجل مسلحا بالقوس والنشاب ، مرتبكا بشكل ملحوظ ، حائرا ينظر فيما حواليه : اين اختفى راكب الناقة البيضاء التى لمحها مسن بعيد لتوه ؟ لم يكن الجوانجوانى يعرف فى اى اتجاه ينبغى له السير . واخذ يسير فى اتجاه ، ومن ثم الى اتجاه آخر . وفى المرة الاخيرة مر تماما بالقرب من المنحدر . وقد حزت نايمان-آنا مسبقا ، من حسن حظها ، ان تشهد المندبل على قم اكماى خوفا من ان تشغو الناقة فى وقت هو فى غير اوانه . نظرت



نايمان-آنا ، وهى مختفية وراء شجيرات الشيح فى طرف الوادى الضيق مليا ، وعن كئيب ، الى الجوانجوانى . كان يمتطى ظهر جمل أوبر ، وعندما كان يتلفت الى الجانبين ، كان وجهه يبدو ، منتفخا ، متوترا يعتمر قبعة سوداء، مثنية الاطراف الى الاعلى ، وهى تشبه القارب ، تتراقص وتلمع خلفه ضفيرة سوداء مجدولة من خصلتين طويلتين من الشعر . نهض الجوانجوانى ، ووقف نصف وقفة على الركاب . وامسك رمحه بهيئة من يستعد للمقاتل ، تلتف يمنة ويسرة . هز رأسه فالتمعت عيناه ، كان ذلك واحدا من الاعداء الذين احتلوا ساروزيكسى واسروا كثيرا من الناس وجعلوهم عبيدا لهم وكانوا سبب مأس كبيرة لعائلتها . ماذا بمقدورها ان تفعل وهى المرأة ، غير المسلحة ، ضد هذا المقاتل الجوانجوانى الشرس ؟ لكنها فكرت ، اية حياة ، اية احداث ، جرت هؤلاء الناس الى مثل هذه الوحشية والقساوة ، الى محو ذاكرة العبيد . . .

جاس الجوانجوانى المنطقية من الجهات الاربع ، ثم عاد مسرعا الى الذود .  
اقبل المساء . وكانت الشمس قد غابت لتوها . غير ان هالتها ظلت فوق الارض طويلا . ثم هبط الظلام دفعة واحدة ، وحل ليل حالك .

قضت نايمان-آنا تلك الليلة وحيدة فى البرية فى مكان غير بعيد عن ابنها - المانكورت التعيس . ولم تعد اليه خوفا من ان يكون ذلك الجوانجوانى قد مكث الليل بجانب القطيع . تبادرت الى ذهنها فكرة ان تنقذ ابنها من العبودية وتحاول استصحابه معها لا ليكن مانكورتا . دعه لا يفهم حقيقة الامر غير ان وجوده معها فى البيت ، بيت اهله ، افضل من بقائه لدى الجوانجوانيين فى الصحارى فى ساروزيكى المقفرة . هكذا كان يحدثها قلبها المفعم بحب الام لابنها . ولم تستطع ان ترضخ لما رضى له الاخرون ، لم تستطع ان تبقى فلذة كبدها فى العبودية ، وظنت انه سوف يعود اليه عقله ، فى موطنه ، فجأة ، ويتذكر طفولته . . .

فى الصباح ، امتطت نايمان-آنا اكماى وقطعت مسالك ملتوية طويلة الى ان وصلت الى القطيع الذى كان قد ابتعد عن

مكانه مسافة غير قصيرة خلال الليل . وما ان بان لها القطيع من بعيد حتى ثبتت نظراتها عليه للتأكد من خلو المكان ، نادى على ابنها باسمه :

- جولامان ، جولامان ! مرحبا !

التفت الابن ، فندت من صدر الام صيحة فرحة . لكنهما ادركت فى اللحظة نفسها انه التفت لدى سماع الصوت فحسب . ومن جديد حاولت نايمان-آنا ان تعيد الى ابنها ذاكرته المفقودة مرددة عليه بتوسل :

- تذكر ما اسمك ، تذكر اسمك ! والدك دونتباى ، الا تعرف ؟ ليس «مانكورت» اسمك بل جولامان \* . سميناك به لانك ولدت فى الطريق خلال رحلة النايمايين الكبيرة . وعندما ولدت ، حططنا رحالنا ثلاثة ايام كاملة . . . ثلاثة ايام كاملة احتفلنا بميلادك !

ومع ان كل هذه المحاولات لم تكن لتترك اى اثر على الابن واصلت الام الحاحا بأمل ، غير مجد ، ان يخطر فجأة شىء ما فى وعيه المنطقي\* . لكنها كانت تطرق بابا محكم الغلق . ورغم ذلك واصلت الحاحا :

- تذكر ، ما اسمك ؟ كان والدك يدعى دونتباى !

بعد ذلك ، اطعمته وسقته مما كان لديها من طعام وماء احتياطي ، واخذت تنشده له الترانيم التى تنشده للاطفال فى المهدي . واءجبت الترانيم جدا . وطاب له سماعها . وبانت على وجهه الجامد الاسمر الى حد السواد ، بعض علامات الدفء والحياة عندئذ بدأت الام تقنعه بترك المنطقية ، وان يترك الجوانجوانيين ويعود معها الى موطنه . لم يكن المانكورت يتصور كيف يستطيع ان ينهض ويرحل الى مكان ما ، كيف يمكنه ان يترك ذود الابل ؟ لقد امره سيده ان يكون دائما بجانبه والا يتركه .

حاولت نايمان-آنا مرة تلو الاخرى ان تطرق باب ذاكرته الموصد باحكام ، وألحت مجددا :

\* جولامان : اسم مشتق من كلمتين «جول» الطريق و«امان» السلامة . ويعنى : رافقتك السلامة فى الطريق . الناشر .



- تذكر ابن مَن؟ انت؟ ما اسمك؟ كان والدك يدعى  
دوننياي!

قضت نايمان-آنا وقتنا طويلا الى جانب ولدها . ولم تنتبه  
كم من الوقت قد مضى الا بعد ان ظهر من جديد ، في طرف  
القطيع جوانجواني يمتطى جملا . كان القادم قد ظهر في هذه  
المرة ، اقرب بكثير وهو يسير مسرعا ، ويقود جملة بخطى  
حثيثة . امتطت نايمان-آنا اكماى وولت هاربة . غير انه ظهر  
من الطرف الآخر للذود جوانجواني فان امتطيا جملة فقطع عليها  
الطريق . قادت نايمان-آنا اكماى بسرعة فائقة واندفعت فسى  
اتجاه يتوسط الجوانجوانيين القادمين . حملتها اكماى البيضاء ،  
المندفعة بسرعة ، في الوقت المناسب الى امام . تبعها  
الجوانجوانيان وهما يصيحان ويهزان رمحيهما في الهواء واتى  
لهما ان يلحقا باكماى ! وكل لحظة مرت كانت تجعلهما يتخلفان  
عنها خطوات وخطوات ، ويبقيان في المؤخرة مخذولين على  
جمليهما الموبرين ، بينما تجمع اكماى انفاسها وتنطلق بسرعة  
لا يبلغها احد في ساروزيكي منقذة نايمان-آنا من مطاردة مهلكة .  
بيد ان نايمان-آنا لم تعرف ان الجوانجوانيين اخذا يضربان  
المانكورث بعد ان عادا . لكن ماذا يمكن ان يطلبها منه ؟ انه  
كان يجيب :

- قالت انها امي .

فاخذا يخيفانه ويقولان له :

- انها ليست امك ! ليس لديك ام ! هل تعرف لماذا  
جاءت ؟ هل تعرف ؟ انها تريد ان تنزع عن رأسك قبعتك بصب  
الماء الساخن عليه !

امتقع لون المانكورث اثر سماعه الكلمات واصبح وجهه  
الاسود رماديا . انزل رأسه الى ما بين كتفيه وامسك بقبعته  
واصبح يتلغف فيما حوله كوحش .

- لا تخف هكذا ! هالك ، خذ !

وسلمه الجوانجواني الاكبر سنا قوسا وسهاما .

وقال الجوانجواني الاصغر سنا :

- عيا . . . سدد !

ورمى قبعته عاليا في الهواء . فانطلق السهم واخترق  
القبعة . اندهش صاحب القبعة وقال :

- انظر ! لقد ظلت الذاكرة عندك .

حلقت نايمان-آنا في اطراف ساروزيكي كطير اجفل فسى  
عشه ، وهي لا تعرف ماذا ينبغي ان تفعل واي مصير ينتظرها .  
هل يسوق الجوانجوانيان الآن الذود وابنها - المانكورث الى  
مكان آخر اقرب من منطقة سكناهم يتعذر عليها بلوغه ، ام  
سيتربضان بها لكي يلقي القبض عليها ؟ اقتربت ، وهي سارحة  
في مثل هذه الافكار ، من المكان وفرحت عندما رأت  
الجوانجوانيين يتركان الذود ويوليان بعييدا دون التفاتة الى  
الوراء . تابعتها نايمان-آنا بنظراتها طويلا الى ان اختفى .  
وقررت حينذاك العودة الى ابنها . ينبغي الآن ان تأخذ معها  
مهما كلف الامر . وليكن في اي حال فليس هذا ذنبه . هذا ما آل  
اليه مصيره . لقد سخر الاعداء منه الا ان امه لن تبقيه عبدا .  
ولتستشط قلوب النايمايين غضبا ، وهم يرون كيف يشوه  
الغزاة الاسرى من مقاتليهم ، وكيف يهينونهم ويفقدونهم العقل !  
وليمدو ايديهم الى السلاح . فالقضية ليست قضية الارض  
فحسب ، فالارض تكفى الجميع ، انما شر الجوانجوانيين لا يطلق  
حتى بالنسبة للجار البعيد . . .

عادت نايمان-آنا الى ابنها وهي نهبه لهذه الافكار واجهدت  
نفسها في ايجاد طريقة تكسب بواسطتها ثقته وتقنعه بالهرب  
في هذه الليلة .

اقبل المساء . وكان الغسق الارجواني يتسلل بين المرج  
والوادي ، ويحط خفية على براري ساروزيكي الشاسعة . وهما  
قد حلت ليلة اخرى من تلك الليالي الكثيرة ، والماضية  
والمقبلة . وحملت الناقة البيضاء صاحبها بخفة وحرية الى اذواد  
الابل . وكانت اشعة الشمس المتوازية تضيء قامة نايمان-آنا  
المنتصبة بين السناميين على ظهر الناقة . وكانت نايمان-آنا  
الحذرة المهمومة ، مستتعة وصارمة ، تحمل في رأسها الذي وخطه  
الشيب افكارا جمّة . وعلى جبينها تجاعيد عميقة وفي عينيها ألم لا  
نهاية له مثل غسق ساروزيكي . . . ها قد وصلت الى القطيع  
وسارت بين الحيوانات المنهكة في الرعي . وبدأت تبحث عن



ابنها . لكنها لم تره . ولم تعرف لماذا كان جملة يرعى بحرية  
ساحبا وراءه على الارض مقوده . . . ليس ثمة اثر لابنها .  
تري ، ماذا حدث له ؟  
ونادت نايمان-آنا :

- جولامان ! اين انت يا بنى ، جولامان !  
لم يرد احد . ولم يكن ثمة احد لكى يلتفت لندائها .  
- جولامان ! اين انت ؟ هذه انا ، والدتك ، اين انت ؟  
تلفتت فيما حولها بقلق . ولم تلاحظ ان ابنها المانكورت  
قد اختفى فى ظل احد الجمال وتهدى لاطلاق السهم . كان يعوقه  
لمعان بقايا ضياء الشمس وينتظر اللحظة المناسبة للرمى .  
صاحت نايمان-آنا وهى تخشى ان يكون ابنها قد حاق به  
مكروه :

- يا ولدى جولامان !  
واستدارت فرأته ، وما كادت تصرخ «لا تطلق !» وتحدث  
الناقة البيضاء اكماى لتستدير حتى صفر السهم صغيرا قصيرا  
وهو ينغرز فى جنبها الايسر .  
كانت تلك ضربة قاتلة . انحنى نايمان-آنا ، وبدأت تسقط  
ببطء متشبثة بعنق الناقة . وقبل ان تسقط على الارض انحسرت  
المنديل الابيض عن رأسها ، وتحول الى طائر ، وطار يصيح  
«تذكر ابن من انت ؟ ما اسمك ؟ والدك دوننباى ! دوننباى !  
دوننباى !»

يقال ، انه منذ ذلك الحين يطير فى ساروزيكى ليلا طائر  
الدوننباى . وكلما صادف هذا الطائر احدا ، حلق بالقرب منه  
وصاح : «تذكر ، ابن من انت ؟ ابن من انت ؟ ما هو اسمك ؟  
اسمك ؟ والدك كان دوننباى ، دوننباى ، دوننباى . . .»  
واصبح المكان الذى دفنت فيه نايمان-آنا يسمى فى  
ساروزيكى بمقبرة آنا - باييت اى راحة الام الابدية .  
وخلفت الناقة البيضاء اكماى ذرية كبيرة . وكانت الاناث من  
سلالتها شبيهات بها . اصبحت النسوق البيضاءات الرؤوس  
مشهورة فى المنطقة برمتها ، اما الذكور ، فكانوا ، على العكس ،  
يولدون سود الرؤوس وضخمين مثل قره نار البوراني الحالى .  
كان المرحوم قازانغاب الذى جاءوا به الآن لدفنه فى آنا-

باييت يؤكد دائما ان قره نار البوراني ليس من سلالة عادية ،  
بل من سلالة الناقة البيضاء المشهورة اكماى التى بقيت فى  
ساروزيكى بعد مصرع نايمان-آنا .

وتق يدبغى بقازانغاب كسل الثقة وصدق بكلامه . ولم  
لا ؟ . . . كان قره نار البوراني يستحق ذلك . . . وكم من  
التجارب مرت به فى الايام الطيبة والايام السيئة وكان قره نار  
دائما ينقذه من المصاعب . . . لكنه يفقد عقله فى موسم  
السفاد ، ويحدث هذا معه ابان البرد دائما وعندئذ يفتاظ ،  
فيكون الشتاء قارسا عنيفا . شتاء ان دفعة واحدة . وفى  
مثل هذه الايام لا ينفع معه اى شىء . . . وذات مرة اوقس  
يدبغى فى وضع بالغ الحرج جدا . ولو كان قره نار انسانا ،  
او مخلوقا عاقلا ، لما غفر يدبغى البوراني له ابدأ تلك  
الحادثة . لكن ماذا تفعل مع بعير تخبل فى موسم السفاد ، بيد  
ان جوهر القضية ليس فى الحيوان . فهل يجوز الاستياء من  
حيوان ! يبدو ان هذا قضاء محتوم ليس الا ! وما شأن قره نار  
البوراني بهذا كله ؟ كان قازانغاب يعرف هذه القصة جيدا ،  
ولقد افتى فيها افتاء صحيحا ، ولولاه ، فمن يعرف ماذا كان قد  
حصل .

## الفصل السابع

تذكر يدبغى البوراني اواخر الصيف واوائل الخريف من عام  
١٩٥٢ بشعور خاص سعادة الايام المنصرمة . وتحققت نبوءاته  
كانما بفعل السحر . بعد ذلك القيقظ الرهيب الذى كانت حتى  
حراذين ساروزيكى تحتمى منه بعتبات المساكن منقذة نفسها من  
الحر ، تغير الجو فجأة منذ اواسط آب . انسحب الحر غير  
المحتمل ، وراحت البرودة تحل شيئا فشيئا ، على الاقل اصبحت  
فى الامكان النوم براحة فى الليالى . يحدث ان تاتى مثل هذه  
الغبطة فى ساروزيكى ، ليس كسل عام ، ولكنها تحدث . اما  
الشتاءات فهى على شاكله واحدة ، لا تتغير ، وهى دائما قارسة ،



ان الامر لم يكن يقتضى كل هذه العجالة . ومكثت العربات بعد  
تفريغها واقفة على السكة المسدودة نصف نهار . كانوا جميعا قد  
انكبوا على التفريغ : قازانغاب وابسو طالب وظريفة واوق بالا  
وبوكيه ، اى زجّ بكل من لم يكن يعمل على الخط فى هذا العمل  
العاجل . وكانوا مضطرين الى تنفيذ ذلك كله بالايدي . آه من  
الحر الذى كان فى ذلك اليوم ! ها هسى المصيبة ان العربات  
وصلت فى مثل ذلك الحر . لكن ما دام تفريغها لازما فلا بد من  
ذلك . وعملوا . فتوعكت اوق بالا وراحت تقىء . لم تتحمل  
رائحة العواض الحامية المقترنة . واضطروا الى ارسالها  
للبيت . ثم اخلوا سبيل النساء جميعهن لان الاطفال كانوا  
يضمنون من الحر فى البيت . فبقى الرجال وحدهم ، وتعذبوا  
طويلا لكنهم اكملوا العمل .

وفى اليوم الثانى ، قبل سقوط المطر بالضبط ، كان يجب  
ان تعود العربات الفارغة مع قطار حاملة عابر الى قمبيل . والى  
ان قام القطار بالمناورة وقطروا به العربات اختنق يديغى من  
الحر كما فى حمام الجنود . كان من الافضل ان تصلى الشمس ،  
اما سائق القاطرة فصادف ان كان بطينا جدا يجرّ العربات  
كالسحفاة ويديغى كان يشتغل منحني الظهر تحت العربات .  
وصب يديغى على راس سائق القاطرة سيلا من الشمتام كما  
ينبغى . فرد عليه ذلك بالمثل . صاعا بصاع بل كال له  
بالصاع صاعين . وهو لا يحلو له بدوره البقاء عند اتون  
القاطرة فتخيل كلاهما من الحر وجسّ جنونهما . والحمد لله اذ  
غادر قطار الحاملة ساحبا العربات الفارغة . وفى هذه الاثناء زج  
وابل المطر وكان السماء قد انشقت واذنت لربها وحقت والارض  
ارتعشت وانتعشت وغمرت البرك والمياه بطرفة عين . وهطل  
المطر فترة طويلة محتدا ومجنونا بعد ان ادخر احتياطي البرودة  
والرطوبة من سلسلة جبال هملايا نفسها المكلفة بالثلوج اذا  
كان ذلك الحديث صحيحا . . . واما هملايا ، فيا لها من جبال !  
ويا لها من قوة ! هرع يديغى الى البيت ، اما لماذا فهو نفسه لا  
يعرف . هكذا كان . ذلك ان الانسان عندما يجد نفسه تحت  
المطر يركض دائما الى البيت او يحتوى باى سقف . هذه عادة .  
والا لماذا الاختباء من مثل هذا المطر ؟ لقد ادرك ذلك وتوقف

بينما الصيف فيتساهل احيانا . ويحدث هكذا عندما يطرا على  
الطبقات العليا للتيارات الهوائية ، - كما تحدث بذلك  
يليزاروف ذات مرة - تغيرات فسى اتجاه الانهر السماوية .  
وكان يليزاروف شغوقا بالتحدث عن مثل هذه الاشياء . فقال انه  
تجرى فى الاعالى انهر عظيمة غير مرئية لها ضفافها وقيضاناتها ،  
وزعم ان هذه الانهر المتواجدة فى دورة متواصلة تغسل الكرة  
الارضية . وان الارض المحاطة بانواع الرياح تدور حول نفسها ،  
وهذا الدوران هو ما نسميه بمجرى الزمن . من الشيق سماع  
يليزاروف ، يندر ان يرى المرء اناسا مثله ، فهو انسان ذو  
قلب فريد . كان يديغى البوراني يكن الاحترام ليليزاروف ،  
وهذا الاخير يبادله الاحترام بالمثل . وعلى هذا الاساس ، فان  
ذلك النهر السماوى الذى يجلب احيانا برودة منعشة لساروزيكى  
فى اوج القيقظ ، لا يدري لماذا يهبط من ارتفاعه الاقصى ،  
وخلال ذلك يصطلم بجبال هملايا . وجبال هملايا هذه ، لا يدري  
الا الله ما ابعدها ، لكن مع ذلك فهى غير بعيدة من حيث  
مقاييس الكرة الارضية . مياه النهر الهوائى ترتطم بهملايا وترد  
على اعقابها ، فلا تصل الى الهند ولا الى باكستان ، فيمكث الحر  
هناك كما هو عليه ، اما فوق ساروزيكى فتتدفق فى اياها ، لان  
ساروزيكى هى مراتع شاسعة خالية من الموانع مثل سطح  
البحر . . . ويجلب ذلك النهر البرودة من هملايا . . .  
لكن مهما كان ، والحق يقال ، فان الوقت المسر فى تلك  
السنة جاء فى اواخر الصيف ومطلع الخريف . وان الامطار فى  
ساروزيكى هى ظاهرة نادرة . وكل زخة مطر تبقى عالقة فى  
الاذهان لفترة طويلة . بيد ان ذلك المطر تذكره يديغى البوراني  
طول حياته . فى الاول تلبدت السماء بالغيوم ، حتى انه كان  
منظرا غير مالوف عندما اختفى عمق السماء الصحراوية  
الساروزيكية القانظة . واضحى الجو خائفا ، حارا ورطبا ، لدرجة  
غير محتملة . وكان يديغى فى ذلك اليوم يعمل على قطر  
العربات . وكانت قد بقيت على خط مفرق السكة الحديد المسدودة  
ثلاث عربات حمل مسطحة بعد تفريغها من الحصى والعواض  
الصنوبرية . وكان قد تم تفريغها فى اليوم السابق . وكما فى  
كل مرة ، يطلب القيام بذلك باقصى سرعة ، لكن بعد ذلك يتضح



عندما رأى عائلة قطبايف كلها : ابو طالب ، ظريفة ، وابناهما  
داول وايرميك يتقافزون يرقصون متماسكى الايدي تحت المطر  
قرب بيتهم . لقد هز هذا المنظر يديغي هزا . وليس لانهم  
فرحوا ومرحوا بسقوط المطر ، بل لان ابا طالب وظريفة كانا قد  
تعجلا انتهاء العمل قبل سقوط المطر لكي يعودا الى البيت وسارا  
بخطوات واسعة عبر طريق السكة الحديد . لقد فهمها الآن .  
ارادا ان يكونا سوية مع ولديهما تحت المطر . لم يخطر هذا على  
بال يديغي . بينما هم كانوا يفتسلون بوابل المطر يرقصون  
ويضحون مثل الاوز في بحر آرال ! لقد كان ذلك عيدا ، متنفسا  
لهم في السماء لانهم كانوا قد اشتاقوا اشتياقا حارا للمطر في  
ساروزيكي . وتملك يديغي الفرح والحزن والضحك في آن ،  
وراف بحال هؤلاء المنبوذين المتشبهين بلحظة مشرقة في مفرق  
السكة الحديد بوراني-بوراني .

- يا يديغي ! هيا معنا ! - ناداه ابو طالب عبر شأيسب  
المطر ولوّح له بيده كما يفعل السياح .  
- يا عم يديغي ! - صاح الولدان جذلين بدورهما وانطلقا

نحوه .

وركض صوبه الابن الاصغر ايرميك ، محبوبه ، الذي دخل  
لتوه عامه الثالث ناشرا يديه فاغرا فاه على سعته ، لاهتا من  
المطر . وكانت عيناه مغممتين بسعادة لا توصف وبسالة  
وحماس . تلقفه يديغي ودار به وهو على يديه ، ولا يعرف  
كيف يتصرف فيما بعد . فانه لم تكن له نية البتة للمشاركة في  
هذه اللعبة العائلية . بيد انه في هذه الاثناء ظهرت بنتا يديغي  
ساولا وشرابات راكضتين من طرف البيت وزاعقتين بصوت  
مرتفع . لقد هرعتا على الضجة التي اقامتها عائلة قطبايف . ولقد  
كانتا سعيدتين ايضا ، فطلبتا من ابيهما : «بابا ، هيا نركض !»  
ولقد وضع هذا لتردد يديغي . انهم الآن متوحدين مع  
بعضهم بعضا يمرحون تحت وابل المطر الغزير .

لم ينزل يديغي الطفل ايرميك من حضنه خوفا من ان يسقط  
في هذا الهرج والمرج ببركة ويشرق بالماء . فاجلس ابو طالب  
على ظهره ابنته الصغيرة شرابات وركضا على هذه الحال مسلمين  
الاطفال . كان ايرميك يتراقص في حضن يديغي ويصرخ بأعلى

صوته ، وعندما يشرق او يغص يدهس وجهه المبتل بسرعة عند  
رقبة يديغي . ولقد كان ذلك مؤثرا جدا وتمكن يديغي ان يتلقف  
عدة مرات نظرات ابي طالب وظريفة المشعة والممتنة الموجهة  
اليه ، وكانا مرتاحين من ان الطفل كان يشعر بكل هذه الغبطة  
مع العم يديغي . غير ان يديغي وابنتيه ايضا كانوا يشعرون  
بالفرح الشديد في هذا الهرج والمرج الذي اقامته عائلة قطبايف  
في المطر . وانتبه يديغي بلا ارادة منه لجمال ظريفة . فقد  
شعث المطر شعرها الاسود والقي بخصل منه على وجهها ورقبتها  
وكتفها ، وقد ابتلت من قمة رأسها الى اخصص قدميها ، وسال  
الماء المتساقط على جسد المرأة المرن الغض مبرزا رقبتهما  
ويديها وفخذيها وبطتي ساقها العاريتين . بينما تالقت عينها  
فرحا وحماسا . ولمعت اسنانه البيضاء معبرة عن السعادة .

المطر بالنسبة لساروزيكي شيء لا نفع فيه . فان الثلج  
يشبع التربة بالتدريج ، بينما المطر ، مهما كان غزيرا ، يجري  
مثل الزئبق على راحة اليد ، ويسيل في الوديان والوهاد مع انه  
منذ لحظة كان يهطل ويهطل .

وبعد دقائق معدودة من ذلك المطر الغزير تدفقت الجداول  
والسيول قوية سريعة مزبدة . عندئذ أخذ البورانليون  
يتراكضون ويتقافزون في السواقي وينزلون الاحواض والطنسوت  
الى الماء . وحتى ان الاولاد الكبار كداول وساولا قد ركبا  
الطنسوت وعاما فوق الماء . واضطروا ان يجلسوا الصغار ايضا  
في احواض ليسبحوا . . .

اما المطر فواصل السقوط . ووجد الاطفال الذين كانوا  
يتمتعون بالسباحة في الطسوت انفسهم عند خط السكة الحديد ،  
تحت السدة مباشرة عند طرف المفرق . وفي هذه الاثناء كان  
يسير عبر بوراني-بوراني قطار ركاب . واخذ الناس المظليين  
باجسادهم حتى النصف تقريبا من نوافذ وابواب القطار المفتوحة  
على مصاريمها ينظرون اليهم ، الى هؤلاء التعساء الغريبى  
الاطوار . وكانوا يصرخون من القطار : «اي ، احذروا من  
الغرق !» ويصفرون ويضحكون . ذلك ان منظرهم كان غريبا  
جدا ، على ما يبدو . والقطار كان يسير مفسولا بالمطر حاملا



معه اولئك الذين سيحدثون بعد يوم او يومين عما رآه للناس لاضحاكهم .

ولما كان يديغي قد فكر بذلك لو لم يخيل اليه ان ظريفة تبكى . عندما تسيل على الوجه مسارب الماء شديدة يصعب على المرء ان يقول هل ان الانسان الذي يراه يبكي ام لا . ومع ذلك كله كانت ظريفة تبكى . وكانت تتظاهر بالضحك والفرح الشديد ، بينما كانت فى الواقع تبكى متالكة نشيجها مغطية البكاء بالضحك والصيحات . امسك ابو طالب بيدها قلعا :  
- ماذا بك ؟ هل تشعرين بسوء ؟ لنذهب الى البيت .  
فاجابت ظريفة :

- لا ، انه مجرد انفعال .  
وشرعا من جديد بتسلية الاطفال مستعجلين فى ارواء انفسهم من هبات المطر المفاجى . وتمسك يديغي شعور غير معتاد ، وتصور كيف يكون صعبا عليهما الاعتراف بوجود حياة اخرى ، مسلوبة منهم ، حيث لا يكون سقوط المطر حدثا ، والناس يستحمون ويسبحون بالماء الصافى الرقراق ، حيث توجد ظروف اخرى ، ومرفهات اخرى ، ورعاية اخرى للاطفال . . . . . ولكسى لا يعكر يديغي من مزاج ابي طالب وظريفة اللذين ابتدعا بالطبع هذا المرح من اجل ابنيهما واصل دعم تسليتهم . . . . .

لقد هرج ومرج ولعب الصغار والكبار بما فيه الكفاية ، بينما المطر ظل يهطل مدرارا . عندئذ غادروا الى بيوتهم . وشيعهم يديغي بعينين مغممتين بالعطف والحنان وهم يركضون صفا واحدا : الاب ، فالام ، والولدان وكانوا كلهم مبتلين . على الاقل تمتعوا بيوم واحد من السعادة ، فى ساروزيكى .  
وظهر يديغي على عتبة البيت حاملا ابنته الصغيرة وممسكا بيد الكبيرة . فدعرت اوق بالا وضربت كفا بكف .

- اوي ، ماذا حدث لكم ؟ من يفعل هذه الفعلة ؟  
- لا تخافى يا أم - طمأنها يديغي واستغرق فى الضحك -  
عندما ينتشى البعير يلعب مع صغاره .  
- لهذا اراك تتصرف مثل طفل صغير - ابتسمت اوق بالا معاتبة - اخلعوا ملابسكم ، لا تقفوا مثل دجاجات مبتلة .  
اقلع المطر عن السقوط . بيد انه ظل ينهمر فى مكان ما

من اطراف ساروزيكى حتى الفجر استنتاجا من قصف الرعود الخافت القادم من بعيد اثناء الليل . وقد استيقظ يديغي بتأثير ذلك عدة مرات . وانذهل . فى بحر آزال كان يحدث ان يزجر الرعد فوق رأس المرء ، ومع ذلك ينام . هناك الامر مختلف لان الرعود كثيرة التكرار . واذا استيقظ يديغي خمن خلال اجفانه المغمضة كيف كان ينعكس فى النوافذ الق ومضات باهتة اللون تومض فى اماكن مختلفة من البرية .

ورأى يديغي البوراني فى حلمه تلك الليلة انه كان فى الجبهة من جديد وراقدا تحت القصف . بيد ان القذائف كانت تسقط بعيدا دون ان تحدث صوتا . والانفجارات بغير جلبة تحلق عاليا فى الهواء وتتجمد متحولة الى نثار اسود ثم تسقط ببطء وتثاقل . احد هذه الانفجارات اطاره الى اعلى وقذفه فى الهواء ثم راح يسقط على مدى فترة طويلة . كان يسقط بقلب متجمد فى فراغ مرعب . ثم هجم على الاعداء . كان عدد الجنود المرتدين معاطف عسكرية رمادية كبيرا وقد بدأوا بالهجوم . لكنه لم يتمكن من تمييز وجوههم ، وتراوى له ان المعاطف وحدها تركض من تلقاء نفسها حاملة الرشاشات بايادها . وعندما هتفت المعاطف «هورا» لاحت فى الطريق امام يديغي ظريفة الميتلة من المطر ضاحكة . كان هذا منيرا للعجب . كانت ظريفة المرتدية فستانا من الشيت بشعرها المشعث البليل وقطرات المطر التى كانت تسيل على وجهها تضحك بلا انقطاع . لم يكن لدى يديغي متسع من الوقت للتوقف ، وتذكر انه ذاهب للهجوم . «لماذا تضحكين هكذا يا ظريفة ؟ ليس هذا بفاتحة خير» - قال يديغي . «انا لا اضحك ، بل ابكى» ، اجابت هى وواصلت الضحك تحت انهمار المطر . . . . .  
فى اليوم التالى اراد ان يقص عليها وعلى ابي طالب عما رآه فى منامه . لكنه عدل عن رايه لان الحلم بدا له سيبى التأويل والتفسير ولماذا يكدر الناس زيادة عن اللزوم . . . . .

بعد ذلك المطر الغزير تقهقر الحر فى ساروزيكى . او كما كان يقول قازانغاب انتهت رشاوى الصيف . حلت عدة ايام قانظة ، لكنها كانت محتملة . ومنذ ذلك الوقت بدأت تدريجيا غبطة ما قبل الخريف الساروزيكية . تخلص الاطفال البورانليون من الحر المضمنى . وانتعشوا وصدحت اصواتهم من جديد .



وفي تلك الايام وصلت مفرق السكة الحديد اخبار من قمبيل تقول ان البطيخ والشمام قد نزلت الى المحطة للتوزيع بين العاملين وانه بالامكان ارسال حصة البورانليين اليهم او عليهم الذهاب لاستلام حصتهم ، كما يشاؤون . واستغفل يديغي هذا الخبر ، واقنع مدير المفرق انه لا بد «من الذهاب بانفسنا ، والا فقد يرسلون لنا بقايا من بقاياهم غير النافعة» . وافق ذلك وقال : «طيب ، اذهب انت وقطبايف واختاروا النوعيات الافضل منها» . وهذا ما كان يحتاجه يديغي . كان يريد ان يبعد ابا طالب وظريفه والاطفال من بورانلي - بورانلي حتى ولو ليوم واحد . اجل ، ولا ضير من تبديل الجو بالنسبة لعائلته ايضا . وغادرت العائلتان ، مع اطفالهما في الصباح الباكر بقطار عابر الى قمبيل . وكانوا قد لبسوا لباسا حسنا . كان هذا رائعا . وخيل للاطفال انهم ذاهبون الى بلاد خرافية . فطول الطريق كانوا يبتهجون ويسألون : وهل تنبت الاشجار هناك ؟ تنبت الحشيش هناك ايضا موجود ؟ موجود . وهل هو اخضر ؟ اخضر ، وحتى توجد هناك الزهور . والبيوت كبيرة والسيارات تعرق في الشوارع ؟ وهل يمكن الأكل من البطيخ والشمام قدر ما نشاء ؟ وهل يوجد هناك بوظة ؟ البحر موجود هناك ؟

كانت الريح تعصف بعربة الحمولات ويهب تيار لطيف ناعم منها من الابواب المفتوحة المسيجة توقعا لكل الاحتمالات بعوارض خشبية لئلا يسقط منها الاطفال مع ان يديغي و ابا طالب جلسا عند الطرف على صناديق فارغة . كانا يتبادلان شتى الاحاديث ويجيبان عن اسئلة الاطفال . وارتاح يديغي البورانلي لانهم سافروا معا ، وان الجو لطيف والاطفال مسرورون . لكن اكثر ما كان يفرح يديغي ليس من اجل الاطفال بل من اجل ابي طالب وظريفه . كان وجههما يشعان . لقد فرغ الاثنان وتحرا ولو لفترة قصيرة من المشاغل الدائمة والكتابة الداخلية . وكان يطيب له ان يرى ظريفه و اوق بالا يتبادلان اطراف الاحاديث الودية عن مختلف الشؤون الحياتية . وكانتا سعيدتين . وهكذا كان يجب ان يكون الامر ، فماذا يريد الناس اكثر . . . وكان يديغي يود من كل قلبه ان تنسى عائلته قطبايف جميع مصائبها وتتمكن من الاستقرار هنا والتكيف مع

الحياة البورانلية ، ما دام لم يكن امامها من اختيار آخر . و«سر» يديغي ايضا بجلوس ابي طالب الى جانبه وكتفه يمس كتفه ، وهو يعرف انه يمكن الاعتماد على يديغي ، وانها يفهمان بعضهما البعض بلا كلمات زائدة ، ودون ان يتطرقا الى مواضيع غير نافعة مما لا ينبغي الحديث عنه . وكان يديغي يقدر في ابي طالب ذكاه وتماسكه ، لكن اكثر ما كان يقدره فيه هو تعلقه بعائلته التي عاش ابو طالب من اجلها دون ان يستسلم مغترفا القوة منها . وتوصل يديغي وهو يستمع لكلام ابي طالب الى نتيجة مفادها ان احسن ما يمكن ان يقوم به الانسان بالنسبة للآخرين هي تربية اطفاله تربية جديرة ولانقة وليس بمساعدة احد بل بنفسه ، وان يودع نفسه فيهم يوما بعد يوم وخطوة بعد خطوة ، وان يكون معهم قدر امكانه .

ما هو ثابت جان ، فقد درس ، كما يبدو ، في اماكن كثيرة . منذ صغره في المدرسة الداخلية ثم في المعهد ، ثم في مختلف دورات التأهيل . وكان قازانغاب المسكين يقدم الى ابنه ثابت جان كل ما يحصله ويتقاضاه لئلا يعيش في حال اسوأ من الآخرين . وماذا كانت الفائدة ؟ انه يعرف الكثير ، لكن عديم النفع يبقى عديم النفع .

ولهذا فكر يديغي آنذاك في الطريق عندما سافر مع ابي طالب لجلب البطيخ والشمام من قمبيل ، انه ما دام ليس ثمة من مخرج افضل ، فمن المستحسن لابي طالب قطبايف ان يستقر كما يجب في بورانلي - بورانلي وان ينظم مزرعة له ويربي المواشي ويربي ولديه هنا في ساروزيكي حسب امكانه وعلى قدر حاله . الحق يقال انه لم يبدأ بتقديم النصائح والارشادات له ، لكنه فهم من الحديث ان ابا طالب يميل الى ذلك وله مثل هذه النوايا . فقد استفسر عن كيفية خزن البطاطس واين يمكن شراء جزم اللباد الشتوية لزوجته واولاده ، بينما قال انه هو نفسه سيقتى بجزمته الحالية . وسأل ايضا ان كانت توجد مكتبة في قمبيل وهل تعبر الكتب لسكنة مفرق السكة الحديد .

مع حلول الليل في ذلك اليوم نفسه عادوا الى البيت في قطار حمولات عابر ومعهم البطيخ والشمام المخصص للبورانليين . وبالطبع تعب الاطفال الى ذلك الوقت لكنهم كانوا



مرتاحين جدا اذ تفرجوا على العالم في قمبيل واشتروا لعبا ودمى  
واكلوا البوظة ومختلف انواع الحلويات . اجل ، لقد حدث حادث  
صغير في صالون حلقة المحطة ، عندما ذهب الاولاد للحلاقة .  
لما جاء دور ايرميك اخذ يصرخ ويصيح بحيث لم تجد معه  
نصيحة احد . الجميع كانوا يتوسلون اليه لكنه هو كان يخاف  
وينتفض من الايدى ويصرخ ، وينادى اياه . وكان ابو طالب في  
ذلك الاثناء قد ذهب الى مخزن مجاور . وظريفة لم تكن تعرف  
ماذا تفعل فاحمرت وشجبت خجلا . وراحت تتذرع بكون الولد  
لم يعلق ولا مرة منذ ولادته لانهم كانوا يحافظون على شعره  
الجميل المجدد . في الحقيقة كان شعر ايرميك جميلا كثيفا شبيها  
بشعر امه ، وبشكل عام كان الولد شبيها بامه . كل مرة بعد  
غسل شعره ومشطه كان يغدو منظره غاية في الجمال .  
ونظرا لذلك اضطرت اوق بالا ان تسمح بقص شعر ساوله  
وذلك لتقول ، تفضل انظر ، رغم كونها بنت لا تخاف . ويبدو  
ان ذلك قد اثر تأثيرا ما . لكن ما ان تناول الحلاق ماكنته بيده  
حتى بدأ صياح ايرميك وبكاؤه . وكان ايرميك ينزع نفسه من  
بين يدي الحلاق عندما دخل الباب ابو طالب . فانطلق الطفل نحو  
والده فرفعه والده وحضنه بقوة وادرك انه لا داعى لتعذيب  
الطفل . وقال للحلاق :

- اعذرني ، سنمر عليك في المرة القادمة . سنجمع قوانا  
وناتيک . . . لا نستعجل هذه المرة . . . سناتيک في المرة  
القادمة . . .

خلال الاجتماع الاستثنائي للجنيتين المكلفتين بالمهمات  
الخاصة على متن حاملة الطائرات «كونفينتسيا» وباتفاق مشترك  
من الطرفين ارسلت برقية لاسلكية اخرى بالشفرة الى المحطة  
المدارية «باريتيت» مخصصة للبحث الى رائدى الفضاء المتكافئين  
١-٢ و٢-١ الموجودين فى كوكب الصدر الغابسى ، خارج  
المنظومة الارضية ، وتمنع البرقية عليهما منعا بانا اتخاذ اية  
اجراءات ، والبقاء فى مكانهما حتى تسلم اوامر خاصة من  
«اوبتسينوبر» .

استمر الاجتماع كالسابق خلف الابواب المغلقة . وحاملة  
الطائرات «كونفينتسيا» كالسابق ايضا ظلت عائمة فى موقعها  
فى المحيط الهادى ، الى الجنوب من جزر الرشن فى منتصف  
المسافة تماما بين سان فرسيسكو وفلاديفوستوك .  
وكالسابق ما كان احد فى العالم يعرف ان احدانا هامة  
وعظيمة وقعت بين المجرات ، اذ تم فى منظومة «الحامل» اكتشاف  
كوكب حضارى غير ارضى ومخلوقات عاقلة اقترحت اقامة علاقات  
مع ابناء الارض .

فى الاجتماع الاستثنائي ناقش الجانبان كل النقاط المؤيدة  
والرافضة اى الجوانب الايجابية والسلبية لهذه القضية غير  
العادية وغير المتوقعة . وقد وضعت على الطاولة امام كل عضو  
من اعضاء اللجنيتين الى جانب الوثائق الثانوية محفوظة تحوى النص  
الكامل لرسالة رائدى الفضاء المتكافئين ١-٢ و٢-١ . ودرست  
كل فكرة وكل كلمة وارده فى الوثيقة . وكل تفصيل من تفاصيل  
حياة سكان الصدر الغابى الواردة كمثال على تنظيم الحياة العاقلة  
فى هذا الكوكب ، درست قبل كل شىء من وجهة نظر المغبة  
المحتملة التى تتوافق او لا تتوافق مع التجربة الحضارية للارض  
ومع مصالح البلدان الرائدة فى العالم . . . اذ لم يسبق لاي  
انسان على وجه الارض مجابهة مثل هذا النوع من المشاكل .  
وتطلبت القضية حلا سريعا ناجزا . . .  
وكالسابق زوبعت فى المحيط الهادى عاصفة غير  
شديدة . . .

بعد اجتياز عائلة قطبايف الوقت الاظف من قيظ الصيف فى  
ساروزيكى ولم تجمع امتعتها ياسا ولم تتحرك من ساروزيكى  
خطوة الى اى مكان ، لترحل من هذه المنطقة ، ادرك البورانليون  
ان هذه العائلة سوف تبقى عندهم . وتشجع ابو طالب قطبايف  
بشكل ملحوظ ، او بالاحرى ، دخل الحياة الروتينية البورانلية .  
بالطبع ، لقد اعتاد وتكيف مع ظروف الحياة فى مفرق السكة  
الحديد . وكان يحق له ، كما يحق لكل امرى ، ايا كان ، ان  
يقول ان بورانلى هى المكان الاكثر هلكا فى العالم ، اذ لا بد من  
جلب الماء بالصهاريج على السكة الحديد للشرب وللحاجات  
الاخرى . اما من يرغب ان يشرب الماء العذب فيتوجب عليه ان



ياخذ القرب على البعير الى البئر الواقعة بعيدا جدا ، بحيث لا يتجرا احد على الذهاب اليها غير يديغي وقازانغاب .

اجل ، هكذا كان الامر حتى العام الثانى والخمسين والى الستينات ، عندما نصبت فى مفرق السكة الحديد مضخة ماء كهربائية هوائية لضخ المياه الجوفية من الآبار الارتوازية ولكن فى ذلك الوقت لم يكن ذلك ليراود افكارهم حتى فى اضغاث الاحلام ورغم ذلك كله فان ابا طالب لم يشتم ولم يصب السب على محطة بورانلى - بورانى ولا منطقة ساروزيكى هذه . لقد تقبل الطالح باعتباره طالحا والصالح باعتباره صالحا ، وفى خاتمة المطاف لم تكن تلك الارض مذنبه حيال احد بأى شئ . فالانسان نفسه هو الذى ينبغى له ان يقرر ان كان سيعيش هنا ام لا . . .

وعلى هذه الارض كان الناس يسعون الى الاستقرار بصورة مريحة اكثر ما يمكن . حين توصلت عائلة قطبايف الى قنائة نهائية بان مكانهم هو هنا فى بورانلى - بورانى ، وليس لها من مكان آخر ترتحل اليه ، وانه من الضرورى الاستقرار بصورة ارسخ واوطد ، فلم يعد الوقت يكفى للاعمال المنزلية . وبالطبع ، كان ينبغى العمل كل يوم ، او كل وردية ، وحتى فى وقت الفراغ كانت الاشغال كثيرة . وتصعد رأس ابي طالب من كثرة الهموم وتعب جدا حين بدأ بتهيئة البيت للشتاء . اعاد بناء المدفأة واصلح الابواب وقوى اطر النوافذ . كان غير حاذق فى مثل هذه الاعمال ، لكن يديغي ساعده بالمواد وعُدّد العمل ولم يتركه لوحده . وعندما اخذا يحفران قبوا قرب السقيفة لم يقف حتى قازانغاب مكتوف الايدى . فرتبوا ثلاثهم سوية قبوا صغيرا وسقفوه بعوارض قديمة وبالقش ثم كسوه بالطين ، لقد صنعوا غطاء السقف متينا لئلا تسقط فى القبو الماشية . وكان ولدا ابي طالب يدوران حولهم دائما مهما حاول الثلاثة ابعادهما . لكن وان كانا احيانا يعوقانهم عن العمل فان العمل كان على هذا النحو امتع والطف . واخذ يديغي وقازانغاب يفكران فى كيفية مساعدة ابي طالب على تنظيم مزرعته ، وقد اعد كل منهما بعض الاشياء من اجل ذلك . وقررا ان يخصصا له منذ الربيع ناقة حلوبا . ومن المهم منا حتى تعلم الحلب . ذلك ان الناقة ليست كالبقرة

اذ ينبغى حلبها وقوفا ، وتتبع اثرها فى البرية ، لكن الاهم هو المحافظة على حوآرها والسماح له بالرضاع فى الوقت المناسب وصدده فى الوقت المناسب ايضا . ان مشاغل نمو الحوار ليست قليلة . ينبغى للمرء ان يعرف الامور على وجهها الصحيح . . . بيد ان اكثر ما ادخل الفرح الى قلب يديغي البورانى ونفسه هو ان ابا طالب لم يقتصر على عنايته بتدبير شؤون البيت ، وانشغاله الدائم باطفال العائلتين يعلمهم هو وظريفة القراءة والكتابة والرسم ، بل فضلا عن ذلك اخذ يهتم ويعنى بنفسه قاهرا ومتغلبا على المئائى البورانى . ذلك ان ابا طالب قطبايف كان انسانا متعلما ومثقفا . يقرأ الكتب ويدون لنفسه بعض الملاحظات . لقد كان ذلك ضروريا بالنسبة له . وكان يديغي يعتز فى سره بان له مثل هذا الصديق ، ولهذا شعر بمييل نحوه . وحتى مع يليزاروف الجيولوجى المختص بساروزيكى الذى كان يتردد كثيرا على هذه المناطق لم تقم صداقته صدفة . كان يديغي يحترم العلماء وذوى الاطلاع . وكان ابو طالب ايضا واسع المعرفة . لكنه كان مقتصدا فى سرد افكاره والجهر بها . ولكن جرى بينهما ذات مرة حديث جدى .

كانا راجعين فى المساء من العمل على خطوط السكك الحديد . فى ذلك اليوم نصبوا الألواح المضادة للثلج فى الكيلومتر السابع حيث يكثر تساقط الثلوج دائما . وعلى الرغم من ان الخريف كان قد بدأ لتوه ، الا ان الشتاء كان يتطلب استعدادا قبل الاوان . اذن ، كانا يعودان الى البيت مشيا . وكان مساء لطيفا مضيئا يستميل المرء لتبادل اطراف الاحاديث . وفى مثل هذه الامسيات تبدو اطراف ساروزيكى للنظر فى غسق الغروب بشكل غير واضح ، مثلما يتراوى قاع بحر آرال من قارب فى طقس جيد .

سال يديغي :

- اننى يا ابا طالب كلما مررت فى الامسيات من امام بيتكم رايت رأسك بارزا فوق درفة النافذة والى جانبك مصباح ، هل تكتب شيئا على المنضدة ؟

اجاب ابو طالب عن طيب خاطر محولا الرفش من احد كتفيه الى الآخر :



- لا مكتب عندي . لكن ما ان يرقد الشقيان ويغفوان حتى وتنهك ظريفة في المطالعة ، بينما اكتب انا بعض الملاحظات ، ما دامت احداث الحرب لا تزال طرية في ذاكرتي . واصم ذكرياتي تتعلق بالسنوات التي قضيتها في يوغسلافيا . الزمن يمر والماضى يزداد ابتعادا . - وصمت برهة - اننى افكر دائما بشأن ما استطيع فعله لاطفالى . اولا اطعامهم وتربيتهم وهذا واضح . وساتولى انجاز ذلك وفق ما ينبغى على قدر امكاني . لكنى عانيت وكابدت الكثير الكثير بحيث لا يتسنى لانسان آخر ملاقة مثله في ظرف مائة عام ، ومن هذا فانا حي ارزق . يبدو انه لم يكن سدى منح القدر لى هذه الفرصة . ربما لكى اقول شيئا ما ، وبالدرجة الاولى لاطفالى . ويتعين علي ان اقدم الحساب امامهما عن حياتى كلها ، طالما انسى انجبتهما . هكذا افهم الامر . بالطبع ، هناك حقيقة عامة للجميع ، ولكن ثمة ايضا لكل فرد فهمه . ويجب الاعراب عنـه والا سيختفى مع موت المرء . عندما يجتاز المرء حدود ما بين الحياة والموت فى معارك عالمية ، ويكون عرضة للقتل مائة مرة على اقل تقدير ، بينما يبقى حيا ، فهذا يعنى انه مكتوب عليه ان يدرك الكثير عن الخير والشر ، الحقيقة والزور . . .

وقاطعه يديغى مندهشا :

- تمهل ، ثمة ما لست افهمه . لعلك تذكر امورا صائبة ، لكن ولديك لا يزالان صغيرين ويخافان حتى ماكنة الحلاقة . فماذا سيفهمان ؟

- ولماذا اكتب ملاحظاتي اذن ؟ . واريد ان احتفظ بها لهما ! لا احد يعرف سلفا كم ساقى على قيد الحياة . وما اننى منذ يومين امعنت فى التفكير وبنتيجة ذلك كدت ادهس مثل اى غبى تحت عجلات القطار . لقد لحق قازانغاب ودفعنى من مكانى ، ثم صب على راسى شتائم مقذعة وقال : «فليركع اطفالك اليوم امام الله وليرفعوا اليه صلوات الشكر والعرفان» . - صحيح . لقد نبهتكم منذ زمن . وظريفة ايضا - امتعض يديغى بدوره واستغل الفرصة لكى يعبر عن مخاوفه : - لماذا تسير على السكة هكذا وكان القاطرة ينبغى ان تحيد عن القضبان وتفسح لك الطريق ؟ انت متعلم ، عليك ان تفهم .

انت الآن عامل سكة حديد بينما تمشى وكانك فى سوق . احترس والا سيدهسك القطار .

- اذا ما حدث ذلك ساكون انا المذنب . - وافقه عابسا .  
- ولكن مع ذلك اسمعنى ومن ثم قل ما تريد .  
- قلت هذا دون قصد معين ، واصل كلامك .

- فى الماضى كان الناس يتركون ميراثا لأولادهم وسواء اكان ذلك حسنا ام سيئا ، فانهم يتركون إرثا ، حسب امكانياتهم . وكم من كتب وحكايات ومسرحيات تناولت تلك الازمنة التى كان الناس فيها يتقاسمون هذا الميراث ، وماذا حل بالورثة فيما بعد . لماذا ؟ لأن القسم الاكبر من هذه المواريث كانت غير عادلة وقد جمعت بجهود الاخرين ، وبالحيل ، ولهذا فانها منذ البداية تخفى فى دواخلها الشر والخطيئة والظلم ، وانا اعزى نفسى لكوننا ، والحمد لله ، فى منجى من هذا . وان ميراثى لن يلحق ضررا بأحد . فهو روحى ، اى ان مذكراتى ستحتوى على كل شىء أدركته وخرجت به من الحرب . ليس عندي ثروة اكبر منها لابنائى . لقد توصلت هنا فى صحارى ساروزيكى الى مثل هذه القناعة . وكانت الحياة تزاحمنى دائما وتقودنى الى هنا لكى اضيع واخفى ، بينما ساكتب لهما كل ما افكر به ، ويأتى زمن سيحققان فيه ما أردت انا ان أحققه ، وما لم ابلغه انا قد يبلغانه هما . . . وسوف يواجهان حياة اصعب من حياتنا . فليتعلموا هذا منذ الصغر . . .

سارا بعض الوقت صامتين ، وكل منهما مشغول بأفكاره . احس يديغى بالغرابة لسماعه مثل هذا الكلام . اندهش لانه بالامكان فهم جوهر الحياة على الارض بهذا الشكل . ومع ذلك قرر ان يستوضح ما كان يذهله .

- الجميع يعتقدون ، وتذكر الاذاعة والصحافة ان ابناءنا سيعيشون افضل واسهل بينما يبدو لك انهم سيواجهون حياة أشق من حياتنا . فهل ذلك لان حربا نووية ستتشب ؟

- كلا ، ليس لهذا السبب وحده . الحرب من المحتمل انها لن تنشب . واذا ما نشبت فليس قريبا . ولا يتعلق هذا بالطعام والمنام . كل ما فى الامر هو ان عجلة الزمن تسارع فى دورانها . وسوف يضطرون ان يقرروا ويحلوا كل المشاكل



والقضايا بعقولهم على نحو مستقل وان يتحملوا مسؤولية جزء من  
افعالنا السابقة وامعان الفكر دائما صعب . ولهذا سيواجهون  
مصاعب اكثر واكبر مما واجهنا .

ولم يحاول يدبغي ان يدقق لماذا يعتقد ابو طالب ان  
التفكير دائما صعب ، وعبثا لم يحاول ، اذ انه تأسف على ذلك  
قيما بعد ، عندما تذكر هذا الحديث . كان ينبغي عليه الاستفسار  
ومعرفة السبب . . .

واستطرد ابو طالب كأنه يجيب عن شكوك يدبغي :

- قصدي من هذا ، ان الكبار يبذون دائما للاطفال اذكي  
واكثر هيبة . وعندما يكبرون يتضح لهم ان معلمهم ، الذين  
هم نحن ، كانوا لا يعرفون كثيرا ولم يكونوا اذكيا . ونابهيين الى  
الحد الذي كان قد تراءى لهم . فيسمحون لانفسهم بالضحك  
عليهم ، حتى ان مرشدين جديرين يبذون لهم احيانا تافهين .  
ان عجلة الزمن تدور اسرع فاسرع ، وعلينا نحن ان نقول عن  
انفسنا الكلمات الاخيرة . وقد حاول اجدادنا ان يفعلوا ذلك  
في الاساطير والحكايات . وارادوا ان يبينوا للاحفاد اي جبايرة  
كانوا . ونحكم عليهم نحن الآن حسب الجو المسيطر في هذه  
الحكايات . واننى ايضا اعلم ما اقدر عليه لولدي الناشئين .  
ان حكايتي هي سنواتي التى قضيتها فى الحرب . اكتب عن  
حياتي بين الانتصار . الواقع كما كان وما رايت ومسا عانيت  
سيفيدهما عندما يكبران . ولكن اضافة الى ذلك ، ثمة نوايا  
اخرى سيضطران ان يعيشا فى ساروزيكى . وعندما سيكبران  
يجب الا يفكرا بانهما عاشا فى مكان بلا تاريخ . ولقد دونت  
اغانينا القديمة ، ذلك انه سيكون من العسير العثور عليها  
قيما بعد . ان الاغانى حسب فهمى هي اخبار من الماضى . يظهر  
ان زوجتك اوق بالا تعرف الكثير منها . وقد وعدت ان تتذكر  
اغاني اخرى ايضا .

- بالطبع . فان اصلها من آزال ! - تباهى يدبغي صراحة .  
- القازاخيون الاراليون هم من سكنة الشاملى . والغناء قرب  
البحر بديع . والبحر يفهم كل شىء . ان كل ما يقوله المرء قرب  
البحر يخرج من اعماق القلب ويدخل الى القلب .  
- كلامك هذا صحيح . لقد اعدت قراءة ما كتبته قبل فترة .

كدنا انا وظريفة نبكى . واه غناء جميل كانوا يتغنون به فى  
الماضى ! كل اغنية تعد قصة كاملة . وفى هذه الاغانى ترى هؤلاء  
الناس وترغب بان تكون معهم قلبا وقالبا ، وان تحب وتعانى  
مثلهم . هو ذا الاثر الذى تركوه بعدهم . لقد استدرجت بوكيه  
زوجة قازانغاب وقلت لها : تذكرى اغانيك القرقلباكية وسوف  
ادونها فى دفتر خاص وسيكون لنا دفتر قرقلباكي . . .

وهكذا سارا دون ان يتعجلا على امتداد السكة الحديد . لقد  
كانت فرصة نادرة . راحت خاتمة النهار الهادى من ذلك الوقت  
الذى يمهد للخريف كأنها تتنفس الصعداء بارتياح . ليس فى  
ساروزيكى غابات وانهار وحقول ، الا ان الشمس الغاربة كانت  
تترك انطبعا بان البرية تفيض بالخيرات بفضل حركة الضوء  
والظلال المتموجة على وجه الارض . وكانت زرقة السماء القاتمة  
المبهمة من تلك الرحاب المستحوذة على النفس تبهر الذهن  
وتعلي الافكار وتوحى بحب الحياة وتبعث على امعان الفكر . . .  
وقال ابو طالب بعد ان تذكر انه اجل ما كان يجب العودة  
اليه عند الحاجة :

- اسمع يا يدبغي . اننى منذ مدة اريد ان اسالك عن  
طائر دوننباى . كيف ترى ، انا اعتقد ان مثل هذا الطائر  
موجود فى الطبيعة ويسمى : دوننباى . ألم يحدث لك ان صادفت  
هذا الطائر ؟  
- لكن هذه اسطورة .

- افهم ، لكن يحدث احيانا كثيرة ان الواقع يثبت  
الاسطورة . واليك على سبيل المثال طائر الصفارية التى تغرد  
فى منطقة سيميريتشيه طوال النهار فى البساتين الجبلية وهى  
تسال باستمرار : « اين خطيبى ؟ » وهذا مجرد توافق فى  
النغمات . لكن هناك حكاية عن هذا الطائر وسبب غنائه هذا .  
ولهذا فكرت ، اليس هناك مثل هذا التوافق فى هذه القصة ؟  
وربما يوجد فى البرارى طائر يغرد شيئا ما شبيها باسم  
دوننباى ، ولهذا السبب دخل هذه الاسطورة ؟

- لا ، لا اعرف . ولم اعتقد بان الامر قد يكون هكذا . -  
اجاب يدبغي متشككا - الا انى رغم تجوالى المتواصل فى



هذه الأنحاء طولا وعرضا لم اصادف مثل هذا الطائر وعليه فهو غير موجود .

- ربما - اجاب ابو طالب مفكرا .

وسال يديغي قلنا :

- اذن ، ما دام مثل هذا الطائر لا وجود له فهل يعنى ذلك ان هذا كله غير صحيح ؟

- كلا ، لماذا ؟ بما ان مقبرة آنا - باييت موجودة هنا اذن لا بد ان شيئا ما كان موجودا . علاوة على ذلك فانا افكر ان مثل هذا الطائر لا بد انه موجود . وان احدا ما قد يصادفه في زمن ما ، وساكتب هكذا للاطفال .

وقال يديغي غير واثق :

- اذا كان هذا للاطفال ، فهو ممكن . . .

يتذكر يديغي البوراني شخصين فقط كانا في حينهما يسجلان الاسطورة الساروزيكية عن نايمان - آنا على الورق . في البدء سجلها ابو طالب قطبايف لطفليه لتلك الايام التي سيغدوان فيها كبيرين ، وقد كتبها في نهاية العام الثامنى والخمسين . وضاعت تلك المسودات . وكم من المصائب عانوا بعد ذلك ! اتى لهم ان يهتموا بالمسودات ! وبعد عدة سنوات في العام السابع والخمسين سجلها ايضا يليزاروف افاناسى ايفانوفيتش . في الوقت الحاضر لا وجود ليليزاروف . اما تلك المخطوطة ، فمن يعلم ، ربما ، بقيت بين اوراقه فى الما-آنا . . . هذا وذاك سجلها بصورة عامة من شفتى قازانغاب . وكان يديغي حاضرا اثناء ذلك ، لكن بصفة مذكر للاحداث ومعلق عليها اكثر من راوية لها .

«ها هي السنوات تمر سراعا هكذا ! يا الهى ، متى كان هذا كله !» - فكر يديغي البوراني مهتزا بين سنامى قره نار المجلل . اما الآن فكان ينقل قازانغاب الى مقبرة آنا-باييت . لقد اتصل طرفا الحلقة . كان يجب على راوي الاسطورة نفسه ان يجد راحته الاخيرة ومثواه في المقبرة التي حفظ تاريخها وبينه للاخرين .

«بقينا نحن فقط : آنا وآنا-باييت . وانا ايضا ساصل قريبا الى هنا ، لاحتل مكانى . الامور تسير نحو هذا» . كان يديغي

يفكر فى الطريق تفكيرا كئيبا وهو يواصل كالمسابق قيادته فوق ظهر بعيره الموكب الغريب السائر وراءه فى السهب والذي يضم تراكتورا مع العربة المقطورة ثم حفارة من نوع «بيلاروس» . وكان الكلب الاشقر جولبرس الذي انضم طواعية الى الموكب يسمح لنفسه ان يكون تارة فى المقدمة واخرى فى المؤخرة وتارة بجانب الموكب وتارة اخرى يتركه للحظة . . . وكان الكلب رافعا ذيله بصلافة ويتلفت الى الجانبين بابهة وشموخ . . .

انتصبت الشمس فوق الرؤوس وانتصف النهار . ولم تعد ثمة من مسافة طويلة حتى مقبرة آنا-باييت . . .

## الفصل الثامن

ومع ذلك فقد كانت الاسابيع الاخيرة من العام الثامنى والخمسين ، او بتعبير أدق الخريف والشتاء الذى حل بعده وان كان متأخرا ، قد انتقضت بلا زوابع تلجية وكانت من احسن الاوقات لتلك المجموعة الصغيرة من الناس القاطنة فى ذلك الوقت بمفرق السكة الحديد بورانلى - بورانى . وكان يديغي فيما بعد كثيرا ما يتذكر تلك الايام ويحن لها .

كان قازانغاب ، العامل الاقدم فى المفرق والرجل الاكسر ادبا واحتراما والذي لم يتدخل ابدا فى شؤون الاخرين ما يزال فى كامل قوته وصحته وولده ثابت جان قد انتسب للدراسة فى المدرسة الداخلية بقمبيل . وكانت عائلة قطبايف قد استقرت حتى ذلك الوقت فى ساروزيكي . فدقات بيتها الخشبي استقبالا للشتاء وخزنت البطاطس واقتنت جزم اللباد لظريفة والاولاد وجلب يديغي للعائلة كيسا كاملا من الطحين من قسم تموين العمال فى قمبيل على ظهر قره نار الذى بلغ غنفوان قوته فى ذلك الوقت . وكان ابو طالب يعمل كما ينبغى ، ويقضى اوقات فراغه كلها كالمسابق مع الاولاد ، بينما يثابر فى الليالى على الكتابة تحت ضوء المصباح عند رف النافذة .



وكان ثمة بضعة عوائل لعمال السكك الحديدية ، لكن حسب كل التوقعات كان هؤلاء اناسا موقنين في مفرق السكة الحديدية . وآييلوف مدير المفرق في ذلك الوقت كان يبدو ايضا انسانا لا بأس به . والبورانيون كلهم كانوا في صحة جيدة ، والعمل يسير وفق ما يرام . كبر الاطفال . ونفذت جميع اعمال ما قبل الشتاء من تصليح الطرق ووضع الحواجز لحمايتها من الثلج في مواعيدها .

كان الجو رائعا بالنسبة للمنطقة ، والخريف بنيا مثل قشارة الخبز ! ثم جاء الشتاء في اوانه . وفرش الثلج الارض بطبقة سميقة راسا . وغدت الارعاء كلها بيضاء جميلة . وامتدت السكة الحديدية كخيوط اسود على قماش ابيض . وكانت القطارات تسير عليها دائما . والى جانب هذه الحركة بين تموجات الثلج قبعت قرية صغيرة هي مفرق السكة الحديدية بوراني - بوراني . وهي عبارة عن عدة بيوت وما شابهها . . . وكان المسافرون يرسلون نظرات لامبالية من العربات ، او كانوا يحسون للحظة بشعور خاطف من الرافة على سكان هذا المفرق . . .

ولكن عينا كان ذلك الشعور الخاطف من الرافة ، اذ كان البورانيون يعيشون سنة جيدة ، اذا لم نحسب قيظ الصيف الغريب . بيد ان ذلك القيظ كان قد انقضى . وعلى العموم كانت الحياة في مكان تنتظم شيئا فشيئا بعد الحرب : وكانوا ينتظرون عشية رأس السنة من جديد تخفيض الاسعار بالنسبة للمواد الغذائية والحاجات الضرورية ، ومع ان الحوائث كانت تعاني من شحة هذه المواد والحاجات . الا ان الاحوال كانت تتحسن سنة بعد اخرى . . .

كان البورانيون لا يعيرون ، عادة ، اهمية خاصة لرأس السنة ، ولا ينتظرون انتصاف الليل بصبر نافذ . وكان العمل في بوراني - بوراني يجري بالرغم من كل شيء والقطارات تسير دون ان تحسب حسابا اين ومتى تحل السنة الجديدة في الطريق . فضلا عن ذلك فان الاشغال المنزلية تزداد في الشتاء . اذ يتوجب ايقاد المدفأة وزيادة الاعتناء بالماشية في المرعى وفي الزريبة ، فيكل الانسان من التعب في النهار ، ويرى ان من الافضل له ان يستريح ويرقد مبكرا . هكذا مضت السنون تباعا . . .

ولكن في عشية العام الثالث والخمسين غدا رأس السنة في بوراني - بوراني عيدا حقيقيا ، ونظمت العيد ، بالطبع ، عائلة قطبايف . انضم يديغي الى تحضيرات عيد رأس السنة قبل نهايتها . وبدا كل شيء من قيام الزوجين قطبايف بتصب شجرة عيد رأس السنة للاطفال ، لكن من اين يمكن الحصول على شجرة في ساروزيكي . ايسر من ذلك ايجاد بيض الديناصور المتحجر في هذه البراري . ذلك ان يديزاروف عشر اثناء تجواله في الطرق الجيولوجية على بيض الديناصور التي يعود تاريخها الى ملايين السنين ، وقد تحجرت هذه البيوض وكل واحدة منها بحجم بطيخة كبيرة . ونقلت هذه اللقيات الى المتحف في الما - آنا . وكتبوا عن ذلك في الجريدة .

واضطر ابو طالب قطبايف الى السفر في عز الصقيح الى قمبيل ، وتمكن هناك ، في اللجنة النقابية المحلية ، ان يظفر بواحدة من خمس شجرات وصلت الى هذه المحطة الكبيرة . ولقد ابتدا كل شيء من هذا .

كان يديغي واقفا قرب المستودع يستلم من مدير مفرق السكة الحديدية قفازات جديدة للعمل عندما فرمل بقرعة وتوقف في الخط الاول قطار حمولة مغطى بالندى من الريح السهبية . وكان القطار طويلا ذا عربات من اربع محاور كلها بالخشم . ونزل ابو طالب من الفسحة المفتوحة للعربة الاخيرة الى الارض محركا بصعوبة رجله المتجمدتين من البرد داخل جزمته الثلجية . وانشأ كمساري القطار المرافق للرحلة والذي كان يرتدى معطفا كبيرا من فرو الضأن ويعتمر قبعة فرائية مشدودة شدا محكما وهو يتحرك بشكل آخرق على الفسحة يناوله شيئا كبير الحجم . خمن يديغي انها شجرة رأس السنة وتعجب ايما تعجب .

- ايه يا يديغي ! تعال وساعد ! - ندمه الكمساري مدليا جسده كله من درج العربة .

هبط يديغي من مكانه ، وعندما تقدم منه انتابه الفرع على ابي طالب ، اذ كانت الندف الثلجية تغطي جسده كله وحتى حاجبيه ، وقد تخدر من البرد لدرجة ان شفثيه احجمتا عن الحركة . ولم يتمكن ان يحرك يده . بينما كانت تنتصب شجرة



الشوح المشوكة التي كاد يفارق الحياة من اجلها الى جانبه ،  
وقال الكمسارى ساخطا بصوت مبوح :  
- كيف يسافر الناس عندكم هكذا ! اذ يمكن للمرء ان يفقد  
روحه من الرياح الهابة من وراء . اردت ان اعطيه معطى لكنى  
خفت ان ابرد انا نفسى .  
واعتذر ابو طالب وهو بالكاد يحرك شفثيه :  
- ارجو المعذرة ، كذا حصل . سأتدفا الآن . بيتى ليس  
بعيدا .

تذمر الكمسارى مخاطبا يديغى :  
- لقد قلت له اننى فى معطف من فرو الضأن ، وتحست  
المعطف ملابس مضربة ، واحتذى جزمة من لباد . واعتمر قبعة  
فرائية ، ومع ذلك فالى ان اصل المحطة القادمة ستجحف عيناى  
من البرد . فكيف يسافر هو هكذا !  
واحس يديغى بارتباك وخرج :  
- طيب ، سناخذ هذا بعين الاعتبار يا تروفيم ! شكرا ،  
هيا تحرك فلترافقك السلامة .

تناول يديغى الشجرة ، كانت باردة وتزيد بقليل عن قامة  
رجل ، واحس برائحة غابة شتائية تفوح من الشوح . فخفق قلبه  
اذ تذكر غابات جبهات القتال . كان هنالك عدد لا يحصى من مثل  
هذه الاشجار تسقطها الدبابات وتقتلعها القذائف . لكن لم  
يطرا على باله آنذاك ان شم رائحة شوح سينغدو عزيزا عليه  
ذات يوم .  
- لنذهب - قال يديغى مصوبا نظراته الى ابنى طالب  
وملقيا الشجرة على كتفه .  
وكان وجه ابنى طالب المتعب متجمدا من البرد وقد تثلجت  
الدموع على خديه لكن عينيه اللامعتين الفرحتين تلالاتا من تحت  
حاجبيه الابيضين . وداهم الفزع يديغى فجأة : هل سيقدّر  
الابناء هذا الوفاء الابوى ! ذلك ان الحياة مليئة بما هو العكس  
فى احيان كثيرة . فيواجه المرء اللامبالاة وحتى الكراهية بدلا  
من العرفان بالجميل . وفكر يديغى : «اعفاه الله من هذا ، تكفيه  
المصائب الاخرى» .  
كان داوول ، الابن الاكبر لابی طالب اول من رأى الشجرة .

فصرخ صرخة ابتهاج عالية وانسل الى باب البيت الخشبى .  
وخرجت من البيت ظريفة وايرميك راكضين دون ان يرتديا  
معطفيهما .

صاح داوول جذلا وهو يتراقص حولها :  
- شجرة راس السنة ! انظروا اية شجرة هي !  
ولم يكن حبور ظريفة بأقل .  
- انك رغم كل شىء حصلت عليها ! ما اروع هذا !  
اما ايرميك ، فلم ير ابدا فى حياته شجرة راس السنة .  
فاخذ ينظر الى ما يحمله العم يديغى بلا انقطاع .  
- ماما ، هل هذه شجرة شوح ؟ انها شجرة جيدة ، اليس  
كذلك ؟ ستعيش عندنا فى البيت ؟  
وقال يديغى :

- يا ظريفة بسبب هذه الشجرة كان من الممكن ان تستقبلى  
زوجا مجمدا . هيا ادخليه الى البيت بسرعة ودفنيه . وقبل كل  
شىء لا بد من نزع جزمته .  
كانت جزمته قد تجمدتا . تجهم وجه ابنى طالب واطبق  
بشدة على أسنانه من الالم ، وانّ عندما سعى الجميع متعاونين  
لنزعهما عن رجليه . وبذل الطفلان جهدهما بوجه خاص ، وكانا  
يمسكان بيديهما تارة على هذا النحو وتارة على ذاك الجزمتين  
الثقيلتين المتجمدتين كالحجر من البرد والملتصقتين بساقى  
والدهما .

حاولت الام ان تطردهما قائلة :  
- لا تعوقونى يا اولاد ، اتركونى انزعها بنفسى . . .  
لكن يديغى ارتأى ان يقول لها بصوت خافت :  
- اتركيهما يا ظريفة . دعيهما يفعلون .  
وكان قلب يديغى قد أوحى له ان اسمى تقدير بالنسبة  
لابنى طالب هو حب الاولاد وعطفهم عليه . اذن فانهم بشر ، وهذا  
يعنى انهم يفقهون شيئا ما . وكان مؤثرا بشكل خاص ومسلما  
جدا النظر الى الولد الاصغر . وكان ايرميك لسبب ما يسمى  
والده بابيكا بدلا من بابا . ولم يصلح له هذا احد لان هذه  
التسمية كانت صيغته الخاصة لتصغير التحبيب واحدى الكلمات  
الازلية الاولى التى نطقت بها شفاه البشر .



بابيكا ! بابيكا ! - كان الولد يتحمل مهتما محمرا من الجهود عديمة الجدوى التي كان يبذلها . وقد تشعبت شعره الاجعد واضطربت عيناه بالرغبة في القيام بشئ ضروري نافع الى اقصى حد ، وكان يبدو جديا لدرجة يشير ضحك المرء دون ارادة منه .

بالطبع كان ينبغي القيام بشئ ما يبلغ الاولاد من خلاله هدفهم ، وقام يديغي بما يلي : كان الصقيع المتجمد على الجزمتين قد بدأ بالذوبان واصبح بالامكان نزعهما وبسرعة دون احداث ألم يذكر لابي طالب . فقال يديغي :

- هلموا يا اولاد هيا اجلسوا ورائي ! ليسحب احدكم الاخر مثل عربات القطار . داول امسك بي ، وانت يا ايرميك امسك بداول .

ادرك ابو طالب مقصد يديغي فهز راسه مؤيدا ، واغرورقت عيناه المبتسمتان بالدموع لانه تخلص من البرد وشعر بدفء البيت .

وجلس يديغي مقابل ابي طالب ، وجلس الولدان احدهما وراء الاخر ، وبعد الاستعداد للعمل اخذ يديغي ينزع الجزمة قائلا :

- هلموا يا اولاد ، هيا اسحبوا بشكل اقوى ، وسوية ا والا فانا وحدي غير قادر . لا تكفيني قواي . هيا ، هيا يا داول ويا ايرميك . هيا بشكل اقوى !

ولهت الولدان خلفه ، ساعيين الى مساعده بكل ما لديهما من قوة . بينما راحت ظريفة تشجهم . تصنع يديغي ان قواه لا تكفيه . عندما نزعوا الجزمة الاولى صرخ الاطفال صرخة الظفر . وهبت ظريفة لتمسح قدم زوجها بمنديل من الصوف لكن يديغي اوقف الجميع :

- هيا يا اولاد ، وهيا انت ايضا يا ظريفة ! كيف يجوز هكذا ! من ينزع الجزمة الثانية ؟ ام نترك الوالد على هذه الشاكلة ورجله الثانية في الجزمة المتجمدة ؟ هل هذا حسن ؟

وضحك الجميع . ثم راحوا يتشقلبون على الارض بعض الوقت وخاصة الاولاد وابو طالب نفسه . وفيما بعد حين حاول يديغي مرات كثيرة ان يجد حلا للغز الرهيب ، لتلك المصيبة

الفظيعة التي حلت بهم كان يفكر : من يدري ، ربما ، في تلك اللحظات بالذات ، وفي مكان ما جد بعيد عن ذلك البيت سنبجل من جديد اسم ابي طالب قطبايف في الوثائق الرسمية والناس الذين استلموا تلك الوثائق عالجوا على ضوئها القضية التي لم تخطر ببال احد لا في هذه العائلة ولا في مفرق السكة الحديد . وانهاالت المصيبة على راسه كما الثلج . بالطبع لو كان يديغي اكثر خبرة في هذه الامور واكثر دهاء لتسرب القلق الغامض الى نفسه ان لم يكن قد خمن وقوع المصيبة .

وما الذي يمكن ان يشير قلقه ؟ كان مفتش مصلحة السبكات ياتي الى المفرق دائما مع نهاية السنة . وكان يطوف بالمحطات وفق الجدول . فيحل في بورانلي - بوراني يوما او يومين يتفقد سجلات الرواتب وقاتورات المواد وغيرها من الامور ويكتسب محضر التفتيش ليوقعه هو ومدير المحطة واحد العمال ثم يغادر في قطار عابر . لا سيما وان الاعمال لم تكن كثيرة في هذه المحطة . وكان يحدث ان يوقع يديغي ايضا في محضر التفتيش . لكن في هذه المرة مكث المفتش ثلاثة ايام في بورانلي - بوراني . وكان يبني في كوخ الخفير الصغير وهو المقر الرئيسي للمحطة حيث يضم مركز الاتصالات وغرفة المدير التي تسمى بمكتبه . وقد انشغل وهوول آييلوف مدير المفرق ، جدا ، لانه كان يجلب له الشاي في الغلاية . وقد عرج يديغي ايضا على المفتش . كان جالسا يدخن وهو منكب فوق الاوراق . وفكر يديغي لعله يكون احد المعارف السابقين ، ولكنه كما اتضح انه شخص اخر غريب . كان متورد الخدين قليل الاسنان ، يضع نظارات على عينيه ، اشيب ، وابتسامة لجوجة غريبة تلوح خطفا في عينيه .

ثم التقيا في المساء المتأخر . كان يديغي عائدا من العمل فرأى تحت المصباح المفتش يمشي ذهابا وايابا قرب كوخ الخفير ، وقد رفع ياقة معطفه الفرائية ، وقد اعتمر قبعة من فرو الحملان ، ونظاراته على عينيه ، يدخن مفكرا والرمسل يخشخش تحت كعبي جزمتيه . فقال يديغي معبرا عن تعاطفه معه :

- مساء الخير ، هل خرجت لتدخن ؟ تعبت من العمل ؟



- تعبت ، بالطبع - اجاب المفتش وهو يتسهم نصف  
ابتسامته . - ليس الامر سهلا - ومن جديد ابتسم نصف  
ابتسامته .

- واضح ، طبعاً - قال يديغي مجاملاً .  
وقال المفتش :

- اسافر غدا منذ الصباح . سيأتي القطار رقم ١٧ ويتوقف  
هنا وساسافر فيه - ومن جديد ابتسم نصف ابتسامته . وكان  
صوته مكتوما يدل على تعبه . وقد ضيق عينيه اللتين كانتا  
تنظران في وجه يديغي باهتمام . وسأل : - انت يديغي جنح  
الدين ؟

- نعم ، انا هو .

- لم اخطئ اذن في ظني - ونفت المفتش بنقّة الدخان  
من بين ما تبقى في فمه من اسنان - انت من قدامى المحاربين ،  
وتعمل في مفرق السكة الحديد منذ العام الرابع والاربعين .  
وعمال السكك الحديد يدعونك بالبوراني .

- صحيح تماما . - اجاب يديغي في سذاجة . وطاب له  
ان يعرف المفتش الكثير عنه ، لكن في الوقت نفسه اندهش  
لعادا وقف على كل هذه المعلومات وتذكرها .

- ذاكرتي جيدة - استطراد المفتش وهو يتسهم نصف  
ابتسامته وعلى ما يبدو انه خمن ما يفكر فيه يديغي . - انسى  
ايضا اكتب مثلما يفعل زميلكم قطبايف . - واوما براسه نافنا  
الدخان صوب النافذة المضاة التي كان يرى عبرها قطبايف  
منكبا كعادته على اوراقه عند الرف . - اننى اراقبه لليوم  
الثالث . انه يكتب ويكتب . اننى افهمه ، انا نفسى اكتب ايضا .  
بيد انى انظم الشعر . وانشر قصائدى فى جريدة السكة الحديد  
كل شهر تقريبا . ولدينا ثمة منتدى ادبى اديره بنفسى . ولقد  
نشرت قصائدى فى جريدة المحافظة ايضا مرة بمناسبة عيد  
المرأة فى الثامن من اذار ، واخرى فى عيد الاول من ايار هذا  
العام .

لاذ كلاهما بالصمت . هم يديغي بتوديعه والذهاب ، الا ان  
المفتش اردف قائلا :

- وهل يكتب عن يوغوسلافيا ؟

اجاب يديغي :

- بصراحة ، اننى لا اعرف . لكن هذا ما يبدو لى . لانه  
شارك فى حرب الانصار هناك . وهو يكتب لاطفاله .

- سمعت عن هذا . لقد سألت عنه آييلوف . يظهر انه  
كان فى الاسر ايضا . ولقد اشتغل فى التعليم بضع سنوات .  
اما الآن فقرر ان يظهر مواهبه من خلال الكتابة . - وقهقهه  
بصوت حاد . - لكن هذا ليس سهلا كما يبدو للبعض . انسا  
ايضا افكر بكتابة مؤلف ضخيم عن الجبهة والعمل فى المؤخرة لكن  
الوقت لا يكفينى . معظم اوقاتي اقضيها فى مأموريات . . .  
وقال يديغي :

- هو ايضا لا يكتب الا فى الليالى . وفى اوقات النهار  
يعمل . - ومن جديد لاذا بالصمت . ولم يلحق يديغي ان يغادر  
مرة اخرى .

قال المفتش وهو يتسهم نصف ابتسامته ويكثر مصوبسا  
نظراته الى شبح ابي طالب فى النافذة :

- ما اكثر ما يكتب ، حتى انه لا يرفع راسه .

فاجابه يديغي :

- لا بد للمرأة ان يشغل نفسه بشئ ما . ان الرجل مثقف .  
لا احد ولا شئ حواليه . لهذا يشغل نفسه بالكتابة .

دمدم المفتش وهو يضيق عينيه مفكرا فى شئ ما :  
- صحيح ، فكرة صائبة . لا احد ولا شئ حواليه وهو  
يشعر بانه حر ، لا احد ولا شئ حواليه . . فكرة صائبة . . .  
يشعر بانه حر .

تم توادعا . وفى الايام التي تلت كانت تخطر ببال يديغي  
بين الحين والحين فكرة ان لا ينسى اخبار ابي طالب عما جرى من  
حديث بينه وبين المفتش ، لكن لم يحصل ذلك لسبب ما ،  
ونسبه فيما بعد تماما .

كانت الاعمال عشية الشتاء كثيرة . والاهم ان قره نار قد  
بلغ عنفوانه وكم من المشاكل حمل الى صاحبه واى انزعاج !  
وكان قره نار الياق قد بلغ سن النضج قبل عامين . غير انه  
فى هاتين السننتين لم يكن يبدي رغباته بشكل عارم وكان  
بالامكان اخضاعه واخافته وتطويمه بصيحة صارمة . علاوة على



ذلك قان الذكر العجوز في ذود ابل القرية - جمل قازانغاب القديم - لم يكن يسمح له بالسيطرة . فكان يرفسه ويعضه ويطرده بعيدا عن الاناث . لكن البرية واسعة . فاذا ما طرده من هذا الطرف فانه كان ياتي من الطرف الآخر . وهكذا فقد كان الجمل العجوز يطارده طوال اليوم ، ثم تغور قواه . وعند ذاك كان قره نار الفتى المتوقد الريض يبلغ مرامه ويحقق مراده . ولكن في الموسم الجديد ، مع حلول برد الشتاء ، عندما استفاق في دماء الابل نداء الطبيعة الابدى وجد قره نار نفسه الاقوى في ذود ابل بورانلي . وبلغ قره نار حد العظمة ، بلغ قوته الماحقة . وراح بكل سهولة يطارد الجمل العجوز حتى ساقه تحت الجرف ، فرفسه في البرية المقفرة ، ثم داس عليه وعضه حتى كاد يقتله لانه لم يكن ثمة احد يفرق بينهما . وكان هذا الامر منطقياً وفق قانون الطبيعة ، اذ كان قد آن اوان قره نار ليخلف سلالته .

غير انه على هذا الاساس تشاجر يدبغي وقازانغاب للمرة الاولى . اذ لم يتحمل قازانغاب عند رؤية هذا المنظر المؤسف : رأى بعيره مضروبا تحت الجرف ، وعاد من المرعى حزينا وانهاى على يدبغي :

- لماذا تسمح بان يحدث ما حدث ؟ انهما حيوانان لكن السننا انا وانت آدميين ! كاد قره نار يقتل جملي . وانت تتركه طليقا في البرية !

- لم اتركه يا قازانغاب . لقد ذهب بنفسه . كيف تريد ان اقيده ؟ بالسلاسل ؟ سيقطع السلاسل وانت تعرف نفسك انه ليس سدى قولهم منذ القدم : «كيوش اتاصن تانيمايدي \*» لقد آن اوانه .

- انت مسرور . لكن مشاكل كبيرة تنتظرك . انت ترحمه ولا تريد ان تخرم منخره لتعليق الشيش \* \* . لكنك ستندم عندما تطارده . ان هذا الجمل لا يكتفى بذود واحد ، بل سيحجوب

\* القوة لا تعترف بوالدها (وردت بالقازاخية) . الناشر .

\* شوكة من الخشب تلطم في الشفة العليا للجمل . الناشر .

ساروزيكي كلها في سبيل غايته ، ولن يوقفه شيء . ستتذكر حينئذ كلماتي هذه . . .

لم يشأ يدبغي ان يوغر قلب قازانغاب ، لانه كان يحترمه ، وعلى العموم كان قازانغاب محقا . وتمتم مستسلما :

- لقد اهديته لي بنفسك وهو فضيل ، اما الان فتؤنبنى . طيب سافكر وافعل شيئا ما لكي اتمكن من السيطرة عليه . لكن يدبغي لم تطاوعه يدها على تشويه هذا الجمل الرائع بنخر منخره وتعليق الشيش الخشبي فيهما . وكم من مرة تذكر بالفعل فيما بعد كلمات قازانغاب ، وكم من مرة ، وهو في سورة الغضب كان يقسم انه لن يعبا بأى شيء ، لكنه مع ذلك لم يمس البعير . وفكر في احدى المرات ان يخضيه ، بيد انه لم يتجرأ ايضا ، ولم يتغلب على نفسه . كانت السنوات تمر وكل مرة مع حلول برد الشتاء كانت تبدأ هموم البحث عن قره نار الذي لا يكل في سعيه وراء رغباته .

ولقد بدأ كل شيء من ذلك الشتاء . ولا تزال تلك الاحداث طرية في ذهنه . حل عيد رأس السنة اثناء انشغاله بتهدئة قره نار وصنع الزريبة ، لكي يسد عليه الباب سدا محكما . كانت عائلة قطبايف قد نصبت الشجرة . وكان ذلك حدثا كبيرا لجميع اطفال البورانليين . ويمكن ان نقول ان اوقبالا مع ابنتها قد انتقلن الى بيت عائلة قطبايف الخشبي ، حيث كانوا طول النهار منشغلين باعداد وتزيين شجرة رأس السنة . ويدبغي ايضا كان اول شيء يقوم به وهو ذاهب الى العمل او قادم منه ان يعرج على آل قطبايف ليلقى نظرة على الشجرة . وغدت الشجرة اجمل وابهى وقد تزينت بالشرائط واللعب البيتية الصنع لا بد من تقدير جهود ظريفة واوقبالا ارفع تقدير اذ انهما اظهرتا في صنع اللعب كل مهارتهما للترويح عن نفوس الاطفال . ولم يكن الامر متعلقا بشجرة رأس السنة بقدر ما كان في آمال رأس السنة ، اذ كان الجميع ينتظرون غريزيا تغيرات مقبلة سعيدة .

لم يكتف ابو طالب بهذا ، فاخذ الاطفال الى الغناء وشرعوا هناك يصنعون دمية كبيرة من الثلج . في اول الامر تصور يدبغي انهم يتسلون فقط ، لكنه اعجب فيما بعد بهذه البدعة .



اذ راى دمية كبيرة من الثلج ، بقامة انسان تقريبا ، ومضحكة بعينيهما وحاجبيها السوداوين ، وانفها الاحمر وفمها المبتسم ، وعلى راسها قبعة قازانغاب الفرائية القديمة واقفة فى طرف البلدة تستقبل القطارات . وكانت فتاة الثلج تمسك فى احدى يديها علم السكك الحديد الاخضر الذى يعنى ان الطريق مفتوحة وفى اليد الثانية لوحة كرتون كتب عليها : «نهنتكم بعام ١٩٥٣ الجديد !» وما كان اروعاها من دمية ! لقد بقيت فتاة الثلج هذه فترة طويلة بعد الاول من كانون الثانى . . .

ولعب الاطفال البورانليون نهار يوم الحادى والثلاثين حتى المساء حول الشجرة وفى الغناء . وانشغل الكبار الذين انهوا نوبات خفارتهم ايضا هناك . وكان ابو طالب قد حدث يديغى فى الصباح كيف جاء الاطفال مبكرين الى فراشه وهم يهرجون ويمرحون فى حين تظاهر هو بالنوم .

- استيقظ ، استيقظ يا بابيكا ! - ايقظنى ايرميك . -  
قريبا سيأتى بابا نويل ، لنذهب لاستقباله .

قلت : - طيب ، سأنهض الآن ، فاعسل وجهى والبس ملابسى ثم اذهب . لقد وعد بالمجى فعلا .  
- باى قطار ؟ - سألنى الاكبر .

قلت : - باى كان ، كل القطارات تتوقف لبابا نويل فى مفرقتنا .

- اذن لا بد من النهوض بسرعة !

وبدانا نستعد للخروج بمهابة وجدية . فسأل داوول :

- وماما ؟ هى ايضا تريد ان ترى بابا نويل ؟

قلت : - بالطبع ، وكيف لا . نادوها .

وخرجنا سووية من البيت . هرع الاولاد صوب كشك الخفارة ، ونحن نسير وراءهم . حام الاولاد حول الكشك فلم يجدوا بابا نويل .

- بابيكا ، اين هو بابا نويل ؟

وايرميك ، انت تعرف ، كثيرا ما يرمش بعينيه .

قلت : - لا تسرعوا . سأسأل الخفير .

ودخلت كشك الخفارة حيث كنت قد اخفيت هناك منذ مساء

امس وريقة من بابانويل وكيسا فيه هدايا . وما ان خرجت الا وهرعوا نحوى :

- ما الخبر يا بابيكا ؟

قلت : - يبدو ان بابانويل ترك لكم وريقة ، ها هى : ايها العزيزان داوول وايرميك ! لقد زرت محطتكم الشهيرة فى الساعة الخامسة من الصباح الباكر . ولقد كنتما نائمين ، والجو كان شديد البرودة . ثم اننى انا شخصا بارد ولحيتى هى عبارة عن صوف صقيعى . بينما القطار توقف لدقيقتين . ولقد افلحت فى هاتين الدقيقتين ان اترك لكما هنا هذه الوريقة وبعض الهدايا . فى الكيس هدايا لجميع اطفال محطتكم ، لكل واحد تفاحة وجوزتان . لا تزعلوا فانى مشغول جدا . وسأذهب لزيارة اطفال آخرين ، انهم ينتظروننى ايضا . سأزوركم فى العام الجديد القادم لكى نلتقى . والآن مع السلامة . التوقيع : بابا نويل اياز - انا ، مهلا ، مهلا ، ثمة حاشية هنا ، كتبت بسرعة وبخط غير واضح . اعتقد ان القطار كان قد تحرك . ها ، اننى تمكنت من قراءتها : «يا داوول لا تضرب كلبك . لقد سمعت كيف انه اعول عندما ضربته بخفك . لكنى بعد هذا لم اسمع شيئا من هذا القليل . اعتقد انك صرت تعامله معاملة افضل . هذا كل ما اردت ان اقول لكم اياز - انا» . مهلا ، مهلا ، ها هى ذى ملحوظة ثانية ها . . . فهمت ما هى : «فتاة الثلج جميلة جدا . عفارم . لقد صافحتها وهنأتها» .

وبالطبع ، لقد سررا سرورا عظيما وصدقا بوريقة بابا نويل راسا ولم يزعلا . غير انهما شرعا يتجادلان حول من ينبغي ان يحمل كيس الهدايا ، الا ان امهما حكمت بينهما بالعدل : - «فى البدء يحمله داوول عشر خطوات ، فهو الاخ الاكبر . ثم عشر خطوات اخرى تحمله انت يا ايرميك ، فانت الاصغر .» وضحك يديغى من اعماق قلبه : «بالطبع ، لو كنت انا فى مكانهما لصدقت ايضا .»

وبالمقابل كان العم يديغى فى النهار من احب الناس لدى الاطفال . اذ نظم لهم التزحلق بالزلاقة . وكان لقازانغاب زلاقة قديمة ، فقرنوا بها ايضا جملة الهادى الذى يسير طانعا بنير على صدره . وبالطبع ، كان لا يجوز السماح لقره نار بتأدية مثل



هذه المهمة . انطلقت الزلاقة بالاولاد . وكم احدثوا من ضجة !  
وجلس يديغي في محل الحوذى . تقاطر الاطفال حوله كل يريد  
ان يجلس بجانبه ، ويطلب : «هيا اسرع ، اسرع !» ، وابو  
طالب وظريفة كانا يسيران الى جانب الزلاقة تارة ويركضان تارة  
اخرى ، غير انهما في المنحدرات كانا يجلسان على طرف  
الزلاقة . ابتعدت الزلاقة بمسافة كيلومترين تقريبا عن المفرق  
ثم استدارت على الرابية واخذت تنزل منها . اخذ البعير المقرون  
يلهث . وكان لا بد من الاستراحة .

كان الطقس لطيفا ذلك اليوم . وقد اطبق صمت ابدى على  
ساروزيكى المغطاة بالثلج على امتداد البصر . وانبسبت في كل  
الارجاء السهول والتلال التى تبدو ساحرة فى لفاعها الثلجى  
وشعت السماء بلونا حليبي ساطع وخيمت دعة انتصاف النهار  
الدافئة . وكانت نسيمات الريح اللطيفة تهب بخفة . اما فى الامام  
فكان يسير على السكة قطار طويل احمر ، تجره قاطرتان  
سوداوان نافثتين الدخان من مدختين . وكان الدخان يبقى معلقا  
فى الهواء ثم يعوم على شكل حلقات ويتلاشى متبدا واعطت  
القاطرة المتقدمة اشارة عند اقترابها من السيمافور . وكانت  
الاشارة عبارة عن صغير طويل قوى . ثم تكرر هذا الصغير مرتين  
معلنا وصول القطار . كان القطار عابرا ، فاجتاز بورانلى - بورانلى  
بضجة دون ان يخفف السرعة مارقا من جنب السيمافورات  
والبيوت القليلة التى كانت ملتصقة بالسكة تقريبا ، رغم ان  
مساحة فسيحة كانت تمتد حوالىها . ومن جديد هذا كل شىء  
وتجمد ولم تكن ثمة اية حركة سوى حلقات دخان زرقاء ارتفعت  
فوق سطوح البيوت ولاذ الجميع بالضممت . حتى ان الاطفال الذين  
هيجتهم الرحلة هداوا فى تلك الدقائق . وقالت ظريفة لزوجها  
بصوت خافت :

- ما اجمل هذا الصمت وما افضله !

- انت على حق - اجاب ابو طالب بصوت خافت ايضا .

رمقهما يديغي خلسة بطرف عينيه دون ان يدير براسه .  
كانا واقفين يشابه احدهما الآخر شباها كبيرا . وبعث كلام ظريفة  
الخافت ، لكنه واضح الاسى فى قلب يديغي مع ان هذا الكلام  
لم يكن موجها له . لقد ادرك فجأة باى حنين وفزع كانت ظريفة

تنظر الى هذه البيوت الصغيرة النافثة الدخان . لكن لم يكن  
بمستطاع يديغي ان يساعدهما بشىء ، ولا باى شكل من  
الاشكال ، لان البيوت القليلة المبنية عند السكة الحديد كانت  
الملجأ الوحيد لهم جميعا .

حت يديغي البعير المقرون ، وضربه بالسوط . فانزلقت  
الزلاقة عائدة الى مفرق السكة الحديد . . .

فى الساعة العاشرة من صباح الخامس من كانون الثانى عام  
١٩٥٢ توقف فى مفرق السكة الحديد بورانلى-بورانلى قطار ركاب  
على الرغم من ان جميع الطرق امامه كانت مفتوحة ، وكان فى  
وسعه ، كالمعتاد ، ان يواصل السير بلا توقف . توقف القطار  
لدقيقة ونصف الدقيقة فقط . وكان هذا الوقت ، على ما يبدو  
كافيا تماما . نزل ثلاثة من درج احدى العربات وهم يحتذون  
جزمات من جلد الكروم الاسود وتوجهوا مباشرة الى غرفة الخفير .  
ساروا صامتين بثقة دون ان يلتفتوا فيما حوالىهم ، لكنهم توقفوا  
للحظة عند فتاة الثلج . ونظروا ساكتين الى السطر المكتوب على  
لوحة الكرتون الذى يحييهم ، والقوا نظرة على قبعة قازانغاب  
الفراية القديمة الرثة على راس فتاة الثلج . ثم ساروا الى غرفة  
الخفارة .

بعد مضى فترة قصيرة خرج بسرعة من الغرفة آبيلوف مدير  
المحطة ، وكاد يصطدم بفتاة الثلج . اطلق بعض المسبات  
وذهب ، وهو يركض تقريبا ، الامر الذى لا يحدث معه ابدا .  
بعد عشر دقائق عاد ادراجه لاهنا مصطحبا ابا طالب قطبايف  
الذى سرعان ما وجده فى العمل . كان ابو طالب شاحبا ويمسك  
قبعته فى يده . ودخل مع آبيلوف غرفة الخفارة . بيد انه خرج  
من هناك بعد لحظات برفقة اثنين من هؤلاء القادمين المحتذين  
جزما من جلد الكروم . وتوجهوا جميعهم الى البيت الذى  
كان يعيش فيه ابو طالب ثم سرعان ما عادوا من هناك ايضا ،  
وكان ابو طالب من جديد برفقة الاثنين اللذين حملا اوراقا ما ،  
ثم العنور عليها فى بيته .

ثم هدا كل شىء ، لم يدخل احد غرفة الخفارة او يخرج منها .  
عرف يديغي عما حدث من اوق بالا . فقد هرعت بتوصية



من آبيولوف الى الكيلومتر الرابع حيث كانت تجرى فى ذلك اليوم اعمال تصليح . انتحت به جانبا :

- انهم يستجوبون ابا طالب .

- من يستجوبه ؟

- لا اعرف . اناس غرباء . طلب منى آبيولوف ان اخبرك ، ان لم يسألوك فلا تقل اننا كنا فى عيد رأس السنة مع ابسى طالب وظريفة .

- وماذا فى الامر ؟

- لا اعرف . هكذا طلب ان اخبرك . واوصى بان تكون عند الساعة الثانية فى غرفة الخفارة . انهم يريدون ان يسألوك بعض الاسئلة ايضا ويستعلمون منك بشأن ابي طالب .

- وماذا يريدون ان يستعلموا ؟

- من اين لى ان اعرف . جاء آبيولوف خانفا وقال كذا وكيت ، فهرعت اليك مباشرة .

كان يديغى عادة يذهب عند الساعة الثانية الى البيت لتناول وجبة الغداء . وحاول طول الطريق وفى البيت ايضا ان يفهم ما الامر وماذا حدث ، لكنه لم يجد جوابا شافيا . هل بسبب الماضى ، ام بسبب الاسر ؟ لقد حققوا فى الامر منذ زمن طويل ، وماذا بعد ؟ شعر بالقلق والانزعاج . اغترف ملعقتين من الحساء وتركه جانبا . نظر الى ساعته . الثانية الا خمس دقائق . بما انهم قالوا فى الثانية ، يعنى يجب ان يكون عندهم فى الثانية . وخرج من البيت . وكان آبيولوف يذرع الارض جيئة وذهابا على مقربة من كوخ الخفارة .

- ماذا حصل ؟

- مصيبة ، مصيبة يا يديغى - قال آبيولوف ناظرا الى الباب بوجل ، وشفتاه ترتعشان قليلا - حبسوا قطبايف .

- لماذا ؟

- لقد عثروا فى بيته على بعض الكتابات الممنوعة . كان يكتبها كل مساء . الجميع يعرفون هذا . هذا جزء ما كتبه . - لا ادرى ، لا ادرى لمن . انا لا اعرف شيئا ، اذهب . انهم ينتظرونك .

كان ينتظره فى غرفة مدير المفرق التى كانت تسمى

بالمكتب رجل فى حوالى عمره او اصغر منه بقليل ، فى نحو الثلاثين ، مرصوص البنيان ، كبير الرأس ، حلق شعره قصيرا ، كان بدينا وانفه منتفخ عريض المنخرين وهو متصبب بالعرق من شدة التفكير ، وكان يقرأ شيئا ما . مسح انفه بمنديل وقلب جبينه العالى ، ثم على امتداد زمن حديثهما كان لا ينسى مسح العرق عن انفه . واخرج من علبة سجائر «كازبيك» الموضوعه على الطاولة سيجارة طويلة ، وادارها بين اصابعه ثم ارثها ، ونظر الى يديغى الواقف فى الباب بعينين واضحتين وصفراوين كعينى سنقر ثم قال باختصار :

- اجلس .

جلس يديغى على كرسي بلا مسند الى الطاولة .

- اذن ، لثلا يخامرك اى شك ، - قال سنقرى العينين ، واخرج من جيب الصدر لسترته المدنية الرسمية بطاقة بنية وفتحها ، لكنه سرعان ما سدها وضمها متمتما اثناء ذلك اما «تيسيق بايف» او «تيسق بايف» ، ومع ذلك لم يتذكر يديغى اسم عائلته وسأل سنقرى العينين :

- مفهوم ؟

اضطر يديغى ان يقول :

- مفهوم .

- اذن فى هذه الحال تبدا بالعمل . يقال انك من اقرب اصدقاء قطبايف ؟

- ربما صحيح .

- ربما صحيح - كرر سنقرى العينين ساحبا نفسا مسن سيجارته وكأنه يستوضح ما سمعه . - ربما صحيح ، لنفترض ان الامر على هذا النحو . اذن كل شىء واضح . - ثم سال فجأة وابتسامة ساخرة غير متوقعة ترتسم على شفثيه ، وسرور من ينتظر لذة يلصق فى عينيه الصافيتين كالبيلور . - اذن نكتب ايها الصديق العزيز ، اليس كذلك ؟

ارتبك يديغى :

- ماذا نكتب ؟

- هذا ما اريد ان اعرفه انا .

- انا لا افهم عمّ يجرى الحديث .



- فهمت ، فهمت ، لكنى اود ان اعرف شيئا واحدا فقط .  
ما السنيء في ان يكتب مذكراته لاطفاله . ويكتسب عما حدث  
له ، على سبيل المثال ، فى الجبهة ، فى الاسر ، فى فضيلة  
الانصار ؟

- لاطفاله ! - صرخ المحقق بصوت مرتفع . - ممن  
يصدقه ؟

من يكتب لاطفاله الذين لم يجف الحليب على شفاههم بعد !  
حكايات ! هكذا بالضبط يفعل العدو المحنك ! لقد اختفى فى هذا  
المكان النائى المنزول حيث لا احد ولا شىء حو اليه ، وحيث لا احد  
يراقبه ، وبدأ يكتب مذكراته !  
عارضه يديغي :

- لكن الرجل ، حسب اعتقادى اراد ان يقول رايه الخاص ،  
شيئا ما من عنده ، افكارا ما ، لكى يقرأها اطفاله ذات يوم عندما  
يكبرون .

- اى راي خاص ! ما معنى هذا ؟ - تنهد سنقرى العينين  
وهز راسه معاتبا . - اى افكار من عندياته ، ما معنى رايه  
الخاص ؟ هل يعنى هذا عقيدة خاصة ؟ افكاره الخاصة ؟ لا  
ينبغى ان تكون هناك اى اراء خاصة . ان كل ما سطر على الورق  
لا يعد رايًا خاصا . لا ينقصنا الا ان يعبر كل واحد عن رايه  
الخاص ! سيتجاوز هذا كل الحدود ! ها هي ما تسمى بـ«دفاتر  
الانصار» التى كتبها . يقول فى العنوان الثانى : «ايام وليال فى  
يوغسلافيا» هي ذى ! - ورمى على الطاولة ثلاثة دفاتر سميكة فى  
أغلفة من المشمع . - شناعة ! وانت تريد هنا ان تستر  
صاحبك . لكننا نحن فضحناء !  
- كيف ؟

تعمل سنقرى العينين وابتسامة ساخرة غير متوقعة ترسم  
من جديد على شفقيه ، ابتسامة من ينتظر لذة ، وهو يصوب  
عينيه الواضحتين الشفافتين نحو يديغي متلذذا بتأثير كلامه :  
- هذا شأننا نحن ، ونعرف كيف وماذا . هذا شأننا ولن

نبرح به لكل من هب ودب .  
قال يديغي فى ارتباك :

- اذا كان الامر هكذا فلا حيلة لى .

- معقول ؟ ما ؟ هيا فكر !  
- انا لا افهم عم يجرى الحديث .  
- ماذا يكتب قطبايف ؟  
- لا اعرف .

- كيف لا تعرف ؟ الكل يعرفون وانت لا تعرف ؟  
- اعرف انه يكتب شيئا ما . اما ماذا بالذات ، فمن  
اين لى ان اعرف . ثم ما شأنى انا ؟ اذا كان الرجل يريد ان  
يكتب فليكتب . ما شأن الآخرين به ؟

- انت ترى ان الآخرين لا شأن لهم به ؟ كيف هذا ؟ -  
انتفض سنقرى العينين دهشا مصوبا نحوه نظرات حادة ناقبة  
كالطلقة . - يعنى فليكتب كل ما يشاء ؟ هل هو الذى اقتنعك  
بذلك ؟

- انه لم يقنعنى بشىء .  
لكن سنقرى العينين لم يهتم بجوابه . كان مستاءا فقال :  
- هذه هي نتيجة الدعاية المعادية ! هل تفكر ماذا يحدث  
اذا بدأ كل واحد بالكتابة كما يشاء ؟ هل تفكر ماذا يحدث ؟ ثم  
يبدا كل واحد ويقول كما يدور فى راسه ! أهذا معقول ؟ من  
اين تأتىك هذه الافكار الغريبة ؟ كلا ، يا عزيزى ، لن نسمح  
بهذا . ولن تفلح هذه الثورة المعادية !

لزم يديغي الصمت وقد سحقته هذه العبارات . وتعجب  
جدا من ان شيئا لم يتغير فيما حو اليه . وكان لا شىء يحدث .  
ورأى عبر النافذة كيف مر خطفا القطار المغادر الى طشقند وتخيل  
للحظة ان الناس المسافرين فى العربات لتأدية شئونهم  
يرتشفون الآن الشاي او الفودكا ويتبادلون الاحاديث ولا شأن  
لاحد به هو الجالس فى ذلك الوقت فى بورانلى - بورانى امام  
نكرة سنقرى العينين ، لا احد يدري من اين هوى على راسه .  
واحس برغبة تشبه الالم الممض فى الهرب من غرفة الخفارة  
واللحاق بالقطار المغادر والرحيل حتى وان كان صوب اقصى  
الدنيا ، لئلا يبقى هنا فقط .

- ماذا اذن ؟ هل فهمت جوهر القضية ؟ - أوغل سنقرى  
العينين فى استفساراته .  
اجاب يديغي :



وقال سنقرى العينين :

- سينال لقاء مذكراته المعادية ما يستحقه . - وانشأ يكتب شيئا ما بسرعة وهو يتحدث : - تصورتك أعقل ، واعتقدتك واحدا من رجالنا باعتبارك عاملا طبيعيا ومعاربا سابقا يساعدنا فى كشف العدو .

عيس يدبغى وقال بصوت خفيض لكنه واضح دون ان يدع مجالاً للشك :

- انا لن اوقع شيئا . وهذا ما اقوله لكم بصراحة .

رماه سنقرى العينين بنظرة ساحقة :

- لسنا بحاجة الى توقيعك . انك تعتقد انه اذا لم توقع فان القضية ستنتهى ؟ انك مخطئ . عندنا ما يكفى من الوثائق لكي نحيله الى القضاء وبدون توقيعك .

سكت يدبغى شاعرا بذل وتحطم . وفى الوقت نفسه تعاطم غضبه وسخطه ورفضه لما يحدث مثل تعاطم الامواج فى بحر آزال . واحس فجأة برغبة فى خنق هذا السنقرى العينين مثل كلب مسعور ، وكان يدرى انه بإمكانه ان يفعل ذلك . فكلم كانت عضلية وقوية رقبة ذلك الفاشى الذى اضطر ان يخنقه بيديه . ولم يكن امامه من مفر . لقد التقيا وجها لوجه فى الخندق عندما طردوا العدو من الموضع . هاجموا جناح العدو وقذفوا القنابل اليدوية فى الخندق ثم رشوا الممرات بصليات من نيران الرشاشات ، وكانوا قد نظفوا الموضع من الاعداء وانطلقوا لمواصلة القتال عندما اصطدموا بهذا الفاشى . ويظهر ان ذلك الالمانى كان قناصا راميا بالرشاش وظل يطلق النار حتى آخر اطلاقه . وكان من الافضل اسره . ولقد خطرت هذه الفكرة فى ذهن يدبغى . لكن ذلك سرعان ما رفع السكين فوق راسه . ونطحه يدبغى بالخوذة فى وجهه ، فسقط كلاهما على الارض . ولم يبق لديه من منفذ آخر سوى ان يمسك بخناقه . اما الالمانى فكان يتلوى ويجشش ويفتش باصابعه فى كل الجهات محاولا ايجاد السكين الذى سقط من يده . وكان يدبغى يتوقع كل لحظة ان ينغرز السكين فى ظهره ، ولهذا ضغط بقوة وحشية لا تكل مزجرا على العنق الغضروفية للعدو المكشع المسود . وعندما انقطعت انفاس ذلك وفاحت رائحة بول عطنة فك اصابعه

المتشنجة وتقيا فى الحال ، وتمكن ان يزحف بعيدا وهو يتقيا وينن وغشاوة تطبق على عينيه . ولم يتحدث عن هذا لاحد فى ذلك الوقت ولا بعده . وراحت فيما بعد كوابيس هذا الحادث تتراعى له فى منامه احيانا . وفى اليوم الثانى وجد نفسه فى ضيق وكثره الحياة . . . وتذكر يدبغى هذا الحادث الآن بارتعاش وتقزز . الا انه كان يعنى ان سنقرى العينين يستخدم الحيلة والتفوق العقلى . وجرح هذا احاسيسه . وبينما كان سنقرى العينين يكتب حاول يدبغى ان يجد نقطة ضعف فى ادلته . من كل الافكار التى ادلى بها سنقرى العينين ادهشت يدبغى فكرة واحدة بلامنطقيتها الغريبة الا وهى : كيف يمكن اتهام المرء بأن «مذكراته معادية» ؟ أمن المعقول ان تكون المذكرات معادية او غير معادية ، فالمذكرات هى ما حدث فى وقت ما ، ما لم يعد له وجود ، ما حدث فى الماضى . اذن يتذكر الانسان ما حدث له فى الواقع .

- اريد ان اعرف - قال يدبغى شاعرا بيبوسة فى حلقه من الاضطراب ، لكنه ارغم نفسه ان ينطق الكلمات بهدوء : - ما انت تقول . . . - وخاطبه يدبغى بصيغة المفرد متعمدا لكي يفهم ذلك ان يدبغى لا يجامله ولا يخاف شيئا اذ ليس ثمة مكان ابعد من ساروزيكى ليرسل اليه . - ما انت تقول : مذكرات معادية . ماذا يفهم من هذا الكلام ؟ أمن المعقول ان تكون المذكرات معادية او غير معادية ؟ اعتقد ان الرجل يتذكر ما حدث وكيف حدث فى زمن ما ، اى ما ليس له وجود منذ زمن . او يظهر من كلامك انه اذا كانت الوقائع جيدة علينا ان نتذكرها واذا كانت سيئة فلا ينبغي ان نتذكرها ، بل ان ننساها ؟ كان شيئا لم يحدث ابدا . او اذا رأى المرء حلما لطيفا فى منامه ، على المرء ان يتذكره ؟ اما اذا كان الحلم فظيما غير مرغوب فيه من قبل احد ؟ فماذا يجب ان نعمل ؟

- يا لك من رجل ! اخذك الشيطان ! - تعجب سنقرى العينين - تحب المجادلة ، تريد ان تناقش . يبدو انك هنا فيلسوف محلى ، ليكن . هيا تناقش . - توقف لحظة ، وكأنه تاهب واستعد وقال برزانة ورسالة : - قد يحدث فى الحياة كل شئ ، اقصد الاحداث التاريخية . لكن هل من المهم ما حدث



او كيف حدث ! المهم ان تصور الماضى سواء شفها او بالاحرى خطيا كما يتطلب الامر الآن ، كما نحن بحاجة اليه الآن . وكل ما ليس فى صالحنا لا يجب تذكره . وان كنت لا تؤيد هذا ، يعنى قمت باعمال معادية .

قال يديغى :

- لست موافقا ، هذا غير جائز .

- لا احد بحاجة الى موافقتك . هذا بالمناسبة . انت تسأل وانا اشرح لك بطيبتى . وعلى العموم فاننا غير ملزم بأن ادخل معك فى مثل هذه النقاشات . طيب ، هيا ننتقل من الكلام الى العمل . قل الم يذكر قطبايف امامك سواء فى الاحاديث المتبادلة الصريحة او مثلا اثناء الشرب اسماء انكليزية ؟

دهش يديغى بصدق :

- لاي سبب ؟

- وهاك السبب - فتح سنقرى العينين دفترا من «دفاتر الانصار» لابى طالب ، وقرا فى موضع مؤشر تحت سطوره بالقلم الاحمر : «فى السابع والعشرين من ايلول وصلت مقرنا بعثة انكليزية تتألف من عقيد ورايندين . مررنا من امامهم كما فى استعراض ، وقد ردوا لنا التحية . ثم كان الغداء المشترك فى الخيمة لدى القادة ، ودعى الى هذا الغداء بعض الانصار الاجانب الموجودين فى يوغسلافيا . وعندما عرفونى على العقيد شد على يدي بمودة ، وظل يلقي على الاسئلة عبر المترجم من اين انا وكيف وصلت الى هنا . اجبته باختصار . صبوا لى الخمر ولقد شربت ايضا معهم . ثم استمرت الاحاديث بيننا طويلا . لقد اعجبتنى فى الانكليز بساطتهم وصراحتهم . قال العقيد ان السعادة العظيمة او كما عبر هو ، ان العناية الالهية ساعدتنا جميعنا نحن سكان اوربا ان نتخذ ضد الفاشيين . وكان النضال ضد هتلر بدون هذا اصعب ، ولربما انتهت الحرب نهاية مأساوية بالنسبة للشعوب المتفرقة» وهلم جرا . - وبعد ان انتهى سنقرى العينين من قراءة المقطع وضع الدفتر جانبا ، ودخن سيجارة اخرى وبعد ان صمت برهة وراح ينثف الدخان استطرد يقول : - يظهر ان قطبايف لم يقل للعقيد الانكليزى ان النصر كان مستحيلا بدون عبقرية ستالين ، ومهما اشتركوا هناك نسي

اوربا فى حرب الانصار او فى شىء مماثل . يعنى انه حتى لم يفكر بالرفيق ستالين ! هل تفهم هذا ؟

وحاول يديغى ان يدافع عن ابى طالب :

- لعله قال هذا ، لكنه نسي ان يسجله فى مذكراته .

- اين يذكر هذا ؟ اثبت لى ! علاوة على ذلك اننا قابلنا هذه المذكرات بشهادة قطبايف فى العام الخامس والاربعين عندما احيل على لجنة المراقبة والتفتيش بعد ان رجع من فصيلا الانصار اليوغوسلاف . وليس هناك اى ذكر لحادثة البعثة الانكليزية . وهذا يعنى ان ثمة شائبة هنا . من يضمن بانه لم يكن على علاقة مع المخابرات البريطانية ؟ !

ومن جديد احس يديغى بالألم فى نفسه والثقل على قلبه ولم يكن يفهم ما يحدث ، وماذا يقصد سنقرى العينين .

- تذكر ، الم يحدثك قطبايف حول الموضوع او ربما سمى لك اسماء انكليزية ؟ من المهم لنا ان نعرف من كان هؤلاء الاعضاء فى البعثة الانكليزية .

- كيف تكون اسماء الانكليز ؟

- على سبيل المثال جون ، كلارك ، سميث ، جيك . . .

- لم اسمع بمثل هذه الاسماء فى حياتى قط .

فكر سنقرى العينين ، وتكدر ، اذ ان بعض الاشياء فى اللقاء مع يديغى لم تعجبه اغلب الظن ، ثم قال :

- هل فتح هنا مدرسة لتعليم الاطفال ؟

- اية مدرسة ! - وضحك يديغى بلا ارادة منه - عنده

هو ولدان وعندى انا ابنتان . وهؤلاء هم المدرسة كلها . اكبرهم فى الخامسة واصغرهم فى الثالثة . وليس لدينا مكان يلتجى اليه الاطفال ، كل الارزاء هنا سهوب ، وهو معلم سابق ، وزوجته ايضا فيهتمان باطفالنا ويقرآن بعض الشىء ويرسمان ، ثم يعلمانهم القراءة والحساب والكتابة . هذه هى المدرسة كلها .

- ما هي الاغانى التى كانوا يغنونها ؟

- مختلف الاغانى ، اغانى الاطفال ، لا اتذكرها .

- ماذا علمهم ؟ وماذا كتبوا ؟

- الحروف ، وبعض الكلمات العادية .

- اية كلمات ، على سبيل المثال ؟



- لا أتذكر .

- هذه ! - ووجد سنقرى العينين بين الأوراق وريقة من دفتر مدرسى فيها شخيطات اطفال : - هذه هي الكلمات الاولى . - وكان قد كتب على الوريقة بخط طفل : «بيتنا» ارايت ، ان الكلمة الاولى التى يكتبها الطفل - «بيتنا» . لماذا ليس «نصرنا» ؟ اية كلمة ينبغي ان تكون الآن على كل شفة ولسان . هيا فكر ؟ ينبغي ان تكون «نصرنا» اليس كذلك ؟ لماذا لم يخطر هذا فى ذهنه ؟ ان النصر وستالين لا ينقصان . احتار يدبغى . وشعر بنفسه مهانا لدرجة كبيرة واحس بالرافة على ابي طالب وظريقة اللذين بذلا كل هذه الجهود وانفقا كل هذا الوقت على الاطفال العبيطين ، وتملكه الغيظ بحيث تجاسر وقال :

- اذا كان الامر هكذا ، فكان يجب قبل كل شىء ان يكتب : «لينيننا» وذلك ان لينين يحتل المكانة الاولى .

كتم سنقرى العينين انفاسه من هول المباغتة ثم راح ينفث الدخان من صدره لفترة طويلة . ونهض من مكانه ، على ما يبدو كان يحتاج الى التمشى ، لكن لم يكن ثمة من مجال فى الغرفة الصغيرة .

- اننا عندما نقول ستالين نعنى بذلك لينين ! - قال بصوت قاطع شادا على كل كلمة ، ثم تنفس الصعداء كمن يتنفس بعد عدو سريع واضاف مهادنا : - طيب ، فلنعتبر ان هذا الحديث لم يدر بيننا .

وجلس الرجل ، وقد اكتسى وجهه من جديد بمسحة من البرود واللامبالاة ، بينما ظلت عيناه تشعان ضوءا اصفر صافيا كعينى سنقر .

- لدينا معلومات تؤكد ان قطبايف عارض تعليم الاطفال فى المدرسة الداخلية . لقد كنت شاهدا على ذلك ، فماذا تقول ؟ - من اين لكم مثل هذه المعلومات ؟ من اعطاكم هذه المعلومات ؟ - قال يدبغى بدهشة وخمن فورا ان آيبلوف مدير مفرق السكة الحديد هو المذنب فى كل شىء . لقد اوصل هو اليهم هذا الكلام ، لانه قد جرى بحضوره .

أثار سؤال يدبغى سخط سنقرى العينين الشديد :

- اسمع ، لقد افهمتك : من اين جاءت لنا المعلومات ، وكيف كان ذلك هو من شأننا نحن وفى صلب اهتمامنا . ولا نتحاسب عنه امام احد . تذكر هذا ، وهيا ادل بما تعرفه . ماذا كان يقول ؟

- لا بد من تذكر ما كان يقول . فى الحقيقة ان ابن قازانغاب ، العامل الاقدم فى المحطة يدرس فى المدرسة الداخلية فى محطة قمبيل . ويعربد الولد قليلا بالطبع ، ويحدث ان يخاقل احيانا . مع حلول الاول من ايلول بدأ الاهل يهيئون ثابت جان للسنة الدراسية الجديدة ، واخذوا والده الى هناك على ظهر البعير . اما زوجة قازانغاب ، بوكيه ، فاخذت تندب وتنشكى : مصيبة ، منذ ان ذهب الى المدرسة الداخلية تغير وكأنه اصبح غريبا . انه لم يعد ذلك الذى كان يتعلق بالبيت وبامه وابيه كالسابق . بالطبع انها امرأة شبه امية ، لا بد من تعليم الولد والى جانب ذلك فهو بعيد عن الاهل دائما . . . - طيب ، - قاطعه سنقرى العينين . - وماذا قال قطبايف اثناء ذلك ؟

- قطبايف ايضا كان بيننا . وقال ان قلب الام لا يخطئ فى الهواجس . لان الظروف تجبرنا على ارسال اطفالنا الى المدرسة الداخلية التى تفصل بين الولد والعائلة ، لا ، لا تفصل بل تبعد الولد عن العائلة ، عن امه وابيه . وقال ان هذه المسألة فى غاية الصعوبة ، للجميع وله ايضا وللآخرين . لكن ما باليد حيلة طالما ليس ثمة من امكانيات اخرى . انا متفق معه . اطفالنا ايضا يكبرون ومنذ الآن ضميرى يؤنبنى ، ماذا سيحدث وكيف ستجرى الامور . بالطبع من السبىء ان . . .

- هذا فيما بعد . - اوقفه سنقرى العينين مقاطعا . - يعنى انه قال ان المدرسة الداخلية السوفيتية سيئة ؟

- انه لم يقل «السوفيتية» ، بل قال المدرسة الداخلية فقط . مدرستنا الداخلية فى قمبيل . وانا اقول انها «سيئة» .

- هذا غير مهم . قمبيل تقع فى الاتحاد السوفيتى . - كيف ليس مهما ! - وخرج يدبغى عن اطواره اذ شعر

كيف يشوش عليه الامر . - لماذا تنسب الى الرجل ما لم يقله ؟ انا ايضا هكذا افكر . فلو عشت فى مكان آخر ، ليس فى هذا



المفرق ، لما ارسلت اطفالي ، مهما كان الى اية مدرسة داخلية .  
هكذا بالضبط . هكذا افكر انا . ماذا تتصور ؟

- فكر ، فكر - قال سنقرى العينين واضعا نهاية للحديث .  
لكنه بعد ان صمت قليلا استطرد : - يعنى ، علينا ان نخرج  
باستنتاجاتنا . يعنى انه ضد التربية الجماعية ، اليس كذلك ؟  
- انه ليس ضدها ! - لم يتمالك يديغى . - لماذا تنسب  
اليه تهمة كاذبة ! كيف يجوز هذا ؟

- لا داعي ، لا داعي ، كفى . - وقال سنقرى العينين فى  
اهمال ، معتبرا انه لا داعي لتقديم اية شروح وتفسير - والآن  
قل لى ما هذا الدفتر المسمى : «طائر الدونبى» ؟ يؤكد قطبايف  
انه كتبه عن لسان قازانغاب ولسانك بعض الشيء . اليس  
كذلك ؟

- هكذا بالضبط - تحمس يديغى - ثمة حكاية او اسطورة  
بهذا الاسم فى ساروزيكى . وتقع على مقربة هنا مقبرة نايمان .  
فى زمن ما كانت تسمى مقبرة نايمان ، اما الآن فهى مقبرة عمومية  
وتسمى آنا - باييت ، وفى هذه المقبرة ترقد نايمان - آنا التى  
قتلها ابنها المانكورت . . .

- يكفى ، سنقرا هذه الحكايات ونرى ماذا يعنى بهذا  
الطائر . - قال سنقرى العينين وانثنا يقلب صفحات الدفتر ،  
مناجيا نفسه بصوت مسموع ومعبرا عن رايه : - الطائر  
دونبى ، احم ، ما هذا الاسم الغريب ، طائر يحمل اسم انسان .  
يا له من كاتب ! مختار عويضوف \* جديد ! اى كاتب هذا  
الذى يتحدث عن العهد البائد ؟ الطائر دونبى ، احم ، يظن  
اننا لن ندرك المسألة . . . لقد انهكك هنا بالكتابة سرا  
ويتظاهر انه يكتب للاطفال . وما هذا اذن ؟ هل هذا للاطفال  
ايضا ؟ - قرب سنقرى العينين دفترا آخر فى غلاف من المشمع  
من وجه يديغى .

لم يفهم يديغى :  
- وما هذا ؟

\* مختار عويضوف (١٨٩٧-١٩٦١) كاتب قازاخى مشهور ، من  
مؤسسى الادب القازاخى السوفيتى . الناشر .

- ماذا ؟ ينبغى لك ان تعرف . هاك العنوان : «رسالة رحيم  
الله اغا الى اخيه عبد الخان» .

- صحيح ، هذه ايضا اسطورة . هذه حكاية ، والشيوخ  
يعرفون جيدا هذه الحكايات . . .

- لا تقلق ، فانا ايضا اعرفها - قاطعه سنقرى العينين :  
لقد سمعت شيئا عنها . عجوز مخرف يقع فى حب فتاة فى  
التاسعة عشرة من عمرها . اين وجه الحسن فى كل هذا ؟ قطبايف  
هذا ليس شخصا معاديا فحسب ، بل يظهر انه رجل منحن  
الاخلاق ايضا . الا ترى جهوده فى كتابة هذا الهراء بالتفصيل .  
احمر يديغى ، لكن ليس خجلا ، انما افعم قلبه الغضب  
ذلك انه كان من المستحيل ان يغمط انسان آخر بحق ابى طالب  
اكثر من هذا . وقال متمالكا نفسه :

- انا لا ادري ما هو منصبك ، لكن لا تمسه فى هذا  
الصدد . حينذا لو كان كل رجل ابا وزوجا مثله ، وبامكانك ان  
تسال الجميع اى انسان هو . عددنا لا يتراوح اصابع اليد وكلنا  
نعرف بعضنا البعض جيدا .  
اجاب سنقرى العينين :

- طيب ، طيب ، اهدا . لقد سلب عقولكم . ان العدو  
يتظاهر دائما ، بينما نحن سنفضحه . كفى . انت حر .  
نهض يديغى . وتوقف محتارا وهو يرتدى قبعته .  
- والآن ماذا سيكون مصيره ؟ هل بسبب هذه الكتابات  
فقط سيودع السجن ؟ امعقول هذا ؟

رفع سنقرى العينين قامته قليلا من وراء الطاولة : -  
اسمع ، اننى اكرر عليك مرة اخرى : هذا ليس شانك ! انثنا  
نحن نعرف لاي سبب نظلم العدو وكيف نعامله ، وباية عقوبة  
نعاقبه . لا تحشر انك فى الامر . اعمل عملك واذهب !  
فى ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم نفسه توقف فى  
بورانلى - بورانلى قطار ركاب . غير ان القطار فى هذه المرة  
كان يسير فى الاتجاه المعاكس ، وتوقف لاجل قصير لا يزيد عن  
ثلاث دقائق .

وقف نفس هؤلاء الثلاثة الذين كانوا يرتدون جزما من الكروم  
منتظرين فى العتمة وصول القطار عند الخط الاول ، وهم



يجبون ابا طالب بظهورهم عن البورانيين الواقفين جانبا : ظريفة  
واطفالها وديغي واوق بالا ومدير المحطة آييلوف كان بينهم ،  
يتخطى جيئة وذهابا ويهرول في مذلة ، لأن القطار تاخر عن مواعده  
المقرر في جدول المواعيد بنصف ساعة . ما ذنبه هو ؟ ليس  
عليه الا ان يقف مكانه هادئا . بينما قازانغاب الذي تعرض  
ايضا للاستجواب بشأن الاساطير المنحوسة التي تم العثور عليها  
عند ابي طالب كان في ذلك الوقت في المحولة . وكان عليه ان  
يسير القطار بيده على ذلك الخط الذي ينبغي لهم ان يأخذوا  
عليه ابا طالب بعيدا عن ساروزيكي . وكانت بوكيه قد بقيت  
في البيت مع بنات ديغي .

كان هؤلاء الثلاثة في الجزم وذوو الياقات المرفوعة من الريح  
يفصلون ابا طالب بظهورهم ، صامتين صمتا مشوبا بالحذر .  
وكان الناس الذين يتركهم ابو طالب صامتين ايضا .  
ريح ثلجية هبت بحفيف وصغير يكاد لا يسمع . يبدو ان  
عاصفة ثلجية كانت تتأهب للبدء . فانتفخ الظلام البارد وتكاثف  
في سماء ساروزيكي الحالكة . وكان القمر عبارة عن بقعة وحيدة  
باهتة يضيء بمشقة ساكبا نورا غريبا حزينا باردا . والصقيع  
يخدد الخدود .

بكت ظريفة بصوت خافت ماسكة بيدها صرة فيها اكل  
وملابس كانت تريد تسليمها لزوجها . وكانت حلقات البخار من  
قم اوق بالا تنم عن تنهدات عميقة ثقيلة . وقد اخفت داول في  
طرف معطفها الفرائي . ويظهر ان هاجسا ما كان يخامر داول ،  
فلزم صمتا مشوبا بالقلق والتصق بالعمة اوق بالا . لكن اصعب  
ما كان في الامر تهدئة ايرميك الذي كان يديغي يحمله بين  
ذراعيه وهو يحميه بجسده من الريح . فهذا الصغير لم يكن  
يغامره اي هاجس فكان ينادى والده :

- بابيكا ، بابيكا ! تعال هنا ، الينا . نحن ايضا سنذهب  
معك !

كان ابو طالب يرتعش عند سماع صوته ويحاول ان يستدير  
بلا ارادة منه ويجيب على الطفل بشيء ما ، الا انهم لم يسمحوا له  
بالالتفات . احد هؤلاء الثلاثة لم يتحمل ، فقال :

- لا تقفوا هنا ! اتسمعون ؟ اذهبوا من هنا .

واضطروا الى التراجع .

لاحت من بعيد اضواء القاطرة ، فتملح الجميع وراوحوا في  
مكانهم . لم تتحمل ظريفة ، فانخرطت في النشيج . وبكست  
اوق بالا معها . كان القطار يجلب مع قدومه الفراق . وكان يخترق  
باضوائه الامامية الظلام الصقيعي الكثيف المغلق في الهواء  
وكانت الاضواء تقترب والقطار يتقدم من الضباب مثل كتلة قاتلة  
صاخبة مخيفة . مع اقتراب القطار كانت اضواؤه ترتفع اعلى فاعلى  
فوق الارض وتصبح الدوامة الثلجية اوضح فواضح بين خطوط  
السكة الحديد في شرائط الضوء ، وتعالى اكثر فاكثر ضجيج  
الكرانك والمكابس حاملا معه القلق المتزايد . وها هي معالم  
القطار قد اصبحت مرئية وواضحة .

- بابيكا ، بابيكا ! انظر القطار قادم ! - صاح ايرميك  
وسكت مصعوقا لعدم رد الاب عليه . وحاول من جديد ان يثير  
انتباهه . - بابيكا ، بابيكا !

ودنا مدير المحطة آييلوف المهول هنا وهناك مقتربا من  
اولئك الثلاثة وقال لهم :

- ستكون عربة البريد في مقدمة القطار . ارجوكم ان  
تنفضلوا نحو الامام . الى هناك .

وتحرك الجميع صوب الاتجاه المسمى اليه ، بخطى سريعة  
نوعا ما . وكان القطار قد لحق بهم . سار سنقرى العينين في  
المقدمة لا يتلفت حاملا مخفظته . ومشى مساعده الاثنان ذوا  
الاكتاف العريضة يرافقان ابا طالب في الخلف . وعلى مبعده  
خطوات حثت ظريفة الخطى في اثرهم ، تتبعها اوق بالا وهي تقود  
داول من يده . وسار يديغي في جانب الطريق متخلقا عنهم قليلا  
حاملا ايرميك على ذراعيه . ولم يكن يديغي يسمح لنفسه  
بالبكاء امام النساء والاطفال . وبينما كانوا يسيرون كان هو  
يصارع نفسه محاولا السيطرة على الغصة الثقيلة في حنجرتة .  
- انت ولد ذكي ، يا ايرميك ، انت ذكي اليس كذلك ؟  
انت ذكي ، ولن تبكي ، طيب ؟ - تمتم بكلام متشئت وهو يضم  
الطفل الى صدره .

وفي هذه الاثناء كان القطار يبطئ سيره مقتربا من المحطة  
وحين توارى القطار مع يديغي وايرميك وسبقهما قليلا وحين



نفثت القاطرة البخار وصفر الكمسارى صغيرا حادا ارتعش الطفل  
فى حضن يديغى مذعورا .

قال يديغى :

- لا تخف ، لا تخف شيئا عندما اكون معك . وسأكون معك  
دائما .

توقف القطار بصرير ثقيل وطويل ، وتوقفت العربات المتندية  
من الصقيع وغبار الثلج يزجاج نوافذها المغطاة بالجليد . وساد  
هدوء . بيد ان القاطرة سرعان ما نفثت البخار بأزيز متهيئة  
للانطلاق فى السير من جديد . كانت عربة البريد تلى عربة  
الحقائب بعد القاطرة . وكانت نوافذ عربة البريد مسدودة  
بقضبان مشبكة ، اما الباب ذو المضراعين فكان يقع فى الوسط .  
انفتح الباب من الداخل . واطل منه رجل وامرأة وهما فى قبعتي  
يريد رسميتين وبنطلونين قطنيين وقمصلتين مبطنتين . كانت  
المرأة بدينة وعريضة الصدر تحمل مصباحا ، يبدو انها كانت  
رئيسة فرقة العمال ، فقالت ماسكة المصباح فوق رأسها لكى  
تنور الجميع :

- انتم ؟ نحن بانتظاركم . المكان جاهز .

صعد سنقرى العينين حاملا محفظته الكبيرة فى الاول . واخذ  
مساعداه يستعجلان ابا طالب :

- هيا ، هيا لا تتأخر .

- سأعود قريبا ! لا بد ان هناك سوء فهم ! - تحدث ابو  
طالب بعجلة . - سأعود قريبا . انتظرونى .

اوق بالالا لم تتحمل ، فاجهشت بالبكاء عندما اخذ ابو طالب  
يودع الاطفال . فضمهما بكل ما اوتى من قوة الى صدره وقبلهما  
وقال لهما شيئا ما وهما مذعوران لا يفهمان شيئا . وكانت  
القاطرة تنفث البخار متهيئة للسير . وحدث كل هذا فى ضوء  
مصباح يدوى . وفى هذه الاثناء دوى صغير حاد يجرح القلب  
متراكضا على طول القطار مثل شرارة كهربائية .

- كفى ، هيا اصعد ! - جر الاثنان ابا طالب الى سلم  
العربة .

ولحق يديغى وابو طالب فى آخر الامر ان يحتضنا بعضهما  
بعضا بقوة ، وتجمدا على هذه الحال المحظتات مدركين كل شىء

بعقلبيها وقلبيهما ، وكل كيانيهما ، حين ضم احدهما خده المبللة  
بالدموع خشنة اللحية على خد الآخر .

- حدثهم عن البحر - همس ابو طالب .

وتلك كانت كلماته الاخيرة . فهم يديغى ، ان الاب طلب منه  
ان يحدث ابناؤه عن بحر ارال .

وفرقهما المساعدان :

- كفاكما ، هيا ، هيا اصعد بسرعة !

ودفعا ابا طالب الى العربة وهما يستندان باكتافهما من  
الخلف وفى هذه الاثناء فقط بلغ مدارك الاولاد الجوهر الفطيع  
للغراق . فبكيا بكاء عاليا وصرخا .

- بابيكا ! بابا ! بابيكا ، بابا !

وانطلق يديغى حاملا ايرميك صوب العربة .

- الى اين ؟ الى اين ؟ ماذا تفعل ! - دفعته المرأة حاملة  
المصباح من صدره بغضب ، حاجبة مدخل الباب بكتفيها  
العريضين .

بيد ان احدا لم يفهم فى تلك اللحظة ان يديغى كان  
مستعدا ، ما دامت الامور قد سارت على هذا النحو للسفر بدلا  
من ابنى طالب لكى يخنق بيديه فى الطريق ذى العينين  
السنقرتين ، لانه احس بالالم لا يطاق حين صرخ الاولاد .

- لا تقفوا هنا ! اذهبوا من هنا ، اذهبوا ! - صرخت المرأة  
حاملة المصباح . وانطلق البخار من فمها مشبعا برائحة التبغ  
والبصل القوية الى وجه يديغى .  
تذكرت ظريفة الصرة .

- هاك ، سلميه له ، هذا اكل ! - ورمت الصرة فى  
العربة . وصفتت باب عربة البريد . ولف الصمت كل شىء .  
اطلقت القاطرة صغيرا وتحركت . واخذت عجلاتها تدور بصرير  
مسرعة سيرها فى الصقيع شيئا فشيئا .

وسار المودعون لاراديا وراء القطار المغادر ، الى جانب  
عربة مسدودة سدا محكما . وكانت اوق بالالا اول من تاب الى  
رشدته . فامسكت بظريفة وضمتها الى صدرها ولم تخل سبيلها .

- داول ، لا تذهب ! قف ، قف هنا ! امسك بيد ماما ! -



أمرته اوق بالابا بصوت يفوق في قوته ضجيج الطلقات المتسارعة للمعجلات .

اما يديغي فظل يركض باتجاه سير القطار وهو يحمل ايرميك ، ولم يتوقف الا عندما مرت من امامه خطفا العربية الاخيرة . وغادر القطار آخذا معه الضجيج والعجيج المتخافت لحركته والاضواء المتوردة الغابية . . . وتناهى الى السمع آخر صغير ممدود . . .

مال يديغي الى الخلف ، ولم يتمكن من تهدئة الطفل الباكي فترة طويلة . . .

في البيت حين كان يديغي جالسا كالمصعوق عند المدفأة ، تذكر في عمق الليل ، آييلوف . فنهض بهدوء وارتنى ملابسسه . فخمنت اوق بالابا مقصده راسا .

- الى اين ؟ - أمسكت زوجها . - لا تمسه ، لا تتجرا ان تمسه بيدك ! زوجته حامل . ثم ليس لك حق . كيف تثبت ؟  
- لا تقلقي . - اجاب يديغي بهدوء . - لن أمسه ، لكن ينبغي له ان يعرف انه من الافضل له ان يغادر الى مكان آخر . اعدك بان لا تسقط من راسه شعرة . صدقيني ! - وانتزع يده وخرج من البيت .

كانت نوافذ بيت آييلوف مضاءة . يعني ، انهم غير نيام . تقدم يديغي من الباب عبر الدرب والتلج يصر تحت اقدامه ، ثم طرق طرقات قوية . فتح آييلوف الباب .

- ها ، يديغي ، تفضل تفضل . - قال آييلوف خائفا وتراجع الى الورا شاحبا .

ودخل يديغي صامتا ترافقه غيوم من الضباب . توقف على العتبة وسد الباب وراه .

- لماذا يتنمت هؤلاء المساكين ؟ - قال يديغي محاولا ان يكون قدر الامكان متمالكا نفسه .

ركع آييلوف امامه ، وزحف على الارض ممسكا باطراف معطف يديغي .

- والله يا يديغي ، لست انا ! عسى ان لا تلد زوجتي ان كنت انا صاحب الفعلة ، - اقسام قسمه الرهيب وهو يلتفت نحو الزوجة العامل المتسمر من الخوف ، وتحدث بعجالة وارتابك : -

قسما بالله يا يديغي ، لست انسا ! كيف كنت سأتجرا على هذا ! انه ذلك المفتش ! تذكر . فهو كان يستقصي ويسأل عما يكتب ولماذا يكتب . انه هو ذلك المفتش ! كيف استطيع انا ! عسى زوجتي لا تلد ! حتى انني قبل قليل عند القطار لم اكن اعرف اين اوجه وجهتي ، كنت مستعدا ان اموت حتى لا ارى ! ذلك المفتش ظل يلح بأحاديثه واسئلته عن كل شيء . من اين لي ان اعرف . . . لو كنت اعرف . . . - قاطعه يديغي :

- طيب . انهض لتتحدث كالرجال . وامام زوجتك . وليكن التوفيق في عونها . لكنني انا جئت لغرض آخر ، حتى لو لم تكن انت مذنيا . اقول ، بالنسبة لك ، سواء اين تعيش . اما نحن ، فنبقى هنا ، ولربما ، طول الحياة ، وعلى هذا عليك ان تفكر . اعتقد ينبغي لك ان تجد عملا في مكان آخر . هذه نصيحتي لك . وعلى ان لا نعود لهذا الحديث ابدا . هذا كل ما اردت ان اقوله ، لا غير . . . - وخرج يديغي سادا الباب وراه .

## الفصل التاسع

كان النهار قد انتصف منذ امد في المحيط الهادي ، الى الجنوب من جزر الوشن . والعاصفة ايضا ظلت تهب بنصف قوتها كالسابق ، والامواج هي الاخرى كذلك راحت تتدحرج افواجا افواجا فوارة تتبع بعضها البعض على طول المسافات المرنية ، مشكلة مساحة واسعة الارزاء لحركة الماء من الافق الى الافق . وكانت حاملة الطائرات «كونفينتسيا» تتمايل قليلا فوق الامواج ، وتقف في مكانها السابق في نقطة تنتصف المسافة بين سان فرنسيسكو وفلاديفوستوك . وكانت جميع الاقسام في السفينة المعدة لتنفيذ البرنامج . العلمي الدولي في حالة من التوتر وعلى استعداد تام لتأدية ما يطلب منها ، وحتى ذلك الوقت كان قد انتهى على متن حاملة الطائرات الاجتماع الطارى للجنيتين المخولتين بالمهمة الخاصة بالتحقيق في الوضع غير العادي الناجم بنتيجة الكشف عن حضارة لارضية في منظومة «الحامل» .



وكان رائدا الفضاء المتكافئان ٢-١ و ١-٢ اللذان غادرا سفينتهما الفضائية بدون اى اذن برفقة سكان كوكب غير ارضى لا يزالان فى كوكب الصدر الغابى ، وقد تم تحذيرهما من قبل اوبتسينوبير عبر الاتصالات اللاسلكية فى المحطة المدارية «باريتيت» بان لا يتخذا اية خطوة مهما كان الامر دون استلام اوامر خاصة من اوبتسينوبير .

وكانت هذه المطالب القطعية من اوبتسينوبير لا تعكس فى حقيقتها بلبلة العقول فحسب ، بل ذلك الوضع الاستثنائى المعقد والمتفاهم الى اقصى حد ، ذلك الهيجان فى اختلاف الاراء بالنسبة للطرفين مما يهدد بايقاف التعاون ، بل والاكثر من ذلك بالمجابهة المباشرة . وتراجع برنامج «ديسيورغ» ، الذى كان حتى وقت قريب يقرب الطرفين لصالح اكمال السطوة العلمية-التقنية للدولتين الاعظم ليشغل المقام الثانى من الاهمية ، وفقد راسا اهميته السابقة امام القضية فوق العادة التى برزت بفتحة باكتشاف حضارة غير ارضية . وكان اعضاء اللجنتين يدركون بجلاء امرا واحدا ، الا وهو ان هذا الاكتشاف الذى لا سابقة له ، كان امتحانا جنريا لاسس الاسرة الدولية المعاصرة ، كان امتحانا لكل شىء مما كانت تروج له الدعاية ويجرى ترسيخه فى اذهان الناس ، من قرن الى قرن ، كان امتحانا لمبادئ الحياة كلها جملة وتفصيلا . مَنْ كان يتجاسر على مثل هذه الخطوة الخطيرة ، ناهيك عن التصورات الشاملة لامن الكرة الارضية !

وفى حل هذه القضية كما يحدث عادة فى اللحظات الحرجة من التاريخ اميط اللثام عن التناقضات الجذرية للنظامين الاجتماعيين السياسيين المختلفين على الارض .

وانقلبت مناقشة الموضوع الى مناظرة حادة ، واتخذ التفاوت فى وجهات النظر والاختلاف فى طرق معالجة الموضوع اكثر فاكثر طابع المواقف الحازمة غير القابلة للمهادنة . وسارت الامور بسرعة جامحة نحو التصادم وتبادل التهديدات ، نحو تلك النزاعات التى كان ممكنا ، فى حالة خروجها من تحت السيطرة ، ان تؤدى حتما الى وقوع حرب عالمية . ولهذا فان كل جانب كان يحاول تجنب التطرف ازاء الاخطار الشاملة المحدقة لمثل هذا

النوع من تطور الاحداث بيد ان العامل الاكبر للردع كان عدم الرغبة ، او بتعبير ادق الخوف من انفجار الوعي البشرى الذى كان من الممكن ان يحدث عفويا فيما لو اصبح خبر اكتشاف حضارة غير ارضية حقيقة معروفة . . . ولم يكن فى امكان احد ان يضمن عواقب مثل هذا المجرى للامور . . .

واخيرا رجحت كفة العقل ، وتوصل الطرفان الى حل وسط ، اضطررا القبول به على نفس اسس الموازنة الدقيقة . وبهذه المناسبة ارسل اوبتسينوبير الى المحطة المدارية «باريتيت» برقية لاسلكية مشفرة بالمضمون الآتى :

«الى رائدى الفضاء المراقبين ٢-١ و ١-٢ . ويتحتم عليكما ان تجريا اتصالا لاسلكيا عاجلا بمساعدة انظمة الارسال العاملة على متن «باريتيت» مع رائدى الفضاء المتكافئين ٢-١ و ١-٢ الموجودين خارج المجرة الشمسية ، فى ما يسمى بمنظومة «الحامل» ، على كوكب الصدر الغابى . من الضرورى ان تحيطاهما علما على الفور ، بانه وفق الاتفاقية الموقعة من اللجنتين اللتين درستا المعلومات الواردة عن الحضارة اللاارضية التى اكتشفها رائدا الفضاء المتكافئان ٢-١ و ١-٢ اتخذ الاوبتسينوبير قرارا غير قابل لاعادة النظر ، ويتلخص فيما يلى :

(ا) عدم السماح بعودة رائدى الفضاء المتكافئين السابقين ٢-١ و ١-٢ الى المحطة المدارية «باريتيت» ، وكذلك الى الارض باعتبارهما من الشخصيات غير المرغوب فيها فى الحضارة الارضية .

(ب) اشعار سكان الكوكب المسمى بالصدر الغابى عن رفضنا للدخول معهم فى اى نوع من انواع العلاقات بسبب منافاة ذلك للخبرة التاريخية والمصالح الحيوية ، وخصوصيات التطور العالى للمجتمع البشرى على الارض .

(ج) تحذير رائدى الفضاء المتكافئين السابقين ٢-١ و ١-٢ وكذلك سكنة الكوكب الآخر ذوى الصلة بهما من مغبة القيام بمحاولة للاتصال بسكان الارض ، ولا سيما التسلسل الى المجال الجوى القريب من الارض ، مثلما حدث عند زيارة سكان الكوكب الآخر للمحطة المدارية «باريتيت» فى مدار «ترامبلين» .

(د) لغرض عزل المجال الجوى القريب من الارض عن احتمال



دخول الاجهزة الطائرة لسكان الكواكب الاخرى يعلن اوبتسينوبور انشاء النظام الفضائي الاستثنائي الشامل بصورة عاجلة وتحت عنوان عملية «اوبروتش» مبرمجا سلسلة من التحقيقات لصوارينغ روبوتات فى المدارات المقررة بغية القضاء بالاشعاعات النووية الليزرية على الاجهزة او الاجرام التى تقترب الى الفضاء الكونى من الكرة الارضية .

هـ) ابلاغ رائدى الفضاء المتكافئين السابقين اللذين اجريا بلا اذن اتصالات مع مخلوقات من كوكب آخر انه لاغراض الامن والحفاظ على استقرار التركيب الجغرافى السياسى المتشكسل لسكان الارض تستثنى امكانية عقد اية صلات معها . بعد ذلك ستتخذ جميع الاجراءات التى تؤدى الى الكتمان الشديد للاحداث الواقعة واجراءات اخرى تحول دون تجديد اقامة الصلات . ولهذا الغرض يتم فورا تغيير مدار المحطة المدارية «باريتيت» . اما قنوات الاتصالات اللاسلكية فستنظم وفق شفرات اخرى جديدة . (و) تحذير سكان الكوكب الاخر مرة ثانية من خطورة الاقتراب من مناطق «اوبروتش» حول الكرة الارضية .

اوبتسينوبور . متن حاملة الطائرات «كونفينتسيا» .

بعد التجا اوبتسينوبور الى هذه الاجراءات الوقائية اصبح مضطرا لتجميد برنامج «ديميورغ» باكملة فى غزو كوكب اكس لفترة غير محددة . وكان عليه ان يحول المحطة المدارية «باريتيت» الى بارامترات تدوير اخرى واستخدامها للمراقبة الفضائية الجارية . واتخذ قرارا بتسليم حاملة الطائرات «كونفينتسيا» المشتركة والمتخصصة فى الابحاث العلمية الى فنلندا المحايدة لحفظها . بعد اطلاق نظام «اوبروتش» الى الفضاء النائى تعين على جميع المسؤولين المتكافئين وجميع العاملين فى المجالات الادارية والعلمية وجميع المستخدمين المساعدين ان يكفوا عن عملهم ويقطعوا على انفسهم تعهدات صارمة بعدم البوح حتى الموت باسباب تجميد نشاط اوبتسينوبور .

وكان يفترض ان يعلن للاوساط الاجتماعية الواسعة ان عمل برنامج «ديميورغ» يتوقف لفترة غير محددة لضرورات القيام بابحاث شاملة واصلاحات كلية على كوكب اكس .

لقد تم ترتيب كل شىء بعد دراسة عميقة ، وتوجب ان يتم

هذا كله مباشرة بعد اطلاق «اوبروتش» العاجل حول الكرة الارضية .

قبل ذلك ، وبعد انتهاء الاجتماع المشترك للجنة مباشرة تم اتلاف جميع الوثائق والشفرات وجميع المعلومات المرسله من قبل رائدى الفضاء المتكافئين السابقين ، وجميع المحاضر والافلام والاوراق التى كان لها علاقة من قريب او بعيد بهذه القصة المؤسفة .

كان الوقت فى المحيط الهادى ، الى الجنوب من جزر ألوشن يميل الى الغروب . والجو كان على حاله ايضا مقبولا نسبيا . لكن مع ذلك كان يزداد اضطراب المحيط . واصبح هدير الامواج الفوازة مسموعا فى كل مكان .

كانت مصلحة الطيران فى حاملة الطائرات تترقب بتوتر لحظة انقراض الاجتماع وخروج اعضاء اللجنتين المخولتين بمسؤوليات فوق العادة وتوجههم نحو الطائرتين المنتظرتين . وما هم قد خرجوا جميعهم وتوادعوا . توجه نصفهم صوب الطائرة الاولى ، بينما توجه النصف الثانى صوب الطائرة الثانية .

تم الاقلاع على اروع ما يكون ، بغض النظر عن الاهتزاز ، وتوجهت احدى الطائرتين الى سان فرنسيسكو والاخرى نحو الجهة المعاكسة ، الى فلاديفوستوك .

وحامت الارض حول نفسها فى دوراتها الابدى متفوححة بالرياح الهابة . حامت الارض . . . وهى تشبه ذرة رملية صغيرة فى الكون اللانهائى . ان مثل هذه الاحجار فى العالم كانت لا تعد ولا تحصى . ولكن على هذه الذرة الرملية ، على كوكب الارض وحدها ، عاش البشر . عاشوا كيفما استطاعوا وحسب امكانهم ، واحيانا يهيجهم الفضول فيحاولون ان يجتثوا لانفسهم ان كان يعيش فى كواكب اخرى مخلوقات من امثالهم . فراحوا يتناقشون ويبنون الفرضيات وينزلون على القمر ويرسلون الاجهزة المؤتمتة الى الاجرام السماوية الاخرى . وفى كل مرة يتحققون بمرارة انه لا وجود لاحد ولاى شىء شبيه بهم ، ولا اية حياة عموما فى اطراف المنظومة الشمسية . ثم ينسون هذا ، لكثرة اشغالهم ، ولصعوبة التوافق فيما بينهم ، ثم كان عليهم ان يعملوا للحصول على قوت



العيش وخبز الكفاف . . . كما ان الكثيرين منهم كانوا يعتبرون ان لا شأن لهم بهذه القضية وحامت الارض في الكون في دوراتها الابدى . . .

كان كانون الثانى ، ذلك الشهر كله ، شديد الصقيع ومظلمًا . من اين جاء هذا القدر من البرد القارس الى ساروزيكى ! وسارت القطارات مغطاة بطبقة بيضاء من الزمهيرير الجليدى . وكان من المستغرب رؤية سلسلة من صهاريج النفط السوداء متوقفة في محطة المفرق وهي بيضاء تماما ملفعة بالثلوج . وكذلك لم يكن سهلا على القطارات ان تتحرك من اماكن وقوفها . فكانت القطارات المقنطرة ازواجا تتحرك ساحبة العربات برجات طويلة وكانها كانت تنتزع العجلات الملتصقة بالقضبان . كان يُسمع صليل العربات المقتلعة الحاد نتيجة الجهود المبذولة من القطارات بعيدا في اطراف المنطقة ، حتى ان اطفال البورانيين كانوا يستفيقون مذعورين من هذه الفرقعات .

وفي هذه الفترة تراكمت الثلوج على الخطوط . فزادت في الطين بلة . ثم اخذت الرياح تشتد ، ووجدت في ساروزيكى متسعا ومجالا رحبا من المساحة لها ، فلا يدري المرء من اي طرف تهب الاعاصير . وخيل للبورانيين ان الرياح تسعسى جهدها في تكديس اكوام الثلج على قضبان السكك الحديدى بالذات .

وانشغل يديغي وقازانغاب وثلاثة اخرون من عمال السكك في تنظيف القضبان ضمن المسافة الواقعة بين محطتين من الثلج وكانوا تارة يعملون في هذا الجزء وتارة في ذلك ، ثم يعودون الى نفس المكان . وكان اللوح المركب بالعرض يجره بعيران يساعدهم في العمل ، اذ كانوا يزحون الطبقة الثقيلة العليا من الثلوج بواسطة عن السكة الى جانبى الطريق . اما الباقي فكانوا ينقلونه بالايدي . ولم يراف يديغي بحال قره نار ، وكان مسرورا لتوفر الامكانية لانهاكه واخمد روحه الجامعة ، فقرنه مع بعير آخر يساويه ويعادله بالقوة واخذ يحثهما بالسوط ناقلا الثلج بواسطة هذا اللوح وهو واقف على طرف اللوح الثانى

المثبت بالاول ليثقل الوزن . لم يكن ثمة اجهزة ملائمة اخرى في ذلك الوقت . كان يقال ان المعامل انتجت مكائن خاصة لتنظيف السكك من الثلج ، قاطرات تدفع ركم الثلج نحو الجانبين . وقطعت الوعود بارسالها في القريب العاجل ، بيد ان تلك الوعود ظلت حبرا على ورق .

اذا كانت الدنيا تصلي في الصيف حتى الجنون ، فانه من الصعب ، بل ومن المفزع الآن فيها استنشاق الهواء الصقيعى ، حتى بدا ان الرئتين تكادان تتمزقان ومع ذلك سارت القطارات وتطلبت الاعمال التنفيذ . فطالت لحية يديغي المرسله التى بدأ لأول مرة في ذلك الشتاء يظهر فيها وخط الشيب هنا وهناك وانتفخت عيناه من قلة النوم ، اما وجهه فأصبح التحديق فيه فى المرأة مقرفا ، فقد اصبح مثل الحديد الزهر . وكان لا ينزع معطفه الفرائى القصير ويرتدى دائما فوقه ممطرا من المشمع ذى قطنسوة ، ويحتذى جزمة من اللباد .

لكن ابان اى عمل كان يؤديه يديغي ، ومهما كان يعانى من مشقات ، لم تكن تفارق ذاكرته ابدا حكاية ابي طالب قطبايف فقد هزت نفسه هزا مؤلما وغالبا ما كان هو وقازانغاب يقلبان الامور على مختلف اوجهها : كيف وقع هذا كله وماذا ستكون نهايته . كان قازانغاب يزداد صمتا ، ويقطب ، ويفكر متوترا بشئ ما خاص به . لكنه ذات مرة قال :

- هذا ما كان دائما ، معالجة القضية تتطلب الوقت ، اذ ليس سدى ان قيل فى القدم : «الخان ليس لها وهو ليس دائما يعرف ما يفعله افراد حاشيته ، وهم لا يعرفون من الذى يبتز الاموال فى السوق .» هذا ما كان دائما .

- ما هذا الكلام ! يا لك من حكيم ! - سخر منه يديغي بعدم رضا - لقد طردنا الخانات من زمان ، وهل القضية تكمن فى هذا ؟

- اين تكمن اذن ؟ - سأل قازانغاب سؤالا معقولا .  
- اين ، اين ! - غمغم يديغي مستاءا ، لكنه لم يجب . وظل هذا السؤال مستعصيا عليه ، دون ان يجد له جوابا . من القول المأثور ان المصيبة لا تأتى بمفردها . فقد استبرد داوول ، ابن قطبايف الاكبر ، ومرض . وسقط فى فراشه يعانى



من الحمى والتهديان ويسعل ويعانى آلام الحنجرة . قالت ظريفة  
انه اصيب بالتهاب اللوزتين . وعالجته بشتى اقراص الدواء ،  
لكنها لم تستطع ان تلازم الاطفال على الدوام ، ذلك انها كانت  
تعمل معوالة لتوفر متطلبات المعيشة . وكانت تذهب الى الخفارة  
تارة فى النهار واخرى فى الليل . واضطرت اوقبالا ان تتولى على  
عاقها هذه الاهتمامات . فكان لديها طفلتان ، ولظريفة ولدان ،  
هكذا اخذت تدبر شؤون اربعة اطفال مدركة اى وضع صعب ،  
لا مخرج له ، تعيش فيه عائلة ابي طالب . ويديغى ايضا كان  
يساعدها قدر استطاعته . فى الصباح الباكر كان يزود بيتهم  
الخشبي بالفحم من السقيفة الصغيرة ، واذا ما لحق اوقد  
المدفأة ، ذلك الفحم الحجري يتطلب معرفة وحذقة فى الايقاد .  
فكان يسكب فى المدفأة سطلا ونصف سطل من الفحم لكى يبقى  
البيت دافئا طول اليوم للاطفال . وهو ايضا كان يجلب الماء من  
الصهريج الواقف فى الخط المسدود ، ويقطع الحطب لاشعال  
النار . اذ ان القيام بذلك كله لم يكن يكلفه شيئا . . . بيد  
ان الصعوبة كانت تنحصر فى امر آخر ، الا وهو تعذر النظر فى  
عيون اطفال ابي طالب والاجابة عن اسئلتهم ، والالم الذى كان  
يعانيه من جراء ذلك . الاكبر يرقد مريضا ، وكان بطبيعته  
متماسكا للنفس بعض الشئ . الا ان الاصغر ايرميك كان يشبه  
امه ، فهو حيوى ونشيط وحنون وحساس جدا ، وكان التعامل  
معه صعبا . عندما كان يديغى يجلب الفحم فى الصباح ويوقد  
المدفأة كان يحاول الا يوقظ الاولاد . بيد انه نادرا ما كان  
يتوقف فى مفادرة البيت دون ان يلاحظه . اذ كان ايرميك ذو  
الشعر الاسود المجعد يلحظه مباشرة . وكان سؤاله الاول ما  
ان يستيقظ :

- يا عم يديغى ، هل يأتى بابا اليوم ؟

وكان الولد يهرع اليه بملابسه الداخلية ، حافيا والامل لا  
يفارق عينيه ، وكان اباها سيرجع ما ان يقول يديغى «نعم»  
وسيكون معهم فى البيت من جديد . كان يديغى يتلقفه فسى  
حضنه ، ويتحسس جسده التحيل الدافى . ويضعه من جديد فى  
فراشه ، ويتحدث معه كما لو كان من الكبار :

- اليوم ، لا ادري يا ايرميك ، هل سيأتى والدك ام لا ،

لكن ينبغي ان يخبرونا من المحطة بالهاتف باى قطار سيعود ،  
ذلك ان قطارات الركاب لا تتوقف عندنا ، وانت تعرف هذا .  
ولا تتوقف الا بأمر من رئيس قسم الحركة على الخطوط . واعتقد  
انه يجب ان يصلنا الخبر بشأنه فى الايام القريبة القادمة .  
عندئذ سنذهب انا وانت وداول فيما اذا تعافى حتى ذلك الوقت  
الى القطار لاستقباله .

- سنقول ، يا بابيكا ، ما قد جنناك !

- بالطبع ! هذا ما سنقول - ايده يديغى بلهجة متشجعة .

غير انه ليس سهلا خداع ولد حصيف .

- يا عم يديغى ، تعال كما فى المرة السابقة نجلس فسى

قطار حمولات ونذهب الى مدير قسم الحركة نفسه ونطلب اليه  
ان يوقف عندنا القطار الذى سيأتى فيه بابيكا .

واضطر يديغى ان يتملص .

فى تلك المرة كان الوقت صيفا والدنيا دافئة . اما الآن فمن

غير الممكن السفر فى قطار حمولات . الجو شديد البرودة  
والرياح عاتية . اترى كيف تجمدت النافذة . لن يكون فى وسعنا  
الوصول الى هناك ، سنتجمد فى الطريق مثل قطعة جليد . كلا ،  
ان هذا لخطر جدا .

ولزم الولد الصمت بحزن .

- ارقد انت الآن ، اما انا فالقى نظرة الى داوول - وجد

يديغى عذرا وتقدم من فراش المريض ووضع يده الثقيلة  
المجعدة على جبين الولد الحار . . . وكان ذاك يفتح عينيه بصعوبة  
ويبتسم ابتسامة ضعيفة بشفتيه المصطليتين من الحرارة .  
وكانت حرارته لا تزال مرتفعة .

- لا تزح اللحاف عنك . انت متعرق . اتسمعنى يا

داوول ؟ ستستبرد اكثر . وانت يا ايرميك اجلب له  
القصرية عندما يريد ان يبول . اتسمعنى ؟ لنلا يتحرك  
من فراشه . قريبا ستأتى والدتكما من الخفارة . اما  
العمة اوقبالا فستأتى الآن لاطعامكما . وعندما يتعافى داوول  
ستأتيان الى عندنا وتلعبان مع ساوولا وشرابات . لقد حان وقت  
ذهابى الى العمل ، والا فان القطارات ستتوقف لان الثلج غزير -



قال يديغي للولدين قبل مغادرته .

لكن ايرميك كان لا يلدن ، فقال ليديغي عندما بلغ هذا  
الاخير العتبة :

- يا عم يديغي ، اذا كان الثلج غزيرا عند مجيء قطار  
بايكا ، ساذهب انا لتنظيف السكة من الثلج . فانا عندي رفش  
ايضا .

وخرج يديغي من بيتهم مثقل القلب ضيق الصدر . وشعر  
بالم ممض من الاساءة والعجز والحسرة . كان مفتاظا آنذاك من  
العالم كله . وافشى غيظه في الثلج والريح والعاصفة والجمال  
التي لم يراف بها ولم يشفق عليها في العمل ولم يرق لها قلبه  
وعمل بكل قوة ، وكأنه كان في وسعه ان يوقف لوحده جميع  
العواصف الثلجية في ساروزيكى . . .

وسارت الايام مثل قطرات متساقطة برتابة محتومة واحدة  
بعد اخرى . وما قد انقضى كانون الثانى وشرع البرد يتراجع  
قليلا . ولم تصل من ابي طالب قطبايف اية اخبار . وراح يديغي  
وقازانغاب يضربان اخماسا باسداس ويقلبان الامر على عوامنه  
وشتى وجوهه . وكانت جميع الافتراضات تشير الى انهم يجب  
ان يفرجوا عنه قريبا ، لانه لم يفعل امرا فظيحا ، ذلك انه كتب  
شيئا ما لنفسه وليس لاي انسان آخر . كانا يعيشان على هذا  
الامل ويوحيان به قدر استطاعتهما الى ظريفة لكي تصمد ولا  
تخور عزيمتها . وكانت هي نفسها تدرك ان عليها ان تكون  
بصلابة الحجر وجساوته من اجل الاطفال على الاقل . ولقد اصبحت  
بالفعل كالحجر . انطوت على نفسها ، وانغلقت عليها ولم تنبس  
بينت شفة . بيد ان عينيها راحتا تشعان بقلق ، من يدري كم  
من الوقت كانت ستتحمل الصمود .

كان يديغي البوراني ذات مرة فارغا من العمل . فقرر ان  
يتجول في البرية ليرى كيف يرعى ذود الابل ، والاهم كيف  
يتصرف قره نار . ألم يعرض بعيرا آخر في الذود ؟ وهل انتهى  
جنونه بعد انقضاء هذه المدة . وذهب متزحلقا على عصا  
الايسكى . كان الموقع غير بعيد . وعاد فسى الوقت المحدد  
وكان يستعد لاخبار قازانغاب بان كل شىء هناك على ما يرام ،  
وان الابل ترعى في الغابة فهناك لا يحس للثلج بوجود تقريبا

والريح تهب ، ولهذا فان عشب المراعى مكشوف ، ولا شىء  
يستدعى القلق . وآثر يديغي ان يعرج على البيت لوضع الايسكى  
فيه . فاطلت ابنته الكبرى ساولا من الباب مذعورة :

- بابا ، ماما تبكى ! - واختفت .

وضع يديغي الايسكى والقلق يخامره ، ثم ولج البيت  
مسرعا . كانت اوق بالا تبكى الى درجة جعلت نفس يديغي تشعر  
راسا بالضيق .

- ماذا ؟ ماذا حدث ؟

- اللعنة على كل شىء في هذا العالم - قالت اوق بالا وهي  
تندب وتبكي .

لم ير يديغي ابدا زوجته في مثل هذه الحال . كانت اوق  
بالا امرأة قوية النفس صافية الذهن .

- هذا انت ، انت المذنب في كل شىء !

- في ماذا ؟ في ماذا انا المذنب ؟ - اندهش يديغي .

- لفقت للولاد المساكين قصة طويلة . ومنذ فترة وجيزة  
توقف قطار ركاب لان قطارا آخر كان يتقدم على نفس الخط  
في الامام ليفسح له في المجال . ولا ادري من اين جاء الى  
مفرقتنا ؟ اما ولدا ابن طالب فما ان لمعا ان قطار الركاب قد  
توقف الا وهرعا صائحين : «بايكا ! بايكا ! جاء بايكا !»  
وتوجها نحو القطار . فلاحقتهما انا . كانا ينتقلان من امام عربة  
لاخرى وهما يناديان : «بايكا ، بايكا ، اين بايكا ؟» خشيت  
ان يدهسهما القطار . لم يفتح لهما اى من الابواب فظلا يواصلان  
الركض على طول القطار الطويل ، الى ان لحقتهما وامسكت  
بالصغير ، ومن ثم افلحت في امسك الثانى ، وفي هذه الاثناء  
تحرك القطار وغادر . بينما هما ينتفضان ويحاولان التملص  
والافلات من يدى : «بايكا هناك ، لم يلحق فى النزول من  
القطار !» وارتفع بكاء لا يحتمل . انخلع قلبى وظننت انسى  
ساجن بسبب بكائهما وصراخهما . ايرميك لا يزال فى حالة  
سيئة ! اذهب وهدى من روعه ! اذهب ! انت الذى قلت لهما  
ان اباصما سيرجع عندما يتوقف قطار الركاب فى مفرقتنا . لو  
انك رايت ماذا اصابهما حين غادر القطار ولم يطل منه والدهما !  
آه لو انك رايت ! لماذا رتب الامور على هذه الشاكلة فى



الحياة ؟ لماذا يتعلق الاب باطفاله والاطفال بابيهم بهذه القوة ؟  
لماذا كل هذه الآلام ؟

وذهب يديغي اليهما بشعور الذهاب الى مقصلة . وهو يسأل الله فقط ان يقبل رجاءه ويسامحه قبل الاعداء على هذا الخداع الاضطراري لهاتين النفسين البريئتين الصادقتين . ذلك انه لم يرد لهما سوءا . فماذا عليه ان يقول وكيف يجيب ؟

ومع ظهوره صرخ ايرميك وداول بعينيهم المغرورقتين بالدموع ووجهيهما المنتفخين المتغيرين ، بقوة جديدة محاولين ان يشرحا له منافسين احدهما الآخر ان القطار توقف فسي المفرق ، لكن الوالد لم يلحق في النزول منه ، وليعمل هو ، العم يديغي ، على ايقاف القطار . . .

- ساغينديم بايكا مدى ! \* ساغينديم ! - كان ايرميك يصرخ متوسلا اليه بكل هيئته وثقته وامله وحزنه .

- ساستعلم الآن عن كل شيء . هدوا ، هدوا ، لا تبكيا - حاول يديغي ان يفهم ويطمئن بشكل من الاشكال الولديين المنخرطين في البكاء . والاصعب من ذلك كان عليه هو ان يصمد وان يسيطر على نفسه وان يبقى وجهه هادئا لئلا يرى الاطفال فيه رجلا ضعيفا عاجزا - سنذهب الآن . سنذهب ! - الى اين نذهب ؟ الى اين ؟ عند من نذهب ؟ وماذا نعمل ؟ ما العمل ؟ - فكر هو اثنا ذلك - سنذهب الآن وهناك ن فكر ، ونحدث - وعدم يديغي بشيء غير محدد متمتما بكلام غير مترابط . وتقدم من ظريفة . كانت مستلقية على السرير بلا حراك دافئة راسها في المخدة .

- ظريفة ، ظريفة ! - وهزها يديغي من كتفيها ، الا انها لم تحرك ساكنا ولم تبد حراكا ولم تند عنها نائمة .

- سنذهب الآن لنتجول قليلا ، ومن ثم نخرج على بيتنا - قال لها - انتي آخذ الاولاد معي .

وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي كان بوسعه فعله لكي يهدي الاطفال ويصرفهم عن التفكير في ابيهم ويستجمع هو بنفسه افكاره . فحمل ايرميك على ظهره ، بينما امسك بيده

\* اشتقت لابي . (بالقاراخية في الاصل) . الناشر .

داول ، ومشوا بلا هدف مع امتداد السكة الحديد ، ولم يشعر يديغي ابدا في حياته بمثل هذه المعاناة لمصيبة الآخرين . كان ايرميك الجالس على ظهره لا يزال ينشج بالبكاء وينحب ويتأوه بمرارة على قفاه . لقد التصق به هذا المخلوق الصغير الذي اضناه الحنين وتعلق بكتفيه في ثقة تامة ، اما الثاني ، المخلوق المماثل ، فقد امسك هو الآخر بيده واثقا ، وفي تلك اللحظات كانت الرغبة تنازع يديغي في ان يصرخ من الألم والأسف عليهما .

مكذا ساروا مع امتداد السكة الحديد وسط صحراء ساروزيكي ، والقطارات وحدها كانت تمر بهم مزجرة تارة في هذا الاتجاه واخرى في ذلك . . . كانت القطارات تاتى وتذهب . . .

ومن جديد اضطر يديغي ان يكذب على الاطفال . وقال انهم اخطاوا ، وان هذا القطار الذي توقف صدفة في المفرق ذهب في اتجاه آخر اما والدهما فينبغي ان يأتى من اتجاه مغاير . لكنه قد يعود ليس قريبا جدا ، ويبدو انهم ارسلوه ليعمل بحارا في احد البحار النائية ، وما ان ترسو السفينة عائدة من رحلتها الطويلة الا ويعود مسرعا الى البيت . لا بد الآن من الانتظار . وحسب فهمه ان هذا الكذب ينبغى ان يساعدهما على الثبات فترة ومن ثم يصبح الكذب حقيقة . كان يديغي لا يشك بعودة ابي طالب قطبايف . سيمضى بعض الوقت ، ويبت في الامر فيعود . ولن يتأخر لحظة واحدة بعد ان يطلقوا سراحه . ان الاب الذي يحب اولاده لهذه الدرجة لن يماطل لحظة ولن يتأخر فسي العودة . . . ولهذا كان يديغي يكذب . . . وكان يديغي وهو الذي يعرف ابا طالب معرفة تامة وكافية يتصور حالة هذا الانسان في فراقه مع عائلته . ولو كان رجلا آخر ، فربما لما تالم او عانى مثل هذه المعاناة القاسية لهذا الفراق الموقت ، حتى وان لم يكن بارادته ، لكن يحدوه الأمل بانه سيرجع قريبا الى البيت . ولم يكن يخامر يديغي ادنى شك بان هذا الامر كان يعادل بالنسبة لابي طالب اقصى العقوبات . وكان يديغي يخاف عليه ، هل سيصمد ويحتمل الى ان يجرى التحقيق فسي قضيته . . .



والى ذلك الوقت كانت ظريفة قد ارسلت عدة رسائل الى الدوائر المسؤولة تستفسر فيها عن زوجها وتطلب اخبارها ان كان بإمكانها مواجهته ، ولم تستلم اى جواب حتى الآن . قازانغاب ويديغى ايضا اتعبا رأسيهما ، وكانا يميلان الى تلعيل ذلك برده الى عدم وجود اتصالات بريدية مباشرة فى بورانلى- بورانى . وكان لا بد من ارسال الرسائل عبر احد ما او ايصالها من قبل صاحبها الى محطة قمبيل ، واستلام البريد ايضا يتم عبر قمبيل وايضا بواسطة اصدقاء او معارف . . . ومثل هذه الطريقة فى الاتصال ليست دائما هى الطريقة الاسرع . وهذا ما حدث ذات مرة . . .

فى الايام الاخيرة من شباط سافر قازانغاب الى قمبيل لزيارة ابنه ثابت جان فى المدرسة الداخلية . وكان قد سافر على ظهر بعير . اذ ان الرحلة فى قطارات الحمولات شتاء تكون شديدة البرد ، لان الدخول فى العربات ممنوع ، والوقوف فى العربة المسطحة يعرض المرء الى رياح باردة غير محتملة . اما على ظهر البعير ، فالسفر ممكن اذا ارتدى المرء ملابس دافئة ، وقد يقطع الطريق ذهابا وايابا فى يوم واحد ويفلح فى تادية اشغاله فى البلدة .

عاد قازانغاب فى ذلك اليوم مع حلول المساء . واذ رآه يديغى مترجلا فكر انه منحرف المزاج وحزين جدا ، وظن ، ان ابنه قد عربد وثم انه قد تعب من الطريق .

صاح يديغى :

- كيف سفرتك ؟

- لا بأس ، - اجاب قازانغاب بصوت خفيض وهو منشغل بحمولته ، ثم تلفت وقال بعد مهلة : - هل ستبقى فى البيت ؟  
- نعم ، سابقى .  
- عندى شغل معك . سأمر عليك بعد قليل .  
- تفضل .

لم يتأخر قازانغاب ، وسرعان ما جاء برفقة زوجته بوكيه . كان هو يسير فى الامام وهى تتبعه . وكان كلاهما يبدو قلقا جدا ، علاوة على ذلك كانت علائم التعب تلوح على قازانغاب ، وهذا ما جعل رقبته تطول وكتفيه يتهدلان وشارباه يتدليان . وبوكيه

البدينة تتنفس لاهثة بصعوبة كان قلبها كان يخفق بشدة فلا تستطيع التنفس بصورة طبيعية .

- ماذا حدث ، ألم تتخاصما ؟ - قالت اوق بالا ضاحكة - هل جئتما لتتصالحا ؟ اجلسا اذن .  
- حبذا لو تتخاصما - قالت بوكيه بصوت متهدج وهى تلهث لهاثا متقطعا عسيرا .

وسال قازانغاب متلفتا فيما حواليه :

- واين بنتاكما ؟

- البنتان تلعبان عند ظريفة مع ولديها . - اجاب يديغى - ما شأنك بهما ؟

- عندى اخبار سيئة - قال قازانغاب محدقا فى يديغى وارق بالا . - الافضل ان لا يعرف الاطفال بها الآن . انها مصيبة كبرى . لقد توفي ابو طالب !

- ماذا تقول ؟ ! - وثب يديغى من مكانه ، اما اوق بالا فندت عنها صيحة وسدت فيها بكفها وصار لونها ابيض بلون الحائط .

- مات ! مات ! يا لاطفاله المساكين ! يا لهم من يتامى تعساء ! - نذبت بوكيه بصوت اجش وهامس قليلا .

- كيف مات ؟ - واقترب يديغى من قازانغاب منذر وهو غير مصدق للآن ما سمعه .

- وصلت ورقة بهذا الخصوص الى المحطة . ولاذ الجميع بالصمت فجأة دون ان ينظروا الى وجوه بعضهم البعض .

- يا للمصيبة ! يا للمصيبة ! - امسكت اوق بالا راسها بيديها واثت وهى تتمايل من جنب الى جنب . . .

- اين هذه الورقة ؟ - سال يديغى اخيرا .

- الورقة فى المحطة - شرع قازانغاب يتكلم - بعد ان زرت المدرسة الداخلية خطر ببالي ان اعرج على المخزن الذى يقع فى قاعة الانتظار بالمحطة ، اذ كانت بوكيه قد اوصتني بشراء الصابون . فما ان وصلت الباب حتى صادفت مدير المحطة تشيرونوف وجها لوجه . واذ تبادلنا التحية . . . وقد تعرفنا على بعضنا البعض منذ زمن ، قال لى : «ان لقاءنا فرصة مؤاتية ،



تعال الى المكتب ، ثمة رسالة تاخذها معك الى المرفق . وفتح باب مكتبه وولجناه كلانا . تناول من الطاولة مطروفا عليه حروف مطبوعة وقال : «هل كان ابو طالب قطبايف يعمل عندكم فسى المرفق ؟» قلت : «نعم عندنا ، وماذا حدث ؟» «لقد وصلت هذه الورقة منذ ثلاثة ايام وليس من احد لارسلها معه الى بوراني - بوراني ، خذها وسلمها لزوجته . انها تتضمن جوابا عسى استفسارها . لقد توفي ، كما كتب هنا» . وقال كلمة غير مفهومة بالنسبة لى : «توفي بالاحتشاء» فقلت له ، ما معنى الاحتشاء ، فاجاب : «يعنى بالجلطة القلبية» ارايت ماذا حدث : انفجر قلبه . مكثت جالسا فى مكانى مصعوقا . فى البدء لم اصدق ، فتناولت تلك الورقة بيدي . وقرات فيها : على مدير محطة قمبيل اشعار مرفق بوراني - بوراني بالجواب الرسمي الى المواطنين فلاتة بنت فلان جوابا على استفسارها والى آخره ، ان المحقق معه ابو طالب قطبايف كذا وكيت ، قد توفي بنوبة قلبية . هذا ما ورد فيها بالضبط . وبعد ان قرات الورقة نظرت اليه وانا لا ادري ماذا افعل . فقال تشيرنوف : «هذه هى القضية . خذ الورقة وسلمها لها» . وفتح يديه كمن لا حيلة له . قلت : لا ، هذا غير جائز عندنا . لا اريد ان اكون بشير سوء ! ان اطفاله لا يزالون صغارا فكيف أتجرا على تحطيم نفوسهم . قلت ، اننا نحن البورانليين سنتشاور فى الأمر بيننا هناك اولا ، ثم نتخذ قرارا . اما سيأتى احدنا خصيصا لاستلام هذه الورقة ونقلها كما يتوجب نقل مثل هذا الخبر الصاعق ، لان الميت انسان وليس عصفورا فى آخر الامر . او على الارجح ان زوجته ظريفة قطبايفا هى التى ستأتى وتستلم الورقة من يدك مباشرة . عند ذلك ستشرح لها بنفسك الموضوع وتحدثها كيف حدث ذلك كله . فقال لى : «الامر منوط بك ، وكيفما تشاء . لكن ليكن فى علمك ان لا شىء عندى اوضحه او اشرحه . وانا لا اعرف اية تفاصيل . مهمتى تقتصر على ايصال هذه الورقة الى العنوان وهذا هو كل ما فى الامر» . لكنى انا اعتذرت وقلت : فلتبقى الورقة عندك الآن . سأوصل الخبر شفويا وتشاور هناك فى الموضوع . فقال : «كما ترى وانت ادري» وبهذا خرجت من عنده ، ورحت طول الطريق اسرع بالبعير وقلبي يوجعنى : ماذا نعمل ؟ من منا تكفيه

الشجاعة لينقل اليهم مثل هذا الخبر ؟  
وسكت قازانغاب ، انحنى يديغى كثيرا كما لو ان جبلا جثم على كتفيه .  
- ماذا سيكون الآن ؟ - قال قازانغاب ، لكن احدا لم يحر جوابا .

هز يديغى راسه بأسى :  
- هذا ما كنت اتوقعه . لم يحتمل فراق اطفاله . وهذا ما كنت اخافه اكثر من أى شىء آخر . لم يصبر على الفراق . ان الحنين لشىء رهيب . ان ولديه يشتاقان له حتى ان المرء لا يقوى على النظر اليهما . لو كان انسانا آخر ، ولتفترض انهم حكموا عليه لاي سبب كان ، وحتى لو حكموا عليه لقضى سنة او سنتين ، او اية فترة اخرى فى السجن ومن ثم عاد الى بيته . اذ سبق له ان كان فى الاسر الالمانى ، وكم احتمل فى معسكرات الاعتقال ، ثم عانى ما عاناه فى قوات الانصار وحارب طيلة هذه السنوات فى مناطق غريبة ولم ينهزم ، هذا كله لانه كان آنذاك وحيدا ، سيد نفسه ، ولم يكن متزوجا ، اما الآن ، فقد انتزع من اعز شىء اليه ، من اطفاله ، وما قد وقعت الواقعة وحلست المصيبة . . .

أيده قازانغاب :  
- بلى ، اننى ايضا افكر على هذا النحو . لم اكن اصدق بان الانسان يمكن ان يموت من الفراق . والا فانه كان شابا وذكيا ومثقفا وكان قد انتظر الى ان يثبت بأمره ويطلق سراحه . ذلك انه لم يكن مذنبا بشىء . يبدو انه كان يفهم هذا بعقله ، لكن قلبه لم يحتمل . . .

ثم جلسوا فترة طويلة من الوقت يدرسون الوضع ، وارادوا ان يخلقوا طريقة يهيئون بها ذهن ظريفة لهذا الخبر ، لكن مهما فكروا وخمنوا فان كل الاراء كانت تلتقى فى نقطة واحدة ، وهى ان العائلة حرمت من الاب والاطفال تيموا وظريفة ترملت ، ولا شىء اكثر او اقل . ومع ذلك كان الاقتراح الاذكى من اوق بالا :

- لتستلم ظريفة بنفسها تلك الورقة فى المحطة ولتواجه هذه الصدمة هناك وليس هنا بين الاطفال . ولتقرر هناك ، فسى



المحطة ، وفي طريق عودتها ، حيث سيكون لها وقت كاف للتفكير ، كيف عليها ان تتصرف : اينبغي ان يعلم الاطفال بذلك ام لا داعى اليه الآن . وربما ستقرر الانتظار الى ان يكبرا قليلا وينسيا اباهما ولو قليلا ، من الصعب البت في هذا . . .  
فايدها يديغي :

- كلامك صحيح . هي ام ، ولتقرر بنفسها ان كانت ستخبرهما بموت والدهما ام لا . انا شخصيا لا استطيع . . . -  
واستعصى الكلام على يديغي ، فلم يطاوعه لسانه ، وسعل لكي يخفف من القصة المطبقة على حنجرتة .  
واضافت اوقبالا عندما توصلوا الى رأى موحد :

- ينبغي عليك يا قازانغاب ان تخبر ظريفة ان ثمة رسالة موجهة اليها موجودة عند مدير المحطة . على اساس انها تتضمن اجوبة عن استفساراتها . وطلب حضورها شخصيا ، باعتبار ان ذلك لا بد منه - واستطردت اوقبالا - ثانيا ، لا يجوز ذهاب ظريفة لوحدها في مثل هذا اليوم . اذ ليس لهم هنا اقارب او اهل . من الافطع على المرء ان يواجه الحزن وحيدا . انت يا يديغي اذهب معها وكن الى جانبها في تلك الساعة . قد يحدث كل شىء في هذا المصاب الجلل . قل انه يتوجب عليك ايضا الذهاب الى المحطة لقضاء بعض الاشغال واصطحبها معك . اما الاطفال فليبقوا عندنا .

ايد يديغي حجج زوجته :

- طيب ، غدا اخبر آييلوف ان الامر يتطلب اخذ ظريفة الى المستشفى في المحطة . فليوقف قطارا عابرا للحظة .  
هذا ما اتفقوا عليه ، ولكن لم يوفق يديغي وظريفة فسى السفر الى قمبيل الا بعد يومين ، وفي قطار عابر توقف على الخط بطلب من مدير المرفق . كان ذلك في الخامس من اذار . ويديغي اليوراني يحفظ ذلك اليوم في ذاكرته الى الابد .

استقلا عربة عمومية ، كان يسافر فيها جمع غفير من الناس برفقة عوائلهم واطفالهم وامتعة الطريق المعهودة ، ورائحة العرق البيتي ، والسير المضطرب في العربة ، ولعب الورق الى حد الانبهاث واعترافات النساء لبعضهن البعض عن المعيشة الصعبة ، وعن ادمان الرجال على الخمر ، وعن الطلاق والزواج والدفن . . .

كان الناس يرتحلون الى مكان بعيد ترافقهم جميع مستلزمات حياتهم اليومية . . .

وانضمت ظريفة بصاحبها يديغي اليوراني الى هؤلاء لفترة قصيرة بمصيبتها واساها .

بالطبع كانت ظريفة على غير عاداتها ، صامتة طول الطريق تفكر متجمة ، ربما ، بالاجوبة التي تنتظرها عند مدير المحطة . ويديغي ايضا كان اكثر الوقت ملتزما بالصمت .

ثمة اناس في العالم مرهفو الاحساس ورؤوفون ، يلاحظون من النظرة الاولى ما في نفس الانسان . حين نهضت ظريفة من مكانها وسارت في العربة متوجهة نحو مدخلها لتقف عند النافذة قالت عجوز روسية جالسة على المقعد مقابل يديغي متطلعة بعينيها الطيبتين الزرقاوين في زمن ما ، والباعتين حالييا من الكبير :

- هل ان زوجتك مريضة يا ولدي ؟

انتفض يديغي في مكانه .

- انها ليست زوجتي ، بل اختي يا امي . اننى اصاحبها الآن الى المستشفى .

- اراها تتالم كثيرا . وهي في حال سيئة جدا . عيناها داجتان من المصائب . وترتاب في اعماقها . ترتاب ان يكتشفوا فيها مرضا خطيرا . آه من عيشتنا ، ما اصعبها ! فان لم يولد المرء لن يرى نور الحياة ، وان ولد يكذب ويشقى . هكذا هي الحياة . ابعد الله عنها كل مكروه ، لا تزال شابة ، وستتعافى -  
قالت العجوز مدركة بشكل من الاشكال القلق والاسى اللذين كانا يتملكان ظريفة اقوى فاقوى مع الاقتراب من المحطة . تستغرق الرحلة الى قمبيل ساعة ونصف ساعة تقريبا . وكان سواها على مسافرى القطار باية مناطق يمرون في ذلك اليوم اذ لم يسألوا الا عن المحطة القادمة . اما صحارى ساروزيكي العظيمة فكانت راقدة تحت الثلج ، في عالم حليبي غير متناه من الرحاب الفقراء ، لكن ، كانت ثمة تباشير على تفهقر الشتاء ، تلوح هنا وهناك ، اذ اسودت بعض البقع الجرداء على السفوح ، ونزت الحواف المتعرجة للجروف ، وبانت بقع من الارض على الروابي الصغيرة ، وشرع الثلج في كل مكان يقل من الرطوبة والريح



الندية المذوبة للثلوج التي تستفيق في السهوب مع حلول آذار . بيد ان الشمس كانت لا تزال منزوية وراء سحب منخفضة كثيفة ، معتمة ومنذرة بهطول المطر حتى من مظهرها . ومع ذلك كان الشتاء لا يزال مكينا ومتمكنا وبدا ان في وسع الثلج الندي ان يتساقط ، وحتى الزوينة ايضا ان تهب كمسك الختام . . . .  
ويديغي المتطلع الى النافذة بين الحين والآخر مكث في مكانه مقابل العجوز الحنون ، التي نادرا ما كان يتحدث معها . لكنه لم يشأ ان يقترب من ظريفة . فأرتأى ان يتركها لوحدها ، تقف عند نافذة العربة تتأمل وضعها . ولعل حاجسا سيوحى لها بأمر ما . وقد تتذكر تلك الرحلة في بداية الخريف من العام الفائت عندما استقلت العائلتان معا برفقة الاطفال قطار حمولات وسافروا جميعا الى قبيل لجلب البطيخ والشعاع في جو من البهجة والمرح ، وكانت الرحلة للاطفال عيدا لا ينسى . ويخيل احيانا ان ذلك قد حدث بالامس القريب . وكان يديغي وابو طالب حينئذ جالسين عند باب العربة المفتوح في مهب الريح يتبادلان مختلف الاحاديث والاطفال يحومون حولهما ، وينظرون الى الارض المندفعة قربهم الى الخلف اما زوجتهما ظريفة واوقبالا فكانتا منشغلتين باحاديث ودية خاصة بهما . ثم ذهبوا الى المحال التجارية وتمشوا في ساحة المحطة ، ودخلوا السينما ، واخيرا كانوا عند الحلاق ، واكل الاطفال البوظة ، لكن الموقف الاكثر هزلا واضحا كان عندما اخفق الجميع في اقناع ايرميك ليحلق شعره ، اذ كان يخاف ان تمس ماكنة الحلاقة رأسه . وتذكر يديغي كيف دخل في تلك اللحظة ابو طالب باب صالون الحلاقة وكيف اندفع الابن الصغير نحوه ، بينما تلقفه الاب وضمه الى صدره وكأنه يدافع عنه من الحلاق ، وقال انهم سيشدون من عزمهم ويأتون للحلاقة مرة اخرى . ويطول شعر ايرميك الاسود المتجدد الذي لم يقص منذ ولادته للآن ، لكن الولد اصبح حاليا بلا اب . . . .

وحاول يديغي غير مرة ان يدرك ويفطن ويعلل لنفسه لماذا توفي ابو طالب قطبايف دون ان ينتظر حل قضيته . ولم يتوصل مرة اخرى الا الى نتيجة وحيدة قابلة للتأويل ، وهي ان لوعة الحنين العارم لاطفاله هو الذي مزق قلبه . ان الفراق وحده الذي

ليس في متناول كل واحد ان يفهم وطأته والاحساس المرير بان اولاده - الذين بدونهم لم يكن ليتصور ليس فقط العيش بل والتنفس الذي لولاه ولو للحظة لانقطع جذر الحياة نفسها - بقوا منقطعين مرميين امام مصير مجهول فسى المفرق الواقع وسط ساروزيكي المقفرة المحرومة من الحياة ، ان هذا الاحساس هو الذي قتله . . . .

كان يديغي يدور في نفس دوامة التفكير اثناء جلوسه على المصطبة في الحديقة الصغيرة امام مبنى المحطة منتظرا ظريفة . لقد اتفقا ان ينتظراها على هذه المصطبة الى ان تذهب لاستلام الاوراق من مدير المحطة .

اتنصف النهار ، الا ان الجو ظل ردينا ولم تصح السماء الغائمة المنخفضة واخذ يتساقط لماما على الوجوه شيء مما شبيهه اما بندف الثلج او بقطرات المطر . والريح شرعت تنفخ من طرف السهوب ندية معيقة برائحة الثلج الذي بدأ ذوبانه . واحس يديغي بشيء من البرودة وعدم الراحة . وعادة كان يحب في مثل هذه الحال ان يتدافع بين الناس في ململة المحطة وجلبتها ، لانه ليس له من مكان آخر يذهب اليه او شيء ينشغل به ، بينما في المحطة يستمتع بمشاهدة القطارات وكيف ينزل المسافرون ويسيروا على الارصفة رواحا ومجيئا مدخلين في هذا المنظر شيئا شبيها بالسينما .

في هذه المرة لم يكثر يديغي بهذا كله . بل انشأ يتعجب من وجوه الناس الجامدة ، وفقدانهم للصفات المتميزة بهم ، ومن لا باليتهم وتعجبهم ونأيهم عن بعضهم البعض . . . . فضلا عن ذلك فان الموسيقى المذاعة من سماعة الراديو بصوت مبوح اجش في الساحة امام مبنى المحطة اثارت عنده الحزن والاسى بنغماتها المتكررة الرتيبة . اية موسيقى هذه ؟ ولم تكن تسمع اصوات المذيعين الجهورية ، لماذا تذاع الموسيقى لوحدها !

لقد انقضت عشرون دقيقة ، ولربما اكثر ، منذ ان توارت ظريفة في مبنى المحطة . تملك يديغي القلق ، ومع انها قد اتفقا اتفاقا مؤكدا بان ينتظراها على هذه المصطبة ، بالذات حيث جلسوا في المرة الماضية برفقة الاطفال وابي طالب واكلسوا



البوظة ، ارتأى ان يذهب فى اثرها ليرى ماذا حل بها .  
فى هذه الاثناء رآها فى الباب فانتفض لاراديا . ولقتت  
ظريفة انظاره بين حشد الداخلين والخارجين بانعزالها عن كل ما  
حولها . كان وجهها شاحبا شحوب الموت وهى تسيير دون ان  
تلتفت الى اية جهة ، كالتائمة ، وكان لا وجود لشيء حوالها ،  
تسير كما لو انها فى صحراء ، مثل عمياء ، رافعة رأسها فى أسى  
وزامة شفيتها بشدة . ونهض يديغى يستقبلها فخيلى اليه انها  
تقترب ببطء شديد كالتائمة ايضا . وكان اقترابها المتمهل  
بعينيها الخاويتين مفزعا لدرجة كبيرة . ولعله قد انصرم دهر  
كامل من انتظار لا يُحتمل الى حين وفدت ظريفة ماسكة فى يدها  
تلك الورقة فى مظروف مغلق وحروف مطبوعة كما قال  
قازانغاب ، ومع دنوها قالت محرمة شفيتها :

- اكنت تعرف ؟

طاطا يديغى رأسه بتوان .

تهالكت ظريفة فى المصطبة وانخرطت فى بكاء مرير حاجبة  
وجهها بيديها وضاعطة بقوة على رأسها وكأنها كان فى وسع  
رأسها ان يتحطم ويتطاير شذر منذر ، وهى غاصة فى اعماق  
ذاتها فى المها وخسارتها . كانت تبكى منكشمة فى كتلة مرتعشة  
متعذبة وهى تبتعد وتغوص اكثر فاكتر فى اعماق نفسها ، فى  
آلامها الهائلة ، بينما هو مكث جالسا الى جانبها ، وكان مستعدا ،  
كما فى تلك المرة حين اخذوا ابا طالب ، لان يذهب بدلا عنه وان  
يتحمل بلا تردد اية عذابات وذلك لكى يدود عن هذه المرأة  
وينقذها من الصدمة . وكان يدرك اثناء ذلك ان لا شيء  
باستطاعته ان يواسيها به ويهدى من روعها ما لم تسكن  
الموجة الصاعقة الاولى لمصيبتها .

وهكذا كانا جالسين على المصطبة فى الحديقة امام مبنى  
المحطة وكانت ظريفة تبكى وتنسج مجهشة مرتعدة ، وفى لحظة  
من اللحظات رمت بالمظروف المكش والرسالة المنحوسة  
فى داخله بعيدا عنها دون ان ترفع رأسها . فإى نفع الآن فى  
تلك الورقة طالما لم يبق هو على قيد الحياة ؟ بيد ان يديغى  
رفع المظروف ووضع فى جيبه . ثم تناول مندبل جيب وارغم  
ظريفة بالقوة ، بعد ان فك يدها ، ان تمسح دموعها . لكن هذا

لم يجد نفعاً .  
اما الموسيقى فظلت تنساب من الراديو شجية ، اليمية ،  
جنائزية . كأنها كانت تعرف مصيبتها . وسماء شهر اذار تخيم  
فوق الرأس مكفهرة رطبة ، والريح تضنى النفس بهبوبها . وكان  
المارة يسترقون النظر الى ظريفة ويديغى ، ويفكرون فى  
انفسهم ، بالطبع ، انهما قد تخاصما ، قد أساء الرجل اليها  
اساءة قوية . . . لكن ، على ما يبدو ، لم يعتقد الجميع ذلك ، اذ  
رن الى جانبيهما فجأة صوت مؤساة :

- ابكوا ، ايها الناس الطيبون . . . ابكوا ، لقد فقدنا ابانا  
المحبيب ! ماذا سنفعل ؟

رفع يديغى رأسه فرأى امرأة فى معطف عسكري رث تمر  
من امامهما على عكازين . وكانت احدى رجلها مبتورة حتى الفخذ .  
كان يديغى يعرف هذه المرأة : جبهوية سابقة تعمل حاليا فى  
شباك التذاكر فى المحطة . وكانت امينة الصندوق هذه مغرورة  
بالدموع وتبكى وتسير وهى تقول : «ابكوا . ابكوا ، ماذا  
سنفعل ؟» ابتعدت ذارفة الدمع منتحبة ناقلة عكازيها بطرقات  
مكتومة كالمعتاد تحت كتفيها المرفوعين قليلا على نحو غير طبيعى  
خافقة بعد كل طرقتين من عكازيها كعب رجلها الوحيدة المحتذية  
جزمة عسكرية قديمة . . .

ولم يدرك يديغى مغزى كلماتها الا بعد ان رأى كيف احتشد  
الناس فجأة امام مدخل المحطة ، رافعين رؤوسهم شاخصين الى  
عدة رجال نصبوا سلما وانشأوا يعلقون فى مكان بارز فوق الباب  
صورة عسكرية كبيرة لستالين فى اطار اسود جنائزى .  
وفهم يديغى لماذا صدحت تلك الموسيقى الحزينة فى  
الراديو . ولو كان قد وقع هذا فى وقت آخر لنهض يديغى  
من مكانه ووقف بين الناس واستفسر كيف وماذا حدث لهذا  
الانسان العظيم ، الذى لم يكن احد يتصور كيف تسيير امور  
الدنيا بدونه لكنه الآن كان عنده ما يكفيه من المصيبة . فلم  
ينبس ببنت شفة . اما ظريفة فقد كانت فى واد والدنيا من حولها  
فى واد . . .

واما القطارات فواصلت سيرها مهما كانت احداث الدنيا .  
وبعد نصف ساعة كان ينبغى ان يمر على الخط فى المحطة قطار



المسافات الطويلة رقم ١٧ . ومثل بقية قطارات الركاب كان هذا القطار لا يتوقف في مفارق كبوراني-بوراني . ولقد بدا القطار رحلته وفق جدول الحركة هذا . ولم يخطر ببال احد ان القطار رقم ١٧ سيتوقف في هذه المرة في مفرق بوراني-بوراني . بيد ان يدبغي كان مقتنعا قناعة اكيدة بانه سيتوقف ، فقال لظريفة :  
 - علينا ان نعود قريبا يا ظريفة . ولم يبق امامنا الا نصف ساعة . ينبغي لك الآن ان تفكرى كيف يجب ان تصرفنى هل ستخبرين الاطفال بوفاة والدهم ام ستترين قليلا . اننى لن اهدئك ولن القنك ، انت حرة فى اتخاذ القرار . لانك الآن تقومين مقام الاب والام بالنسبة لهم . لكن عليك ان تفكرى بذلك عندما تكون فى الطريق . فاذا اتخذت قرارا بعدم اخبارهم تمالكى نفسك ، ولا تسكى الدموع امامهم . هل تتمكنين من ذلك وتكفيك الشجاعة ؟ ونحن ايضا يجب ان نعرف كيف نتصرف امامهم . اتفهمين ؟ تلك هى القضية .

- طيب ، انا فاهمة - اجابت ظريفة من خلال الدموع - والى ان نصل سنستجمع افكارى واقول كيف علينا ان نتصرف . واحاول الآن ان اتمالك نفسى . الآن . . .  
 كانت الحال فى القطار ، فى طريق العودة كما هى من الاول . المسافرون جموع محتشدة فى دخان السجائر ، وكالسابق يقطعون ارض البلاد العظيمة المترامية الاطراف من اقصاها الى اقصاها .

ووجد يدبغي وظريفة نفسيهما فى عربة ذات مقصورات وكان عدد المسافرين فيها اقل ، واتخذوا مكانا لهما عند النافذة فى اقصى طرف من الممر لئلا يعوقا الاخرين ولكى يتحدثا فى شؤونهما . جلس يدبغي على مقعد قلابى فى الممر ، اما ظريفة فقد وقفت الى جانبه تنظر عبر النافذة ، مع انه كان قد عرض عليها مكانه ، الا انها قالت :  
 - هكذا سيكون افضل بالنسبة لى .

وراحت بعد ذلك تحاول تركيز افكارها وان ظلت تنشج بين الفينة والاخرى ، متغلبة على نفسها ، ومصارعة المصيبة التى وقعت على كاهلها . وكانت تنظر فى النافذة وتحاول ان تفكر فى حياتها الجديدة ، حياة الأرملة . فاذا كان فى السابق ثمة أمل

فى ان ينتهى هذا الوضع ذات يوم فجأة مثل حاسم كابوسى ، ويرجع ابو طالب عاجلا ام آجلا ، اذ لا يمكن ان لا يثبت بسوء الفهم مثل هذا ، وتعيش العائلة من جديد تحت سقف واحد ، وتعود المياه الى مجاريها ، وانهما لوجدا وسيلة للعيش مهما كانت الحياة صعبة ، والصمود وتربية اطفالهما ، فان مثل هذا الأمل الآن غير موجود . كان عندها ما تشغل به فكرها . . .  
 نفس المواضيع كانت تشغل يدبغي البوراني طالما لم يتمكن الا يقلق ويهتم بمصير هذه العائلة . لقد اتفق ان يحدث ما حدث . بيد انه كان يعتقد انه يتحتم عليه الآن ، اكثر من اى وقت مضى ، ان يكون متمالكا لنفسه وهادئا ، لعله بذلك يوحى بالثبات الى روحها . ولم يستعجلها ، وكان مصيبا فى تصرفه ، اذ انها هى التى شرعت بالحديث بعد ان كفكت دموعها .  
 - يتعين على اخفاء الامر عن الاولاد - قالت ظريفة ناشجة بصوت متقطع فى محاولة للسيطرة على نفسها والكف عن البكاء - لا استطيع الآن ان اقول لهما ان اباهما غير موجود . ولا سيما ايرميك . . . لماذا يشعر بهذا التعلق ، هذا لا يطاق . . . كيف احرمهما من احلامهما ؟ ماذا سيحل بهما ؟ ذلك انهما يعيشان على هذا الأمل . . . ينتظران كل يوم ، بل كل دقيقة . . . لا بد من الانتقال من هنا الى مكان آخر مع مرور الزمن . . . ليكبسرا قليلا . اننى اخاف جدا على ايرميك . ليكبسرا ولو قليلا . . . عندئذ سأخبرهما ، وسيخمنان بنفسيهما ذلك . اما الآن ، فلا ، لا اقوى على ذلك . . . ساكتب رسائل الى اخوانى واخواتى ولاقارب ابنى طالب . ما الذى بقى فينا ليخيفهم منا الآن ؟ أمل ان يستجيبوا ويساعدونا فى الرحيل من هنا . . . ومن ثم ستبين الامور . . . لم يبق لى الا ان اربى اطفال ابنى طالب ، طالما لم يعد له هو من وجود . . .

هكذا تصدت ظريفة للامر ، اما يدبغي البوراني فكان يصغى لها صامتا مدركا ومستوعبا مغزى كل كلمة من كلماتها ، عارفا بلا ريب ان هذا ليس الا النزر اليسير من ذلك الاعصار الذى واجهته وتواجهه افكارها . . . من المستحيل قول كل شئ فى مثل هذه الحال ولهذا قال يدبغي ساعيا الى عدم توسيع افاق الحديث :  
 - من المحتمل انك على حق يا ظريفة . . . ان لم اعرف انا



هذين الولدين لكنك قد ابدت شكوكي . لكن لو كنت في مكانك  
لما تجرات انا ايضا ان انقل لهما خبرا كهذا . لا بد من التريث  
قليلا . والى ان يستجيب اقرباؤك لندائك نكون نحن عونك ،  
ولا تترددى بشيء فيما يتعلق بنا . سنبقى كما كنا من قبل  
نتمسك بعضنا ببعض . اعلمى كالسابق ، واطفالك سيبقون مع  
اطفالنا عندنا . وتعرفين بنفسك ان اوقبالا تجبهن مثل جبهنا  
اطفالها . وستتضح بقية الامور فيما بعد . . .

وقالت ظريفة ايضا متنهدة تنهيدة عميقة في اثناء ذلك

الحديث :

— هو ذا ما يحدث في الحياة احيانا . يا لها من اشياء  
فضيلة وحكيمة ومترابطة فيما بينها . نهاية ، بداية ،  
استمرار . . . لو لم يكن لى اطفال ، بشرفى يا يديغى ، لما  
ارتضيت البقاء على قيد الحياة . ولكنك اقدمت حتى على هذا . ما  
جدوى ان اعيش ؟ لكن الاطفال يفرضون على ذلك ، الاطفال  
يرغموننى ، ويردعوننى . فى هذا اجد نجاستى ، واستمرار  
الحياة . انه استمرار مرير ، قاس ولكن برغم كل ذلك هو  
استمرار للحياة . . . وافكر الآن بفرع ليس حتى بذلك الوقت  
الذى سيقفون فيه على الحقيقة ، فلا مفر من هذا ، بل بما  
سيكون عليه الامر مستقبلا . ان ما حدث لوالدهم سيجعلهم  
يقطرون دما . وفى كل الاحوال مع هذا اللقب لن تسير امورهم  
على ما يرام فى اى مكان ، سواء عند الانتساب لمؤسسة دراسية  
او الالتحاق بعمل ، او عند اظهار مواهبهم فى المجتمع . . .  
وعندما افكر بهذا يخيل لى انه ثمة وجود لموانع غير قاهرة  
بالنسبة لنا . كنا ، انا وابو طالب ، نتجنب مثل هذه الاحاديث .  
كنت انا ابقى عليه وهو على . . . معه كنت واثقة من ان ولدنا  
سيترعرعان ويصبحان انسانين كاملى القيمة . . . وهذا ما كان  
يقينا من الخراب ، من النكبات . . . اما الآن فلا اعرف . . . لا  
استطيع ان اكون فى محله امامهما . . . ولو كان هو لكان  
هو . . . وكان قد ظفر بكل شيء . ولقد اراد ان ينتقل او يتجسد  
فى اطفاله . وتوفى لانهم ابعده عن ولديه . . .  
واصغى لها يديغى بانتباه . وهذه الافكار المكنونة التى  
صرحت بها ظريفة له ، باعتبارها انسانا قريبا ، اثارته عنده رغبة

صادقة فى التجاوب معها وحمايتها ومساعدتها ، الا ان عجزه  
ارهبه واثار عنده قرفا مبهما مكتوما .

كانت يقتربان من مفرق بورانلى - بورانى ، وراح القطار  
يسير فى مناطق مالوفة ، وفى مسافات من خطوط السكة الحديد  
كان يديغى البورانى نفسه قد عمل فيها سنوات طويلة . . .  
وقال يديغى لظريفة :

— استعدى ، ها انا فوشك على الوصول . يعنى انك قررت  
بشكل نهائى ان لا تخبرى الاطفال شيئا . طيب ، ستكون على علم  
بذلك . وحاولى يا ظريفة ان لا تفضحى ما فى نفسك ، اما الآن  
فرتبى نفسك ، واخرجى الى مدخل العربة ، وقفى عند الباب .  
فعندما يتوقف القطار انزلى من العربة بهدوء وانتظرينى . سأنزل  
انا الآخر ونذهب سوية .

— ماذا تريد ان تفعل ؟

— لا شيء . دعى هذا لى . فى كل الاحوال ، لك الحق فى

النزول من القطار .

كعادته دائما كان قطار الركاب رقم ١٧ يسير على طول  
منطقة المفرق مخففا سرعته عند السيمافور . وفى هذه اللحظة  
بالذات ، اثناء دخوله المفرق ، توقف القطار فجأة بقرعة وصرير  
فظيع . نهض جميع المسافرين من اماكنهم مذعورين . وتعالست  
الصيحات والصفير فى القطار كله .

— ماذا حدث ؟

— شدوا مقبض الفرملة الاضطرارية !

— من ؟

— اين ؟

— فى عربة المقصورات !

وفى هذه الاثناء فتح يديغى الباب لظريفة ، فنزلت مسن  
القطار . اما هو فانتظر فى مدخل العربة حيث اقتحمها كمساريان .

— قف ! من شد مقبض الفرامل ؟

— انا - اجاب يديغى البورانى .

— ومن انت ؟ وبأى حق ؟

— لزمنى ذلك .

— كيف لزمك ذلك ؟ هل تريد ان تحاكم ؟



- لا يهم . اكتبوا في المحضر الذي تريدون تقديمه الى المحكمة او الى اى مكان آخر . هذه بطاقتى ، اكتبوا ان المحارب السابق وعامل السكك الحديد حاليا يديغي جانفيلدين خلج وشد مقبض الفرامل ووقف القطار فى بورانلى - بورانلى حدادا فى يوم وفاة الرفيق ستالين .

- كيف ؟ وهل توفي ستالين ؟  
- نعم ، لقد اعدنوا ذلك بالراديو . كان يندبغسى ان تسمعوا .  
- اذن ، هذا شأن آخر . - ذهل الكمساريان ولم يوقفا يديغي . - اذهب ، طالما حدث ما حدث .  
وبعد عدة دقائق واصل القطار رقم ١٧ سيره . . .

وكانت القطارات تسير من جديد من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق .  
وعلى جانبى خط السكة الحديد فى هذه الانحاء كانت تمتد مساحات شاسعة من الاراضى الصحراوية العذراء - سارى اوزيكى ، الاراضى الوسطى من البرارى الصقراء . . .  
ولم يكن عند ذلك اى اثر للمطار الفضائى سارى - اوزيك - ١ فى هذه المنطقة ، ولربما كان مرسوما فقط فى خطط مبتكرى الرحلات الفضائية للمستقبل .  
اما القطارات فسارت على نفس المنوال من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق . . .

كان صيف العام الثالث والخمسين وخريفه من اشد الفترات عذابا فى حياة يديغي البورانى . ولم يجابه يديغي او يتحمل آلاما بهذه الدرجة من الشدة والعمق لا قبل ذلك ولا بعده ، حتى ولا اثناء حدوث تراكمات ثلجية على السكة ولا بتأثير قيظ ساروزيكى وجفافها ، ولا من مصائب وويلات اخرى ، ولا حتى ابان الحرب ، مع انه وصل الى كينغسبيرغ ، وكان من الممكن ان يقتل ويجرح ويشوه ، مثلما تحمل فى تلك الايام . . .  
شرح افاناسى ايفانوفيتش يليزاروف ذات مرة ليديغسى البورانى سبب وقوع الانهيارات . وقال ان هذه الانهيارات فظيعة

ومخيفة وتحدث عندما تهيل سفوح باكملها من مكانها ، وقد يحدث ان يميل جبل كامل على جنبه محدثا شقا كبيرا فى الارض ، كاشفا عن خفايا باطنها ويصيب الناس الهلع من المصيبة التى كانت كامنة تحت اقدامهم . وتكمن خطورة الانهيارات فى ان الكارثة تصبغ وشيكة الوقوع بشكل غير ملحوظ رويدا رويدا ، لان المياه الجوفية تجرف من الداخل تدريجيا قاعدة الصخور ، وتكون اية هزة ارضية خفيفة يحدثها الرعد او وابل المطر كافية لابتداء الجبل بالانهيار البطيء والميل جانبا . ان الانهيار العادى يحدث فجأة ودفعة واحدة . اما الانهيار فيسير سيرا مخيفا وليس ثمة من قوة تتمكن من ايقافه . . .

ان شيئا شبيها بهذا يمكن ان يحدث للانسان عندما يبقى وحده مواجه لتناقضاته التى لا تقهر ، وعندما يتعذب متدهورا روحيا غير متجرى على التصريح بذلك لاحد اذ لا احد فى العالم قادر على مساعدته او فهمه . انه يعرف بذلك ، وهذا ما يخيفه . ويجتم هذا الموقف فوqe . . .

وواجه يديغي مثل هذا الانزياح للمرة الاولى وادرك بجلاء ماذا يعنى هذا عندما سافر الى قمبيل لقضاء بعض الاشغال بعد شهرين من تلك السفرة التى رافق فيها ظريفة . وقد وعد ظريفة ان يعرج على البريد ويستعلم ان كانت وصلت لها رسائل ، وفى حالة عدم وصولها ، عليه ان يرسل ثلاث برقيات الى ثلاثة عناوين سلمتها له . ذلك ان ظريفة لم تستلم الى ذلك الوقت اى جواب على اية رسالة من رسائلها الى اقربائها ، وازادت ان تعرف على الاقل بتسلمهم اياها . وقد كتبت فى البرقيات تقول : ارجوكم رجاء ملحا ان تخبرونى بنعم او لا هل استلمتم الرسائل ، والجواب عليها غير ملزم . واتضح ان الاخوان والاخوات لم يرغبوا ان يعقدوا اية صلة بعائلة ابي طالب حتى بالبريد . وغادر يديغي على ظهر قره ناز من الصباح بامل الرجوع عند المساء . بالطبع ، حين يسافر لوحده ، بلا امتعة ، كان اى سائق قطار من معارفه يأخذه معه بسرور ، فيكون بعد ساعة ونصف ساعة فى قمبيل . بيد انه اصبح يحترس من مثل هذه الرحلات فى القطارات العابرة من اجل اولاد ابي طالب . فقد كان كلاهما ، الصغير والكبير ، يترقبان كل يوم عودة ابيهما وينتظران عند



السكة الحديد ، كان انتظار الوالد جوهر حياتهما ، فيجسدانه في العابهما واحاديثهما وتخميناتهما ورسوماتهما ، وجميع تصرفاتهما الحياتية البسيطة . وبلا شك ، كان العم يدبغي الذي يعتقدان انه ينبغي ان يعرف كل شىء ويساعدهما ، الشخصية الاكثر هيبه ونفوزا بالنسبة لهما .

ويدبغي كان يعلم بنفسه ان الاولاد بدونهم سيعيشون حياة اشقى واضنى ، ولهذا كان يحاول ان يصرف معظم وقت فراغه معهم ، ويشغلهم تدريجيا عن الانتظار غير المجدى . وتلبية لوصية ابي طالب بان يتحدث للاولاد عن البحر كان يتذكر تفاصيل جديدة وجديدة من طفولته وشبابه عندما كان صيادا ، ومختلف الحكايات الواقعية وغير الواقعية عن بحر ارال ، وكيف هذه القصص على قدر امكانيته للاطفال . لكنه فى كل مرة كان يندبش لموهبتهما فى تذكر المواقف والتاثر بها وفطانتهم . وارتاح يدبغي ارتياحا بالغيا لظهور اثر تربية الوالد فيهما . وكان يدبغي اثناء حديثه يركز فى المقام الاول على الصغير ايرميك . مع ان الصغير لم يكن اقل اهتماما من الكبير ، وكان بالنسبة ليدبغي من بين المستمعين الاربعة - اطفال العائلتين - الاقرب ، رغم ان يدبغي لم يسع الى ابرازه . واتضح ان ايرميك هو المستمع الاكثر اهتماما واحسن مفسر لحكاياته . ومهما كانت الاحاديث عن اى شىء ، واية احداث ، وايا كان التحول فى الحدث لا بد ان يربطه بابيه . كان الوالد بالنسبة له حاضرا فى كل شىء وكل مكان ، فعلى سبيل المثال يجرى مثل هذا الحديث :  
- ثمة بحيرات بالقرب من شواطئ بحر ارال ينبت قصب كثيف على ضفافها . وفى ذلك القصب يتخفى الصيادون حاملين بنادقهم ويعود البطل فى الربيع الى بحر ارال بعد ان عاش فى الشتاء فى بحار اخرى حيث كان الدفء ، وما ان يذوب الجليد فى بحر ارال حتى وتعود الطيور المهاجرة بسرعة ليلا ونهارا لانها تكون قد اشتاقت الى هذه المناطق . تطير باسراب كبيرة راغبة فى العوم على سطح الماء والسباحة والتشقلب ، فتطير اذنى فاذنى من الساحل ، وفى هذه الاثناء تنطلق الاطلاقات المصحوبة بالدخان من القصب . طراخ ! طراخ ! وبالطبع ان الصيادين هم الذين يطلقون النار ، وتسقط البطات فى الماء متصايحات

زاعقات . بينما تطير الاخريات مذعورات الى عرض البحر وهى لا تعرف ماذا تفعل وكيف تعيش . وتحوم هناك فوق الامواج وتتصايح . ذلك انها اعتادت السباحة عند الساحل ، لكنها الآن تخاف الاقتراب من الشواطئ .  
- يا عم يدبغي ، لكن بطة واحدة عادت مباشرة الى المكان الذى طارت منه .

- لماذا عادت الى هناك ؟  
- كيف لماذا ، ان بابيكا يعمل بحارا هناك ، وهو يبحر على متن سفينة كبيرة . ولقد اخبرتنى انت بذلك يا عم يدبغي .  
- نعم ، صحيح - يتذكر يدبغي بعد ان تنظلي عليه الحيلة . - وماذا حدث بعد ذلك ؟  
- طارت هذه البطة وقالت لبابيكا ان الصيادين اختفوا فى القصب واطلقوا النار عليها ، وما من مكان لتعيش فيه !  
- بلى ، هذا صحيح .

- وقال بابيكا لتلك البطة انه سيعود قريبا ، وان له فى المفرق ولدين : داوول وايرميك ، وصديقه العم يدبغي . وعندما ياتى نذهب معا الى بحر ارال ونطرد من القصب الصيادين الذين يطلقون النار على البطات . فتعيش عيشة جيدة فى بحر ارال . . . . وستعوم فى الماء وتتشقلب هكذا على راسها . . . .  
حين تستنقد الحكايات يلتجئ يدبغي البورانسى الى قراءة البخت وكشف الطالع بالحصى . وصار يدبغي يحمل معه دائما احدى واربعين حصاة كل منها بحجم حبة حمص كبيرة . وكان لهذه الطريقة القديمة فى قراءة البخت رموزها المعقدة ومصطلحاتها الخاصة بها . عندما كان يدبغي يرتب الحصى مرددا ومناشدا ان تجيب جوابا صحيحا وصادقا هل ان رجلا باسم ابى طالب حي ، واين هو ، وان كان سيلزم الطريق قريبا ، وماذا 'قدر' له ، وبماذا يفكر فى اعماقه ، كان الاولاد يلزمون الصمت مركزين انتباههم متابعين كيف جاء ترتيب الحصى . وسمع يدبغي ذات مرة حديثا هامسا فى الركن ، تلفت بخذر ، فرأى ولدى ابى طالب ، وكان ايرميك يفتح الفال بالحصى ، يرتبها كما يتسنى له ، واثنا ذلك يقرب كل حصاة من جبينه وشفتيه ويقول لها :



- وانت ايضا احبك . انت جد ذكية ، حصة جيدة . انت لا تخطئين ولا تزلزلين ، قولي بصراحة كما تقول حتى العم يدبغي . - ثم اخذ يفسر لاخيه الاكبر مغزى ترتيب الحصى مرددا كلام يدبغي : - ها انك ترى يا داوول ان الوضع العام غير سيبى غير سيبى تماما . هذا هو الطريق . الطريق مبهم قليلا ، وملفح بالضباب . لكن لا يهم . العم يدبغي يقول : هذه صعوبات الطريق والطريق لا يخلو منها . الوالد يستعد للسفر دائما . انه يريد ان يجلس على السرج ، لكن حزام السرج ارتخى قليلا . ها هو الحزام ، كما ترى ، غير مشدود . لا بد من شده اقوى . اذن ، ثمة شىء آخر يؤخر عودة الوالد يا داوول . لا مفر من الانتظار . اما الآن فلننظر ماذا فى الضلع الايسر وماذا فى الضلع الايمن . الضلعان سليمان . هذا جيد . وماذا على جبينه ؟ ثمة عبوس على جبينه . وانه يقلق قلقلًا عظيمًا علينا يا داوول . اترى هذه على صدره ، اذن هو يشعر بالألم فى صدره وبالحنين اليانا . ولقد اشتاق جدا الى البيت . هل سيلزم الطريق قريبا ؟ قريبا . لكن حدوة واحدة تتأرجح فى الحافر الخلفى ، اذن يجب اعادة البيطرة . ونضطر للانتظار فترة اخرى . وماذا فى الخرج ؟ اوه ، فى الخرج مشتريات من السوق ! اما الآن هل سيحالفه الحظ مع نجمه ؟ اترى هذه النجمة ، انها المربط الذهبى . ومنها اكتشفنا اثره . والاثر هذا ليس جليا بشكل تام . اذن سيضطر الى فك رباط الفرس ، والسفر . . .

ابتعد يدبغي البوراني دون ان يلاحظه احد نائر العواطف ، مغموما ومندهشا من هذا كله . ومنذ ذلك اليوم اخذ يتهرب من فتح الفال بالحصى . . .

لكن الاطفال هم الاطفال . وينبغي تسليتهم وتشجيعهم ، وحتى اذا اقتضى الامر فيمكن ان يضع المرء على عاتقه خطيئة خداعهم لفترة معينة . لكن فكرة هي غمامة اخرى لفعت قلب يدبغي البوراني . فى تلك الظروف وفى تلك السلسلة من الاحداث كان لا بد ان يقع مثل ذلك الانهيار ، وكان ينبغي ان تتحرك السفوح من مكانها ، ولم يستطع يدبغي ان يوقفها . . .

كان يدبغي يعانى اقصى المعاناة من اجل ظريفة . رغم انها لم يتبادلا اية احاديث اخرى ما خلا الاحاديث اليومية العادية ،

ورغم انها لم تهيب له اية ذريعة ابدا ، كان يدبغي يفكر فيها دائما . لكنه لم يراف لحالها فقط ، ويعطف عليها مثل شىء واحد ، ولم يشفق عليها لمجرد انه رأى وعرف كل شىء فى حياتها واية نكبات لحقت بها ، والا لما استحق الامر ان تتخذة حديثا . فقد فكر فيها بحب وبتفكير ملح واستعداد داخلى لان يصبح بالنسبة لها انسانا تستطيع ان تتكل عليه فى كل شىء يتعلق بحياتها ، ولكان هو سعيدا فيما لو عرف انها ، تعتقد بان يدبغي البوراني هو احب انسان الى قلبها فى العالم .

وكان ذلك معذبا ، ان يتظاهر بانه لا يشعر تجاهها باى شعور خاص ، ولا يمكن ان يكون بينهما شىء ، ولا ينبغي !

فى طريقه الى قمبيل كان هذا التفكير يشغل باله طول الوقت . ولبت يقلب الامر على مختلف وجوهه حتى اضناه التفكير . وكان يشعر بوضع روحى متقلب غريب كمن يكون بانتظار عيد قريب او مرض محتم . وخيل اليه احيانا ، وهو على هذه الحال ، انه مقيم فى البحر من جديد . فى البحر يمتلك الانسان احساس آخر ، ليس كالذى يمتلكه وهو على الارض ، حتى وان كان الهدوء يخيم حواليه ، ويترأى له ان لا شىء يهدد امته . مهما كان المرء مغتبطا ، او متنعما احيانا حين يجوب البحار ، وان كان ذلك اثناء ادائه اعمالا ضرورية ، ومهما كان جميلا انعكاس الغروب وانبلاج الفجر على سطح الماء ، فلا بد من العودة سواء الى هذا الشاطئ او ذاك ، اذ لا يمكن ان يبقى المرء فى البحر الى الابد . وعلى الشاطئ تنتظره حياة مغايرة تماما .

البحر موقت واليابسة دائمة . واذا كان القاء المرساة على الشاطئ مفزعا فلا بد من ايجاد جزيرة والنزول عليها ، عليك ان تعرف ان مكانك ههنا وههنا يجب عليك ان تكون دائما . وقد خيل اليه انه لو شاء القدر لعثر على مثل هذه الجزيرة ، وصحب ظريفة والاطفال اليها فعاشوا فيها . وتعود الاولاد على البحر ، ولقضى هو بقية حياته على الجزيرة وسط البحر مبتهجا بمصيره وغير نادم عليه البتة . لو كان يعرف انه فى وسعه ان يراها فى اى وقت يريد ويكون انسانا تحتاج اليه وترغب فيه ، وتعزّه . . .

لكنه فى الوقت نفسه انزوى حياء من هذه الرغيبات ،



وتضرج وجهه خجلا ، مع انه لم يكن من وجود لشبح انسان على  
مبعدة مئات الكيلومترات منه . لقد استرسل في الاحلام مثل  
صبي ، وتمنى لو عاش في جزيرة ، فهل سأل نفسه لماذا وبأية  
مناسبة ؟ وكيف تجرأ ان يطلق العنان لاحلامه هكذا ، هو المقيد  
من يديه ورجليه طول الحياة بالعائلة والاطفال والعمل والسكك  
الحديد ، واخيرا بساروزيكي التي تعلق بها تعلقا شديدا قلبا  
وقالبا دون ان يلاحظ ذلك بنفسه . . . ثم ما حاجة ظريفة اليه ،  
وان كانت حالتها سيئة ، لكن لماذا يقدر نفسه كل هذا التقدير ،  
ولماذا ينبغي ان ينال حظوتها ؟ بخصوص الاولاد لم يخامرهم ادنى  
شك ، اذ انه شغف بهم حبا بقدر انجذابهم هم اليه . اما ظريفة  
فاى نازع يحدها لتقبل على ذلك ؟ ثم وهل يحق له ان يفكر على  
هذا النحو والحياة قد استقرت به وطيدا منذ زمن بعيد ، حيث  
يتحتم عليه ان يمكث ، على الأرجح ، حتى ايامه الاخيرة . . .  
سار قره نار البوراني في درب مألوف سبق ان قطعه غير  
مرة . واذ قدر المسافة التي عليه ان يقطعها من الطريق اسرع  
بخطواته دون اي اكراه من لدن صاحبه وراح يجرى وهو يهرر  
ويثن انينا ثقيل في عدوه قاطعا بخطواته السراع مسافات  
ساروزيكي اللامتناهية ، بهضابها ومراتعها بالقرب من البحيرة  
المالحة المتبسطة منذ زمن بعيد اما يديغي فكان وهو يعتلى ظهر  
بعيره يتالم ويعانى مشغول البال بنفسه . . . وكانت هذه  
المشاعر المتناقضة تملكه لدرجة انه لم يقر له قرار من  
القلق ، ولم تجد روحه ملاذا تلتجى اليه في براري ساروزيكي  
الشاسعة . . . لقد كان الامر فوق طاقته الى درجة قصوى . . .  
بلغ قمبيبل وهو بهذه الحالة النفسية . وبالطبع ود لسو  
وصلت اجابات عن رسائل ظريفة الى اهلها وذويها ، لكن عند  
التفكير بان الاقارب قد يأتون في طلب العائلة الثكلى ويأخذونها  
الى منطقتهم او يدعونها اليهم كان يديغي يشعر بسوء حالته  
كلية . وفي دائرة البريد عند شبك حفظ الرسائل حتى الطلب  
اخبروه بعدم وصول اية رسالة معنونة باسم ظريفة قطبايفا .  
ولقد سر بالخبر على غير انتظار من نفسه . حتى وخطرت بذهنه  
فكرة غريبة سيئة على الضد من ضميره : «لحسن الحظ لم

تصل» . ثم نفذ تكليفها بنزاهة فأرسل ثلاث برقيات الى ثلاثة  
عناوين . هذا وأدبر مع حلول المساء . . .  
ارتدى الربيع في ذلك الوقت لبوس الصيف . وبراري  
ساروزيكي تبيست واحتقرت . واختفت الحشائش والاعشاب .  
واصبحت السهوب صفراء مرة اخرى . تلقى الجو ، واخذ موسم  
الحر يدنو يوما اثر آخر . ومع ذلك لم يصل من اقارب عائلة  
قطبايف خبر ولا لمح لهم خيال او اثر . لم يجيبوا على  
الرسائل ولا على البرقيات . اما القطارات فظلت تسير في  
الاتجاهين عبر مفرق بوراني - بوراني ، ومضت الحياة تجري في  
مجراها المعهود . . .

ولم تعد ظريفة تنتظر الاجوبة ، فقد ادركت انه ليس  
لها ان تضع في حسابها الاتكال على عون الاقارب ، ولا داعى  
للاتقال عليهم بمزيد من الرسائل وطلب المساعدة منهم . . .  
واذا اقتنعت بهذا استسلمت لياس صامت الى اين عليها ان تدير  
وجهها الآن ؟ . . . كيف تخبر اولادها عن ابيهم ومن اين تبدأ ،  
وكيف تغير حياتها المحطمة ؟ ولم تجد الى ذلك الوقت اي  
جواب . . .

ولعل يديغي كان يتالم من اجلهم لا اقل من ظريفة نفسها .  
والبورانليون ايضا كانوا يعانون في سبيلهم ، لكن يديغي كان  
يعرف كيف انقلبت مصيبة هذه العائلة الى مصيبة شخصية له .  
فلم يعد يستطيع ان يفصل نفسه عنهم . وبات يعيش من يوم  
لاخر مشكلة هذين الولدين وظريفة . وهو الآخر كان يشوب  
انتظاره توتر ، ويفكر ماذا سيحل بهم ، واستسلم ايضا الى  
ياس صامت . لكن الى جانب هذا كله كان يفكر باستمرار ،  
يفكر بآلم طول الوقت : ماذا يفعل هو بنفسه ، وكيف يتمالك  
زمام امره ويكبح في نفسه تلك الصرخة التي تناديه اليها ؟  
وهو ايضا لم يجد لنفسه اي جواب . . . ولم يكن يفترض ابدا  
انه سيواجه في حياته مثل هذا الامر . . .

نوى يديغي غير مرة ان يعترف لها ويخبرها بصراحة انه  
يحبها حبا جما وعلى استعداد لتحمل اعبائها على كاهله لانه لا  
يتصور نفسه بمعزل عنهم . لكن كيف كان له ان يفعل ذلك ؟  
بأية صورة ؟ ثم هل ستفهمه ؟ ذلك ان الامراة في حل من هذا



تماما ، لا سيما وان مثل هذه المصائب نزلت على رأسها ، بينما هو ينوى ان يتحدثها عن مشاعره ! هل من نفع في هذا ؟ كان يديغي يتلبد ويضطرب وهو يفكر باستمرار في هذا الامر ، علاوة على ذلك كان بحاجة الى بذل جهود مكثفة لكي يبقى بمظهره كما اعتاد ان يكون بين الناس .

لكن ذات مرة ، مع ذلك ، اوما لها بذلك . اثناء عودته من التطواف على السكة لاحظ من بعيد ظريفة تحمل سطلين ذاهبة لجلب الماء من الصهريج . فدفعه قلبه نحوها ، فذهب . ليس لانها كانت فرصة مؤاتية ، كان يمكن له ان يتذرع بحمل السطل ، فانها كانا يعملان يوميا او بين يوم وآخر تقريبا سوية على السكك وكان في وسعهما ان يتحدثا قدر ما يشاءان . بل ان يديغي في تلك اللحظة بالذات شعر برغبة لا تكبح لان يقترب منها راسا ويقول لها انه ليس في استطاعته ان يكتسب سره اكثر . وحتى انه فكر في انفعال ان ذلك قد يكون افضل ، لان قلبه سيهدأ والمه سيخف وان عجزت عن فهمه ، وان رفضته . . . لم تلحظ ظريفة اقترابه منها ولم تسمع وقع خطواته . كانت تقف مولية له ظهرها فاتحة صنوبر الصهريج . وقد ملأت احد السطلين ووضعت جانبا بينما تركت الآخر تحت الصنوبر المفتوح حتى آخره وكان السطل يطفح بالماء . ازبد الماء وتغطى بالفقايع وطرطش ، ثم سال حول السطل . اما هي فكم لا يلاحظ شيئا كانت تقف متكسة الرأس مسندة كتفها الى الصهريج . كانت ظريفة ترتدى فستان الشيت ، الذي رقصت فيه في الصيف الماضي تحت وابل المطر . ورأى يديغي خصلات شعرها المعجد النازلة على صدغها ووراها اذنها ، اذ ان ايرميك كان اجعد الشعر على شاكلتها ، ووجهها الضامر وجيدها الرقيق وكتفها النازلة ويدها المتدلية على فخذيها . يكون خريف الماء قد سحرها مذكرا اياها بالانهر والسواقي الجبلية لمنطقة سيميريتشيه ، ام انها قد غاصت في اعماق نفسها وقد داهمتها في تلك اللحظة افكار مريرة ؟ الله يعلم . بيد ان يديغي شعر بضيق لا يحتمل في صدره عند رؤيتها لان كل شيء فيها كان عزيزا واليفا الى قلبه ، ومن الرغبة المستعرة فيه لملاطفتها واحاطتها والذود عنها من كل جور . لكن كان من المستحيل القيام

بذلك . وكل ما فعله عندئذ هو انه ادار صمام الصنوبر بصمت فتوقف الماء عن الانصباب . نظرت ظريفة اليه غير مستغربة بعينين زائغتين ، وكأنه لم يكن واقفا بالقرب منها ، بل في مكان ناء جدا .

- ماذا دهاك ؟ ماذا بك ؟ - قال يديغي متعاطفا . لم تنبس ظريفة بكلمة ، سوى ان ابتسامة ارتسخت على طرفي شفثتها ، ورفعت حاجبيها فوق عينيها اللتين كانت تعود اليهما صفاوتهما كأنها تقول بذلك : لا بأس . . .

فسأل يديغي مجددا :

- اتشعرين بسوء ؟

- نعم ، حالتى سيئة . - اعترفت وتنهدت عميقا .

مز يديغي كتفيه مرتبكا ، وقال معاتبا :

- لماذا تضنين نفسك هكذا ؟ - مع انه اراد ان يتحدث

ليس عن هذا البتة . - كم يمكن ان يطول هذا ؟ انك بذلك

لن تسعفى نفسك . وسيكون من الصعب علينا (اراد ان يقول

علي) ان ننظر اليك وانت بهذه الحال ، وعلى الاطفال ايضا .

ارجوك ان تفهمي هذا . لا يجوز . لا بد من عمل شيء ما . - كان

يتحدث محاولا انتقاء تلك الكلمات التي ، باعتقاده ، كان ينبغي

ان تقول لها انه هو بالذات يتألم من اجلها ويحبها اكثر من اي

احد كان في العالم . - فكري بنفسك . لهم الله ان لم يردوا

على رسائلك ، فلن نضيع . ذلك اننا (اراد ان يقول اننى) معك

جميعا مثل اهلك . فلا تثبطي عزيمتك . اعلمي واصمدى . اما

الاولاد فسينشأون هنا بيننا ومعنا (اراد ان يقول معنى) .

وستجرى الامور على ما يرام بالتدريج . ما حاجتك للرحيل الى

مكان آخر ؟ اننا جميعا مثل اهلك . وانا ، كما تعرفين ، لا اقدر

على العيش يوما واحدا بدون اطفالك . - وتوقف لانه كشف عما

في داخله بقدر ما سمح له الوضع .

اجابت ظريفة :

- افهم كل شيء يا يديغي . وبالطبع ليس علي الا ان

اشكرك وانا اعرف اننى لن اكون في عوز واحتياج ، ولكن ينبغي

لنا ان نرحل من هنا . لكن ينسى الاطفال كل ما حدث هنا وكيف

حدث . عندئذ يتوجب علي ان اعترف لك بالحقيقة . وانت تعلم



ان الوضع لا يمكن ان يستمر طويلا . . . . . وها انا افكر كيف ينبغي ان اتصرف . . . . .

- كذا هو الامر الى حد ما - اضطر يديغي ان يوافقها . -  
لكن لا تتسرعى . فكري بعضا آخر من الوقت . الى اين سترحلين  
بصحبة هذين الصغيرين وكيف تدبرين ؟ بينما انا ، عندما افكر  
فى رحيلكم اشعر بالوحشة هنا بدونكم . . . . .  
وبالفعل كان يديغي يخاف عليهم ، عليها وعلى الاولاد .  
ولذلك لم يحاول ان يفكر فى ابعد من يوم الغد ، رغم ادراكه  
ايضا ان الامور لن تستمر على هذا النحو طويلا . وبعد مرور  
بضعة ايام على ذلك الحديث وقعت ثمة صدفة اخرى حين فضح  
نفسه كل الفضح ثم ندم على فعلته تلك امدا طويلا وتعذب دون  
ان يجد لنفسه مسوغا يبرر ذلك .

لقد مضى على تلك الرحلة المشهودة الى قمبيل ، حين تخوف  
ايرميك من الحلاق ، ولم يسمح بقص شعره شهورا طويلا .  
وظل الولد دون حلاقة شعره الاسود المجعد ، ورغم ان تموجات  
شعره كانت تزينه ، لكن كان قد حان الاوان لقص شعر هذا  
الغواص العنيد . وكان يديغي فى الفرص المؤاتية لا ينى يدس  
أنفه فى يافوخ الولد المنفوش ، يقبله ويتشم رائحته  
الطفولية . بيد ان الشعر كان طويلا يصل الى كتفيه ويعوقه عن  
اللعب والركض . وكانت ضرورة هذه العملية ، كما يبدو ، غير  
مفهومة وغير مالوفة وغريبة بالنسبة له . ولذلك لم يدع  
لاحد . بينما قازانغاب ، حين رأى ان الامر سيسير على هذه  
الشاكلة ، تمكن من اقناعه ، وحتى انه اخافه قليلا ، اذ قال ان  
الجدا ، لا تحب ذوى الشعر الطويل وتنطحهم .

وتحدثت ظريفة فيما بعد كيف حلقوا راس ايرميك . واضطر  
قازانغاب ان يستخدم قوته بالفعل . فامسكه بين ساقيه وقص  
له شعره بماكنة حلاقة ، فى حين ملا ايرميك محطة المفرق كلها  
بصراخه . وعندما انتهوا من حلقته قدمت بوكيه الطيبة مرآة ،  
تريد بذلك ان تقول : خذ ، وانظر الى نفسك ما اجمل ما اصبحت  
عليه . فنظر الطفل فى المرآة ولم يتعرف على نفسه ، وراح  
يصرخ اعلى واقوى من جراه ذلك . وهو فى هذه الحال يصرخ بكل

ما اوتى من قوة قادته ظريفة من حوش قازانغاب حين التقيا فى  
الدرب يديغي .

وكان ايرميك المقصود الشعر حتى الصفر لا يشبه نفسه  
تماما برقبته الرفيعة العارية واذنيه النائنتين ، وعينيه الدامعتين  
افلت من بين يدي امه وهرع الى يديغي باكيا :  
- انظر يا عم يديغي ماذا فعلوا بي !

لو قيل ليديغي البوراني مسبقا انه سيحدث له ما حدث لما  
صدق ابدا . تلقف الولد فى حضنه وفهم بكل حواسه مصيبتته  
وضعفه وشكواه وثقته به ضامما اياه الى صدره وكان ذلك كله  
حدث معه هو فراح يمطره بالقبلات ويردد بصوت متقطع من  
المرارة والتحبيب ، دون ان يفهم بجلاء مغزى كلماته :

- اهدأ يا عزيزى ! لا تبك . لن اسمح لاحد ان يسيء اليك  
وساكون لك بمثابة الاب ! ساحبك كاب لكنى ارجوك فقط ان  
تكف عن البكاء ! - واذ تطلع يديغي فى هذه الاثناء الى ظريفة  
التي تسمرت امامه قلقة ايما قلق ادرك انه قد تخطى حدا  
مخطورا فارتبك واسرع مبتعدا عنها حاملا الطفل على ذراعه متمتما  
بحيرة نفس العبارات : - لا تبك ! وقازانغاب هذا ساوبخه  
الآن ، الآن اوبخه ! ساوبخ قازانغاب هذا ، ايما توببخ ! الآن ،  
الآن اوبخه ! . . . . .

وظل يديغي لعدة ايام عقب ذلك يتهرب من ظريفة . وهى  
ايضا ، كما اتضح له ، كانت تتجنب لقاءه . وندم يديغي  
البوراني لانه افشى سره عن غير مقصد وعلى نحو سخيف وكدر  
امرأة غير مذنبه بشيء ، ولها من المشاغل والهموم ما يكفى بلا  
هذا . وكم من آلام اضاف الى اشجانها ! ولم يتمكن ان يجسد  
كلمات الاعتذار والتبرير المناسبة . وبقيت تلك اللحظات التي  
احس فيها يديغي بكيانه كله كيف يلتصق به الولد المسكين  
المهان ، وكيف تآثر قلبه من المرارة والتحجب ، وكيف تطلعت  
اليه ظريفة مصعوقة بهذا المشهد وكيف رمت اليه نظرة مفعمة  
بصرخة الفاجعة الخرساء ، بقيت عالقة فى ذاكرته لسنوات  
طويلة ، ولربما سيحتفظ بذكرها حتى النفس الاخير ايضا .  
هذا يديغي البوراني لفترة بعد هذا الحادث ، وراح يمنح  
اطفاله كل ما اضطر ان يخفيه فى داخله تجاهها ويكبحه . ذلك



انه لم يجد من وسيلة اخرى ، فكان يشغل نفسه معهم كل مرة وجد لنفسه من الوقت فراغا ويواصل قص القصص عليهم مكررا بعض الحكايات ومتذكرا الجديد منها عن البحر . لان ذلك كان الموضوع المفضل لديهم . فحكى لهم عن النوارس والاسماك والطيور المهاجرة وجزر بحر ارال ، التي لا تزال تعيش فيها حيوانات نادرة انقرضت في مناطق اخرى . بيد ان يدبغي فسى هذه الحكايات والاحاديث للاولاد كان يتذكر اكثر فاكثر وباصرار حكايته الخاصة في بحر ارال ، الحكاية الوحيدة التي كان يفضل ان لا يقصها لاحد . لكن تلك الحكاية لم تكن قط شيئا من شئون الاطفال . فلم يكن يعرف عنها الا اثنان ، هو واوقبالا . وهما ايضا لم يتطرقا اليها فيما بينهما ، لانهما كانت ذات صلة بابنهما البكر المتوفى . لو عاش ذلك الولد الصغير لكان الآن اكبر عمرا من اولاد البورانليين ، وحتى اكبر بنحو سنتين من ثابت جان ابن قازانغاب . لكنه لم يعيش ، غير ان الناس يترقبون ولادة الطفل ويأملون ان يعيش طويلا ، طويلا جدا من الصعب ان يتصور المرء كم من السنين . وإلا فهل كانوا سيلدون الاطفال ؟ . . . عندما كان صياد اسماك ، في سنوات شبابه تلك ، قبيل الحرب بفترة قصيرة ابتلى وزوجته اوقبالا بحادثة عجيبة . وقد يحدث مثل ذلك مرة واحدة فقط ولا يتكرر فيما بعد ابدا . منذ ان تزوجا كان يدبغي ينزع دائما الى العودة من البحر الى البيت بأسرع ما يكون . لانه كان يحب اوقبالا ويعرف انها ايضا تنتظره . ولم يكن له امرأة اعز منها آنذاك . واحيانا كان يخيل اليه انه يعيش لمجرد ان يفكر فيها دائما ، ويختزن قوة البحر والشمس في نفسه ، ثم يهبها لها ، لزوجته التي تنتظره ، ومن هذا العطاء انبثقت السعادة المتبادلة ، جوهر السعادة . اما كل شيء آخر ما عدا ذلك ، كل شيء خارجي فليس سوى اضافات او تمتات تشرى سعادتهما ولذتهما المشتركة بما وهبته له الشمس والبحر ، وحين شعرت ان تغيرا ما طرأ عليها ، وحبلت ، وستصبح عن قريب اما اضيق ترقب الوليد المقبل الى انتظارها الدائم للقاءه اثر عودته من البحر . وكانت تلك فترة صافية صاحبة ، غير مشوبة بالغيوم ، في حياتهما . في وقت متأخر من الخريف ، وتحديددا قبيل مقدم الشتاء ، ظهرت

على وجه اوقبالا بقع صغيرة بنية يميزها الناظر بانتباه . وكان بطنها قد برز واستدار . وذات مرة سألته عن سمكة «التين ميكريه» . «لقد سمعت عنها لكنى لم ارها ابدا في حياتي» . قال لها ان هذه السمكة نادرة جدا ، وتنتمي الى فئة الزجور : كبيرة الجنة ، تعيش في المياه العميقة ، بيد ان قيمتها تكمن اكثر في جمالها ، فهي زرقاء مبقعة يافوخها وزعانفها ومشطها الغضروفي على الظهر - من الرأس وحتى طرف الذيل - فكانها من الذهب الخالص ويشع باشعاع بديع كرميض لذهب تماما . ولهذا تسمى بسمكة الميكريه الذهبية .

في المرة الثانية قالت اوقبالا انها رأت في الحلم سمكة الميكريه الذهبية ، كانت السمكة تسبح حولها وهي تحاول اصطيادها . وتملكتها رغبة شديدة في اصطياد تلك السمكة ثم اخلاء سبيلها . وذلك من اجل ان تمسك السمكة بيدها وتحسن بيدنها الذهبي وقد ارادت في الحلم ان تمسك بتلك السمكة وطاردتها . اما السمكة فلم تستسلم ولن تقع في يدها . وبعد ان استيقظت اوقبالا تعذر عليها الركون الى الهدوء فترة طويلة وشعرت بحزن غريب ، وكأنها بالفعل لم تستطع بلوغ غاية بالغة الاهمية . ضحكت اوقبالا من نفسها لكن حتى في صحتها ودت بنفس الاحاح ان تصطاد سمكة الميكريه الذهبية .

اما يدبغي فادرك مغزى حلمها وفكر به وهو يخرج الشبكة من البحر ، وكما اتضح فيما بعد ، انه فسر مغزى رغبة زوجته في الحلم والتي لم تختف في صحتها تفسيراً صحيحاً . لقد ادرك انه يتعين عليه ان يصطاد سمكة الميكريه الذهبية ، لان مسا شعرت المرأة العامل كان هو الوحام . والنساء الحوامل كثيرا ما يشعرون اثناء الحمل بعدم الارتياح فيتوحنن بأكل شيء ما حامض او مالح او حريف جدا او مر . وبعضهن يرغبن باللحم المقلى لحيوان غير داجن او طير . ولم يندهش يدبغي من رغبة زوجته اذ كان ينبغي لزوجة صياد سمك ان تشتهي ما له علاقة بحرفة زوجها . فالفه نفسه اراد ان تشعر برغبة لرؤية السمكة الذهبية بام عينها ولمسها بيديها . كان يدبغي قد سمع انه اذا لم تلب شهية المرأة المتوحمة فسوف تكون عاقبة ذلك وخيمة على الجنين في بطن امه .



وخرج يديفي في الصباح الباكر متذرعاً بذلك لصيد الميكريه الذهبية . وكان قد جهز نفسه بجميع العدد والادوات الضرورية واعدّها مسبقاً . وقد وضعها في مقدمة القارب . وارتنى ملابس ثخينة ومدفئة ، ثم لبس ممطراً ذا قلنسوة من المشمع فوقها وأبحر .

كان يوماً باهتاً غير مستقر بين الخريف والشتاء . جذف يديفي وهو يجتاز الامواج في خط منحرف موجّها قاربه صوب عرض البحر ، حيث ، كما كان يخمن ينبغي ان تقع المواضع التي تعيش فيها اسماك الميكريه الذهبية . وبالطبع كان كل شيء متوقفاً على الحظ وحسن التوفيق ، لانه ليس ثمة ما هو اصعب على الفهم في اعمال الصيد من صيد اسماك بحرية بالشخص . على اليابسة ، مهما كان الامر ، فان الانسان وطريدته موجودان في بيئة واحدة ، فالصيايد يمكنه ان يتعقب الحيوان ، يتقرب منه ويترصده له ويتربص به وينتظره ، ثم يهاجمه . اما تحت الماء فالصيايد محروم من كل هذه الفرص . اذ عليه بعد رمي الشخص الانتظار لحين ظهور السمك واذا ما ظهرت يتربص ان كانت ستنقض على الطعم وتلقمه .

كان يديفي شديد الرغبة في داخله بان يحالفه الحظ لانه ركب البحر لا بحثاً عن صيد وفير ، بل لتلبية الرغبة السامية لزوجته الحامل .

كان يديفي الشاب قويا ومتيناً في التجديف . يقود القارب في البحر وسط الامواج المضطربة دافعاً الماء الجارى باتزان وهمة . ويسمى صيادو ارال مثل هذه الامواج امواجاً معقوفة الجانب . وهي عادة تنذر بوقوع عاصفة . لكن الامواج نفسها غير خطيرة ، وكان بالامكان التوغل في عنق البحر دون خوف . وكلما ابتعد عن الارض صغر الساحل تدريجياً بجرفه الترايبي شديد الانحدار وجزئه الاسفل الصخري الملاصق للماء ، واضمحى صعب التمييز ، وسرعان ما فقد وضوحه ، حتى ان معالمه راحت تختفى من حين لآخر . وكانت السحب معلقة في السماء بلا حراك . اما في الاسفل فكانت تهب ريح ملحوظة محدثة تموجات خفيفة على سطح الماء .

بعد حوال ساعتين اوقف يديفي القارب ورفع مجدافيه ،

وبدا هذا التوحم لاقبالاً امراً شاذاً للغاية بحيث لم تتجرأ ان تعترف به على مسامع الآخرين . اما يديفي فما اراد التدقيق ولا حاول طرح الاسئلة ، لانه كان لا يعرف هل سيتمكن من اصطياد مثل هذه السمكة النادرة ام لا . فقرر في الاول اصطياد السمكة ومن ثم ان يستجلى ان كانت تلك رغبتها . وفي ذلك الوقت كان موسم صيد الاسماك في بحر ارال الذي يبلغ اوجه من تموز وحتى تشرين الثاني على وشك الانتهاء . وكان الشتاء يطرق الابواب . وكانت الجماعة التعاونية تستعد لموسم الشتاء ، اي صيد الاسماك تحت الجليد حين يتغطى البحر كله بطبقة سميكة من الجليد ويتحتم حفر ثغرات كبيرة فيه وانزال شبكة مثقلة وسحبها من داخل البحر من هذه الثغرة الى ثغرة اخرى بواسطة طارة تجرها الجمال ، هذه الحيوانات التي لا بديل عنها في السهوب . . . . . وتعصف الريح ولا تفلح الاسماك الواقعة في الشبكة ان تتحرك ، حتى ترفع الى الاعلى ، فتتجمد في الحال وتغطي بصدف من الجليد في صقيع آزال القارس . . . . . ومهما كانت كمية الاسماك التي اصطادها يديفي مع الجماعة التعاونية صيفاً وشتاءً ، ومن الاصناف النادرة وغير النادرة ، الا انه لا يتذكر مرة واحدة وقعت فيها سمكة الميكريه الذهبية في الشباك . وكان نادراً ما يتسنى اصطياد هذه السمكة بالشخص العادي او بالصنارة الملغمية ، وحتى ذلك يصبح حدثاً مشهوداً بين الصيادين . فيتحدثون عنه فيما بعد ، ويقولون ان فلانا قد حالفه الحظ . وساعفه حسن الطالع في اصطياد سمكة الميكريه الذهبية .

توجه في ذلك الصباح الباكر الى البحر قائلاً لزوجته انه سيصطاد السمك للاستعمال البيتي طالما لم يتجمد البحر بعد . وازادت اوقبالاً عشية ذلك اليوم ان تثنيه عن عزمه فقالت : - بيتنا غاص بمختلف انواع الاسماك . فهل ثمة من داع لذهابك ؟ والجو قد برد .

بيد ان يديفي اصر على رايه وقال : - ان ما هو موجود في البيت يبقى فيه . وائت بنفسك تقولين ان العمة ساعين لزمت الفراش . وان حساء السمك الطازج هو انجع دواء . فمن يصيد السمك لهذه العجوز ؟



ورمى المرساة ، وراح يجهز عدته التي كانت عبارة عن بكرتين مزودتين بخيطين متينين وجهاز بسيط الصنع للامساك بالخيوط .  
ركب واحدة منهما على مؤخرة القارب واغطس الخيط مع ثقافته عبر حربة ذات طرفين في الماء قرابة مائة متر ، وابقى لديه للاحتياط نحو عشرين مترا . ونصب العدة الثانية بنفس الطريقة على مقدمة القارب . ثم تناول المجذافين في يديه ، وذلك لكى يبقى القارب تحت سيطرته ويحافظ عليه في الوضع المطلوب من التيارات المائية والريح . والاهم حتى لا تتشابك الخيوط ببعضها البعض .

ولبت ما كنا على هذه الحال ينتظر . حسب توقعاته كان يمكن ان تعيش هذه السمكة النادرة في هذه المناطق بالذات . لم يكن لديه اية اثباتات ، وكانت ذلك حدسه لا غير . لكنه كان متيقنا من ان تلك السمكة يجب ان تظهر ، لا بد ان تظهر بالتأكيد ، وكان لا يقدر ان يرجع الى البيت بدونها اذ لم يكن يحتاجها للتسلية ، بل من اجل قضية هامة جدا في حياته .  
وراحت الاسماك بعد امد قصير تنبئ عن وجودها . لكن تلك الاسماك لم تكن هي المطلوبة . في البدء اصطاد سمكة شبوط . وعندما كان يديغي يسحب عرف ان هذه ليست بسمكة الميكريه الذهبية ، اذ لا يمكن ان تقع السمكة الذهبية في صنارته منذ الوهلة الاولى . ولو حدث ذلك لكانت الحياة على وجه الارض في غاية البساطة وغير مشوقة . وكان يديغي يرتضى بان يكده وينتظر . ثم علقت بصنارته سمكة كبيرة من نوع ابي شنب ، وهي من افضل الاسماك في ازال ، او ربما تكون افضلها على الاطلاق . وبعد ان قضى عليها بضربة على راسها رماها الى قعر القارب . على اية حال ، فان السمك كان يكفى لحساء العمة ساغين المريضة . ثم اصطاد شلبة . اى شيطان جا بها الى هنا ؟ هذه السمكة عادة تسبح في المناطق القريبة من سطح الماء . لكن ، سامحها الله فالحق عليها . بعد ذلك حلت فترة طويلة من الانتظار المضجر . وقال يديغي في نفسه : «سانتظر . مع اننى لم اقل لها شيئا لكنها هي تعرف بالاحساس اننى خرجت لصيد سمكة الميكريه الذهبية . وينبغي ان احصل عليها . لئلا يتعذب الجنين في بطن امه . ذلك ان الطفل هو الذي

اراد ان ترى امه سمكة الميكريه الذهبية وتمسكها بيدها . اما لماذا اراد ذلك فلا احد يعرف ، والام ايضا تشتاق لذلك ، اما انا فانتى الاب ومن واجبي العمل على تلبية ارادتهما وتطمين رغبتهما» .

وراحت الامواج معقوفة الجانب تتلاعب وتحرك القارب ، لانها معقوفة الجانب ، وغير آمنة وغير مستقرة . وبدأ يديغي يشعر بالبرد من قلة الحركة وراح طول الوقت يتابع بانتباه البكرتين وخطيئهما ، ليرى ان كانت احدهما ترتعش او تتوتر ولكن لم تكن في مقدمة القارب او مؤخرته اية ظواهر لذلك . بيد ان يديغي لم يفقد صبره . فكان يعرف ويأمل بان سمكة الميكريه الذهبية سوف تقع في صنارته ، لكن حينها لو كان البحر امهله مدة ، ذلك لان الامواج معقوفة الجانب راحت تدور دورانا شديدا . لماذا يحدث كل هذا ؟ لا ، لا ينبغي ان تهب عاصفة قريبا . وربما سترتفع الامواج العاصفة عند المساء او في الليل . وعندئذ سيفلى ازال غليانا رهيبا من اقضاء الى اقضاء ، وسيغطي بالزبد الابيض ولن يتجرا احد عندئذ على الابحار فيه . لكن حتى ذلك الوقت من الممكن مزاوله الصيد في البحر ، لا يزال ثمة من الوقت ما يكفى .

وانتظر يديغي سمكته في البحر مكتئبا وشاعرا بالبرد ومتلفتا فيما حواليه . ما هذا التباطؤ ، لا تخافى بالله .  
«ولا تخشى شيئا - فكر فى نفسه مخاطبا السمكة . -

لا تخافى ، اقول لك ، اننى سوف اخلى سبيلك واعيدك الى البحر . تقولين ان هذا مستحيل ! لكن تصورى ان ذلك ليس مستحيلا ، وقد يحدث . ولست انتظر كل هذا الوقت لكى اصطادك للاكل . ان بيتنا مليء بشتى الاطعمة والاسماك . وما هي ثلاث اسماك ترقد في قعر القارب . امن المعقول ان انتظر يا سمكة الميكريه الذهبية فى سبيل الاكل ! افهمينى رجاء ، من المفروض ان يولد لنا طفل ولقد حلمت بك زوجتى ، ولم تذق طعم الراحة منذ ذلك الوقت ، مع انها لا تتحدث عن ذلك ، لكننى انا ارى وادرك كل شئ . ولست قادرا على توضيح سر كون الامر على هذه الشاكلة ، لكن من الضروري جدا ان تراك وتمسكك بيديها ، واننى لاقطع لك على نفسى كلمة الشرف باخلاء سبيلك



مباشرة واعادتك الى البحر . والامر يكمن في كونك سمكة متميزة ونادرة . لك يافوخ وذيل باللون الذهبي . وزعانفك ومشطك على ظهرك ايضا باللون الذهبي . افهمينا رجاء انها تشتاق لرؤيتك بام عينها ، وتريد ان تلمسك لكي تتحسس بيديها كيف يكون ملمس السمكة الذهبية . ولا تفكرى بانك بما انك سمكة فليس لك بنا اى شان . رغم كونك سمكة ، فانها - اى زوجتى - ولست ادري لماذا ، تشتاق اليك كاشتياقها الى اختها او أخيها وتود ان تراك قبل ان تلد الطفل . والجنين في بطنها سيشعر بالرضا . هذه هى القصة . ساعدينى يا سمكة الميكريه الذهبية ، يا صديقتى . اقتربى ، لن اسىء اليك . كلمة شرف . ان كنت ابيت لك فكرة شريرة فسوف تشعرين بها . التقمى الصنارة . عندي صنارتان ، فاخترى احدهما بنفسك . لقد علقت بكل واحدة منهما قطعة كبيرة من اللحم . وتفوح من اللحم اشهى الرائحة لكي تشمينها من بعيد . فاقتربى ولا تفكرى تفكير السوء . ان كنت قد دسست لك صنارة ملعقية لكنت تلك مسألة غير شريفة ، ولكنك انت على حق ، مع انك ستقبلين الصنارة الملعقية اسرع بالتأكيد . ولكن فى تلك الحال لو بلعت الصنارة الملعقية فسيكون من الصعب عليك البقاء على قيد الحياة والكلاب المعدنى فى أحشائك بعد اطلاقى سراحك واعادتك الى البحر !

اذن لكان ذلك خداعا ! لكننى اعرض عليك الصنارة البسيطة بكل صدق . ومع الصنارة لن يحدث لك سوء يذكر ، ما عدا بعض الجروح الطفيفة التى ستصيب شفطيك . ولا تقلقى ، لقد اخذت معى قربة ، ستكون ملائى بالماء وسوف تمكثين فيها فترة ، ثم تسبحين فى البحر من جديد ، لكننى لن اغادر هذا المكان بدونك . والوقت لا ينتظر . الا تشعرين كيف تتلاطم الامواج وتشتد الريح ؟ امن المعقول انك ترين ان يولد ابني يتيما بلا أب حنون ؟ فكرى قليلا ، وساعدينى رجاء . . . »

كان ضوء النهار يشحب فى الرحاب الرمادية للبحر البارد عشية الشتاء . وسار القارب نحو الساحل مرتفعا فوق اعراف الامواج تارة ومختفيا بينها تارة اخرى . كان القارب يسير بمشقة مصارعا الزوبعة . والبحر يرغى ويزبد ويغلى ويهتاج بالتدرج

مستمدا قوة العاصفة . وراح رذاذ الماء البارد برودة الثلج يتساقط على وجهه ، وانتفخت يدها الماسكتان بالمجذافين من البرد والرطوبة .

كانت اوقى بالا تجوب على الساحل ، وقد تملكها القلق منذ امد ، وراحت تنتظر زوجها عند البحر . حين وافقت على الزواج من صياد سمك قال لها اقاربهى رعاة ساروزيكى : يجب عليك ان تفكرى جيدا قبل قطع الوعد بالزواج فالحياة القاسية تنتظرك . اذا تزوجته ، لسوف تضطرين غير مرة ان تفتسلى بدموعك عند البحر رافعة اليه الدعاء فى ابتهاج . ولكن اوقى بالا لم ترفض يدىغي ، واكتفت بأن قالت : ساكون مثلما يكون زوجى . . . وهكذا حصل ، ولقد ذهب فى هذه المرة الى البحر لوحده وليس مع الجماعة التعاونية . وراح الظلام يخيم بسرعة ، والبحر اخذ بالهيجان والاضطراب .

لكن فى تلك الاثناء لاحظ بين الامواج المجاذيف ، ثم ظهر القارب فوق الماء . اقتربت اوقى بالا المتلغفة بمندريل وببطنها البارز من الامواج عند الشاطئ وانتظرت الى ان يرسو قارب يدىغي . دفعت الامواج القارب دفعة قوية نحو مكان ضحل . قفز يدىغي بلمح البصر من القارب وامسكه وجره الى الساحل كانه ثور . وعندما افلح فى ذلك وهو مبتل تماما اقبلت اوقى بالا نحوه ، وطوقته من رقبتة ، تحت ممطره البارد .

- منذ مدة وانا اترقب دربك . لماذا تاخرت كل هذا

التاخير ؟

- لم تات السمكة طول النهار ، الا فى اللحظات الاخيرة .
  - هل ذهبت بحثا عن ذهب سمكة الميركيه ؟
  - نعم ، لقد رجوتها وجئت بها . وبامكانك النظر اليها .
- اخرج يدىغي من القارب قربة جلدية ثقيلة مملوءة بالماء ، ففكها وسكب الماء ومعه سمكة الميكريه الذهبية على حصى شاطئ البحر . كانت سمكة كبيرة . سمكة عظيمة وجميلة . فراحت تضرب بذيلها الذهبى بشكل جنونى ملتوية ومتراقصة دافعة الحصى الرطب من حولها ، وفاتحة فمها الوردى على سعته ، وتوجهت نحو البحر محاولة الوصول الى بيتها الاصلية فسى مضطرب المياه . وفجأة تسمرت السمكة للحظة مس ، وهدات



محاولة التكيف متلفتة بعينها المدورتين والصفائيتين الى ذلك العالم الذي وجدت نفسها فيه بغتة . حتى في ذلك الغسق قبل المساء الشتوي صفع الضوء غير المعتاد رأسها ، ورات السمكة العيون المتألقة للناس المنحنين عليها ، وجزءا من الساحل ومساحة من السماء وميزت فوق البحر ، فوق موقع بعيد جدا بالنسبة لها ، وراء سحبات متناثرة في الافق غروب قرص الشمس الهامد ، الساطع الى حد لا يطاق بالنسبة لها . ثم بدأت تختنق . وانتصبت السمكة وراحت تخفق وتدور مستمدة قوة جديدة ، ساعية الى بلوغ الماء . رفع يديفي السمكة الذهبية من تحت خيشومها ، وقال لاوق بالا :

- هاتي يدك وامسكها .  
رفعت اوق بالا السمكة ، كما ترفع الطفل ، بكلتا يديها وضممتها الى صدرها .

- يا لها من مرونة ! - اطلقت اوق بالا صيحة تعجب متحسنة قوتها الخفية المحركة كالنابض . - لكنها ثقيلة كقرمة خشب ! ويا لرائحتها القوية ، رائحة البحر ! ويا لها من جميلة ! خذها يا يديفي ، انا مسرورة ، مسرورة جدا . لقد تحققت رغبتى . هيا اعدما الى البحر بسرعة . . .

اخذ يديفي سمكة الميكريه الذهبية الى البحر . وما ان دخل المياه المضطربة حتى ركبتيه الا وسمح للسمكة ان تنزلق من بين يديه . وعندما كانت السمكة الذهبية تسقط الى الماء ، لمعت للحظة في الهواء الازرق الكثيف زيتنها كلها من يافوخها حتى ذيلها ، ثم سبحت ودخلت اعماق البحر . . .

اما الزوبعة الكبيرة فقد اجتاحت البحر في الليل . وهدر البحر وراء الجدار تحت الجرف . وتوصل يديفي مرة اخرى الى قناة مفادها ان نذير العاصفة - الامواج المعقوفة الجانب - لا تأتي دون قصد . وكان ذلك في اعماق الليل . وتذكر يديفي وهو يتسمع في نصف اغفاءة الى الامواج المضطربة ، سمكته الاثيرة . كيف حالها يا ترى الآن ؟ مع انه من المفروض ان تكون اعماق البحر اهدأ من سطحه ولربما ان الاسماك ، في الاعماق السحيقة للبحر تتسمع هي الاخرى كيف تتلاطم الامواج فوق سطح البحر . ابتسم يديفي بسرور وهو يغفو واضعا يده على جنب زوجته

وسمع فجأة حركة الطفل في بطنها . كان وليده القادم ينبي عن نفسه . ابتسم يديفي بسرور لذلك واستسلم للنوم دون اية افكار مقلقة .

حبذا لو كان يعرف انه بعد سنة سنتنشب الحرب ، وتنقلب الحياة رأسا على عقب ويترك هو البحر للابد ولا تبقى منه لديه سوى الذكريات . . . ولا سيما حينما تحل ايام عصيبة . . .

**وكانت القطارات في هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق . . .**  
على جانبي خط السكة الحديد كانت تمتد مساحات شاسعة من الاراضي الصحراوية سارى - اوزيكي ، الاراضي الوسطى من البرارى الصفراء .

في العام الثالث والخمسين ، ذلك العام المشؤوم ليديفي البوراني ، حتى الشتاء اقبل ميكرا . ولم يحدث مثل ذلك ابدا في ساروزيكي . اذ سقط الثلج في اواخر تشرين الاول وبدأ البرد . لحسن الحظ انه افلح قبل ذلك ان يختزن لنفسه وظريفة والاطفال البطاطس التي جلبها من قمبيل . لقد تعجل في ذلك وكأنه كان يعرف عن مجيئ الشتاء المبكر . وفي المرة الاخيرة اضطر الى السفر على البعير خوفا على البطاطس التي يمكن ان تتجمد في حال نقلها في القطار . فما نفعها حينذاك . وهكذا فقد سافر على ظهر قره نار البوراني ، وحمله كيسين كبيرين من البطاطس - ما كان في وسعه ان يدبر امر الكيسين فساعده الناس ، كل كيس في جانب ، ودفاهما من فوق باللباد ، لئلا يتعرضا للبرد ، اما هو فقد جلس بينهما ومشى بهدوء الى بوراني - بوراني . كان يجلس فوق ظهر قره نار كأنه جالس على فيل . هكذا فكر هو بنفسه ايضا . قبل ذلك لم يكن احد يملك اى تصور عن فيلة الركوب . في ذلك الخريف عرض فسي المحطة اول فيلم هندي وتجمهر الى قمبيل الجميع بصغارهم وكبارهم لمشاهدة هذا الفيلم العجيب عن البلاد العجيبة . وعرض الفيلم فضلا عن سيل من الرقصات والاغاني عددا من الافيال . وكان الناس يذهبون لصيد النمر في الغابات على ظهور الافيال .



وسنحت الفرصة ليديغي ايضا لمشاهدة هذا الفيلم . وكان هو ومدير المرفق حاضرين اجتماعا عاما للنقابات موفدين من البورائيلين ، وعرضوا آنذاك في نادى عمال السكك الحديد بعد انتهاء الاجتماع فيلما هنديا . لقد بدأ كل شيء من هذا الفيلم . عندما خرجوا من السينما طرقت شتى احاديث ، وتعجب عمال السكك الحديد كيف ان الهنود يمتطون الافيال . وقال احدهم معلقا على ذلك :

- ما الذى اعجبكم فى هذه الافيال ؟ هل ان قره نار البورائى يعبر يديغي اسوا من الفيل ؟ حاول ان تحمله ، فيسير كفيل ! - هذا صحيح ! - ضحك الناس حواليه .

رد عليه صوت آخر :

- ما اهمية الفيل ! الفيل لا يستطيع العيش الا فى البلدان الحارة . فليحاول العيش عندنا فى ساروزيكى فى الشتاء ، سيموت بالتأكيد فهو لا يقارن بقره نار ابدا ! - اسمع يا يديغي ، يا بورائى ، لماذا لا تصنع هودجا وتحمله قره نار مثل الذى تحمله الافيال فى الهند ؟ ستسافر مثل اثريانهم الراجات هناك !

تضحك يديغي لمزاح الاصدقاء ، لكن مع ذلك كان يسره ان يسمع مثل هذا الاطراء على قره ناره المشهور . . . . بالمقابل لحق يديغي ذلك الشتاء ما لحق ، وعانى ما عاناه فى سبيل قره نار هذا نفسه . . . .

لكن ذلك الحادث كان وثيق الارتباط بالبرد . داهمه فى الطريق فى ذلك اليوم اول سقوط للثلج . كان الثلج قد سقط قبل ذلك عدة مرات وذاب . اما ثلج ذلك اليوم فقد سقط بغزارة وايماء سقوط ! اطبق ظلام تام فوق ساروزيكى وعصفت الرياح . وتساقط الثلج ندفا كثيفة ثقيلة بيضاء . لم يكن الجو باردا ، بل رطبا وغير مريح . والاهم من هذا كان يتعذر تمييز الاشياء بسبب الثلج . ماذا كان عليه ان يعمل ؟ ليس ثمة فى ساروزيكى ملاجى للسابلة حيث يمكن ان يأوى الناس اليها انتظارا لتحسن الاحوال الجوية ، ولم يبق لديه الا امر واحد وهو الاعتماد على قوة وغريزة قره نار البورائى . فكان ينبغي له ان يحمله الى البيت . ومنح يديغي لبعيره حريته

الكاملة ، اما هو فرفع ياقته وامال قبعته على جبينه وتغطى بالقلنسوة وجلس مصطبرا محاولا بلا جدوى ان يميز شيئا ما فى الطريق . بيد انه لم ير الا جدارا من الثلج الكثيف . اما قره نار فظل يسير فى تلك الدوامة دون ان يبطل سرعته ولا يد انه ادرك ان صاحبه الآن لم يعد صاحبه ، وهذا لانه سكن وركن الى الهدوء بين الكيسين وليس بإمكانه ان يظهر نفسه كسيد فى العاصفة . وقره نار كان يجب ان يملك قوة هائلة لكي يركض فى البرارى اثنا سقوط الثلج وهو يحمل على ظهره هذا الحمل الثقيل . كان يتنفس بحرارة ، وقوة ، حاملا صاحبه هادرا وراغيا كمتوحش ، وحيانا كان يعوى طويلا ويواصل السير بلا كلل وبلا توقف خلال الثلج المتساقط المعترض طريقه . . . .

ولا عجب ، فما اطول ما بدا هذا الدرب ليديغي . «جبذا لو وصلنا وبلغنا غايتنا باقصى سرعة ممكنة» - فكر فى هذا وتصور كيف سيكون ظهوره وانهم فى البيت يشعرون بالقلق لما يلاقيه فى مثل هذا الطقس . وتقلق اوقبالا عليه بيد انها لن تذكر هذا للآخرين فليست ممن يبدون المكنون ويكشفون عما يعانون وفيهم يفكرون . وربما تفكر ظريفة ايضا بما يلاقيه . انها تفكر بالطبع . ولكنها رغم ذلك لن تتلفظ بحرف واحد عن هذا تحاول ما امكنها ان تتجنب نظرتة وتتهرب بكل الذرائع والسبل من خوض الاحاديث فى خلوة وتجاذب اطراف الكلام معه على انفراد . ولكن ما الذى تتهرب منه وما الذى تخشاه وما هو فى الواقع الامر السبى الذى جرى ؟ اذ ان يديغي لم تصدر عنه كلمة واحدة ولم يبدر منه تصرف وحيد يدلان وينمان عما يجعل احدا ما يخطر على باله وكان شيئا ما هنا ليس كما ينبغي له ان يكون . وكما كان فى السابق فهو الجارى الآن . كل ما فى الامر هو انهما وقد اصبحا رفيقى طريق فى الحياة كأنما القيا حولهما نظرة للتحقق من صواب الطريق . . . . ثم تابعا المسير . وهذا هو كل شيء اما بخصوص ما سيعرض له على هذا الطريق فما هو الا شأنه وحده ومصيبته لا مصيبة سواء . . . . وهذا هو مصيره وقدره . ويبدو انه المكتوب على جبينه والمقدر له فى لسوح القدر منذ ان ولد او قبل ان يولد . وكان مقدرنا عليه ان يكون موزعا ما بين نارين . ولا داعى ان يقلق اى احد او يشغل باله



بشيء وهي قضيتها كيف سيواجه نفسه وهي نفسه المعذبة  
عذابها المبرح . وماذا يعنى الغير من حاله وما الذى ينتظره  
لاحقا . انه ليس بالصبي الصغير ولا بالغلام وبوسعه على اية  
حال من الاحوال وكيفما كان ولسوف يفك بنفسه العقدة المعقدة  
التي اشتد وثاقها اكثر فاكتر وهو المذنب فى ذلك ويتحمل  
تبعته . . .

هذه هي الافكار التي راودت خاطره وهي افكار فظيعة مؤلمة  
ومعذبة ولا مخرج منها ولا مناص . ها قد حل الشتاء فسى  
ساروزيكى اما هو فلا يزال كما كان ليس فى وسعه لا نسيان  
ظريفة ولا التخلى ولو بالفكر وحده عن اوق بالا . وهو المصيبة  
محتاج الى الاثنتين معا وبنفس الوقت وهما على الارجح ، اذ تريان  
وتعرفان ذلك لم تحاولا استعجال الاحداث واستباقها لمساعدته  
على اختيار الموقف بصورة اسرع ، اما فى الظاهر فكان كل شيء  
كما هو دوما فالعلاقات الهادئة المستقرة بين المرأتين مستمرة  
واطفال البيتين ترعرعوا معا كابناء اسرة واحدة ولعبوا سوية  
دوما فى منطقة المفرق وكانهم ابناء ام واحدة متنقلين بحرية  
للمعب تارة فى هذا البيت وفيئة اخرى فى ذلك . . . وعلى هذه  
الحال مضى الصيف وعلى هذه الحال ايضا انقضى الخريف . . .  
وشعر يديغى بنفسه وهو يسير ، وحيدا اثناء تساقط الثلج  
وحيدا وبلا ماوى . وجميع الرحاب فيما حواليه مقفرة بيضاء .  
وكان قره نار لا ينى ينفض ندف الثلج عن راسه ، ويمزق اثناء  
ركضه الصمت بهديره وزمجرته . وكانت حالة صاحبه سيئة  
فى تلك الرحلة . لم يتمكن يديغى ان يفعل شيئا بنفسه ولا ان  
يرتكز الى الهدوء ويستقر على حال واحدة لا تقبل الجدال والشك .  
لم يستطع ان يكون صريحا منتهى الصراحة مع ظريفة ، كما لم  
يقدر ان يتنازل عن اوق بالا . عندئذ بدا يسب ويشتم ويصب  
على نفسه اقذع الشتائم : «حيوان ! انت حيوان مثل بعيرك ! يا  
سافل ! يا كلب ! يا اهل !» وراح يؤنب نفسه على هذا النحو ،  
تتخلل ذلك التانيب والتاديب شتائم بذينة لكى يصحو ويعود الى  
رشده ويتوقف . . . لكن لم يسعفه شيء . . . وكان يديغى مثل  
ذلك الانهيال السدى تزحج من مكانه . . . الا الاطفال كانوا  
السلوى الوحيدة التي كانت تنتظره . وكانوا يتقبلونه دون قيد

او شرط ، ومثلما هو عليه ، ولم يضعوا امامه مشاكل معينة .  
وكان هو مستعدا دائما لتقديم المساعدة لهم وجلب اى شيء  
يحتاجونه او اى عمل فى البيت وانجز كل هذا بكل سرور  
وارتياح ، وها هو يجلب لهم الآن البطاطس للشتاء فى كيسين  
كبيرين وسط العاصفة وعلى ظهر قره نار . وكان قد تم اختزان  
الاحتياط الكافى من الوقود للتدفئة ايضا . . .

كان التفكير بالاطفال ملاذ يديغى ، وفى هذا التفكير كان يبدو  
فى وفاق تام مع نفسه . فتصور كيف سيصل بوراتلى - بورانى  
وكيف سيهرع الاولاد من البيت عند سماعهم بمجيئته ، ولن يفلح  
احد بارجاعهم على الرغم من تساقط الثلج ، وسيتقافزون حوله  
متصايحين بصوت مرتفع : «جاء العم يديغى ! وعلى ظهر قره نار !  
وجلب البطاطس !» - وفى هذه الاثناء سيامر قره نار بصوت  
صارم وحازم ان ينيخ بكلكله على الارض ويبرك ، وعندئذ  
سينزل من فوق قره نار وهو مغطى بالثلج ، وينفض ملابسه ،  
ويلحق اثناء ذلك ان يمسد شعر الاطفال ويربت على اكتافهم  
مطلبطبا ومن ثم يبدأ بانزال البطاطس ويتلفت ان كانت ظريفة  
قد خرجت ، فان خرجت من البيت ، فلن يقول لها شيئا بشكل  
خاص ، وحتى هى لن تقول شيئا ، وسيكتفى بالنظر الى وجهها  
وسيشعر بالرضا ومن جديد لا مفر من الاكتئاب والوقوع فى  
الغم . اما الاطفال فسيحومون حوله ولا ينفكون عن الاقتراب منه  
حذرين خائفين من هدير البعير . وبعد ان يتغلبوا على الخوف  
يعاولون مساعدته ، سيكون هذا بالنسبة له بمثابة مكافاة على  
عذاباته . . .

تهيا داخلها للقاء القريب مع ابناء ابى طالب مفكرا سلفا  
فى الذى سيقوله لهم هذه المرة وعن اى شيء سيتحدث اليهم  
وهم الذين كما يسميهم ويصفهم خير السامعين لانهم لا يشبعون  
من سماع الاحاديث الطريفة ويظلون يتطلبون المزيد فالزيد .  
ايتحدث اليهم مرة اخرى عن بحر ارال ؟ واحسب الاحاديث الى  
نفوسهم حراوت وقعت فى هذا البحر يطورونها فيما بعد فى  
اذهانهم ويشترك فيها ابوهم بالتاكيد وبذلك نفسه يحتفظون  
بذكره . . . ولكن كل ما سمعه يديغى وما عرفه عن الحياة فى  
البحر قد نفذ لانه قصه واعاده على اسماعهم مرارا اللهم عدا



قصة سمكة الميكريه الذهبية . وكيسف يمكن ان تروى هذه القصة ؟ ولمن يمكنه ان يشرحها ما خلا لنفسه ذاتها وهو العارق ماذا وراء تلك الاحداث التى دارت قبل زمان قديم وما هى قيمتها وفحواها . هكذا كان يقطع طريقه فى ذلك اليوم الثلج . ولم تتركه الافكار والشكوك طول الطريق . . . . وطول الطريق ايضا تساقط الثلج . . . .

ومن ذلك الثلج الذى هطل ، حل الشتاء مجللا منطقة ساروزيكى بالثلج المنبسط وكأنه رأس قد وخطه الشيب ثم جلده ببياضه الوقور وهو شتاء مبكر وقارس البرد منذ خطاه الاولى .

ومع بدء موجات البرد عاد من جديد قره ناز بعير يديغى الى حالة الهيجان واستشاط واخذت تغلى وتفور فيه قوة الفحل ولم يعد اى شىء او اى احد يستطيع ان يتناول على حريره . وفى هذا الوقت حان الاوان لكى يكف حتى صاحبه نفسه عن التحكم فيه فان عليه ان يتنازل ويتراجع ولا يقدم على اقتحام النار وهى ملتهبه وجمرها لذاع . . . .

فى اليوم الثالث عقب هطول الثلج هبت على منطقة ساروزيكى ريح صرصر عاتية وزوبعة ثلجية طاغية وساد المكان وسيطر عليه وكأنه السلطان وضاحب السلطان وانتشر فوق السهب كله باسما ذراعيه بالوصيد وناشرا جناحيه على الصعيد برد الشتاء القارس الشديد . وكانت تسمع من البعد القصى وبالوضوح الجلى فى صياحة القر الخطوات التى يصرصر تحتها الثلج واى صوت واى همس او حفيف . اما هدير القطارات على السكة الحديد فيسمع على مسافات العديد من الكيلومترات . اما حين طرق سمع يديغى عند مطلع الفجر صوت رغاء بعيره قره ناز فى حظيرته وسمعه وهو ينطط ويلوح باطرافه ويدور حول نفسه ويهزز السياج خلف البيت هانجا مائجا ادرك اية مصيبة حلت ببيته وسرعان ما ارتدى ملابسه وخرج فى عتمة الظلمة ودنا الى الحظيرة صارخا وهو يبتلج هبة من الهواء الصقيعى القارس : - ما لك يا هذا وما بك ولماذا ؟ اراك هانجا مرة اخرى وكان القيامة قد قامت وكانما حلت نهاية العالم وجاء يوم الحشر ؟ انت مرة اخرى على طريقتك الهوجاء ؟ وعدت مرة اخرى تلغ فى

دمائى وتقلقل احشائى ! يا لك من حيوان ايها الحيوان ! اخرس قلت لك وصه . ما لك قد قررت البدء مبكرا فى هذا العام بهذه القضية . السنن قد اضحكت عليك الناس وجعلت نفسك هزاة لهم ومسخرة .

ولكنه عبثا وبدون جدوى اضاع وقته وجهده وبعثر فى الهواء كل هذه الكلمات والعبارات ، فان بعيره الهائج حتى لم يعر التفاتا الى قوله وكان يريد تحقيق ارادته فواصل صراخه ورغاه والصرير باسنانه وكاد يحطم سياج الحظيرة .

- اذن فقد شمنت رائحة مالوفة ومرغوبة ؟ - قرر صاحبه ان ينتقل من السخط الى التوبيخ - القضية واضحة كل الوضوح انك لا تريد الآن سوى الركض فورا للالتحاق بالقطيع ، انك تحلم باللقاء مع ناقة انيقة من حسان النوق . لست ادري لماذا فكر الخالق البارى فى خلق جنسكم يا بعران ، وانتم تقومون مرة واحدة فى العام بما كان يمكن القيام به يوميا دون ضجيج وعجيج وضوضاء . وما الذى يعنى الناس من امركم . ولكن كلا ، ثم كلا وكانما هى نهاية العالم وخاتمة المطاف بل وقيامته القيامة . . . .

كل هذا قاله يديغى البورانى لمجرد الناحية الشكلية لكى يفش غيظه اذ كان يعلم حق العلم بلا جدواه وعجزه عن تغيير الامر . ولم يكن ثمة ما يفعل فلا فائدة من هز الهواء ففتح بوابة الحظيرة وما كاد يزحزح ويزيح الثقالة الضخمة بمقاس قامته الانسان والمربوطة بسلسلة كبيرة حتى اندفع قره ناز الى الخارج وكاد يسحق قدم صاحبه من سرعته وانطلق نحو السهب وهو يزعق ويتفاز فاتحا ما بين اطرافه بهياج ورافعا وواضعا اخفافه فى عصبية وسناماه السوداء وان يهتزان مضطربين واختفى فى لحظة متواريا عن الانظار مخلفا وراءه سحابة متطايرة من الثلج العتائير .

- تفو عليك - بصق سيده فى اثره واضاف غاضبا : - اركض ، اركض ايها الاحمق الاخرق والا تاخرت !

كان متعينا على يديغى الذهاب صباحا الى العمل . ولهذا توجب عليه ان يتصبر على تمرد قره ناز . ولو كان يعرف ما سينتهى اليه الامر فهل كان سيطلق سراحه ويترك له الحبل على غاربه -



مطلقا حتى ولو انفجر من الغيظ . ولكن من سواه وبدونه كان  
بوسع ان يسيطر على بعير هائج في الخطيرة ؟ فليذهب الى حيث  
شاء وليبتعد ما شاء . وحدث يدعى نفسه مؤملا بان البعير  
سوف يستنشق الهواء فتهدأ نائرتة ويقر قراره منطلقا على هواء  
ومتنسما نسيم الحرية فاذا ما برد هياجه وقرت نفسه واطمأنت  
وسكن دمه الفائز سيعود الى حالته الطبيعية . . .  
ولكن جاء اليه قازانغاب في وقت الظهيرة وقال له متضاحكا  
بشيء من المشاركة الشعورية :

- والآن ايها الباش سناء امرك وشانك . كنت لتوى في  
منطقة المرعى ورايت بعيرك قره نار موليا وجهته في رحلة بعيدة  
الغاية ويبدو لي انه مزع الامعان في البعاد والاسراف فسي  
الابتعاد ولعله لم تعد ترضيه النياق الحسان في ناحيتنا ولا  
تكفيه فهو متوجه في البحث عن سواهن في المكان القصي .  
- هل هرب ؟ ولكن الى اين ؟ افلست تمزح عابثا لتغيظني ،  
قل الصدق والتزم بالجد .

- وما الذي قلته مما يجانب الجد ؟ لقد قلت لك واعيد  
انه توجه الى اسراب اخرى من قطعان الابل فقد شم ما يتوق اليه  
لقد ذهبت لتفقد الوضع هناك . وما ان تجاوزت منطقة الوادي  
حتى رايت شبحا يعدو في السهب بلا ضابط ولا رابط يطوى  
الارض طيا وتبينت فاذا به هو قره نار نفسه وقد جحظت عيناه  
وهو يزعق في ثغائه باقصى ما لديه من قوة ولعابه يتسائل من  
اشدائه ويصفر كالفطرة . وخلفه زوبعة ثلجية حقيقية . ظننت  
انه سوف يدهسنى ولكنه مرق بجوارى كالسهم المنطلق من  
قوسه لا يلوى على شيء وكأنه لا يرى امامه انسانا يلوح له  
لكي يقف . لقد عدا نحو جهة ملكو مدينتشاب . وهناك تحست  
منطقة الجرف يرعى ويسرح سرب من الجمال اكبر واكثر عددا من  
سرب جمالنا . وهو الآن لا يهتم بما لدينا فهو في حاجة الى مجال  
ارحب ونطاق اعرض . انه بهيمة في اوج قوتها وذروة فاعليتها  
ونشاطها .

تعبير يدعى وارتيك بشكل حقيقي . وتصور مدى المصاعب  
والمتعاب التي سيكون عرضة لها .  
- دعك من هذا ، لا بأس في الامر ، فلتهدأ نفسك

وليستقر خاطرك . لا بد ان تكون في ذلك الجانب جمال قويسة  
سوف تقابله بالردع فيضطر الى العودة كما يعود الكلب الضال  
معضوضا ومطرودا . - اخذ قازانغاب يهون عليه ويطمئن باله .  
في اليوم التالي اخذت الانباء تتوارد وكأنها نشرة الاخبار  
الحربية او بلاغ الوقائع من جبهة القتال عن «العمليات العسكرية»  
للبعير الخطير . قره نار البوراني . وتولدت منها لوحة لا تسر  
عين الناظر ولا تطيب للخاطر . ما ان يتوقف قطار فسي مفرق  
السكك الحديد بوراني - بوراني حتى يتحدث سائق القطار او  
الوقاد او الكمساري او المفتش بحماس عن وقاحات واعتداءات  
ومجبات قره نار في مبارك الجمال عند المحطات والمفارق .  
وكان فيما رواه الرواة ان قره نار هاجم عند مفرق ملكومدينتشاب  
جملين وانفكهما عراكا الى حد الاختناق وساق امامه الى السهب  
اربع نياق ولم يستطع اصحابها الرعاة استعادتها من قره نار الا  
بلاي شديد وبالجهد الجهد . وكم اطلق الرصاص في الهواء  
افزاعا له لكي ينتهي عما ازمع ويكف عن فعلاته . وفي مكان  
آخر انزل قره نار من ظهر ناقه صاحبا الذي كان يمتطيها . اما  
صاحبها ، الرجل العبيط ، كما يبدو ، فقد انتظر ساعتين تقريبا  
ظانا ان البعير بعد ان قضى وطره قد خفف خطره وسوف يطلق  
سراح الناقة لكي تذهب على رسلها وتمضي لحال سبيلها . وعلى  
فكرة فان هذه الناقة حتى لم يخطر لها على بال ان تتخلص من  
هذا البعير وتتملص من المهاجم المغير . وعندما مل صاحبها  
الانتظار ودنا الى ناقته لكي يمتطيها الى غايته ويذهب بها لطيته  
ويعود الى اهله وبيته فما كان من قره نار الا ان هجم عليه  
كالوحش المفترس وطارده ليقتله ولولا ان الرجل لحق فسي  
آخر لحظة ان يتوارى في حفرة عميقة وينزوى فيها كالقار الهارب  
من هرة وهو بين الموت والحياة من شدة الفزع . ثم افرخ روعه  
وعاد الى نفسه وارتقى حافة المنحدر في الجهة المقابلة للمكان  
الذي قابله فيه قره نار البوراني بالويل والثبور وعظائم الامور  
وسارع الى اهله يتمطي شاعرا بالسعادة لسلامته وبقائه حيا .  
وبلغت عبر التلفون الشفهي على السنة الرواة الى منطقة  
ساروزيكي ايضا انباء اخرى على هذه البوتيرة عن مغامرات قره نار  
الخطيرة ولكن اخطر الانباء واكثرها اثارا للقلق وتأجيبا للتأثر



ورد في شكل تحريري من مفرق آق مويناق . فلقد بلغت عصا الترحال بقره نار هذا الشيطان الرجيم اليها ويقع هذا المفرق وراء محطة قمبيل . ومن هناك بعث رسالته الشخص المدعو قوسبان . واليكم فحوى هذه الرسالة العجيبة :

«السلام عليكم ايها السيد المحترم يديغي اغا . بالرغم من كونك شخصا معروفا في منطقة سارووزيكي يتعين عليك سماع امور لا تطيب للسمع ولا تروق للنفس . كنت اظن انك رجل اشد مراسما مما انت عليه . ما الذي حدا بك الى اطلاق سراح بعيرك الرهيب قره نار ؟ لم تكن ننتظر منك مثل هذا . انه قد اشاع من الرعب والروع والفزع بيننا ما لا يوصف . لقد اصاب جمالنا بالعاهات وساق منا ثلاثا من خيرة النياق ثم انه وصل الى هنا ليس لوحده بل كان يسوق امامه ناقة عائدة لاحد ما وعلى سناميها رحل للركوب . يبدو انه انزل صاحبها من فوق ظهرها . ولا يسمح لاي احد بالدنو اليها سواء اكان رجلا ام بهيمة . فهل هذا امر ينفع ؟ وكيف يمكن الصبر عليه ؟ وقد نفق واحد من جمالنا وهو جمل فتى . وظهر ان اضلاعه مهشمة بعد ان كسرهما جملك في العراك معه . اردت ان افزع قره نار بطلقات في الهواء لكي اطرده واستعيد نياقنا . ولكن هيهات . انه لا يخشى شيئا ولا يعتره خوف او وجل . وهو مستعد ان يمزق من يقرب منه باسنانه ويعجتره ويلوکه وهو على قيد الحياة ! لئلا يعرقل عليه امره او يعوقه عن مزاوله فعلته . انه لا يأكل ولا يشرب ويحرس هذه النوق ويجول حولها ويفشاهن والارض تهتز تحت وقع مناسمه . وهو يختار الواحدة منهم بعد الاخرى . وتقبض النفس رؤيته وهو يفعل هذا كالوحش الكاسر ويصرخ لدى ذلك بزعيق مروع فيملا السهب كله برغانه الصخاب كالزئير . ولا طاقة على سماعه . ويخيل اليّ انه يستطيع ان يظل يمارس عمله هذا مائة عام وعام على مر الشهور والايام بدون راحة ولا استجمام ! ولم اشاهد طيلة عمري وحشا كهذا بل ولم اسمع به . وكل اهالي بلدتنا يشعرون بالقلق والفزع ويعتورهم جميعا انشغال البال . ويخاف النسوة والاطفال من الابتعاد عن البيوت . ولهذا فانتى اطلب منك ان تاتي الينا على الفور وتأخذ جملك قره نار وتخلصنا من هذا البعير . واعطيك فترة من الزمن كمهلة

فان لم تصل الينا بعد يوم واحد لتنفذنا من هذه المصيبة الجانحة فلا تلمنا ولا تغضب علينا ايها الاغا العزيز . وانا عندي بندقية كبيرة العيار ورصاصاتها تخرق حتى فروة الدب وترديه قتيلا وتطرجه ارضا جثة هامدة . وسوف اتصدى لبعيرك واطلق عليه النار فالقا بالرصاص هامته وسيكون لدي شهود عدول وبذلك تكون لهذه القصة نهايتها وتوضع لهذا الفصل خاتمه . وسوف ارسل لك جلده مع قطار البضاعة القادم اليكم . ولن يشنى عزمي انه قره نار البوراني . وارجو ان تعلم انني رجل كلمته واحدة وفعله وقوله صنوان وقرينان . اذن فأسرع اليك قبل فوت الاوان .

اخوك الصغير من مفرق آق مويناق قوسبان .

هكذا دارت الامور . ورغم ان هذه الرسالة قد كتبها رجل غريب الاطوار الا ان التحذير الوارد فيها جد خطير والانذار فيه شر مستطير . وقد تشاور يديغي مع قازانغاب وقررا انه يتعين على يديغي التوجه فورا الى مفرق آق مويناق . والقول بهذا بسيط ولكن تنفيذه ليس بالامر الهين . كان ينبغي الذهاب الى آق مويناق وقنص قره نار في السهب والعودة به في هذه الفترة التي تعصف فيها موجات البرد القارس وتزوبع الريح الصرصر العاتية وكان ممكنا في اية لحظة ان تهب زوبعة ثلجية كالعصار . وكان ابسط السبل لهذا ارتداء ملابس دافئة وركوب قطار بضاعة اما العودة فعلى ظهر قره نار . ولكن من الذي يعلم مدى المسافة التي قطعها قره نار في السهب ساحبا معه حريمه المصون . يمكن الاستدلال من نبرة الرسالة على ان اهالي آق مويناق من الانزعاج والامتعاض بحيث انهم سوف يعطونه بعيرا للبحث عن قره نار وسيكون متوجبا عليه ان يقوم بمطاردة البعير في المنطقة الغربية عليه راجلا بين الكشبان الثلجية حتى يدرك قره نار .

وفي الصباح بدا يديغي سفرتة . واعدت له اوقبالا الطعام للطريق وارتدى يديغي من ملابسه ما يبعث الدف . وفوق السراويل المحشوة بالقطن والسترة المبطننة لبس فروة ضأن وانتعل حذاءين لباديين طويلين واعتمر بقبعة من فرو الثعالب مستديرة لا تسمح بمرور الهواء الى الراس لا من جهة الناصية ولا القفا ولا من الجانبين فهو محاط بالفراء من كل جانب . ولبس



كذلك قفازات فرائية وحين امتطى ظهر الناقة التي تهباً للانتقال  
عليها الى آق مويناق تراكض نحوه ولدا ابي طالب كلاهما ومد  
داول اليه يده بلفاف صوفى طويل يدوى الحياكة قائلا :

- ايها العم يدبغي ارسلته لك ماما لثلا يستبرد عنقك .  
- تستبرد العنق ؟ بل قل لثلا تلتهب الحنجرة .

وراح يدبغي يلاعب ويداعب الصبيين في فرحة غامرة وقبلهما  
وبلغ به التأثر الى حد استعصى عليه معه ايجساد العبارات  
والكلمات الاخرى وسرت نفسه منفعلا كصبي صغير فلقد كانت  
هذه اول اشارة وعلامة على العناية والحدب من جانبها نحوه .  
- قولا لامكما - قال للصبيين وهو يبتعد - اننى ساعود  
قريبا ، سارجع ان شاء الله في يوم الغد . لن اتأخر ولن ابقى  
هناك فوق الحد المطلوب واللازم حتى ولا دقيقة واحدة . وسوف  
نلتقى نحن جميعا مرة اخرى وسوف نرتشف الشاي معا .

كم كان يدبغي البوراني يود لو تسنى له الوصول على جناح  
السرعة الى منطقة آق مويناق اللعينة ثم الرجوع ادراجه من حيث  
اتى لكي تقع عيناه على طلعة ظريفة ومجياها ويتطلع الى عينيها  
النجلاوين ليقتنع بانها لم يكن لفتة عابرة هذا اللفاف الصوفى  
الذى طبقه بعناية ودسه في جيب الجاكتة الداخلي . وعندما بدأ  
التحرك وحينما ابتعد كثيرا عن البيت حزم امره وبالكاد تحكم في  
نفسه ليمنعها من الرجوع الى الخلف . فليذهب بلعنة الله هذا  
البعير قره نار المسعور الهائج والمنفلت من عقاله فليطلق عليه  
الرصاص الشخص المدعو قوسبان ويبعث له بجلده وبالفعل الى  
متى يظل يراعى جملا راكبا رأسه قليأخذه القدر . فليكن . انه  
يستحق هذا . اجل ، قد بدرت منه بعض هذه البدوات والنزوات  
ولكنه شعر بعدها بالخبيل واستحى مدركا انه كان احمق الحمقى  
وانه اخزى نفسه في عيون الناس وبالدرجة الاولى في عيني  
اوق بالالا بل وظريفة نفسها فهذات نائرتة وبردت حمياها وقرت  
غلوها روحه . واقنع نفسه بانها ليس لديه سوى اسلوب  
واحد لاطفاء غلته واخماد شعلته هو ان يصل الى مبتغاه سريعا  
ويعود باسرع ما يستطيع .

وبهذه الفكرة حث الناقة . كان البرد القارس صقيعا لاذعا .  
وكانت الريح صرصرا تعصف وتصفر باستمرار وحدة . وتجلد

وجهه في مواجهة الريح وانتصب الفرو الثعالي من البرد منتفخا  
كاشواك القنفذ مكنتسيا ببياض الثلج الفضى مثل التخاريم .  
وفرشت مثل هذه الملاة الثلجية البيضاء المخرمة على الناقسة  
الرمادية ايضا من عنقها حتى بوزها . ويبدو ان زمهرير الشتاء  
كان يجرى نحو أشده واغتم الافق البعيد مدلهما اما في القريب  
فلم يكن من ضباب ولكنك تنظر فيعود اليك البصر متخبطا من  
الضباب المتلبد عند منتهى دائرة الرؤية . وهذه الضبابية كأنما  
ظلت تنتقل امامه على قدر تحركه فكلما انتقل مسافة ما الى الامام  
مشت امامه زاحفة قدما لا تفارقه . وكانت منطقة ساروزيكى وهى  
ملفعة برداء الشتاء قليلة الناس وصارمة الاحساس تعبت فيها  
الرياح العاتية الباردة .

وانطلقت ناقته الفتية ولكنها ذلول وغير عصرية تسير بصورة  
لا باس بها وهى تقطع بأخفافها في نشاط الثلج المبكر . ولكن  
يدبغي العجول لم يكن مثل هذا السير ليرضيه ولا مثل هذه  
السرعة لتكفيه . لو كان تحتى بدلا منك يعيرى قره نار اذن لكان  
الامر تماما غير الامر . ان انفاسه الحرى غير انفاسك فهى اقوى  
وخطاء اشد واوسع . لا وجه للمقارنة ولا مجال للتشبيه .  
وليس عبثا ان قيل منذ قديم الزمان :

هذا الجواد الاسحم الكريم      يعدو سريعا مطلقا العنان  
فارسه بعقله السليم      اصبح فارسا الفرسان  
كانت غاية السفر بعيدة ونائية ، وطيلة الوقت في وحدة وعلى  
انفراد . وكان ممكنا ان يشعر يدبغي بالاعياء والانهاك في هذا  
الطريق لو لا اللفاف الذى اهدته له ظريفة . فقد كان يحس  
على طول الطريق بوجود هذا الشيء الذى قد يبدو للوهلة الاولى  
وكأنه تافه وزهيد . ولكم عاش طويلا في هذا العالم ولم يكن  
ليخطر له على بال ان مثل هذا الامر الطفيف القليل يمكنه ان  
يدغم الصدر وينعش النفس ويحيى القلب الى هذا الحد اذا كان  
مصدره الامراة المحبوبة وكل قليل ممن تحب كثير . وبهذا شغل  
نفسه طيلة الطريق وكان يدخل كفه في عبه ويتحسس اللفاف  
ويصده فتطرا على شفثيه ابتسامة الرضا . ولكنه على اثر ذلك  
يستغرق في التفكير ويغرق في التأمل . ما العمل وكيف ستكون  
حياته لاحقا ؟ فكان يرى امامه الطريق المسدود فلا مخرج ولا



منفذ . فما العمل ؟ ان الانسان الحى يجب ان يعيش وينبغى ان يضع نصب عينيه هدفا وغاية وان يرى الدرب نحو هذه النهاية لاحيا وواضعا . ولكنهما بالضبط لم يكونا متوفرين لديه فلا الدرب ولا غايته .

وحيثئذ سد مجال البصر امام عينى يديغى البورانى ضباب متلبد مثل هذه الرحاب الساروزيكية الصامتة التى يرخى عليها الزمهرير ستاره ويبسط عليها خماره . ولم يجد يديغى جوابا عن السؤال ولم يعثر على تفسير وتاويل لحياته القادمة فانهار من الداخل وانفعل واعتاصت عليه الحلول وعادت اليه من جديد احلامه غير قابلة للتحقيق . . .

واحيانا بدا له انه فى وضع فظيح للغاية وشعر بالرهبة والروع وهو فى هذا العالم الصامت والموحش . وتساءل : كيف قيضت له حياة كهذه ؟ لم قدر له ان يعيش فى ساروزيكي ؟ ولماذا ظهرت فى بورانى - بورانى هذه العائلة الشقية التى طاردها القدر ؟ ولو لم يكن هذا كله لما جرب كل هذه المنغصات ولعاش فى سكينه وهدوء وبراحة ومتمعة . ولكن هيهات هذا فما هى روحه لا تستقر ولا يقر لها قرار ولا تقنع بنصيبها فهى تطلب فوق ما لديها وتتوق الى المستحيل . . . ثم ما هو هذا البعير المنفلت من العقاب والمسمى قره نار يشكل ايضا عبئا وثقلا وهو كذلك عذاب وعقاب من الله فىا له من حظ تعيس ونصيب منكود . وليس هذا ، بالهزل فانه حقا من اتعس الناس حظا وانكدهم طالعا . . .

وصل يديغى الى آق مويناق والمساء يكاد يحل ويرخى ستوره وكانت الناقة قد اعياما المسير وهدت حيلها التعب . وكان الدرب طويلا ثم قد تعين اجتيازه فى فصل الشتاء .

ومحطة آق مويناق شأنها شأن بورانى - بورانى مفرق فى السكك الحديدية الا ان الماء هنا محلى مأخوذ من الآبار . ولكن ليس ثمة عدا هذا من الفروق ما يذكر فهذا المكان هو ساروزيكي نفسها .

وعند بلوغه آق مويناق استفسر يديغى من صبى التقى به فى طرف الزقاق الصغير حيث يقطن قوسبان . وقد اجابه ان قوسبان موجود فى هذا الوقت بالذات فى موضع عمله كمرقب

فى المفرق . والى هناك توجه يديغى البورانى . ذهب الى محل نوبة المراقبة ولم يكده يترجل حتى ظهر عند المدخل رجس مل متوسط القامة بادية النشاط ماكر النظرات يلتف بمعطف قصير من الفرو كانما ليس له ولا على مقاسه وفى حدائين لباديين قديمين وعلى رأسه قبعة بالية مائلة الى الجنب .

- ما انت ذا يديغى اغا يا عزيزنا البورانى اغا - رحب بيديغى وقد عرفه راسا وهو يتأرجح قافزا من عتبة المدخل - اذن فقد جئت ونحن طال انتظارنا اياك . نفكر ونحزر هل سيجى الينا ام انه لن يجى .

- وكيف يمكن الا اجى - رد يديغى متضاحكا - بعد تسلمى منكم مثل هذه الرسالة الغاضبة .

- كيف لا وما من حل آخر . ولكن الرسالة هى نصف المصيبة ، يا يديغى اغا . وما الرسالة سوى ورقة . اما القضايا هنا فهى تتطلب منك تخلصنا بصورة مستعجلة من بعيرك قره نار والا فائنا هنا كاننا فى حالة حصار ليس بوسعنا الذهاب الى السهوب فانه ما ان يلاحظ احدا ما قادما من بعيد حتى يركض هاجما عليه كالمسعود متهيئا لاصابته بعامة مستديمة . يا له من هول عجيب ! ما افزع ان يمتلك المرء مثل هذا البعير . - تم التزم الصمت ورنا الى يديغى راكبا واصاف : - ولكنى اريد ان اشاهد كيف ستسيطر عليه باليدين المجردتين . اليس كذلك ؟

- لم باليدين المجردتين ؟ فهذا سلاحى معى - واخرج يديغى من الخرج كرابجا مطويا على نصفه .

- ماذا ، ابهذا السوط ؟  
- وبماذا اذن ، وهل تريدنى ان استخدم ضد البعير مدفعا ؟

- ونحن هنا لا نستطيع كبح جماحه بالبنادق . ولست ادري ، لعله بالطبع سوف يعرفك كسيده وصاحبه وعند ذلك . . . ولكن ذلك من المستبعد فان عينيه غائرتان لا تريان ولا تعيزان وكانهما غارقتان فى الدخان . . .

- هذا ما سوف نراه ، وسوف نرى ما نرى - اجاب يديغى - ما لنا نضيع الوقت سدى ؟ يبدو انك نفسك قوسبان .



فان كان ذلك كذلك حقا فدلنى ، رجاءا ، وارنى اين بعيرى وفى اى مكان هو الآن اما الباقي فدعه لى .

- ليس المكان قريبا جدا - قال قوسبان واخذ يتطلع متلفتا الى جانبه ثم رنا الى ساعة يده - اسمع ، يا يديغى اغا ، الوقت الآن متأخر . الى ان نصل الى هناك سوف يحل المساء . وكيف ستذهب فى الليل الساجي والظلام الداجي كلا ، هذا لا يصح . اناس من مقامك ليس ممكنا دوما دعوتهم الى الضيافة فانزل ضيفا علينا على الرحب والسعة وأهلا بك وسهلا . لنتنظر للصباح وفى الصباح الرياح . ومنذ الصباح الباكر افعل ما يحلو لك ويطيب وانت وشانك .

لم يكن يديغى ينتظر مثل هذا المنقلب فى تطور الامور . كان يؤمل ان يتم الامر على المرام ان يشد على قره نار الزمام ويعجره هذه الليلة ويأخذه الى قمبيل وهناك يكون المبيت قرب محطة القطار عند معارف له ثم عند مطلع الفجر التحرك مبكرا نحو البيت . وحين لاحظ قوسبان ان يديغى عازم على الرحيل احتج بحزم :

- كلا ثم كلا يا يديغى اغا ، هذا ما لن يكون على هذا النحو . اعذرنى عن الرسالة ولهجتها فانى استميجك العذر ولكن لم يكن لدى مخرج آخر . فان البعير لم يدع لنا مجالا للعيش ونغص علينا حياتنا الا اننى لا يمكن ان ادعك تذهب . فان حدث لك سوء لا سمح الله فى الليل البهيم وفى السهب الشتوى المهجور فاننى لا اريد ان تسوء سمعتى وينتشر عنى الذكر السى فى كل منطقة سارى - اوزيكى . ابق عندنا ، ارجوك ان تبقى ، وفى الصباح افعل ما تشاء . هذا هو بيتى على طرف . بقى من عملى فى نوبة الرقابة ساعة ونصف الساعة . خذ راحتك عندي وكن كأنك فى بيتك وكما يقول الكرام «يا ضيفنا لو جئتنا لوجدتنا - نحن الضيوف وانت رب المنزل» اما ناقتك فاربطها فى الحظيرة وهناك ما يكفى من العلف . والماء العذب لدينا متوفر من آبارنا .

سرعان ما هبط الظلام فى ذلك النهار الشتوى . وظهر ان قوسبان واسرته من اطيب الناس واكثرهم حسن معشر . فان والدته العجوز وزوجته وصبيه البالغ سن الخامسة من عمره

(وظهر ان ابنته الكبرى كانت تتلقى تحصيلها فى المدرسة الداخلية بقمبيل) وقوسبان نفسه كان شغلهم الشاغل ارضاء الضيف وراحته ولا هم لهم سواه . كان البيت مدفا بالنار الى حد جعله حارا وهو يموج بالحركة المنتعشة على نحو خاص الى حد الهرج والمرج وهو نابض بالحياة . وطهى اللحم فى المطبخ من مؤونة الشتاء . فى هذه الاثناء كانوا يشربون الشاي . وكانت الوالدة العجوز تصبه بنفسها فى الفناجين وتقدمه الى يديغى البوراني ولا تفتأ تعيد عليه الاسئلة التقليدية مستفسرة عن احوال العائلة وصحة الصغار وشؤون الحياة المعاشية وعن الطقس عندهم ومن اية عشيرة ينحدر وما هى شجرة بيته فى النسب وهل هو من اهل الحنوب وتحدثت هى بدورها عن وقت وكيفية مجيئهم الى مفرق آق مويناق . وكان يديغى يجيب برغبة على كل هذه الاسئلة ويشارك فى الحديث بسمعه ولسانه وقلبه متجاذبا معها اطراف الحديث واطرى متادبا الزبدة التى كان يطلى بها الكسر من ارغفة الخبز وهى صفراء فاقع لونها يسر الناظرين ثم يدسها فى فمه متلذذا بطيب المذاق لقمة فلقمة . وسمن البقر فى ساروزيكى نادر . ان سمن الضان والمعز والابل لا يعاب ايضا وليس عليه غبار ولا بأس به كغذاء ولكن سمن البقر على اية حال الذ مذاقا واشهى طعما . وكان بعض اقربائهم قد بعثوا اليهم سمن البقر من منطقة الاورال . وكان يديغى وهو يغمس طرف كسرة الرغيف من الخبز فى هذا السمن يؤكد انه يتحسس فيه حتى نكهة رائحة اعشاب المروج وهذا ما كان له وقع طيب فى نفس العجوز وفى قلبها اجمل موقع فراحت تتحدث عن موطنها ومسقط رأسها فى اراضى منطقة الاورال التى يسميها القزاخيون فى لغتهم بنعت الرحبة والفسحة وكانها لديهم رحاب الكون وعمما تحتويه فى حناياها من اعشاب وغابات وانهار . . . وفى هذه الاثناء دخل عليهم رئيس محطة المفرق ارليبيس الذى دعاه قوسبان فى ضيافته بمناسبة قدوم يديغى البوراني . وبدخول ارليبيس بدأ عفويا وبعد ذاته حديث فياض خاص هو حديث الرجال عن الخدمة ومتطلباتها واعمال النقلات ووسائل التواصلات وعن المشاكل التى تحدثها كثبان الثلج على خطوط المسكك الحديد . وكان يديغى على بعض المعرفة مع ارليبيس



هذا في السابق ايضا فهو يشتغل منذ وقت طويل وآمد بعيد في طرق السكك الحديدية اما الآن فقد جرى التعارف على قرب وعن كتب . كان ارليبيس اكبر سنا من يديغي . وقد عين رئيسا لمفرق آق مويناق منذ ان وضعت الحرب اوزارها . وكان واضحا ومشعورا به انه يحظى بين اهل المفرق بما هو جدير به من التقدير والتوقير والتبجيل .

كان الليل فحيما حالكا وضاربا اطنابه وقد اسدل أستاره على النوافذ . وكما هو الشأن في بورانلي - بوراني كانت القطارات تمر بين الفينة والاخرى صاخبة وباعثة الضجيج بوقعها الرتيب وزجاج النوافذ ينز ويصرصر والريح تصفر من خلال شقوق النوافذ . ومع ذلك فان هذا كان موضعا آخر تماما رغم وقوعه على نفس الخط من السكك الحديدية الذي يمر عبر ساروزيكي وكان يديغي الآن بين اناس آخرين تماما . كان هنا ضيفا . ورغم كونه جاء لكي ياخذ معه قره نار الجامع الهائج فقد استقبل هنا على النحو اللائق بالترحاب والبشاشة من صميم الافئدة والحشاشمة . حين جاء ارليبيس ودخل عليهم وشاركهم احاديثهم شعر يديغي كانه بين اهله وذويه . كان يديغي يعرف جيدا وحق المعرفة التقاليد القديمة العريقة لدى القزاخين . وسرعان ما انتقل الحديث الى موضوع الزمان القديم وذكر اسماء المشهورين من الناس في هذه البقاع واحداث التاريخ الكبار . واستفاض يديغي مسترسلا في هذا المساء بانفتاح نفس وفيض شعور ازاء اصدقائه ومعارفه الجدد من قاطني آق مويناق . وقد استمالته الى هذا لا مجرد الاحاديث الطوال والمحاورات وانما ايضا بدرجة كبيرة كرم الضيافة وحسن الوفادة وكل ما لذ وطاب من الطعام والشراب . وكان على الخوان ايضا شراب الفودكا . وبسبب شدة الزمهرير والبرد المرير والسفر الطويل على الدرب البعيد اقبل يديغي على الشرب مرتسفا القدح الى نصفه وتناول من الشحم المقدد المملح المأخوذ من سنام ناقة صغيرة السن والموضوع في صحون على الاسكاملة المدورة الواطئة وهو المسمى عندهم ، اوروقوتش وشعر برعشة التلذذ من المتعة المنعشة تسرى في بدنه وتمشى في اعضائه عضوا فعضوا كما يتمشى البرء في مفاصل السقيم عند تماثله الى الشفاء . واعتري يديغي البورانلي مس من الخمار

وانتعش قليلا ونشعلت نفسه وتراوت مرتسمة على شفتيه ابتسامة الغبطة . وسمح ارليبيس كذلك لنفسه بالانبساط رافعا وشاربا الانخاب في صحة الضيف وعلى شرفه وتكريما لمقدمه وشعر ايضا بعلو نفسه ونهوض مزاجه الرائق . ولهذا قال لقوسبان وهو في هذه الحالة من الانتعاش والارتعاش :

- تفضل متلطفا يا قوسبان ، استحلنك بالله ، واجلب لي من بيتي آلة الدومبرا الموسيقية لكي اعزف لكم عليها قليلا .  
- هذا هو عين الصواب - قال يديغي مشجعا ومستحسنا - منذ نعومة اظفاري وانا احسد الذين يحسنون العزف على الدومبرا .

- لا اعدكم بعزف رائع يا يديكه ولكني اتذكر شيئا من اصوله وسوف احاول ادائه على شرف حلولك في ديارنا وبين ظهرايتنا . - قال ارليبيس وهو يخلع سترته ويرميها عن كتفيه ويشمر مسبقا عن ساعديه رافعا اكام قميصه الى اعلى مرفقيه . وخلافا عن قوسبان الحرك القوال كان ارليبيس اكثر حفاظا وتحفظا واضبط للنفس وهو ممثلي الوجه وطيرير البدن يبعث الثقة فيه والاطمئنان اليه . وحين تناول الدومبرا بيديه تركز وركز اهتمامه على ما هو مقبل عليه واستجمع امره وكانما ابتعد مسافة ما مرتفعا عن مستوى الحياة اليومية العادية . وهكذا يحدث حين يتهيأ الانسان لكشف النقاب ورفع الحجاب عن مكنون ذاته المصون وثمان كثره الدفين . ورنأ ارليبيس وهو يضبط الاوتار ويوضب الآلة نحو يديغي ملقيا عليه نظراته الطوال مفعمة بعمق التأمل وشعشع في عينيه السوداوين الواسعتين الناتنتين ببعض الجحوظ وميض الضوء منعكسا كالبروق على صفحة سطح البحر . اما عندما اخذ يطرق بالضربات اوتار الدومبرا وتسابقت اصابعه الطوال العراض صاعدة نازلة على رقبة الآلة بكل ارتفاعها واتساعها مطلقا مرة واحدة ومعا حزمة كاملة من متنوع الاصوات متناغمة في لحن منسجم وراحت تنفك واحدة اثر الاخرى عقد الصرر المحزومة سابقة ولاحقة متطورة في موضوع واحد له وجوه عديدة ولكنه مربوط بخيط رفيع ومشدود نائرا باقات الالحن بسخاء من طبقات الاوتار فقد احس يديغي البورانلي وادرك انه لن يكون سهلا ويسيرا عليه سماع



هذه الموسيقى التي تشنف الأذان وتثير كوامن الأحزان . وذلك لأنه كما يبدو لم يفعل شيئا سوى انه اشغل باله والتهى قليلا ورويدا عن نفسه وهو في الضيافة وبين مضيفيه متشاغلا لا مشغولا عن افكاره وخواتمه ولكنه عند انطلاق اولي نغمات الدومبرا عاد الى نفسه من جديد وسقط مجددا على ام راسه في لجة الآلام والمصائب . من اين جاءت هذه الحالة الداخلية ؟ يبدو وكان هؤلاء القوم الذين وضعوا موسيقى هذه الألحان كانوا يعرفون في زمانهم السحيق كيف وماذا سيكون في قابل الايام وقادم الشهور والاعوام مع يدغي البوراني وما هي الاعباء الثقيل وخلجات العذاب المكتوبة على جبينه والمقدرة عليه منذ ولادته . فهل الأمر كذلك ؟ والا فكيف استطاعوا ان يعرفوا مشاعره وخواجه وآلامه ولواعجه وعرفوا سلفا احساسه لدى سماعه هذه الموسيقى وكان نفسه هي التي تتكلم وتعبّر عن نفسها فهو يسمع صوته في هذا اللحن الذي عزفه ارليبيس ؟ مارت روح يدغي واضطربت وطارت شعاعا واستطارت واخذت تئن ائيبن الشكالي وتحن حنين النياق الى سقاها وفي دفعة واحدة انفتحت امامه كل ابواب الدنيا على مصاريعها وتجمعت في مكان واحد الافراح والأتراح والمبامج والأحزان وتماوجت الافكار والظنون وتمازجت الرغبات المبهمة والشكوك المستلهمة . . .

كان عزف ارليبيس على الدومبرا بالفعل اخاذا بالاسماع والقلوب . عادت الى الحياة من جديد منبعثة من اغوار الماضي السحيق ألوان المعاناة التي خالجت نفوس قدامى الناس في قديم الازمان وسالف العصر والأوان وخرجت من بين الأوتار حرة منطلقة تدب فيها الحياة وهي تحترق كاحطاب الاخشاب اليابسة في موقد النار الملتهب . اما يدغي فقد كان يفكر تلك الساعة وهو يداعب متلمسا باصابعه بين حين وآخر وماسحا برفق وحنان على اللغاف الصوفي الذي اهدى اليه واخفاه في جيب جاكنته الداخلي في ان الدنيا فيها الامراة التي يحبها ويهواها وان التفكير فيها يحد ذاته يجمع ما بين حلاوة الآمال ومرارة الآلام وانه بدونها عاجز عن الحياة ، فليس له عنها غنى ولهذا فانه سيظل يحبها مدى العمر وما دام حيا يرزق ومهما كان من امر . وبهذا بالضبط تغنت الدومبرا وهي بين يدي ارليبيس تارة

بالمصوت الخافت الذي لا يكاد يبين كالنار الخامدة الهامدة واخرى بالرنين العالي مشتعلة كالنار الواقدة الواصدة . كانت التلاوين في التلاحين تتعاقب بين الحين والحين وكل لحن منها يسلم الى لحن وينتقل متحولا من نغم الى نغم مناسبة في نفس يدغي باعنا فيها طورا لذة الراحة وطورا آخر عذاب الألم وكأنها قارب تتلاعب به الامواج او ريشة في مهب الرياح . ومرة اخرى وجد نفسه بعين الخيال وقد عاد بفكره الى بحر آزال وخطرت على ذاكرته التيارات البحرية غير المرئية على طول الشواطئ وتحزر اتجاهاتها بالنظر الى الاشنات المائبة طويلا الالياف وكثيفة الغزول كأنها شعر المرأة التي تسبح مع التيار مراوحة ومتراوحة في نفس المكان . وقد كان في حينه لدى اوق بالا مثل هذا الشعر الطويل الكثيف والناعم الخفيف والذي طال حتى تدلى الى ما تحت مستوى الركبة . وعندما كانت تسبح في البحر كان شعرا يطفو ويطفو بعيدا عنها في ناحية وكأنه مجموعة من الطحالب البحرية والاشنات المائية يتلاعب بها التيار . وكانت عندئذ تضحك في سعادة غامرة وهي آنذاك الجميلة الحسناء والغائنة السمراء .

وكان يدغي البوراني في حالة انتعاش نفسي حساس وهو يستمع الى نغمات الدومبرا . وهذا وحده كان يستحق ان تضرب اليه اباط الابل وتقطع المسافات في اجتياز الدرب طول النهار في برد الشتاء القارس بمنطقة ساروزيكي . واخذ يدغي يفكر بينه وبين نفسه : «حسنا فعل قره نار اذا انساق الى هنا وجئت انا او جاء بي وجعلني مضطرا الى المجيء . وما قد تلذذت روحي وتمتعت نفسي بسماع عزف الدومبرا . فما أبرعك يا ارليبيس . احسنت ثم احسنت . انك لعازف كبير كما ظهر ولم اكن على هذا بذى علم وفوق كل ذى علم عليهم . . . »

وحيث كان يدغي يستمع الى عزف ارليبيس اخذ يفكر في شأن نفسه محاولا ان ينظر الى حياته من جانب ويتطلع الى داخله من جهة جانبية والارتفاع فوق مستوى موضعه فيها كما يلقي النسر الطائر محلقا في السماء نظرتة النفاذة ليستطلع السهب المتيسط تحته كالبساط فهو يرتفع اعلى فاعلى ومن هناك ، من الاعلى في وحدة تامة معلقا على جناحيه المبسوطين الى آخر



اتساعهما فوق تيارات الهواء ينظر الى ما فى الأسفل . وانيسطت امام ناظريه لوحة عريضة لمنطقة ساروزيكى فى فصل الشتاء . وهناك عند منعطف لا يكاد يلحظ لخط طريق السكك الحديد تتلاوح حفنة متناثرة من بضعة بيوت منفردة تشعشع من نوافذها اضوية تبعث بصيصا من النور . وهذا هو مفرق بورانلى-بورانى . وفى واحد من هذه البيوت اوق بالا مع ابنتيهما . ولعلمهما الآن غارقتان فى احضان الرقاد . اما اوق بالا فربما هى ، وعلى الاغلب والارجح ، غير نائمة . انها تفكر فى امرها ولا بد ان امرها ما يشغل بالها ويقلق فؤادها والقلب يوحى كالدليل ، بما يوجب الغليل . وفى بيت آخر ظريفة مع ولديها وهى بالتاكيد ساهرة . ما اصعب حالها وما اعسر مآلها وكم عليها ان تتجرع لاحقا من مر الآلام فالصغار لا يعرفون بعد من شأن والدهما الحقيقية البلقاء . واين المفر فلا منحى ولا منجى فان الحق لا بد ان يقال والمعرفة ستطولها يد المنال . . .

واخذ يتصور القطارات ماضية هذه الساعة فى دربها وهى تلعلع وسط آناء الليل تشعشع منها الاضواء وتثير عثير الثلج كزوبعة تراب من رمال الصحراء ، ويا لها من ليلة ليلاء مرخيسة ستارها بلا انتهاء . وغير بعيد عن هذا الموضع الذى ينزل فيه ضيفا ويستمع الى رنات الدومبرا كانت القيثارة فى ذلك السهب المظلم بلا بصيص ضياء والموحش بلا نامة ضوضاء وبين الثلوج العاصفة والرياح القاصفة يتراكم هانجا مانجا بعيره الجامح الذى لا يكل ولا يمل ولا يتعب قره نار وهو لا يعرف للنوم طعاما وليس له بالراحة والاستجمام عهد ولا يريد الهدوء ، وهذا هو حكم الطبيعة وهى احكم الحاكمين . طول العام يستجمع قواه ، وعلى مدى الايام يواصل يوما فيوما تناول الطعام ويجتر علفه فى سكينه وسلام ويظل كل هذا الوقت يلوك علكه الممضوغ بفكيه الجبارين ولهذه العملية بالذات هيئت له معدة المجترات فهى فى البداية تخزن له ما يعتلفه مما يختطفه خبط عشواء من العاقول والحلفاء وشجرة السكسهول الشوكاء ثم تعيده له الى فمه فتتقلب اشداقه فى المضغ الثانية فيقلعه بأسنانه ويجمعه بلعابه ولسانه وهو ما يزاوله البعير فى أى وقت يشاء من بكرة او عشاء فهو يجتر علكته ويلوكها اثناء السير وحتى خلال النوم وكل

هذا لكى يستجمع القوى فى سناميه . وكلما قوى السنام وتلبد وسماك الشحم فيه وتصلب كالعظام كان الجمل اقوى واصلب عودا فى موسم السفاد فى الشتاء وعندها لا يابه بالثلج الصاقع ولا يكثر بالبرد الساقع ولا يخشى من الامر الواقع ولا يخاف حتى من صاحبه ومولاه ناهيك عن الناس الغرباء سواء . وحينئذ يزداد عتوا وغلوا وتدير رأسه قوة قهارة لا تغلب وهو عند ذلك ملك البيداء وسلطان الصحراء لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يعتريه تعب ولا يعتوره خوف وكانما ليس حوله لا احد ولا شئ وليس قربه من شخص او شاخص ولا يهمله لا الطعام ولا الشراب ولا اى شئ عدا اطفاء شعلته الهائلة وغير الزائلة . فانه عاش لها وبها طيلة العام وظل يستجمع قواه من أجل هذا يوما بعد يوم . وفى هذه الساعة كان يديقى البورانى يجلس ضيفا فى حضان الدفء وهو يستمع الى العزف على اوتار الدومبرا بينما فى مكان ما حول هذا المكان وفى هذه الليلة الليلاء وسط الثلوج المغمورة بنور القمر الفضى كان قره نار البورانى يفور هانجا مانجا مستجيبا لنداء دمه الفوار وهو يحرس فى غير هوجاء وحماسة طاغية نياقه القريبات الى قلبه من كل غريب ولا يسمح بالدنو اليهن لا لوحش ولا حتى لطير ولا لاي احد كان فهو يهدر ويزعق ويزمزم ويهز لحيته السوداء الشعناء باعنا الفرع حواليه . وعن هذا ايضا فكر يديقى وهو يستمع الى انغام اوتار الدومبرا . . .

وحملته انغام الموسيقى فى لحظة على كف الفكر من الماضى الى الحاضر ثم اعادته من جديد الى الماضى مرة اخرى . ثم نقلته الى ما هو منتظر فى يوم الغد . ونشأت لديه عند ذلك رغبة غريبة هى ان يصون ويحجز ويحمى من الخطر كل ما هو لديه حبيب وعزيز وكل العالم الذى يحوطه ويكتنفه لكى يصونه من كل سوء ويجنب الشر كل من فيه وما فيه . وهذا الشعور العبهم لديه بذنب محسوب عليه حيا كل من كان له ارتباط وصلة بحياته قد اثار فى نفسه حزنا غامضا . . .

- ايه ، يديقى - ناداه ارليبيس وهو يبتسم فى تأمل مكمل العزف بانتقاء الاوتار الواطئة الهامسة - يبدو انك متعب من وعناء



الطريق وينبغي تأمين الاستراحة لك بينما انا اواصل العزف على  
الدومبرا دون ان احسب لشيء حسابا .

- كلا ، كلا ، ما قولك هذا يا ارليكه . - قال يديغسي  
بصدق ومن الصميم وهو مرتبك واضعا كفه على صدره كاشارة  
تقدير - بالعكس لم اشعر منذ امد بعيد بمثل هذه الحالة  
النفسية الطيبة مثلما انا عليه الآن . اذا كنت انت نفسك لم  
تتعب ، فهيا واصل العزف وشنف آذاننا بموسيقاك الرائعة .  
وتفضل علينا بفضلك الغزير فاعزف ما شاء لك العزف .

- واي نوع من الموسيقى والالغان تريد ؟

- انت بهذا اعلم واخير يا ارليكه . والاستاذ نفسه سيد  
العارفين بما يطاوعه منها وما يحلو . وبالطبع فان القديم من  
الالغان اولى بان يحب ويرغب فانها اقرب الى النفس واحب اليها  
واعز عليها . ولست اعرف السبب الا اننى ادرى انها تستحوذ  
على النفس وتمتلك ناصيتها امتلاك العزيز المقتدر وتبعث من  
الخواطر والافكار ما تلتهب به الروح كاشتعال النار .

واوما ارليبيس براسه ايماء المدرك لهذه المعانى .

- ان صاحبنا وصديقنا العزيز قوسبان ايضا على هذه  
الشاكلة - قال ارليبيس متضحكا وناظرا الى قوسبان الذى صار  
هادئا متأملا على غير عادته - فهو ما ان يستمع متصتا الى انغام  
الدومبرا حتى يكاد يذوب من التأثر ويفقد كانه انسان غيره  
وغير الذى كان لحد الآن وسيكون بعد اوان . ليس الامر كذلك  
يا قوسبان ؟ ولكن عندنا اليوم ضيف عزيز فلا تنس هذا ولا تغفل  
عنه فصب لنا قليلا فى الاقداح .

- هذا ما سافعله فى الحال - قال قوسبان منتعشا وخف  
بنشاط فاترع الاقداح بالخمر .

وشربوا وتناولوا من النقل والمقبلات والوان الطعام . وبعد  
هنيهة انتظار واستراحة عاد ارليبيس فتناول بيده الدومبرا  
وتفحصها من جديد وضبط اوتارها ضاربا عليها كما اتفق  
ليتحقق من صحة ضبط الآلة .

- ما دمت ممن يهوى القديم ويحن الى انغام الماضى وممن  
يهوى الحان زمان - قال مخاطبا يديغسي - اذن فلسوف اذكرك  
بهذه القصة يا يديكه . وكثير من الشيوخ عندنا يعرفونها

ويتذكرونها بل وانت ايضا من العارفين بها . وعلى فكرة فان  
قزاقاب لديكم ممن يحسنون ويجيدون رواية الاحاديث ولكنه  
يتحدث قولا اما انا فعديشى هو العزف والغناء فكاننى مسرح  
كامل وحيد الممثل بل انا فيه المؤلف والممثل والمخرج . وانا  
الآن اقدم عرضا خاصا بمناسبة قدومك وعلى شرفك . وسيكون  
موضوع هذا العرض «نداء رحيم الله-اغا الى اخيه عبد الغان» .  
واوما يديغسي ايماء الشكر والامتنان . اما ارليبيس فقد  
مرر اصابعه على الاوتار واخذ يعزف اللحن المعروف وهو مقدمة  
موسيقية قبل الغناء ومن جديد عادت الاوتار تثن فى آنين حزين  
وراحت نفس يديغسي تتلوع مع اللحن لان كل ما تسرده هذه  
القصة من تفاصيل كان لها بعذاقيرها صداها ورجعها فى نفسه  
فهى معروفة لديه واثيرة عليه ومؤثرة فيه بحكم التشابه فى  
الانفعال والتماثل فى الامر . وكان ذلك فى هذه المرة بمزيد من  
الكتابة والتوق والادراك على نحو خاص .

رنت الدومبرا وانت وترنت وحننت وراحت تكرر صوت  
ارليبيس منطلقا فى الغناء وهو اجش قليلا وواطى الطبقة  
ومتناسب كل التناسب مع الحديث عن المصير الفاجع فى مأساة  
شاعر البادية الشهير (المسمى محليا جيراو بمعنى الراوية) رحيم  
الله-اغا . وقد كان متجاوزا سن الستين من عمره حين وقع فى  
هوى صبية فتية وحسنا غيداء بنت تسعة عشر ربيعا هسى  
المغنية الجواله بيغيماي وكانت تبرق مشعشة كالنجم الساطع  
فى سواد الليل البهيم وتضوى منيرة درب حياته كنجمة الصبح  
فيثوس - كوكب الزهرة - وهى البادئة بحبه . ولكن بيغيماي  
كانت حرة الروح طليقة النفس تعيش وفق قانونها الخاص وعلى  
هواها وتتصرف بنفسها حسب مشيئتها وحدها . وقد شجب الخلق  
رحيم الله-اغا على حبه هذا . ومنذ ذلك الحين تنوقلت قصة  
هذا الغرام على الافواه وتنقلت على الألسنة من شفاه الى شفاه .  
وكان له انصاره وخصومه . ولكن لم يكن ثمة من لا يبالي بها  
ولا يكثر لها . بعضهم لا يقبلها ولا يرضاها ويرفضها ويعترض  
على تصرفات رحيم الله-اغا ويطالب بان يترك اسمه فى غيابة  
الشكران ويفعل مهملا فى زوايا النسيان ويشعر آخرون بالتعاطف  
عنه ويعيشون ما عاشه بمشاركة الوجدان ويشاطرون هذا



الحزن المرير الذي سحق قلب العاشق الولهان ويبلغونه ابا عن  
جد فتلاقفه الاجيال . وهكذا عاشت حية خالدة قصة رحيم الله-اغا  
وله في كل عصر وجيل مهاجمون ومدافعون واعداء وخلان .  
وتذكر يدغفي في ذلك المساء كيف استنشأت غضبا وثارت  
ثأته وحن جنونه بسبب ذلك الرجل اللعين سنقرى العينين وهو  
يقلب أوراق ابي طالب قطبايف فيجد بينها نص النداء الذي خاطب  
به رحيم الله-اغا اخاه عبد الغان . اما ابو طالب فلقد كان على  
العكس من هذا . يقدر على التقدير هذه القصيدة وكان يسميها  
قصيدة جوته الصحراوي وظهور ان ابنا الشعب الالمانسي  
والناطقين باللغة الالمانية كان لديهم ايضا شيخ وحكيم وقع في  
هوى فتاة صغيرة السن . سجل ابو طالب كلمات الاغنية عن  
رحيم الله-اغا برواية قزانغاب على امل ان يقرأها من بعده  
ابناؤه حين يكبرون ويصبحون رجالا راشدين . وكان ابو طالب  
يقول حينئذ ان بعض الحالات الخاصة والحوادث الفردية ومصائر  
بعض الناس تغدو بعد مرور الزمن ذخرا لدى الآخرين وذخيرة  
لمن يعتبر منهم بالعبير وذلك لان الدرس المستنبط من هذا  
الحدث او ذاك من الرفعة والعلاء جامعا في نفسه الكثير من  
المشابه والنظائر بحيث ان ما جرى لفرد واحد كانما ينتشر  
ويمتد على حياة كل الناس وجميع البشر في ذلك الزمان بل وفي  
كل الازمان فتنعكس فيها وعليها معاناة من خلفهم وعاشوا بعدهم  
بزمان طويل وطويل . . .

كان يجلس امام يدغفي البوراني ارليبيس وهو يعزف  
مستوحيا ومستلهما على الدومبرا ويصاحب انغامها بصوته مغنيا .  
وارليبيس هذا هو رئيس محطة المفرق الذي يتوجب عليه  
بالدرجة الاولى الاشراف على حركة القطارات عبر طرق السكك  
الحديد في قطاع معين عهد به اليه وهنا موضع للتساؤل عن  
السر الذي حدا به ان يحمل بين طوايا نفسه وزوايا ذاته قصة  
العذاب المؤلمة العائدة الى الماضي السحيق وهي قصة رحيم الله-  
اغا التعس المنكود ولماذا يتعذب ويتألم وكانها قد حل محل  
ودخل في جلده فهو يعاني ما عاناه . . . ذلك هو تأثير الموسيقى  
الرائعة والغناء الحقيقي والفن الرفيع . واخذ يدغفي يفكر بينه  
وبين نفسه : لو امرت بان اموت الآن ثم اولد من جديد وانسا

اموت واحيا مع هذه الموسيقى فانتى مستعد في هذه اللحظة  
للموت والولادة . . . آه ما اشد الرغبة في ان تبقى النفس طيلة  
عمرها تشتعل في اوار هذه النار الملتهبة وتنصهر في بوتقة هذا  
العذاب الذي يبدو للانسان وهو في برزخه انه يرى كل شيء  
واضحا جليا كوضح الشمس في رابعة النهار ومن وضوح الرؤية  
يجد المرء نفسه في اعلى عليين . . .

بسبب تغير المكان لم يستطع يدغفي ان يغط راسا في  
لجة المنام رغم خروجه قبل هذا للتنزه في الجو الطلق واستنشاق  
انسام الهواء العليل ومع ان اهل الدار هياوا له مرقدافنا  
ومريحا وفرشوا له فراشا وثيرا واعدوا له دنارا وفيرا وخصوه  
بالبياضات النظيفة المذخورة في كل بيت من اجل الضيوف  
الاعزاء . وقد قرب من النافذة وراح يصغي الى الريح وهي تصفر  
في اسي وتصر في شجي وينصت الى طقطقة عربات القطارات  
عابرة في الاتجاهين . . . راح ينتظر طلوع الفجر لكي يهب  
طالبيا بعيره الهانج قره نار فيأخذه ويعود به بأسرع ما يمكن  
متوجها الى بوارانلي-بوراني حيث ينتظره الاطفال في البيتين وهو  
يحب الجميع بالتساوي ولكونه انما يعيش من اجل هذا ولكي  
ينعموا بالهناء والعيش الرغيد . . . واخذ يفكر في افضل السبل  
لتهدئة قره نار . ويا لها من مهمة كاداء ويا له من نصيب غريب  
قيض له وحده فليست اموره مثل امور الناس سواء وحتى  
البعير الذي خصه به القدر شديد الهياج عنيف المزاج يفزح  
الناس من طلعتة وهم الآن يريدون حتى اطلاق الرصاص عليه  
. . . ولكن كيف يشرح للبهيمة ما هو الحسن  
وما هو السي والفارق ما بين الخير والشر . . . اذن من الذي  
جره الى هذا الموضع وجاء به الى هذا المكان تلك هي الطبيعة  
واحكامها وقره نار كبير وقدير ولهذا لا تقف بوجهه اية حواجز  
او موانع ولا يمكن ان تعترض دربه عقبات مانعة فهو يجتاز  
ويذلل كل ما يعرض امامه . . . فكيف العمل معه ؟ وبأي اسلوب  
يمكن رده وايقافه عند حده ؟ . . . ينبغي تقييده بسلسلة  
وربطه في الحظيرة طيلة فصل الشتاء والا فلن يتحمل شقاوته  
وحماقة راسه الذي سوف يطير عن عنقه فان لم يفعل ذلك  
فوسيان كما هم ان يفعل فلسوف يطلق الرصاص عليه شخص



آخر سواء وبهذا سوف ينتهى الامر . . . وحين بدأ يغط. فى النوم تذكر يديغى مرة اخرى غناء ارليبيس وعزفه على الدومبرا وشعر ببالح الرضا للفرصة التى تسنت له بقضاء امسية كاملة معه . لقد انبعث وانتقلت الى روحه عبر الدومبرا الويلات التى غاناها فى حينه المغنى رحيم الله - اغا الذى احب لشقائه تلك المغنية . ومع انه لم يكن بينهما اى امر مشترك احس يديغى فى قصة رحيم الله - اغا تلك بوجود بعض التصادى والتشابه وشعر بشىء من الالم المماثل . وما قد غاناها رحيم الله - اغا قبل مائة عام قد انتقل الآن كرجع الصدى اليه ، الى يديغى البوراني الذى يعيش فى ساروزيكى الصحراوية . جذب يديغى انفاسا تقالا فى حسرات وتقلب فى الفراش ، كان يشعر بالحزن العميق الشديد من كل هذا الغموض المبهم الداهم وحيرة النفس فى داخلها . الى اين كان عليه ان يذهب واية وجهة يولى اليها وجهه وكيف ستكون حاله لاحقا ؟ وماذا سيقول لظريفة وما الذى سيصيب به اوق بالا ؟ كلا ، انه لم يجد الحل وفك العقدة . وتلخبط وتخبط فى امره وبدا له وهو فى حالة النعاس قبيل الاغفاء وكانه عاد مرة اخرى الى منطقة بحر آرال . . . وشعر بدوار الراس من زرقة البحر وصخبه وهبوب الريح . . . وكما حدث له فى عهد طفولته قفز الى البحر متصورا نفسه طائر نورس يطير حرا فوق زبد الامواج وفرح بهذا كثيرا وشعر بالمرح وراح يتلوح فوق الرحاب البحرية وظل طيلة الوقت يشنف سمعه بدقات ورنين الدومبرا وغناء ارليبيس عن الحب الشقى الذى كان يتعذب به رحيم الله - اغا وحلم مرة اخرى فى الرؤيا وطيف الاحلام انه يطلق فى البحر سمكة الميكريه الذهبية . وكانت السمكة طرية ومرنة ولزجة وحين حملها الى الماء كان يشعر على نحو محسوس بدفق الحياة فى السمكة المتزلقة وكيف كانت تخفق فى يديه توقا الى الماء وتحاول التملص للمروق اليه . وراح يسير على سيف الشاطى وكان البحر يهرع اليه ويدنو لملاقاته اما هو فكان يضحك للريح ثم فتح كفيه واخذت السمكة الذهبية تنزلق وتهبط الى الماء مدة طويلة طويلة ملتزمة فى الزرقة الكثيفة لمعانا حيا بالوان قوس قزح وظلت

تصدح من مكان ما تلك الموسيقى . . . ومعها صوت احدهم شاكيا باكيا ومتظلما من الزمان لاعنا القضاء والقدر .  
فى تلك الليلة كانت تلهو فى السهب وتعبث كما تشاء ريح صرصر عاتية . وكان البرد يستجمع قواه وتزايد ضراوته على الخط الصاعد . وكان قطع النياق او سرهين المؤلف من اربع ناقات حسان احبهن البعير قره نار البوراني ودافع عنهن كحماية الحريم يحافظ على الهدوء مستقرا فى وحدة منخفض تكتنفها كنبان الثلج احاطة السوار بالمعصم . وقد تجمعت هذه النياق وكانت الريح تكوم عليهن الثلج وهن يحتمين ببعضهن البعض متلاصقات لبعث الدفء فيهن جميعا وكل واحدة منهن واضعة راسها على عنق الاخرى والبعير سيدهن وصاحبهن وحامى حماهن البعير الغيور قره نار الهصور الذى لا يتعب ولا يكل لم يكن ليتركهن وشأنهن ينعمن بالراحة بل كان يحوم حولهن كالفلك الدوار والكوكب على المدار يزوح ويجرى ذهابا وايابا وهو يحمم ويجمر ويشخر وينخر شاعرا بالغيرة عليهن مسن لا احد وحريصا على الدفاع عنهن ضد لا شىء الا من القمر الذى كان يرسل نوره الفضى من علياه خلل السحاب العابر .

كان قره نار لا يهجع ولا يهدأ ولا يقدر له قرار ولا يحس براحة الاستقرار . وكان يراوح داخل الزوبعة الثلجية الدوارة فى دوامة هوائية كثيفة كانها من البخار كما لو كان وحشا اسود له سنامان ورقبة طويلة جدا كالحية ورأس طويل البيوز تقدر برابطه وتتحلب اشداقه . وكم قد تجمعت فيه من القوة المخزونة التى تبحت عن منفذ لتنفجر كالبركان النائر الذى يقذف الحمم . وهو الآن ايضا ليس عازفا عن مزاوله عملية الحب كفحل الضراب فهو يقم هذه من النياق او تلك ويعض بشدة كواحلهن وافخاذهن ويحاول ان يفصل بعضهن عن البعض ولكن هذا كان من جانبه افراطا فى الشبق واسرافا فى اكل الطعام طبقا بعد طبق وكان كافيا للنياق وقت النهار لارضاء شهوته وتلبية مطالبه ورغباته اما فى الليل فقد اردن الخلود الى الراحة والهدوء ولهذا فانهن ايضا اندفعن فى الزعاق احتجاجا وردا عليه متهربات مسن نجرشاته الزائدة ولم يفكرن فى التنازل والتراجع والاستسلام



واصررن على تخصيص ساعات الليل للراحة بعد التعب والهدوء بعد الشغب والصخب .

واذ اقترب الفجر ودنا هذا قره نار البوراني ايضا واطمان رويدا . ووقف بجوار النوق زاعقا على ندره وهادرا بوحشية كالزئير وهو شبه نائم بانا الرعب من حوله . وآنذاك استلقت النياق على الثلج اربعتهن واحدة بجانب الاخرى وقد مددن اعناقهن واطرقن برؤوسهن واستسلمن للنعاس فالنوم غارا . وحلمن برؤية السقاب الصغار من التي ولدن من قبل والتي ستولد من هذا البعير الاسود الذي جاء اليهن من حيث لا يدرين وغنمن في معركة سجال خاض غمارها ضد الجمال الاخرى وفاز فيها منتصرا عليها . وحلمن ايضا بالصيف ورائحة الشيح الحادة في الحقول والمامسة الرقيقة من افواه السقاب الصغار لضروعهن عند الرضاع فتدر الضروع الحقل عند هذا الابساس وتجدد بلبنها وهنا اخذت ضروعهن تمتلي وتتحسس حليبها المثرقب وكانه امر واقع . . . اما قره نار البوراني فقد ظل ساهرا في موقف الحارس الامين والديدبان الهمام واستمرت الريح تعوى وتصفر وتعبت بوبره الاشعث . . .

وما فتئت الكرة الارضية تطوف سابعة بانسياب على مداراتها ودائرة حول نفسها وحول الشمس تلف حولها الرياح العصفوف . وفي اثناء دورانها المزدوج صارت في موضع بحيث بزغ الصباح على منطقة ساروزيكي وشاهد قره نار البوراني فجأة وعلى حين غرة كيف ظهر بالقرب شخصان يمتطيان ناقة . وكان هذان الشخصان يدبغي وقوسبان . وكان قوسبان يتابط بندقيته على سبيل الاحتياط .

هاج قره نار البوراني وماج وزمجر وزعق واستشماط غيظا مستغربا وحنقا لكون الناس يجدون في انفسهم بعد هذه كله الجراة الكافية للاتجاه نحوه والدفن من حماه والاقتراب اليه وبأى حق يسمحون لانفسهم بالقدوم الى حرمة وخرق حرمة حريمه ؟ واطلق قره نار صوتا وحشيا تقشعر من هوله الابدان واخذ يدير راسه على رقبتة الطويلة وكشر عن انيابه فاغرا فاه كالنتين . واندفع البخار كالدخان من فمه الساخن وسرعان ما تلبد في زمهرير البرد وتكاثف على وپره الاسود الاشعث حول

فمه رغوة بيضاء متجمدة وبدا قره نار يبول من الهياج رائحا جانبا ثم واقفا متنفجا وبال بوجه الريح فشاعت في الهواء رائحة بوله الثلثة الحادة وتطايرت قطرات متجمدة من البول بفعل البرد فمست وجه يدبغي .

وقفز يدبغي الى الارض مترجلا وخلع فروته ورمها على الثلج وبعد ان تخفف منها - باقيا في السترة اللبادية والسرراويل المبطنة بالقطن المحشو - فك سوط الكرباج عن مقبضه الذي اطبق عليه كفه . - انتبه يا يدبكه وكن حذرا ، واذا اقتضت الضرورة فلسوف ارديه قتيلا برصاصة واسقطه ارضا . - قال قوسبان مسددا البندقية . - كلا ، مطلقا . لا تقلق من ناحيتي . اننى صاحبه وسيده وانا نفسى ووحدى المسؤول عنه فاحفظ سلاحك لنفسك . وفي حالة وثوبه تحرك ومجومه عليك لك ان تفعل ما شئت فتلك قضية اخرى . - طيب ، حسنا . - وافق قوسبان باقيا على ظهر الناقة .

اما يدبغي فقد ساط الكرباج في الهواء بضربات خافقة حادة كالطلقات متوجها لملاقاة بعيره قره نار والذي لاحظ دتوه فزاد هياجه وعلا هرجه ومرجه وضج في الضوضاء واخذ يصرخ واستحلب في فمه الزبد فراح يتسائل ويتطاير واقبل على يدبغي . في هذه الاثناء نهضت النياق من مرقدهن ورحن ايضا يتراكن ويتقافزن ويدرن حواليه في قلق .

وسار يدبغي على الثلج ملوفا وضاربا بالسوط الذي كان في العادة يستعمله لحمل قره نار على جر الزحافة عبر الثلوج المتراكمة وهو ينادى على قره نار صارخا من بعيد ومرددا اسمه على أمل ان البعير سوف يعرفه من صوته وقال له :

- ايه ، ايه ، قره نار . كف عن حماقتك وعد الى صوابك ورشدك لا تهج يا اهوج اقول لك . هذا انا ، ماذا ؟ انت اعمى فلا تراني . ألم تعرفنى ؟ هذا انا يا قره نار .

ولكن قره نار لم يكثر بصوته ولم يتعرف عليه وخشى يدبغي واعتراه الفزع حين شاهد نظرة البعير الشزراء الرعناء والمنعمة بالحدق والبغضاء ولحظه وهو يهرع اليه بكل جسده الهائل وعلى ظهره السنمان يتأرجحان . وعندئذ اصلح يدبغي وضع قبعتة ورفع يده بالسوط واهوى به في قوة . كان



السوط طويلا يبلغ طوله سبعة امتار وهو مضفور من جلد مشمع بالقطران . صرخ البعير وهجم على يديغى محاولا عضه بأنيابه او نهشه بخطمة من فمه الواسع او طرحه أرضا ودعسه بالمناسم والاختاف ولكن يديغى لم يتح له الفرصة للتقدم نحوه وبلوغ موضعه وساطه بالكرباج بكل قوته وتنكب متجنباً هجمته ثم سعى اليه متقدماً خطوة فخطوة وهو طيلة الوقت يصرخ فيه زاجراً لكي يسترجع رشده ويعود اليه صوابه الغائب ويعرف سيده وصاحبه . وظلا على هذا المنوال يبدى كل واحد منهما ما لديه من عزم وحزم وكانا معا على حق وكلاهما من جهته ذو قناعة بما يفعل . كان يديغى يشعر بهزة العجب لعصيان عمله الثائر وتمرده الفائر وسعيه نحو سعادته وحرصه عليها واحس بانه يريد حرمانه من هذه السعادة وسلبه اياها ولكن لم يكن ثمة من مخرج آخر . وكان يديغى لا يخشى سوى امر واحد هو عسى الاتنفقى عين قره نار بضربة السوط وما عدا هذا سيمر بسلام . واخيراً كسر اصرار يديغى تصميم البعير وانتصر حزم الانسان على ضراوة الحيوان . وتسنى ليديغى بسوطه الضارب وصوته الجازم الهادر وتقدمه المقتدر نحو بعيره ان يدنو منه وينتفض فيمسك به من خطام شففته العليا وكاد من شدة القبض والشد ان يشق هذه الشفة ويبتترها متشبثاً بها فى عنف وفى الحال تسنى له ان يثبت فيها حلقة البرى التى كان قد اعدّها سلفاً . ونخر قره نار ثم زمجر ثم أمعن فى الانين من شدة الألم المبرح الذى عاناه . وراى يديغى فى عينيه الجاحظتين المتوسعتين والمحملقتين رعباً والما لا تطرفان ولا تغمضان انعكاساً دقيقاً كما فى المرآة لشخصه وكاد يترجع من منظره المفزع . ساورته الرغبة فى ترك كل هذا الى الشيطان والجري مبتعداً عن هذا الأمر لئلا ينزل العذاب نكالا بهذا المخلوق البرى الا انه سرعان ما انثنى وأعرض عن هذه الفكرة لعلمه بانه كان منتظراً فى بورانلى - بورانلى ولم يكن جائزاً له ان يعود الى هناك بدون قره نار الذى كاد الجيران ممن اهالى آق مويناق ان يطلقوا عليه الرصاص . والح على نفسه فجعلها تصبر وتواصل وحملها على ما ينبغي عليه فعله .

وصرخ بمزيد من المهابة واستمر فى مزاوله اخضاع البعير

وارغامه على الاضطجاع أرضاً والبروك عليها . كان ينبغي ان يوضع عليه الرحل . وكان قره نار البورانلى لا يزال يقاوم ويزعق ويذمجر قاذفاً على صاحبه دفقات من انفاسه الرطبة الخارجة من فمه الساخن الفاجر ولكن صاحبه ظل مصراً على ما يفعل وارغم البعير على الخضوع له والاستكانه اليه .

- قوسبان ، اقدف لى الى هنا عدل البعير وسق بعيداً هذه النوق خلف الكتيب لئلا تقع عيناه عليهن فلا عين ترى ولا قلب يحزن . - صرخ يديغى بهذا نحو قوسبان .

وقذف قوسبان بسرعة العدل الذى كان على ناقته وركض هو نفسه فساق قطع قره نار من النياق الحسان . وفى هذه الاثناء تم الانتهاء من كل شىء فقد وضع يديغى بسرعة ذلك العدل على قره نار وحينئذ ركض قوسبان جالبا الى يديغى الفروة التى رماها على الارض فارتداها بسرعة وامتطى بحركة عاجلة دون تباطؤ قره نار الذى كان قد وضع العدل عليه وكبح جماحه فسلس قياده ولان .

وحاول البعير الجامح العودة الى النياق التى فرقوا بينه وبينهن وحاول حتى ادارة راسه الى الخلف على عنقه الطويلة وبلوغ صاحبه وراكبه باسنانه . ولكن يديغى كان عارفاً بأمره وخبيراً . وبالرغم من الرغاء والزعقات الحاقدة وزمجرة قره نار الممتضة التى استمرت لفترة طويلة ساقه يديغى بعناد واصرار على الدرب المكسو بالثلج وحاول طيلة الوقت اعادته الى جادة الصواب وجعله يهدأ وهو يقول له : - كف عن هذا ! يكفى ! اصمت ! صه ! مهما فعلت فلن يباح لك الرجوع الى حيث كنت ولا رجعة الى الخلف . يا لك من احمق فارغ الرأس من المنع . اتظن اننى اعطف عليك بلا سبب ؟ ولولاي لكنت الآن قتيلاً بالرصاص كوحش هائج ضار ، فما قولك ؟ جن جنونك وهذا صحيح كل الصحة القول بانك كنت مسعوراً . لقد جننت وتصرفت كسر المجاذيب . والا فلماذا جئت الى هنا قاطعاً كل هذه المسافة البعيدة لم تكن تكفيك النياق التى عندنا ؟ اذن فاعلم باننا سوف نذهب الى البيت وقد حلت نهاية جولاتك فى الاماكن الغريبة ومغامراتك فى قطعان الغير . سوف اقيدك بسلسلة



ولن تكون لك حرية القيام بخطوة واحدة ما دمت قد كشفت عن حقيقتك وبرهنت على طينتك !

واستمرسل يديغى البوراني في الوعيد وانما كان ذلك لكى يبرر تصرفاته في عين نفسه ذاتها . لقد قاد قره نار عنوة وساقه بالقوة مبعدا اياه عن ناقاته في آق مويناق وكان ذلك بوجه عام ليس من العدل . ولو كان جملا هادى الطبع لكان قد تركه على هواه مع هذه النياق . فلم يترك الناقة الذلول عند قوسبان الذى وعده بارسالها عند الاقتضاء والامكان الى بورانلى بورانى . فلا مشاكل معها وسيكون كل شيء حسنا ولطيفا . اما هذا البعير اللعين فليس من ورائه سوى المنغصات .

بعد مضي بعض الوقت استسلم قره نار البوراني واسلس قياده لكونه صار من جديد يركب وبهذا اصبح مطية لسيدة . وقل صياحه وهدات ثائرتة واسرع الخطى في خيبه وسرعان ما بلغ ذروة عدوه فراح يركض العرضنى مباعدا ما بين قوائمه وقاطعا الارض نحو ساروزيكى . وارتاحت نفس يديغى واتخذ جلسة مريحة بين السنامين الناتئين واحتمى من الريح واحكم شد لثامه واخذ الآن ينتظر بلهفة وفارغ الصبر بلوغ الامكنة البورانية .

ولكن المسافة الى البيت كانت لا تزال على قدر كاف من البعد . وكان النهار هادئا والريح ليست عاتية كما ان الغيم غير متلبد . ولم يكن يخشى هبوب زوابع ثلجية في وقت قريب بيد ان ذلك كان مرجحا حدوثه في الليل . عاد يديغى البوراني راضيا لانه قد تسنى له قنص ولجم قره نار وكبح جماحه وكان مبعث رضاه على نحو خاص سماعه مساء أمس في ضيافة قوسببان عزف ادليبيس على الدومبرا وغناؤه .

وعاد يديغى بفكره لا اراديا الى افكاره حول حياته غير الموافقة . ويا للمصيبة ! كيف العمل وما الذى ينبغى فعله لئلا يعانى اي احد ولكن يعلن اله على الملا مكشوفاً ولا يخفيه بان يذكر لظريفه انه يحبها . واذا كان اولاد ابي طالب لا يجدون مجالا للتحرك والانطلاق وتسد امامهم الطرق بسبب لقبهم وانتسابهم الى ابيهم فانه اذا وافقت ظريفة على استعداد لنسبة هؤلاء الصغار اليه رسميا وربطهم رسميا اليه بالاسم واللقب .

وسيكون من دواعى سعادته لو غدا لقبه حاجزا حاميا للصغيرين داوول وايرميك . وعسى الا تكون امامهما اية حوائل وعوائق على الدرب . فلتزل اية عقبات تقف في وجوههما . وليحالفهم النجاح ويبلغا ما يستحقونه بما لديهما من قوى فكرية وذهنية وقدرة . وهل يضمن باعطاء اللقب لغرض كهذا ؟ اجل ، اخذت الافكار من هذا النوع ايضا تراود فكر يديغى البوراني وهو فسى الطريق .

كان النهار قد مال الى الغياب . ومهما بدر عن قره نار الهمام من مقاومة وهياج فانه عند ركوبه كان يؤدي مهمته بشكل مقبول . وما قد انبسطت امام النظر المروج البورانية وما هي الشجيرات المألوفة والمحفوفة بالكتبان وما هي الربوة الكبرى وبعدها ترائى على منعطف طريق السكك الحديد مفرق بورانلى بورانى . كانت اعمدة الدخان منبعثة من المداخن . كيف حال اهله هناك ؟ لم يطل غيابه سوى ليوم واحد لا غير ولكن القلق فى نفسه وكانما هو لم يكن بينهم طيلة عام كامل . وما اكثر شوقه وتوقه وخصوصا الى الاطفال . وحين لمحت عينا قره نار مباني المساكن زاد من سرعة خطاه وراح يجرى وقد ساح منه العرق واختلج من الحماس موسعا خطواته الطوال ومرسلا من فمه سحائب البخار . وبينما كان يديغى يدنو الى البيت لحق فى المفرق ان يتقابل ويختلف فى اتجاهين قطاران للبخاعة . سار احدهما نحو الغرب والثانى نحو الشرق . . .

توقف يديغى فى الجهة الخلفية عند فناء الدار لكى يدخل قره نار راسا الى الحظيرة . ترحل وخطف سلسلة ضخمة مربوطة الى عمود مدفون فى التراب فقيدها بها ساق البعير الامامية . وتركه وشأنه «فليسترح اولا ثم ارفع عن ظهره رحل الحدوج» هكذا قرر بينه وبين نفسه . وقد كان الامر ما على عجلة شديدة من امره . وبعد ان مد قامته مقوما ظهره الذى طال عليه الانحناء وطبطب برجليه ليعيد الى ساقيه طراوتهما بعد طول الركوب خرج يديغى من الزريبة حين هرعت اليه ابنته الكبرى ساوله . وعانقها يديغى محتضنا وهو يتحرك بارتباك بسبب الفروة التى يرتديها وقبلها فى خدما .

- سوف تستبردين - قال لها مشغفا عليها وخائفا على



صحتها وكانت ترتدى ملابس خفيفة - اركضى جريا الى البيت .  
ساجي، حالا .

- ابتاه - قالت ساوله وهي تلاطف اباهما - لقد رحل داوول  
وايرميك - والى أين رحلا ؟

- ذهبا بشكل نهائي . مع امهما . ركبوا القطار ورحلوا .  
- رحلوا ؟ متى رحلوا ؟ - قال يديغي وهو لا يزال لا يدرك  
بعد على وجه الضبط ما هو المقصود من الكلام وراح يستفسر  
ناظرا في عين ابنته .

- في صباح هذا اليوم .  
- هكذا اذن - قال يديغي بصوت مرتعش - هيا اركضى

الى البيت جريا - وأطلق ابنته . اما انا فسوف آتى بعد حين  
فاذهبي انت الآن . . . وتوارت ساوله خلف زاوية الركن . اما

يديغي فقد توجه راسا الى كوخ ظريفة مسرعا وحتى دون ان يرد  
خلفه باب الزريبة باحكام وهو في فروته فوق السترة اللبادية

المبطنة بالقطن . مضى وهو غير مصدق . ربما تكون الطفلة  
مشتبهة وقد اختلط عليها الامر . هذا ما لا ينبغي ان يكون .

ولكن المدخل الى البيت كان موطوا بآثار الكثير من الاقدام .  
وجذب يديغي الباب بشكل حاد وجره اليه من السقطة وحين عبر

العتبة شاهد الغرفة المهجورة والتي بردت منذ وقت طويل وقد  
تبعثرت فيها البقايا المتروكة من النفايات المهملة . ولم يكن

ثمة من اثر لا للاطفال ولا لوالدتهم ظريفة . - كيف هذا ؟ -  
همس يديغي في الفراغ وهو لا يزال يمتنع عن الفهم حتى النهاية

لما حصل - اذن فقد رحلوا ؟ - قال مستغربا وفي أسى بالرغم  
من انه كان جليا تماما ان هؤلاء الناس قد رحلوا

وغادروا .  
وكان الامر صعبا على نفسه كما لم يكن من الصعوبة طيلة

عمره . وقف ملتفعا بمعطف القرو في وسط الغرفة قرب موقد  
الفرن البارد لا يدري ما يفعل وما الذي ينبغي فعله لاحقا وكيف

يمكن تسكين ما يعتل في نفسه من فورة صارخة ومنتدفة الى  
الخارج ناجمة عن الشعور بالهزيمة والفقدان . كانت مرمية

على رف النافذة احجار معرفة الطالع التي نسيها ايرميك وهي  
تلك نفسها الواحد والاربعون حجرا التي تعلم الصبيان استخدامها

للتعرف على المستقبل وكشف الطالع ولمعرفة موعد عودة ابيهما  
الذي لم يعد منذ امد بعيد بين الاحياء وهي احجار الامل والمحبة .

وللملم يديغي هذه الاحجار في كومة واطبق عليها كفه في قبضة  
مشدودة وهي كل ما بقي لديه منهم . ولم يعد لديه من القوة ما

يكفي والتفت نحو الجدار ملصقا جبينه الملتهب الى الالواح الباردة  
وانخرط في التشيخ ناحيا وهو مسحوق ويائس وفريسة القنوط .

وبينما كان ينحب باكيا تساقطت من يده الى ارضية الغرفة تلك  
الاحجار واحدا بعد الآخر . وحاول مهتزا في قشعريرة الاحتفاظ

بها والامساك بها في يده المرتعشة ولكن يده لم تطاوعه  
وانزلت الاحجار منفلتة وكانت تسقط على الارضية في وقع اجش

متتابعة وكانت تقع وتتدحرج الى شتى الزوايا في غرفة البيست  
المهجور . . .

ثم ادار جسمه وزحف معتمدا على الجدار وجلس القرفصاء  
ببطء وظل جالسا هكذا في فروته وقلنسوته ضاغطا بظهره على

الحائط ومنخرطا في نحيب مرير وهو متكسر العبرات . وأخرج  
من جيبه اللفاف الذي اهدته اليه قبل يوم ظريفة وراح يمسح

به دموعه المذروفة مدرارا . . .  
ظل جالسا هكذا في البيت المهجور وحاول ادراك كنه ما

حصل . اذن فان ظريفة رحلت ومعها ولداها في غيابه عمدا .  
اذن فقد ارادت ذلك او خشيت انه لن يسمح بذهابهم . بل وانه

لما كان سيسمح بهذا مهما كانت الاحوال وعلى اية حال ومهما  
كان . ومهما كانت حصيلة هذا الامر فانه لم يكن ليسمح بذلك

لو انه كان هنا عندئذ . اما الآن فلقد غدا من غير الميسور  
وقد فات الأوان ان يحزر ما الذي كان يمكن ان يحدث لو انه كان

موجودا وحاضرا حينئذ ولم يكن مغادرا ومسافرا . والآن لم  
يعودوا موجودين ، لا اثر لظريفة ولا لولديها . وهل كان ممكنا

ان يترك ظريفة ولولديها يتبعدون عنه ويذهبون ؟ وسر الامر  
كله في ظريفة ، لقد فهمت وتصورت ان من الافضل ان يرحلوا

في غيابه . وبذلك سهلت على نفسها الرحيل الا انها لم تفكر فيه  
وفي امره وكيف سيكون فظيما عليه ان يرى البيت بعدهم مهجورا

فيبعد ملوما محسورا .  
ثم لا بد ان يكون احد ما قد عاونها بايقاف القطار لها



في محطة المفروق . فمن هو ذلك الشخص . انه معروف . لا بد وان يكون ذلك الشخص هو قازانغاب ومن غيره وسواه . ولكنه ، بالطبع لم يكسر جهاز التوقيف الاضطراري كما قد فعل يدبغي في يوم وفاة ستالين وانما اتفق ورجا مدير محطة المفروق القادر على ايقاف القطار ان يوقف احد قطارات الركاب . انه رجل من هذا الطراز . . . واولق بالا ينبغي ان يكون لها ايضا يد واصبع فسي هذا الامر لكي تسهم في ابعادهم عن هنا بأسرع ما يمكن والى ابعد ما يمكن . ولكن انتظروا وسوف ترون ! واندفع دم النار فوارا من الاعماق وبلون قاتم السواد صاعدا الى الراس ومهبجا ومؤججا للدمماغ وكان بوده الآن لو استجمع قواه وحزم امره وضرب ضربته القاضية ليسحق ويمحق كل من وما في هذا المفروق اللعين الذي غضب عليه الله فأهمله والقاء فسي زاوية النسيان وتركه ينعى من بناء ، هذا المفروق المسمى بورانلي - بورانلي ويهدمه من أساسه وعلى اسه ويتركه أثرا بعد عين . ثم يمتطي ظهر قره نار ويهيم على وجهه في ساروزيكى ضائعا حتى الموت في وحدة ووحشة معانيا الجوع والبرد . ظل هكذا جالسا في هذه الوضعية في الموضع المهجور خائر القوى حائر النفس شارد الذهن مهزوز الخاطر من هول ما وقع . ولم تبق فيه من بقية سوى الحيرة البلاء اذ يدور في واعيته التساؤل الفارغ : «لماذا رحلت ؟ والى اين ذهبت ؟ ما سر رحيلها والى اين ولت وجهتها ؟ لماذا رحلت والى اين ذهبت ؟»

ثم ذهب الى بيته . وتناولت اولق بالا وهي صامتة فروته رافعة اياها عن كتفيه وقلنسوته فعلقتهما على المشجب وخلعت له حذاءه اللبادي الطويل ووضعتة في ركن الزاوية . وكان من الصعب ان يحدد من وجه يدبغي البوراني الصارم المتجهم والجامد كالحجر ما الذي يفكر فيه وما الذي يزمعه وينتويه . وكانت عيناه زائغتين لا تعبير فيهما وتخفيان في داخلهما الجهد فوق البشري الذي بذله لكي يظل محتفظا برباطة جأشه وضبط النفس . وكانت اولق بالا قد سخنت سماور الشاي مرارا في انتظار زوجها . كان السماور فائرا ، يغلي فيه الماء مليا القنأة بالفحم الخشبي المتوهج المتوقع . وقالت لزوجها :

- الشاي ساخن ، رفعته عن النار للتو واللحظة .

رنا يدبغي نحوها متطلعا في صمت وواصل ارتشاف الشاي الساخن . لم يشعر بمدى سخونته . وكانا كلاهما ينتظران فسي توتر بدء الحديث - رحلت ظريفة من هنا مع ولديها - تمتمت اخيرا اولق بالا .

- اعرف هذا ، - رد يدبغي باقتضاب دون ان يرفع راسه عن فنجان الشاي ، وبعد هنيهة صمت استفسر متسانلا ودون رفع راسه وعينيه عن شايه : - الى اين رحلوا ؟ - انها لم تذكر لنا شيئا عن هذا - اجابت اولق بالا .

وعند هذا لزمها حبيل الصمت . واذ يلذع يدبغي الشاي الساخن لشفتيه لم يعر ذلك التفاتا كان مشغول الذهن بأمر وحيد هو منع نفسه من الانفجار والحيلولة دون تدفق كل ما في داخل نفسه من الشرار الى الخارج لئلا يفرغ الصغار ولئلا يحدث الأمر الجلل . . .

عقب انتهائه من شرب الشاي تهب للخروج الى الشارع من جديد وعاد الى ائتعال الحذاء اللبادي الطويل وارتداء الفروة والقلنسوة .

- والى اين انت ذاهب - تساءلت زوجته .  
- اريد تفحص امر البهيمة . - القى الجواب وهو عند الباب .

وفي هذه الاثناء اوشك على الانتهاء النهار الشتوي القصير . وسرعان ما تلبد الجو كأنما في مدى رؤية البصر وأخذ يعتم ويظلم في الحوالي . واشتد زمهرير البرد بشكل ملحوظ وظهر عز الشتاء عزمه وحزمه وايدى صرامته وايدته . اما يدبغي فقد مضى متجها مقطب الوجه يتخطى المسافة الى الحظيرة ودخلها وعند دخوله اليها تفحص المكان بعينيه ناظرا الى قره نار وهو يتوثب مجاذبا عنان السلسلة وخاطبه بقوله :

- افانت طول الوقت تصرخ وترزق . لا تهديا نائرتك لسوف ترى ايها النذل الحقيير وتتحمل وحديشى معك منذ الآن قصير . لم تعد لديك عندي الآن قيمة تذكر .

ولكز يدبغي البعير قره نار في جنبه بحقد وموجدة وصب عليه سيلا من اللعنات والشتائم المقذعة في السباب ومن فحش الخطاب وخلع عنه العدل والخرج ملقيا عدة الركوب وفك وثاق



السلسلة عن ساق قره نار المقيدة ثم أمسك بمقوده وشد قبضة يده الاخرى على مقبض السوط الملفوف حول مقبضه وتوجه الى السهب وهو يجز من المقود بعيره المحمم الذي يثن في كآبة واسى . ونظر صاحبه عدة مرات اليه ولوح له بقبضته مهددا ومتوعدا وهم بضربه لكي يكف عن ائنه وزمجرته واذا لاحظ ان ذلك لا فائدة من ورائه ولا طائل كف عن ذلك وبصق متأنفا ومتضجرا ولم يعد يعير ذلك التفاتا وسار مقطب الوجه متجهما ومتحملا بصير زمجرة البعير وزعيقه ، سار وثيدا وعلى خط مستقيم في الثلج العميق بغز الشتاء في الحقل المعتم من الارض العراء تحت جنح الظلام البهيم وهي تفقد تدريجيا حدودها وتغدو دون ابتداء وبلا انتهاء . كانت انفاسه ثقيلة ولكنه سار دون توقف يلهث ويستحث السير . سار طويلا ومطرقا براسه في اسى . وحينما ابتعد عن المفرق واختفى وراء الكتيب اوقف قره نار لكي ينيله عقابه الشديد وينزل به النكال . التقى يديفى فروته على الثلج وشد المقود بسرعة في حزام فروته لئلا يقفز البعير ويفر ولكي يطلق يديه حرتين وشد بقبضتي يديه كليهما ممسكا بمقبض السوط وراح يلهب بالسوط ظهر البعير صابا على راسه جام غضبه ومنتقما منه لمصابه والمه . وساط في حنق وفورة وبلا شفقة قره نار البوراني منزلا به الضربات واحدة تلو الاخرى شاخرا وناخرا ومسلسلا عليه الشتائم واللعنات وقائلا :

- خذ ، خذ ، ايها البهيمة الحقيرة . كل هذا حصل بسببك . انت المذنب في هذا كله ، انت المذنب . والآن سوف اخلي سراحك وادعك لشانك فاذهب الى حيث شئت ولكن قبل اطلاقك سوف اضربك حتى تصاب بعامة مستديمة . خذ وخذ ، ايها الحيوان الذي ياكل فلا يشبع ! كل شيء لا يكفيك . كان لا بد لك من الركض والابتعاد وهي قد رحلت في تلك الساعة مع ولديها . ولا شأن لك بأحد ولا يعنك ما حل بي واصابني ولا يعنى اى احد آخر منكم شأنى ومصابى . وكيف استطيع الآن ان اعيش ؟ وكيف سيكون عيشى بدونها ؟ اذا كان الامر لديكم سواءا بسواء وعلى حد سواء فانا ايضا انظر الى اموركم بنظرة سواء . اذن فخذ وخذ يا ايها الكلب الحقير .

صرخ قره نار وهاج وتقافز وماج وتمايل تحت وقع الضربات الموجعة من السوط الرهيب ثم جن جنونه وطاش عقله وصوابه من فرط الرعب والالام فركل سيده وصاحبه بقدمه والقاه ارضا على الثلج وهام على وجهه جاريا وهو يجره فوق الثلج . جبر صاحبه بقوة وحشية فظيعة ساحبا اياه وكأنه جذع شجرة مؤملا ان يتخلص منه ويتحرر من سيطرته ليعود حرا مطلق السراح ويرجع الى المكان الذي اعيد منه عنوة وبالقوة .

- قف ، ويلك . قف ويحك - صرخ يديفى وهو يكاد يخنق ويتمزق مسحوبا على الثلج الذي يجره عليه البعير جرا . طارت عن راسه القلنسوة وصدمت راسه الاكوام الثلجية فراح يشعر بدفقات متتابعة ومتعاقبة من الحر والقر على راسه وعلى وجهه وعلى بطنه وتسرب الثلج الى داخل المعطف متجمعا عند رقبتة وصدره وتحت ابطيه والتف السوط على يديه . ولم تكن لديه من حيلة او وسيلة لكي يوقف بشكل ما ذلك البعير عند حده ويشنيه عن قصده وما من سبيل الى فك المقود من حزامه . وذلك البعير يجرجر به على الارض مذعورا طائش العقل لا يرى منقذا الا فى الفرار . ومن يدري بم كان يمكن ان ينتهى كل هذا لو لم يتح ليديفى بشكل عجيب اشبه ما يكون بالمعجزات ان يفك حزام الفروة عن خصره وبطنه وبذلك ينقذ نفسه والا لكان قد لقي الهلاك اختناقا بين الثلوج . وعندما أمسك بزمام المقود وتشبث به جره البعير ايضا لعدة امتار اخرى وتوقف ملجوما بشد صاحبه لزام مقوده بأخر ما لديه من قوة .

- يا لك من اهوج - تتمم يديفى وهو يعود الى نفسه لاهت الانفاس ومترنجا - كيف تفعل هذا ؟ اذن فلسوف تلقى نصيبك يا بهيمة . فاذهب عنى اذهب الى حيث تشاء بعيدا عن عيونى . اركض ايها اللعين فلسست متى ولست منك ولا اريد ان تقع عليك عياني ما بقيت حيا فاذهب عليك اللعنة اذهب بلا رجعة فليطلق عليك الرصاص فلترجم وتلجم كالكلب المسعور . كل ما جرى وقع بسببك اذهب لتلقى حتفك وحيدا فريدا فى السهب كالكلب الضال ولتذهب روحك الى الشيطان وليكن



مصيرك الهلاك وبئس المصير . - وجرى قره نار راكضا وهو يزعق ويصرخ في جهة آق مويناق . اما يديغي فقد ركض خلفه وضربه بالسوط وهو يصب عليه سيلا من اللعنات والشتائم القبيحة المقذعة من فحش القول بكل ما في جعبته وكنائسه من عبارات السب والشتيم واللعن . حلت ساعة التنكيل والعقاب والفراق . ولهذا ظل يديغي مدة طويلة يصرخ في اعقابهِ :

- اذهب ملعونا يا مطية الشيطان ومركب ابليس اللعين ! اركض مت وانفق كالكلب المعقور والحمار المبتور عسى ان تصيبك رصاصة في جبهتك وتفلق رأسك وتحطم جمجمتك . تابع قره نار ركضه مبتعدا اكثر فاكثر في البادية الظلماء المعتمة والحالكة وسرعان ما اختفى اثره في دوامة زوبعة ثلجية ولم يبق ثمة مما يدل عليه سوى زعقات متفرقة نادرة كانت تأتي بها الرياح حادة كالنفخ في النفير . وتصور يديغي كيف سيواصل هذا البعير جريه بلا كلل طيلة الليل عبر الزوبعة الثلجية وخلل الريح الصرصر العاتية قاصدا نياقه تلك في آق مويناق .

- تفو ! - بصق يديغي وعاد ادراجه على اثر الدرب الثلجي العريض الذي حرثه جسده المجرور على الثلج بلا قلسوسة على الرأس ولا فروة على الجسم محكوك الجلد في الوجه واليدين كان يسير في الظلام مجرجرا السوط الجلدي وشعر فجأة بمنتهى الانهك وانهيار القوى . سقط على ركبتيه بعد الترنج على الثلج وانشى جسمه ثلاث طيات عاصرا رأسه بيديه بقوة وصرخ نسي نحيب ونشيح بعمق ويأس . وطرق سمعه وهو في وحشة الوحدة المطبقة راکما على ركبتيه في وسط منطقة ساروزيكي صوت دوى الريح الثلجية في السهب وهي تصفر وتدور نسي دوامة زوبعية وسمع أيضا صوت سقوط الثلج من فوق . وخيل اليه ان كل ذرة ثلجية ساقطة والملايين منها وهي تهفّف وتحنفّف بلا صوت مسموع نازلة خلل الهواء في الظلام تتحدث اليه ذاكرة كل شيء مما يتعلق بكونه لن يقوى على تحمل عبء الفراق وانه لم يبق من معنى للعيش في هذه الحياة في حالة خلوها من المرأة المحبوبة وبدون أطفالها وهم الذين شغف بهم حبا وتعلق بهم ودا

بشكل ليس كل اب يضاهيه في محبته لابنائه . وراودته الرغبة في ان يموت هنا لكي يغطي جسده هذا الثلج نفسه وبهذا يدفن في قبر ثلجي .

- لا اله ! الرب غير موجود ! واذا كان موجودا فحتى هو لا يفهم في شؤون الحياة قيد انملة ولا يفقه فيها شيئا . فما الذي يتوقع ويرجى من الآخرين ؟

لا ! ولا يوجد الرب او الله ! - قال لنفسه وهو ملقى في تلك العزلة المرة والوحدة الموحشة وسط مناطق ساروزيكي الصحراوية القفراء . وقبل هذا لم يسبق له حتى ولا مرة واحدة ان تحدث بمثل هذا في صوت مسموع ولم ينطق طول عمره من قبل بأمثال هذه العبارات . وحتى حين اكد له يليزاروف الذي كان يتذكر الاله والرب بشكل دائم ان الرب غير موجود من وجهة نظر العلم فانه لم يكن يصدق بذلك . اما الآن فقد اعتقد بهذا وآمن به . . . .

ودارت الكرة الارضية في فلكها وكانت الارض مكتنفة بالرياح الهوجاء . ظلت تدور حول الشمس وفي الوقت نفسه حول محورها . وهي تحمل في تلك الساعة الانسان الراكع على ركبتيه في الثلج وسط الصحراء المكسوة بالثلوج . لا الملك ولا الامبراطور او اي عاهل آخر ما كان ليركع على كعبتيه امام هذا العالم متفجعا على فقدانه مملكته او دولته او سلطته بمثل هذا القنوط والحيوط كما فعل يديغي البوراني هذا في يوم فراقه للامراة المحبوبة . . . . وظلت الارض تدور حول نفسها وحول الشمس . . . .

عقب مرور ثلاثة ايام استوقف قازانغاب في الطريق يديغي قرب المستودع حيث تسلما اللوالب والصفائح لتصليح قضبان السكك الحديد :

- ما لك قد اصبحت قليل الكلام صعب العشرة منصرفا عن الناس - قال له هذا كانما عرضيا وهو يرتب ربطات القطع الحديدية على النقالة - لقد صرت تتفادى الالتقاء بي وتتجنب لفائى وتهرب من ملاقاتى . اليس كذلك ؟ فماذا جرى ولماذا هذا ؟

ورنا يديغي الى قازانغاب في نظرة شزرة طافحة بالموجدة .



- في حالة افضائنا بما في النفس لبعضنا البعض وشروعنا في الحديث الصريح لسوف اخنقك في الحال . وانت بي عليم .  
- وليس لدى ادنى شك في كونك راغباً في خنقي او شنقي وربما ايضا بعض الناس الاخرين معي . ولكن الذي لا اعرفه هو سر غضبك هذا وحنقك ونقمتك على العالم من حولك .  
- انهم انتم الذين دفعتموها الى الرحيل . - كشف يديغى عن دخيلة نفسه وافضى في صراحة بما فيها وازاح عن نفسه كمدها بافراغ ما يقمها وما يرين على قلبه وصدره كل هذه الايام .

- اذن فاعلم - حرك قازانغاب راسه واحمر وجهه واحتقن فيه الدم ونطت عروقه اما بتأثير الغضب واما من الحياء والخجل - اذا كان قد خطر على بالك مثل هذا ودار في رأسك ظن كهذا اذن فانت تسي الظن لا بنا فحسب وانما بها ايضا . كان عليك ان تزجى الشكر وتبدي سلامة الفكر وتعرض حسن الذكر لان هذه المرأة كما ظهر من فعلها وتصرفها كبيرة النفس راجحة العقل وانها ليست مثلك ولم تكن عدلك . هل فكرت يوما ما الذى كان يمكن ان ينتهى به كل هذا ؟ كلا ؟ اما هي ، فلقد فكرت وادركت ووعت فقررت ان ترحل قبل حدوث ما لا تحمد عقباه وقبل ان يفوت الاوان . ولقد ساعدتها على الرحيل وعاونتها فيه حين طلبت منى هذا ورجتني فيه . ولم استفسر منها عن وجهتها والى اين هي ذاهبة مع الاولاد ولم تذكر لى هي ذلك فليعرف ذلك القضاء والقدر وحدهما ولا احد سواهما . افهمت ؟ لقد رحلت دون ان تنطق بكلمة تنزل من عزتها وكرامتها او عزة وكرامة زوجتك . وقد توادعا خير وداع . يجب عليك ان تنحنى لهما كليهما الى الارض لكونهما قد صانتاك وحفظتاك من المصاب الجلل الذى كان لا بد منه ولا مفر وانقذتاك من المصير المحتوم . وان زوجات كمثل اوق بالا لعزيزات نوادر ولن تجد لك زوجة مثلها مهما بحثت وهيبات ان تعثر على مثال لها ، ولو كانت غيرها في مكانها وسواها على مثل امرها اذن لفعلت بك الفعائل وجعلتكم تهيم على وجهك في الخافقين وتطوف في الآفاق بأشنع مما فعل بعيرك قره نار جالبا على نفسك واهلك العار . . .

التزم يديغى بالصمت وما الذى كان يستطيع ان يجيب به على هذا ؟ لقد نطق قازانغاب عموما بالحق والصواب . ولكن لا ، لم يكن قازانغاب ليفهم ما كان يعلو على مداركه ويسمو فوق نهاه . واقدم يديغى على الغلظة والفظافة .

- حسنا ، دعنا من هذا - قال هذا وبصق باستهانة فسي ناحية - لقد اصغيت الى كلامك يا حكيم الحكماء وسيد العقلاء . انك على هذه الشاكلة تروح وتجيء هنا على مدى ثلاثة وعشرين عاما تقيس الارض بالذراع ولا لوم عليك ولا تائب ، وكانك محروم الاحساس تماما . من اين لك ان تعرف الامور مثلها ! وكفى ولا وقت عندي اضيعة في سماع اقوالك فدعنى منك ومن افعالك .

- انت وشانك في الامر - جاء من خلفه الجواب .  
بعد هذا الحديث بدا ليديغى انه يحسن به ان يهجر مفرق بورانلى بورانى خاويا على عروشه . وفكر في ذلك جديا لانه لم يجد لنفسه سكينه ولا لروحه طمانينة ولم تقو نفسه على النسيان وعجز قلبه عن السلوان وصعب عليه تحمل الكآبة بوطاتها والصبر على كأس الصبر المر . بدون ظريفة وبدون ولديها بدا له كل ما حوله قاتما وفارغا ومشؤوما . وعندئذ قرر يديغى جانغيلدين تخلصا من هذه الآلام ان يقدم رسميا طلبا الى رئيس المفرق بالاستقالة ثم الرحيل بأسرته على مدى البصر ومنتهى النظر . والمهم عدم البقاء هنا . اذ ليس هو بالمشدود في سلسلة من القيود الى هذا المفرق اللعين الذى تركه الله بلا معين . اليس اكثرية الناس يعيشون في اماكن اخرى حيثما شاءت قلوبهم وطابت نفوسهم في مدن وقرى اخرى ولن يرضوا بأن يمضوا هنا ساعة واحدة من الزمان . ولماذا قدر عليه ان يقيد نفسه بالسكنى في ساروزيكى ابد الأبدىين ؟ فأى جرم اقترفه وأى ذنب جناه ؟ كلا ، ثم كلا . يكفيه ما هو فيه فليرحلس وليعودون الى بحر آزال او يقصدن فرغنده او ألما - آتا فما اكثر البقاع وما أوسع الاصقاع . انه شغيل جيد صناع اليدين قوى الجسم معافى البدن له عينان ولسان وشفتان . فليبصق على كل شىء وليذهب الى حيث شاء وما له يبقى هنا



- ايه ، هيه - قال يديغي باستغراب لا يخلو من نعمة السماتة وهو يتطلع الى قره نار من كافة الجوانب - الى اى درك اسفل قد انحدرت . حتى الكلب لم يتعرف عليك . وكنت قبل هذا كله جملا عظيما . ووجدت فى نفسك الشجاعة والرقاعة لكى تعود ؟ لا حياء ولا خجل ! وهل بيضتاك لا تزالان فى مكانهما ام انهما قد تراختا وراحتا وفقدتهما فى الطريق ؟ وباليها من رائحة تتنة عفنة تصدر عنك الآن . هل شرشرت بولك على قدميك وبللت به ساقيك اذ لا قوة لديك لكى تقذف به بعيدا خلفك . ما أقدر مؤخرتك وما اتعسك لقد غدوت مثارا للحزن وبعث الاشفاق فيالك من مسكين .

ظل قره نار واقفا فى مكانه لا قدرة لديه على التحرك ولم تكن فيه لا القوة السابقة ولا العظمة السامقة بل هو بانس ويانس واكتفى بتحريك راسه باذلا جهده الجهد لكى يظل محافظا على وضع الوقوف والبقاء واقفا على قوائمه فلا ينهار ساقطا الى الارض .

وتسمر يديغي بالاشفاق على جملة . توجه الى البيت وعاد حاملا إجانة ملاى بحبوب القمح المنتقى والمنقى وقد رش فوقها نثارا من الملح المجروش .

- هاك ، كل - قال وهو يضع طاسة العلف امام البعير - فلربما تتكيف من جديد ويعود اليك ما فقدت من الايد والحول . وسوف أقودك فيما بعد الى الزريبة لترقد وتستريح وتنعم بالوضع المريح فتعود الى سيرتك وهيئتك الاولى .

فى ذلك اليوم نفسه دار له حديث طويل مع قازانغاب وقد ذهب هو بنفسه اليه فى البيت وخاطبه بهذا الخطاب :

- انى قدمت عليك يا قازانغاب وجئت اليك بهذا القصد . لا تستغرب ولا تتعجب لانى لم ارد بالامس تبادل الحديث معك بل ولقد أغلظت لك فى القول جزافا ثم ها انا اليوم قد جئت اليك بنفسى . ان القضية جدية . انى اريد ان اعيد اليك الجميل قره نار وقد جئت اليك لكى اكرر لك الشكر الجزيل . فلقد سبق لك ان اهديته لى وكان سقبا صغيرا فشكرا لك على ذلك ولقد احسن لى الخدمة واداهما على احسن وجه . ولكنى طردته

نهية للافكار وعرضة للهب النار . وتصور يديغي فى فكره كيف سيفتح هذا الموضوع مع اوق بالا وكيف سيقنعها برأيه والباقي اسهل . وفيما تهيأ لهذا وظل يقلب الامر على عواضه وينتقى الوقت المناسب لفتح الباب وطرح الحديث مرت مدة اسبوع وعاد على حين غرة الى الظهور قره نار البورانى الذى طرده صاحبه واطلق له العنان ليعيش حيثما شاء وكيفما اراد .

انتبه يديغي الى نباح الكلب المتواصل خلف البيت وهو يخلد حينما الى الهدوء فيصلت حينما ثم يعاود النباح ويركض الى هناك ثم يعود من جديد . وجذب ذلك انتباهه واستدعى فضوله وقلقه فخرج مستطلعا ما وراء الاكمة واذا به يرى غير بعيد عن الزريبة حيوانا لا يعرفه . هو بعير ولكنه على شىء من غرابة المنظر والمظهر يقف هادئا ساكنا ولا يتحرك فهو جامد فى مكانه لا يريم . دنا يديغي قريبا اليه وعندئذ فحسب تبين فيه بعيره قره نار .

- اذن فهذا هو انت ؟ الى اى وضع زرني وصلت ايها المسكين ؟

- ما اسوا الحال التى صرت فيها ! - ردد يديغي المرهق هاتفا فى صوت ينم عن الشفقة .

لم يكن باقيا فى هذا البعير من قره نار البورانى السابق سوى جلد على عظم . وكانت هامته الضخمة بعينين زائفتين طافحتين بالاسى المرير تتدلى متارجعة على رقبة كالخيوط اما وبره فكانه ليس منه وانما هو نتف الصقت على الجلد متباعدة ومتفرقة للاضحاك ومتدلالية الى ما تحت الركبتين اما سناماه اللذان كانا شامخين كالبرجين الاسودين فوق سور قلعة منيعة فلم يبق منهما حتى الذكر الجميل كان كلا السنامين مرتخين على جانب مثل ثديين لعجوز شمطاء يتدليان مثل الكيسين شبه الفارغين . كان البعير قد بلغ به الارهاق مبلغا بحيث لم تبق فى نفسه بقية من القوة لكى يوصل نفسه الى الزريبة . وتوقف حيث هو لكى يلتقط انفاسه ويستجم ويستعيد قواه . لقد استنفد نفسه حتى آخرها فى موسم السفاد وقد عاد الآن وهو كالكيس الفارغ ووصل الى المكان حيث وجد وكان زاحفا زحفلة المستमित .



قبل أمد قصير شر طردة إذ لم يعد لدى من صبر وهو قد عاد اليوم اليّ راجعا لا يكاد يستطيع الوقوف على أطرافه من الاعياء . وهو الان مضطجع في الزريبة خائر القوى .

وبعد اسبوعين سوف يسترجع قواه ويستعيد جماع امره وسيعود كما كان قويا وصحيح البدن وافر القوة وموفور الصحة . ولا يحتاج ذلك الى اكثر من اطعامه بالعلف لانقاذه من التلف . - قف - اوقفه قازانغاب عن الاسترسال في الكلام مقاطعا -

الى اين ترمى وما هو مقصدك ؟ ما الذى دعاك وحدا بك بغتة الى ارجاع قره نار الى ؟ هل طلبت منك ذلك ؟ هل طالبتك بارجاعه ؟ وآنذاك سرد يديغى عليه الامر برمته وحكاه بقضه

وقضيضه والقضية كذا وكيت فاني افكر عازما ان اغادر مصاحبا اسرتى فلقد مللت العيش في ساروزيكى وضجرت من طول البقاء بها وحان لى الأوان لتغيير محل اقامتى فلعل تتحسن الاحوال . واصغى له قازانغاب بعناية واهتمام ثم قال له :

- افعل ما ترى ولك ما تشاء فالشأن شأنك لا شأن سواك . ولكن يبدو لى ويخيل الى انك نفسك عاجز عن فهم وادراك ما تريده نفسك . حسنا فلنفرض انك رحلت فهل بوسعك الابتعاد

عن نفسك والهرب منها . وايضا هل جئت وحيثما كنت فلن تجد من شقوتك الخلاص . وسيظل همك وغمك مصاحبين لك فى كل مكان . كلا يا يديغى ان كنت رجلا من الرجال وقارسا بين

الفرسان فعليك تمحيص امرك وحاول حل مشكلتك وانت هنا . اما الرحيل والابتعاد فليسا من باب الشجاعة . كل شخص يستطيع ان يرحل ويهرب ولكن ليس بوسع كل انسان ان يتغلب على نفسه ويقوى على تذليل هواها .

ولم يوافق يديغى على رأى قازانغاب ولم يتفق معه فى القول الذى ذهب اليه ولكنه لم يشأ ايضا أن يعارضه . وانما انصرف الى ذات نفسه وانغلق على كنه ذاته وظل

جالسا يجذب الحشرات . واخذ يفكر بينه وبين نفسه ويدير الحوار معها . «هل ربما يكون من الافضل على اية حال ان ارحل واجرر حالى الى بقاع اخرى ؟ ولكن هل سيكون بوسعى ان

انسى ؟ ولماذا يجب على حتما إسدال ستور النسيان وما العمل لاحقا وكيف ينبغي ان يكون ؟ فلا الانقطاع والاقلاع عن التفكير

فى هذا ممكن ولا التفكير وحمل أعبائه مما يتاح ويمكن . وما هو شأنها هى ؟ واين هى الآن مع طفلها ؟ وهل ثمة من يفهمها ويعينها فى حالة بلواها ؟ وأمر اوق بالا ايضا ليس باليسير

وشأنها كذلك ثقيل وكم مرت عليها من ايام صعبة وهى تشوء بصمت تحت عبء تجهى وغربتى عنها وتتحمل تقطيعى وسهوى . . . وما ذنبها هى فى كل هذا ؟»

وادرك قازانغاب ما يجرى فى ذهن يديغى البوراني ولكسى يخفف قليلا من لعجائه قال بعد ان سعل وتنحنج لكى يسترعى اهتمامه ويستشير انتباها فيسمع كلامه . وراح يقول له حين التفث اليه واقبل عليه :

- وعلى فكرة ، ما لى احاول اقناعك يا يديغى وكأنما لى من وراء ذلك نفع وفائدة . فانك انت نفسك سيد العارفين بشأنك ولست تجهل وضعك . وما دمنا قد دخلنا فى هذا الحديث فاني احب ان اقول انك لست برحيم الله-اغا وأنا لست عبد

الخان . والأمر الرئيسى هو ان أرضنا قاحلة ماحلة وليس ثمة حوالينا على مبعدة مائة فرسخ فى كل الجهات الأربع حتى ولا شجرة واحدة من اشجار البتولا لكى اشد وثاقك اليها . انت حر . تصرف

كما تشاء ، ولكن فكر جديا قبل ان تغادر المكان . ظلت كلمات قازانغاب هذه مدة طويلة راسخة فى ذاكرة يديغى .

## الفصل العاشر

كان رحيم الله-اغا ، بالنسبة لعصره ، مغنيا بالغ الشهرة ، ذاع اسمه منذ الصغر . وقد انعم الله عليه برحمته يجمع فى شخصه ثلاث خصال رائعة : فهو كان شاعرا وملحنا لاغانيه .

ومغنيا مقتدرا ذا نفس طويل . وكان رحيم الله-اغا يثير دهشة معاصريه . اذ كان يكفيه ان يضرب على الاوتار لتنساب اثر الانغام كلمات اغنية تولد فى حضور المستمعين ولا تلبث ان تتناقلها فى اليوم التالى الحناجر لان كل من استمع لغناء رحيم



الله اغا لا بد وان يحمله معه الى سكان القرى والرعاة الرحل .  
فهذه هي اغنيته التي كان يرددتها في زمانه الفرسان :

هذا جوادى الأسحم الأصيل  
يعدو من الفجر الى الأصيل  
مندفعا من الجبال  
كأنه دفق الخيال  
وعندما يبلغ مجرى الماء  
تلمع فيه زرقة السماء  
يذوق طعم عذبه الزلال  
مستعذبا كالصائم الهلال  
أما أنا فأننى بحبى الدفين  
أقفر من صهوة سرجه المكين  
الى شفاهك العذاب الرطاب  
كانها ذات عصير من الذّ الشراب  
مرتشفا رضاك العذب الزلال  
متذوقا حلاوة الحياة فى حسن المآل  
أحلى من الحلوى ومن طيف الخيال

وقد أحب رحيم الله-أغا الملابس الجميلة والزاهية وكان ذلك أمرا طبيعيا بالنسبة له ، واستهوته بالأخص القبعات الفاخرة المؤطرة بأفضل انواع الفرو ، شتى القبعات الشتوية والصيفية والربيعية . وكان لديه أيضا حصان لا يفارقه ، انه الحصان الاخالتيكنسكي المعروف سارالا ، ذو اللون الاشمس الذهبى مع بياض العرف والذيل وهو هدية تلقاها من التركمان فى وليمة اقيمت تكريما للضيوف . وسارالا نال من المديح ما لا يقل عن سيده . وكان عشاق الخيول يلقون متعة كبيرة فى تملي مشيته الرشيقة والمهيبية . ولهذا فقد قال المتندرون : كل ثروة رحيم الله فى انغام الدومبرا \* ومشية سارالا .

\* آلة موسيقية قازاخية مكونه من جسم خشبى مثلث الشكل وبوترين . الناشر .

وهذا ما كان فى الواقع . فهو قضى كل حياته على صهوة حصانه والدومبرا فى يديه . ولم يجمع اية ثروة على الرغم من شهرته الواسعة . بل عاش ، كالبلبل فى شهر ايار ، يتنقل من وليمة الى اخرى ومن احتفال الى آخر محاطا فى كل مكان بالاحترام والحب . والحصان بالعناية والعلف . ولكن كان هناك اناس آخرون ، اناس اغنياء ، لم يحبوه ، وادعوا انه عاش حياة ماجنة وعقيمة ، كالريح فى الفلاة . نعم ، تناقل البعض مثل هذه المزاعم من وراء ظهره .

ولكن ، ما ان كان رحيم الله-أغا يظهر فى وليمة عامرة ويعزف على الدومبرا ويفنى حتى يصمت الجميع ويوجهون مفتونين انظارهم نحو يديه وعينيه ووجهه ، حتى انظار اولئك الذين استهجنوا اسلوب حياته . نظروا الى يديه لانه لم يكن هناك لون من المشاعر التى تولد فى قلب انسان ، الا وتجد هاتان اليدان فى الاوتار ما يعبر عنه ، والى العينين ، لان كل قوة الفكر والروح كانت تلتصع فى عينيه المتجددتين أبدا ، والى وجهه لانه كان وسيما وبهيا . فقد كان وجهه عندما يفنى ، اشبه بالبحر فى يوم عاصف . . .

وكم زوجة هجرته بعد ان استبد بها الياس واستنفدت كل صبرها . ومع ذلك فقد كان هناك الكثير من النساء اللاتى ذرفن الدموع سرا فى الليالى حسرة عليه .

هكذا مضت حياته ، اغنية اثر اغنية ، وعرس اثر عرس ووليمة بعد اخرى . وما لبثت ان تسلمت الشيوخوخة خفية ، فالتصع الشيب فى الشاربين بادية الامر ، ثم غزا اللحية كلها . بل وحتى سارالا لم يعد على سابق عهده - فقد انهده هيكله وانقص شعر ذيله وعرفه . ولم يعد فيه ما ينبى\* بانه كان فى وقت مضى حصانا مطهما ، الا مشيته . هكذا دخل رحيم الله-أغا شتاء حياته كشجرة من السرو الهرمى ، تذوى فى وحدة مفعمة بالز . . . وهنا اكتشف انه وحيد بلا عائلة ولا بيت ولا قطعان او اية ثروة . ولم يؤمن له الماوى سوى اخيه الاصغر عبد الخان . ومع انه كان يعبر بين الاهل والاقرباء عن استيائه منه



ولومه له ، الا انه امر بنصب خيمة خاصة له ، وباطعامه  
والعناية به . . .

لم يعد رحيم الله اغا يغنى الا عن الشيخوخة . ولا يفكر الا  
بالموت . وقد الف في تلك الايام اغاني عظيمة وحزينة . وغان  
دوره ليملا اوقات فراغه بما شغل المفكرين ابدا - لماذا ولد  
الانسان في هذا العالم ؟ وما عاد يترحل كالسابق بين الولايم  
والاعراس ، بل قضى جل وقته في البيت يعزف على الدومبرا  
الغانا حزينة في الغالب ، وعاش يقات على ذكرياته ويجترها ،  
بل وطالت مجالسه مع الشيوخ حول احاديث عن العالم  
الغانى .

ويشهد الله ان رحيم الله اغا ، كان سيقضى ايامه بهدوء ،  
لولا حادث مز مشاعره ، وهو في هذه السن المتقدمة .  
لم يطق رحيم الله اغا ذات يوم البقاء ، فامتطى حصانه  
السنانخ سارالا ، وتوجه الى حفل كبير ليسرى عن نفسه .  
واصطحب معه الدومبرا تحسبا . وكان قد الح عليه الوجهاء ،  
ان يحضر حفل الزفاف ، وان يحل ضيفا على الاقل ، اذا كان لا  
يرغب في الغناء . وبهذا المزاج انطلق رحيم الله اغا بنفس  
مهفافة وعلى نية العودة على عجل .

استقبلوه باحترام بالغ ، ودعوه الى افضل خيمة ، وهي  
خيمة ذات قبة بيضاء . وقد توسط هناك الوجهاء ، يرتشف  
الكوميس ويتجاذب اطراف حديث لائق يعرب فيه عن تباريكة  
وتمنياته .

وفي هذا الحين استمر الاحتفال في القرية على قدم وساق  
وتعالت من كل مكان الاغانى والضحكات والضحكات الشابة والهرج  
والمرج . كما تناهى اليه كيف يجرى الاعداد لسبق الخيل تكريما  
للعريسين ، ويطهو الطهاة عند النيران ، وترتفع ضجة القطعان في  
الفلاة ، وكيف تمرح الكلاب وتهب الرياح من السهوب حاملة معها  
شذى الاعشاب المزهرة . . . الا ان اكثر ما شد اهتمامه كانت  
الغان الموسيقى والغناء في الخيم المجاورة ، وضحكات الفتيات  
التي تفجرت بين حين وآخر لتملا المكان وتثير القلق فى  
قلبه . . .

ضنيت نفس المغنى العجوز وتعذبت . ومع حرصه على كتمان

ما فى نفسه ، الا ان افكاره حلقت فى الماضى ، وعادت الى تلك  
الايام التى كان فيها شابا وسيما ، يطوي المسافات على صهوة  
حصانه الفتى والمتوقد سارالا ، وعندما كانت الاعشاب تحس  
حوافر حصانه تضحك وتبكي ، والشمس ما ان تسمع غناؤه حتى  
تنحدر للمقائه ، وعندما كان صدره يضيق بشدة الرياح ، والغان  
الدومبرا تجعل الدماء تقور فى قلوب الناس عندما كانوا يلقفون  
كل كلمة من كلماته وعندما كان هو قادرا على ان يتالم ويحب  
ويتعذب ويذرف الدموع ، اثناء الوداع وهو على ظهر حصانه . . .  
فما الغاية من كل ذلك يا ترى ، وما الحاجة اليه ؟ الكى يتأسف  
فى الكبر ويذوي كالجمره تحت الرماد ؟

اغتم رحيم الله اغا واشتد صمته وازداد انطواؤه على  
نفسه . وعلى حين غرة تناهى الى سمعه وقع خطوات تقترب من  
الخيمة والتقطت اذناه ، اصوات ورنين قلائد وحفيف ثياب  
معروف . ثم رفع احداهم من الخارج ، ستارة المدخل الموشاة ،  
لتتكشف عن فتاة تشد آلة دومبرا الى صدرها ، فتاة بوجه سافر  
ونظرة لعوب تنبى عن التعالى والكبرياء ، وحاجبين دقيقين  
رقيقين ، كوتر القوس ، ينمان عن ارادة قوية ، بل وكل ما فى  
هذه الفتاة ذات العينين السوداوين كان كامل الجمال وكأنه من  
صنع الايدى الماهرة الصناع - القامة والمطلع والثياب . وقفت  
عند المدخل منحنية فى التحية ، بصحبة رفيقاتها وبعض الفرسان ،  
وهي ترجو الوجهاء ان يستميحوها عذرا . ولكن لم يلحق احد  
منهم ان ينبس بكلمة ، حتى ضربت الفتاة على اوتار الدومبرا  
وانشدت تحيى ، رحيم الله اغا بالاغنية التالية :

« كما يقصد حادى الابل ينبوع الحياة من بعيد لارواء عطشه ،  
قصدتك ايها المغنى المجيد ، يا رحيم الله اغا ، لاحبك . فلا  
تؤاخذنا اذا اقتحمنا بهذا الصخب مجلسكم ، فهذا شأن الولايم  
والافراح فى حفلات الزفاف . ولا تدهشكنم جراتى يا رحيم الله  
اغا ، فلم اتجرا على تحيتك بهذه الاغنية الا وفى من الرهبة  
والخشوع ما يعترى اية فتاة تعترف لأول مرة بالحب .  
فاستميحنى عذرك يا رحيم الله اغا ، فاننا مشحونة بالجرأة  
كالبنديقية بالبارود . ومع انى اعيش طليقة فى الولايم والافراح



الا انى لم انفك طوال الحياة عن الاعداد لهذا اللقاء كالنحلة التى تجمع العسل قطرة قطرة . واستعددت كتلك العنيدة التى لا تنفتح الا فسى ساعتها المقدره . وهما هى ساعتى قد اذفت . . . .»

- «سامحني ، ولكن من تكوينين ايتها الضيفة الرائعة؟ . .» هم بالاستفسار رحيم الله اغا ولكنه لم يجرؤ على مقاطعة الغناء . ولكنه انجذب بكل جوارحه نحوها دهشة واعجابا . فاستبدت الحيرة فى نفسه وبعثت الدماء المتدفقة النشاط فى اوصاله ، ولو كان لدى الناس آنذاك حاسة البصر الخاصة لشاهدوا كيف انتفض هو وصفق بجناحيه كالصقر قبيل التحليق . وتفجرت فى عينيه الحياة التى توهجت وتحفز وكأنه يسمع فى السماء هتافا منشودا . فرفع رأسه وقد نسي عبء السنين . . . .

اما الفتاة فقد استطرقت تغنى :

«فاستمع الى حكايتي ايها المغنى العظيم ، ما دمت قد اقدمت على هذه الخطوة . فقد احببتك منذ صباى ، ايها المغنى الموهوب ، يا رحيم الله اغا . وتبعتك اينما غنيت او نزلت . ولا تؤاخذني اذا قلت ان امنيتي كانت ان اصبح مغنية عظيمة مثلما كنت ومازلت عليه يا رحيم الله اغا . ولاحتقتك كالظلم وتلقفت كل كلمة تنطق بها وكررت اغانيك كالصلوات فحفظت قصائدك ورحمت ارددتها كالتمايم . وتمنيت ، وابتهلت الى الله ان يمن علي» برحمته ، فيمكنني من تحيتك فى يوم سعيد ، فاعترف لك بحبي وانشد اعترافا باعجابي القديم ، اغنية اولفها فى حضورك ، وليغفر الله لى جسارتي اذا ما تمنيت ان انازلك فى الفن ايها الفنان العظيم ، حتى لو كانت الهزيمة مصيري . اه ، يا رحيم الله اغا ، تمنيت هذا كما تمنى الاخريات الزفاف . ولكن كنت صغيرة العمر ، وابت على هذه العظمة ، تتمتع بحب الجميع ، محاطا بذلك المجد والشرف . فلا عجب اذا لم تظن لي انا الفتاة الصغيرة وسط هذا الحشد من الناس ، ولم تلاحظني فى تلك اللواتم الصاخبة . اما انا فقد انغمست فى اغانيك ، وتمنيتك وانا احترق خجلا ، بل وحشت عجلة الزمن لعل بذلك اعجل سن البلوغ ، فيغدو بمقدورى ان آتيك واعلن عن نفسى بكل جراءة . واقسمت ان اتقن فن البلاغة ، واتعلم اصول الموسيقى بعمق

كبير واجيد الغناء مثلك يا معلمى ، كى يمكنني ان اقابلك دون تردد او رهبة من نظرتك الصارمة ، وان اقرئك التحية ، واعترف لك بوجودي ، واتحداك دون وجل . وهما انا ذا اقف امامك وانتظر حكمك . فريثما ترعرت ، وعشت متلهفة استعجل البلوغ ، كان الزمن يمر ببطء . الى ان بلغت هذا الربيع اخيرا التاسعة عشرة تماما . اما انت فقد بقيت فى عالمي يا رحيم الله اغا على عهدي بك ، الا بعض الشيب . ولكن هذا ليس مانعا من حبي اياك مثلما يمكن ان يحب ممن لم يبلغه الشيب بعد . وهما انا ذا هنسا . فاسمح لى الآن ان اعلن لك بكل حزم ووضوح بانك حر فى ان ترفضني كفتاة ، ولكنك ، لا تستطيع ان ترفضني كمغنية ، فاني جئت لانا ذلك فى البلاغة . . . . فانا اتحداك ايها الفنان ، والقول لك الآن ! . . . .»

- ولكن من تكوينين ؟ ومن اين انت ؟ - هتف رحيم الله

اغنا ونهض من مجلسه - وما اسمك ؟

- بيغيماي اسمى .

- بيغيماي ؟ واين كنت حتى الآن ؟ ومن اين اتيت يسا

بيغيماي ؟ - بعد ان نددت عنه هذه التساؤلات ، طأطا رحيم الله اغنا رأسه غما .

- لقد ذكرت يا رحيم الله اغنا . كنت صغيرة ، وترعرت ،

- انا فاهم كل شىء - قال مجيبا - ولكنى لا اهتم امرا

واحدا - هو قدرى ! فلماذا شاء ان يجعلك بهذا الجمال وانا فى

مغيب العمر ؟ لماذا ؟ اهو بذلك اراد ان يقول ان كل ما كان

لم يكن كما ينبغي ، واني عشت فى هذه الدنيا عبثا ، دون علم

بان السماء ستنعم عليّ بهذا العذاب ، فشنتف سمعى بصوتك

الرخيم وملا نظري بمظهرك الفخيم ؟ فما الذى يبغيه القدر من

هذا الانتقام ؟

وقالت بيغيماي :

- عبثا هذه الشكوى المريرة يا رحيم الله اغنا . فاذا كنت

انا اجسد القدر ، فلا يخامرناك الشك فى ، يا رحيم الله اغنا .

فلا اعز عليّ من الاحساس بانى احمل البهجة لك بحناني واغنييتي

وحبي المتفاني . لا تشكن فى ، يا رحيم الله اغنا . ولكن اذا ما

تغلبت عليك الشكوك واغلقت بابك فى وجهي ، فان حبي العامر



لك يدفنى الى القبول بانى اتشرف بان انازلك فى الفن ، وانا مستعدة لاي امتحان .

- ما الذى اسمعه ! وعن اى امتحان فى البلاغة يا بيغيماي ! وما قيمة المباراة مقابل الامتحان الرهيب - الحب الذى لا يوافق النظام الذى نعيش فى ظله . كلا ، يا بيغيماي ، انا لا اعدك بالتبارى فى البلاغة ، لا لانى لا اجد القوة الكافية ، ولا لان البلاغة قد ذوت فى ، وزوت وجهها عنى ولا لان صوتى قد خوى وذوى وفنتى انضوى وانطوى . كلا ، وانما لانى لا اقوى على شىء سوى الاعجاب بك يا بيغيماي . ولا يسعنى الا ان احبك نكايه بنفسى ، وفى الحب وحده استطيع ان اتبارى معك يا بيغيماي . ومع هذه العبارات امسك ، رحيم الله اغا بالدومبرا ووزن اوتارها على نحو مغاير وانشد اغنية جديدة ، انشدها ، كعهده فى الايام الخوالى - تارة كالريح لا تكاد تسمعها الاعشاب ، واخرى كالرعد يدوى فى قبة السماء الزرقاء المشوبة باللون الابيض-الازرق . ومنذ ذلك الحين وهذه الاغنية تعيش على الارض . اغنية «بيغيماي» .

« . . . اذا كنت قد سعيت من بعيد لتنهى الماء من اليبسوع ، فانا كالريح ساسرع للقائك واقلع الى قدميك ، يا بيغيماي ، واذا كان القدر قد كتب لي ان يكون هذا اليوم ، هو يومى الاخير ، فانا اليوم لن اموت ، يا بيغيماي ، ولن يدركنى الموت ابد الابدين يا بيغيماي ، بل سانبعث من جديد لنلا ابقى بدونك يا بيغيماي ، كالاغنى بدون الهادى يا بيغيماي . . . »

هكذا انشد هو اغنيته «بيغيماي» . وقد تناقل الناس احداث ذلك اليوم امدا طويلا . وما اكثر الاقاويل التى تعالت فورا حول رحيم الله اغا وبيغيماي . اما رحيم الله اغا وبيغيماي فقد تخطرا عند توديع العروس الى العريس وسط الخيم البيضاء ، وبين الفرسان مع حصنهم المزينة والجماهير بملابسها الزاهية وعلى رأسى موكب المودعين ، وهما ينشدان الاغانى التى يدعوان فيها باطيب التمنيات لهما . سارا جنبا الى جنب وركابا فى ركاب ، وتخطرا معا ، متهلين الى الله وكل القوى الخيرة ان تمن على العريسين بالسعادة ، غننا على الدومبرا وعزفا على الناي وانشدا

الاغانى - تارة هو ، واخرى هى ، تارة هو ، واخرى هى . . . وكان الناس من حولهم لا يفكرون عن ابداء الاعجاب بهذه الاغانى ، وضحكت الاعشاب من حولهما ، وانتشر دخان النيران وحامت الطيور وسرح الأولاد ومرحوا وهم يتسابقون على صهوات المهارى . . .

ولم يتعرف الناس فى رحيم الله اغا على ذلك المغنى العجوز ، فقد صدح صوته كالسابق ، واكتسب من جديد ، مرونته ورشاقته السابقة ، ووهضت عيناه كمصباحين فى خيمة بيضاء نصبت فى مرج اخضر ، بل وحتى حصانه سارا لا نصب رقبته بفخر واعجاب .

ولكن ذلك لم يطب للجميع . اذ لم تكن الجموع لتخلو من البعض الذى تافق لدى رؤية رحيم الله اغا . فقد استاء اقرباؤه وابناء عشيرته - باراكباي . واغتاظ من حضر منهم حفلى الزفاف . فهذا تصرف غير مقبول ، على حد زعمهم ، ولا بد ان يكون رحيم الله اغا قد خرف فى ايامه الاخيرة . وراحوا يؤلبون عليه اخاه عبد الخان . كيف ستنتخبك مدير الناحية علينا ، اذا كنا سنصبح سخرية الاخرين فى هذا الانتخاب واذا استمر رحيم الله اغا فى الحظ من كرامتنا ؟ اسامع انت ماذا يغنى ، وكيف يفقهه ، كالفرس ؟ وكيف تجيبه هذه الفتاة ؟ لا تنتظر خيرا من ذلك . فما حاجته الى الارتباط بهذه الفتاة ؟ ازجره ، دفعا لانتشار الاقاويل فى الريف . . .

وكان عبد الخان ناقما يحقد منذ امد بعيد على اخيه العاجز الذى عاش حتى المشيب لا يعرف الا هذه المهنة الفاجرة . وقد تصور ان الكبير قد شفاه من طيشه . ولكن ها هو يبلطخ اسم عشيرة باراكباي بالخزى والعار .

وحت عبد الخان حصانه ليشق طريقه عبر الجموع نحو اخيه وهو يصرخ مهددا بالسوط : «تب الى رشذك ! غمد الى البيت ! . . » الا ان اخاه الاكبر الذى كان منهمكا فى اغانيه العذبة لم يسمعه او يراه . والعشاق الذين تجههروا حول المغنيين على صهوات الجياد ، وتلقفوا كل كلمة تبدر منهما ، ازحوا عبد الخان فى الحال وانهاالت فى هذه الاثناء ، الامسوا على رقبته من كل صوب . فاسرع عبد الخان بالابتعاد .



اما الاغاني فقد ظلت تصدح باستمرار . وفي تلك الدقيقة كانت تولد اغنية جديدة .

وانشد رحيم الله اغا : «عندما يصبح فحل الابل داعيها حبيبته الناقة في الصباح ، يجيبه صدى الوديان في الجبال . . . » فأجابته بيغيماي منسدة : «اما طير التم الذي فقد حبيبته البيضاء ، فانه ينظر في الصباح الى الشمس ، فيرى قرصها اسود لا يضئ ولا ينير . . . »

وهكذا صدحت الاغانى باستمرار ، تارة هو وتارة هي ، تارة هو ، وتارة هي . . .

وفي تلك الساعة التي نسي فيها رحيم الله اغا كل ما حوله ، لم يخطر له مدى الحقد الذي راح يغلي في صدر اخيه عبد الخان الذي اسرع عائدا الى قريته ، وقد بلغت المدى مشاعر الغيظ والانتقام التي كان يكنها له اقرباؤه بل وكل ابناء عشيرة باراكباي الذين اسرعوا في اثر اخيه . ولم يكن ليعلم اى نكال قد اعدوه له .

اما الاغاني فقد صدحت باستمرار تارة هو وتارة هي ، تارة هو وتارة هي . . .

التحم عبد الخان بسرج حصانه وهو ينطلق مسرعا الى القرية الى البيت كالغيمة السوداء . وقد شيعه الاقرباء الذين واكبوه كقطيع من الذئاب بالهتافات التالية :

- ان اخاك قد جن ! وفقد عقله ! يا للمصيبة ! لا بد من معالجته على وجه السرعة !

اما الاغاني فقد صدحت باستمرار : تارة هو وتارة هي ، تارة هو وتارة هي . . .

وهكذا جرى على ايقاع الاغاني توديع موكب العروسين الى مخدع الزوجية . وانشد المودعون الاغاني التي يدعون لها فيها باطيب التمنيات . وتكلم رحيم الله اغا مخاطبا الناس ، بانسه سعيد لكونه عاش الى هذه الايام المجيدة التي كافاه فيها القدر بمغنية ند له ، هي المغنية الشابة بيغيماي . وقال ، كما لا يقدر الشرر الا بدق الصوان على الصوان ، لا يسير المغنون اسرار الكمال في البلاغة الا من خلال المنازل . ولكنه سعيد فوق اية سعادة لانه جرب في خريف عمره مذاق ذلك الحب الذي هو

كالشمس التي تستعر في المغيب بكل ما اوتيت من قوة دافقة منذ بداية الخلق ، جرب تلك القوة الروحية التي لم يقدر له تجربتها طوال حياته .

وفي كلمتها الجوابية قالت بيغيماي :

- ها هي ذا امنيتي قد تحققت يا رحيم الله اغا . فلسوف اتبعك واكون انا والدومبرا طوع بنانك . لكى تقترن الاغنية بالاغنية ولكى احبك واكون حبك وبهذا اسلم نفسي وديعة فى يدي القدر .

وهكذا صدحت الاغاني .

وهنا وامام اناس السهوب كافة اتفقا على اللقاء بعد يومين في السوق الكبرى ، وعلى الغناء لجميع الرافدين اليها من كافة الاطراف .

وفي نفس اللحظة التي انفض فيها المودعون ذاع في جميع الاطراف خبر يقول بان رحيم الله اغا وبيغيماي سينشدان اغانيهما في السوق .

- الى السوق !  
- شدوا الرحال الى السوق !

- هلموا الى السوق لسماع المغنين !  
وارتدت هذه الاقوال مترددة على شاكلة صدى يؤكد :

- انه سيكون عيدا ما بعده عيد !  
- يا للمرح !

- ويا للجمال !  
- يا للخزى !

- يا للروعة !  
- يا للعار !

اما رحيم الله اغا وبيغيماي فقد افترقا في منتصف الطريق .

- الى اللقاء في السوق يا عزيزتى بيغيماي !  
- الى اللقاء في السوق يا عزيزى رحيم الله اغا !

وواصلوا بعد افتراقهما يناديان بعضهما الاخر :

- الى اللقاء في السوق !  
- الى اللقاء في السوق ، يا رحيم الله اغا !

كانت الشمس قد مالت الى المغيب . وغاصت السهوب



الرحبة بهدوء في لجة عتمة بيضاء من صيف السهوب ، وكانت  
الاعشاب قد أينعت وفاحت بشذى الحشائش التي قد مسها  
الذبول ، وتصاعدت وانتشرت برودة منعشة اثر الامطار التي  
هطلت في الجبال ، وحلقت الصقور في هذه الساعة من المغيب على  
ارتفاع واطى وعلى مهل ، وانشدت الطيور تمجد هذه الامسية  
الهادئة . . .

وهمهم رحيم الله اغا مخاطبا نفسه وهو يسد على عرف  
حصانه :

- يا له من سكون رائع ! آه يا سارالا ، يا صاح ، ويا  
حصانى المجيد ، انى لم اكن لاصدق ان الحياة بدیعة الى حد يمكن  
معه ان يضاب المرء بالوجد فى خريف عمره ؟

بيد ان سارالا واصل السير خطوة اثر خطوة وهو ينخر مسرعا  
الى البيت ، على امل ان يريح اقدامه بعد يوم كامل قضاء نسي  
السير والجري ، ورغبة منه فى اطفاء غلة الظلمة من مياه النهر ،  
وان يسرح فى المرح تحت نور القمر .

وها هى القرية تبدو عند انعطافة النهر . وها هى ذا ، الخيام  
والنيران التى تصاعد دخانها بمرح .

ترجل رحيم الله اغا . وربط حصانه فى المربط . وجلس  
دون ان يدخل الى الخيمة ليلتقط انفاسه عند الوجاق فى الخارج .  
ولكن ما لبث ان اقترب اقدمهم ، انه ولد الجيران :

- رحيم الله اغا ، الناس فى الخيمة يستدعونك .  
- اى ناس ؟

- ذوك وكلهم من عشيرة باراكباي .

وما ان تخطى رحيم الله اغا العتبة حتى شاهد كبار شيوخ  
العشيرة يجلسون متقاربين فى حلقة على شكل نصف دائرة ،  
وبينهم ، جلس الى الجانب بعض الشىء ، اخوه عبد الخان . كان  
عبد الخان عابسا ، لا يرفع عينيه وكأنه يسعى الى اخفاء  
انظاره .

- السلام عليكم - بادر رحيم الله اغا الاقرباء - ما  
الخطب ؟

فاجاب اكبرهم قائلا :

- نحن بانتظارك .

- اذا كنتم تنتظرونى فيها انا امامكم - رد رحيم الله اغا  
وهم باختيار موضعا لينضم الى مجلسهم . الا انه سمع امر يقول  
له :

- انتظر ! خذ مكانك عند الباب ، وفى حالة ركوع .

- ما معنى كل هذا ؟ اذ انتى لا ازال رب هذه الخيمة .

- كلا لم تعد ! اذ لا يمكن ان يصبح ربا لها عجوز فقد

صوابه !

- عم تتكلمون ؟

- عليك الآن ان تقسم بانك لن تقدم من بعد هذا على  
الغناء فى اى مكان ، ولن تتسكع فى الولايم وان تنسى هذه الفتاة  
التي انشدت لها اليوم اغانيك الفاجرة متناسيا لحيتك البيضاء  
الشاببة ، وحرمة شرفنا وشرفك . فاقسم بانك لن تسعى الى  
رؤيتها بعد !

- عينا هذا الكلام . فبعد غد ساغنى فى السروق معها امام  
الناس كافة .

وهنا تعالت الاصوات :

- انه يجلب لنا العار !

- اعتذر قبل فوات الاوان !

- لقد جن !

- نعم ، لا بد وانه جن تماما !

- ليسكت الجميع ! سماع ! - اعاد النظام الى نصابه  
قاضي القضاة ، واردف قائلا : - وهكذا يا رحيم الله اغا ، اهذا  
كل ما تقوله ؟

- هذا كل ما اقوله .

- اسمعتم يا ابناء عشيرة باراكباي ، ما الذى قاله ابن

عشيرتنا ، هذا الكافر رحيم الله ؟

- نعم ، سمعنا كل ما قاله .

- اذن فاسمعوا ما اقوله . لك فى البداية ، ايها المسكين رحيم  
الله اغا . فانك قضيت حياتك كلها فقيرا مع حصانك الوحيد ،  
لا تعرف الا الكسل والخمول . فغنيت فى الولايم وطنطنت على  
الدومبرا وكنت مهرجا . وقضيت حياتك كلها فى تسلية الاخرين .  
وقد غفرنا لك حياتك الماجنة عندما كنت شابا . ولكنك اصبحت



الآن مضحكا بعد ان تقدم بك العمر . فنحن نستهزى بك . وفي الوقت الذى حان لك فيه ان تفكر بالموت والخشوع ، تعلقت بهذه الفتاة ورحت تنتهك العادات والاعراف كالغلام الطائش ، وتحجم عن الانصات لنصائحنا ، ولهذا فليعاقبك الله ، ولا تلومن في ذلك الا نفسك . والآن هذا قولى الاخير . انهض يا عبد الخان فانت اخوه وانتما من صلب واحد ، وانت عمادنا واملنا . وقد اردنا ان نراك مدير ناحية تمثل جميع ابنا عشيرة باراكباي . ولكن اخاك فقد صوابه كليا . فهو لا يفقه ما يفعل ، وقد يصيح عاثقا لك في هذا المجال . لذا ارى من حقك ، ان تعامل هذا المجنون ، رحيم الله اغا ، على النحو الذى يقينا الخزي والعار امام الناس ولئلا يتجاسر احد على البصق فى عيوننا ، والاستهزاء بابناء عشيرة باراكباي .

- انا لا اعترف باحد منكم رسولا او حاكما على - بادر رحيم الله اغا ، مستيقا عبد الخان - وانا ارثي لكم انتم الجالسون هنا وغير الجالسين ، فجميعكم على ضلال مبين ، وانتم تحكمون فيما لا يجوز تقريره فى اجتماع عام . فانتم لا تفقهون اين هى الحقيقة واين هى السعادة فى هذا العالم . فهل الغناء عار وشنار عندما تنطلق النفس ذاتها بالغناء ، وهل الحب خزي ومعرة وهو هبة إلهية وهبت مرة واحدة والى الابد ؟ فالفرحة الكبرى على الارض حين يفرح الناس لسعادة العشاق ولكن بما انكم تعتبروننى مجنونا ، لا لثى سوى لانى اغنى من شدة الوجد الذى اصابنى على غير انتظار ، ولانى افرح له ولا اصد عنه ، فانى سوف اغادركم . سوف اغادركم فلستم الوحيدين فى هذا العالم . سامتطى صهوة سارالا فى الحال ، واتوجه اليها ، او ساغادر معها الى اطراف اخرى ، لئلا اقض مضاجعكم بغنائى وسلوكى .

- كلا لن تغادرننا - انفجر عبد الخان الذى التزم الصمت طوال هذا الوقت ، وقال وهو يتنفس بصعوبة - ولن تذهب من هنا الى اى مكان آخر . ولن تجد اى سبيل الى السوق . فنحن سوف نطيبك لتستعيد عقلك .

ومع هذه الكلمات انتزع من ايدى المعنى آلة الدومبرا .  
- هكذا ! - ورمى بالآلة الرقيقة الى الارض وراح يركلها

كالثور الغاضب الهائج اذ يرفس الراعى - فلسوف تنسى الغناء بعد الآن ! هيه ، انتم هاتوا هذا الحصان العجوز ، سارالا - واوما بيده . وما لبث اولئك الواقفون على اهبة الاستعداد عند المرابط فى الغناء ، ان ساقوا سارالا على عجل .

- انزع السرج ، وارم به الى هنا ! - امر عبد الخان وهو يخرج فاسا خباها بين طيات ثيابه .  
وراح يحطم السرج بالفاس الى قطع صغيرة وهو يردد قائلا :

- خذ ! لن تذهب الى مكان آخر ! لن تذهب الى اية سوق ! - واقبل فى سورة الغضب على تمزيق عدة الحصان وتقطيع السيور ، اما الركابان فقد رماهما الى الخارج ، واحدا فى جهة والآخر فى جهة اخرى .

وفى هذا الحين كان سارالا يخبط فى خوف ثم ركع وراح يشخر ويعض على اللجام وكأنه عرف بان المصير ذاته بانتظاره .  
- اذن ، فانت نويت الذهاب الى السوق ؟ وعلى صهوة سارالا ؟ انظر اذن ! - تكلم عبد الخان باهتياج .

وهنا كان اقرباؤه قد تمكنوا من طرح سارالا ارضا بسرعة وما هي الا لحظة حتى كان الحصان مكبلا بجبل من الشعر . فامسكه عبد الخان بكل اصابع يده القوية من شدقيه ، وشرع سكينه فوق رقبة الحيوان الاعزل .

انتفض رحيم الله اغا بكل ما اوتي من قوة فى محاولة للتخلص من مقيديه .

- قف ! لا تذبح الحصان !  
ولكن كان قد فات الاوان . فقد انبجست الدماء تيارا دافئا من تحت الجلد ، وانسدلت على العينين غمامة كالظلام فى رابعة النهار . نهض رحيم الله اغا من الارض وهو يترنح وقد خضبتة دماء سارالا الدافئة .

- عبثا ! فسوف اغادر مشيا على الاقدام . بل حتى زحفا على الركبتين ! - قال ذلك المعنى المهان وهو يتمسح بذيل ثوبه فاجابه عبد الخان الذى رفع بحدته وجهه المكشفر عن رقبة سارالا المحزوزة .

- كلا لن تذهب حتى مشيا على الاقدام . فلن تخطو بعد



الآن خطوة واحدة من هنا ! - قال بصوت خفيض ثم تحول فجأة الى الصراخ :

- امسكوه ! انظروا انه مجنون ! قيده ! فقد يقتل احدا !  
وهنا تصاعد الصياح واختلط كل شيء وتشابك :

- هات الحبل !

- اوثقوا يديه !

- شد الحبل !

- انه قد جن ! يشهد الله !

- انظر ، فما اغرب نظراته !

- فقد عقله ، بالتأكيد !

- تعالوا به الى الشجرة !

- هيا نحمله !

- تعالوا به بسرعة !

كان القمر قد توسط السماء . وكان هدوء تام قد ساد السماء والارض . ثم جاء بعض المشعوذين واشعلوا النيران وادوا رقصات همجية لطرد الارواح التي سلبت المغنى العظيم صوابه .

اما هو فظل واقفا مقيدا الى الشجرة ويداه مغلولتان الى الورا .

ثم جاء ملا ، تلا بترتيل آيات من القرآن وقرا عليه عبارات ارشادية تهدي الى الطريق القويم والصراف المستقيم .

بينما ظل هو واقفا ، مقيدا الى الشجرة ويداه مغلولتان الى الخلف .

ثم انشد رحيم الله اغا مخاطبا اخاه :

«سيذهب الليل حاملا معه سدول الظلام ، ومع طلوع الصباح يبدأ يوم جديد . ولكنى لن ارى الضوء بعد الآن ابدا . فقد سلبتني الشمس يا اخي المسكين عبد الخان . انك فرح ومرور على الرغم من عيوسك وتجهم جهامتك ، فقد تمكنت من احلال الفرقة بيني وبين حبيبتي التي وهبتني الله اياها في آخر عمري . ولكن ليتك تعرف اية سعادة تكمن في اعماقي ، ما دمت اتنفس وطالما ظل قلبي يخفق ويدق . ومع انك تربطني وتقيدهني الى الشجرة فاني لست هنا الآن ، يا اخي المسكين عبد الخان

فانت لا ترى هنا سوى جسدي الفاني وحده ، اما الروح فهي كالرياح تطوي المسافات وكالمطر تعانق الارض ، وفي كل لحظة انا معها لا افارقها كشعرها وكانفاسها . وهي عندما تستيقظ في الصباح ، اصير تيسا برياً يهبط اليها من الجبال ، ينتظر على صخرة عالية ، مطلعها من الخيمة في الصباح . ولو اوقدت النار فسوف اكون الدخان الذي يلامسها ، ولو امتطت الفرس وهمت بعبور النهر فساكون الرذاذ الذي يببل يديها ووجهها . وساكون الاغنية عندما تنشد وانغام الموسيقى عندما تعزف الالحان . . . .»

تعالى حفيف الاغصان فوق راسه وبان عمود الفجر وطلع الصباح .

وما ان ذاع خبر جنون رحيم الله اغا حتى وفد الجميع لاشباع فضولهم ، وتجمهروا على مبعده .

اما هو فقد ظل واقفا في ملابسه الممزقة ، مقيدا الى الشجرة ويداه مغلولتان الى الورا .

وكان ينشد اغنية ، هي تلك الاغنية التي ذاعت من ثم وتناقلتها الافواه وغدت تتراقص على الالسنه والشفاه :

حينما ينحدر القوم الرحل الرعاة من ذرى الجبال السود  
ارجوك ان تفك وثاقي وتطلق يديا يا اخي عبد الخان  
عندما يهبط اولئك الرعاة الى الوادي على سفوح الجبال  
نازلين من قممها الشوامخ المكلمة بالثلوج بيضاءزرقاء  
هبنى ايرادتي واعد لي حريتي المسلوبه يا اخي عبد الخان

لم احزر يوما ولم يخطر لي على بال

اننى ساكون اسيرك مقيدا بالجبال

لا نسرا محلقا في الهواء فوق الجبال

اشق حرا عنان السماء

بل ماخوذ قمصغود بالنواصي والاقدام

مكتوف اليدين ومشدودا بلا حراك

فاذا نزل الرعاة الرحل من سود وزرق الجبال

فاطلق يديا ورجليا يا اخي عبد الخان



إذا ما انحدر القوم الرحل من الجبال السود  
سأظل محروما من فرصة الذهاب الى السوق يا بيغيماي

واذ ينزل الرعاة من ذرى الجبال السود  
لا تنتظريني وسط السوق الحافلة بالناس يا بيغيماي  
لن ننصرف معك الى الغناء في السوق مع الناس  
فان جوادي الاصيل لن يطوى اليها الارض طيا  
وانا نفسي هناك متروك نسيا منسيا  
ولن أستطيع الوصول اليك  
ولن تستطيعي الوصول اليّ

من الجبال السود حين يهبط الرعاة نازلين  
من الجبال الزرق حين يهبط الرعاة نازلين  
لا تنتظري انت قدومي للسوق مع الناس يا بيغيماي  
فانني بارادتي الحرة والكرامة السماء  
قررت ان اصعد في الجو محلقا الى عنان السماء

تلكم هي الحكاية . . .

وكان يديغي لا يفتر الآن عن التفكير بذلك ، وهو فسي  
طريقه الى آنا - باييت ، مشيعا قازانغاب الى متواه الاخير .

## الفصل الحادي عشر

كانت القطارات في هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب  
ومن الغرب الى الشرق .

وعلى جانبي خط السكة الحديد تمتد هنا مساحات شاسعة من  
الاراضي الصحراوية - ساروزيكي ، الاراضي الوسطى من البراري  
الصفراء . . .

وكانت المسافات في هذه النواحي تقاس نسبة الى خط  
السكك وكأنه خط غرينيتش .

اما القطارات فكانت تسير من الشرق الى الغرب وبالعكس .

بعد اجتيازهم ممرا طويلا يمتد بمحاذاة جرف  
ملكومديتشاب ذي الرمال الحمراء حيث طافت نايمان-آنا بحثا  
عن ابنها-المانكورت الفوا انفسهم على مشارف آنا-باييت .  
وبعد ادامة التطلع تارة الى الساعة واخرى نحو الشمس  
الطالعة الساطعة فوق منطقة ساروزيكي اعتبر يديغي البوراني ان  
كل شيء يجري لحد الآن وفق المطلوب وعلى المرام . بعد  
الانتهاء من الدفن سيكون بوسعهم تماما اللحاق بالعودة الى الدار  
في الوقت المناسب لكي يشتركوا جميعا في تأبين قازانغاب  
وسيجرى هذا التأبين بالطبع عند المساء ولكن الامر الرئيسي هو  
ان يتم هذان الامران في يوم واحد . اجل فالحياة هي الحياة .  
سوف يثوى رفات قازانغاب في مقبرة آنا-باييت اما هم العائدون  
الى البيت فسوف يتذكرونه مرة اخرى بالكلمة الطيبة . . .  
وسار الجميع في نفس ذلك النظام : في المقدمة يديغي على  
ظهر بعيره قره نار المزدان بالكرايش المعلقة بالخیوط المدلاة ،  
يتلوه الجرار مع العربة المقطورة وخلفه الحفارة من طراز  
"بيلاروس" . لقد رحلوا من ملكومديتشاب الى وادي آنا-باييت  
بصحبة الكلب الاصهب جولبارس جاريا بجانبهم وهو حر طليق  
لكنه يلهث وقد تدلى لسانه مطلا من فمه وكأنه معلق فسي  
الهواء .

هنا اعترضتهم المشكلة الاولى . فقد اصطدموا على غير انتظار  
بعقبة على شكل سياج من الاسلاك الشائكة .

كان يديغي اول من توقف - يا للعجب ! بل وانتصب على  
ركابيه وتلفت من فوق صهوة قره نار يمنة ويسرة فلم ير في  
السهب تتلوى على مد البصر ، سوى الاسلاك الشائكة التي  
تدلت على عدة صفوف من الاعمدة الكونكريتية المغروزة في  
التراب على مسافات متساوية بعد كل خمسة امتار . وكان ذلك  
السياج يقف بمثابة منيعا وراسخا . وليس معلوما من أين يبتدىء  
واين ينتهي فلا يعرف مبتداه من منتهاه وربما يكون بلا نهاية  
فهو يمتد الى لا غاية . ولم يكن ثمة من درب بعد هذا فكيف  
العمل ؟ والى أين تولى الوجهة ويستأنف المسار فالطريق  
مسنود والدرب محدود .



وتوقف خلفه الجراران . وكان ثابت جان اول من قفز من القمرة ثم تبعه عادل باى الطويل .  
- ما هذا ؟ - اشار ثابت جان بيده الى السياج ، وخاطب يديغي متسائلا - هل اخطانا الطريق ؟  
- لماذا اخطانا ؟ لم نخطئ ، ولكن لا ادرى من اين ات الاسلاك الشائكة . يا للشيطان !  
- الم تكن موجودة من قبل ؟  
- لم تكن .

- ما العمل اذن ! وكيف سنواصل الطريق ؟  
التزم يديغي الصمت ، فهو نفسه لم يكن يعرف ما العمل .  
- هيه ، انت ! اوقف الجرارة ! كفاك ضجيجا ! - صاح ثابت جان بنرفزة وهو يخاطب قالى بيك الذى اخرج رأسه من القمرة .

اوقف قالى بيك المحرك ، وسكنت فى اثره الحفارة . فساد الهدوء فى المكان وهو هدوء تام مطبق . ظل يديغي البورانسى متجهم الوجه مقطب الجبين جالسا على ظهر جملة متمسكا بسناميه وممسكا بزمام مقوده ووقف ثابت جان وعادل باى الطويل بالجرار اما سائقا الجرارين - قالى بيك وجمعة على - فقد بقيا جالسين فى قمرتى الجرارين . وجثمان المتوفى قازانغاب المكفن بالكفن الابيض مسجى فى العربة المقطورة وبجواره جلس صهره الكبير زوج آى زاده واستغل الكلب الاصهب جولبارس الفرصة السانحة بفترة التوقف فانتنق لنفسه مكانا مريحا جنب احدى العجلات ورفع احد قائمته الخلفيتين الى اعلى .

ومع ان سهوب ساروزيكى العظيمة امتدت تحت السماء من اقصى الارض الى اقصاها ، الا ان اى ممر الى مقبرة آنا-باييت لم يبد للعيان . وظل الجميع واقفين فى حيرة وارتياب لا يدرون ما يصنعون امام هذا السياج من الاسلاك الشائكة .

وكان عادل باى الطويل اول من خرق الصمت :

- اهى لم تكن موجودة من قبل يا يديكه ؟

- كلا ابدا : فهذه اول مرة اراها فيها !

وواصل عادل باى حديثه قائلا :

- اذن فهم احاطوا المنطقة خصيصا . للمطار القضائى على ما يبدو ؟  
- هذا ما يبدو . والا فما فائدة هذه الجهود - اقامة مثل هذا السياج فى عرض السهوب . فقد يكون خطر لاحدهم . فهم لا يخطر فى بالهم شئ الا ونفذوه ، يا للشيطان ! - شتم يديغي فاجابه ثابت جان بتجهم :

- ما فائدة الشتيمة ! كان الافضل ان نستعلم قبل ان نتوجه مع الجنازة فى هذه الرحلة الطويلة .  
حل صمت مكهرب . ومن فوق صهوة قره نار تفحص يديغي ثابت جان باستهانة من اعلى الى اسفل ، وتكلم بكل برود قائلا :

- الا تصبر انت يا عزيزى بعض الشئ ولا تتأفف ، اذا كانت الاسلاك الشائكة غير موجودة من قبل ، فمن اين لنا ان نعرف ؟

- وهذا ما اقوله انا بالضبط - قال ثابت جان ذلك واستدار .

وساد الصمت من جديد . وكان يبدو ان عادل باى الطويل يفكر فى شئ .

- ما العمل اذن يا يديغي ؟ ما العمل ؟ افلا يوجد طريق آخر الى المقبرة ؟

فاجاب يديغي وهو يتلفت حوله :

- نعم ، يجب ان يكون . ولم لا ؟ فهناك طريق على بعد خمسة كيلومترات الى اليمين . هلموا الى هناك . فلا يمكن الا يكون ثمة ممر آخر الى هناك !

- انت متأكد من وجود الطريق ؟ - استفسر ثابت جان مع التحدى - والا فسوف نورط انفسنا !

فاكد يديغي قائلا :

- موجودة ، موجودة . خذوا اماكنكم . فلن نضيع الوقت . وتحركوا من جديد . واستأنف الجراران قرعتهما فسى الخلف . واتخذوا طريقهم على امتداد الاسلاك .

انفعل يديغي وثبط عزمه . وكان يشعر بالأسف فى قرارة نفسه لان الاسلاك الشائكة احاطت بالمكان ولم يهتم احد بتأشير الطريق الى المقبرة . يا لمفارقات الحياة ! ومع ذلك لم يتركه



الأمل ، اذ يجب ان يكون هناك ممر في هذا الطرف الجنوبى  
ايضا . وهذا ما كان فعلا . فقد وصلوا الى حاجز يعترض  
الطريق .

وكان يديغى قد انتبه اثناء اقترابهم من الحاجز ، الى متانة  
واحكام مبنى نقطة التفتيش : الكتل الكونكريتية الراسخة على  
الجوانب ، والبيت المشيد من الاجر على حافة الطريق ، وفي اول  
بداية الممر الذى تصدره زجاجة عريضة تفتح مجال الرؤية ،  
والمصباحان الكشافان على سطح البيت المستوى ، لاضاءة الممر  
فى الليل على ما يبدو . ومن الحاجز امتدت الى الداخل طريق مبلطة  
بالاسفلت . فما ان رآى يديغى كل هذه الترتيبات حتى تولاه  
القلق .

بمجرد وصولهم خرج من مبنى الحراسة جندى قفى اشقر  
تنكب الرشاشة وفوهتها الى اسفل . تقدم وهو يسوى ملابسه ،  
ويعدل قبعته على رأسه زيادة فى رفعة الشان ، ثم توقف عند  
حاجز الطريق بمظهر صارم . ومع ذلك فقد بادر بالتحية عندما  
اقترب يديغى من الحاجز الذى يعترض الطريق .

- السلام عليكم - وادى الحارس التحية وهو ينظر الى  
يديغى بعينين زرقاوين فاقعتين لا تخلوان من نظرة صبيانية -  
من تكونون ؟ وما هى وجهتكم ؟

فاجابه يديغى وهو يبتسم من مظهر الصرامة الصبيانية ،  
قائلا :

- نحن من السكان المحليين ، وجئنا نشبع جثمان انسان عجوز  
الى المقبرة .

- المرور ممنوع بدون تصريح - هز الجندى الشاب رأسه  
بالنفي وابتعد بوجل عن شدقى قره ناز الذى راح يجتر ، ووضح  
قائلا : - هذه المنطقة محروسة .

- افهم ، ولكننا يجب ان نمر الى المقبرة . انها قريبة من  
هنا ، وما الغريب فى ذلك ! ندفنه ونعود . دون اى تاخير !  
فاجاب الحارس :

- لا استطع . لا يحق لى .

- اسمع يا عزيزى - وهنا مال يديغى من فوق الجمل لكى  
تبدو بشكل أفضل اوسمته العسكرية - لسنا غرباء . نحن من

مفرق بورائلى - بورائى . فلا بد وان سمعت به . نحن لسنا  
غرباء . وكل ما نريد ، هو ان ندفن الميت . نذهب الى المقبرة  
ونعود .

- افهم - هم الحارس ان يجيب وهو يهز كتفيه بسداجة  
لولا ثابت جان الذى وصل فى غير وقته ، بمظهر الانسان الكبير  
الشان والخبير ، وقد بدا عليه التكلف والعجلة .  
واعلن قائلا :

- ما هذا ، ما الامر ؟ انا من المجلس النقابى فى المحافظة .  
ما سبب التأخر ؟

- لان المرور ممنوع .  
- لقد قلت ايها الرفيق الحارس ، انا من المجلس النقابى  
فى المحافظة .

- الامر سيان عندى ، من اين تكون .  
- كيف ذلك ؟ - تساءل ثابت جان بتعجب .  
- هكذا . فالمنطقة محروسة .

فرد ثابت جان بنبرة الشخص الذى امتهنت كرامته :  
- فما الحاجة اذن الى هذا القيل والقال ؟

- ومن يثير القيل والقال والقيل ؟ انا اوضح الامر احتراما لذلك  
الشخص الراكب على الجمل وليس لك . كى يفهم هو . وعموما ان  
الحديث مع الغرباء مخطور على . فانا انهض بواجب الحراسة .

- اذن فليس ثمة طريق الى المقبرة ؟  
- كلا . لا الى المقبرة وحدها . فالدخول ممنوع للجميع .

- حسنا - اجاب ثابت جان بغيظ - هذا ما توقعته !  
وخطب يديغى - هذا ما توقعته ان يحدث ! ولكن ، اين انت  
منهم ! آنا-باييت ! آنا-باييت ! فهذه هى آنا-باييت ! - وبهذه  
الكلمات ابتعد يتميز غضبا وهو يبصق بسخط وتذمر .

شعر يديغى بالخجل امام الحارس الشاب ، وخطبه بلهجة  
ابوية قائلا :

- لا تؤاخذنى يا بني . واضح انك تؤدى واجبك . ولكن الى  
اين يسكن ان نذهب بالجثمان ؟ فهو ليس بالجذع الذى يمكن  
طرحه والتخلص منه .



- أنا أفهمك جيدا . ولكن ما حيلتي ؟ فانا انفذ ما أومر به فلست انا الأمر هنا .

- نعم ، لسوء الحظ - تكلم يديغي بحيرة - ومن أين أنت أصلا ؟

فأجابته الحارس وقد ابتهج بحياء مثل طفل صغير ولم يحاول مداراة الابتسامة التي بدت على محياء لان الاجابة عن هذا السؤال كانت تفرحه .

- من فولوغدا ايها العم .

- وهل الجنود عندكم في فولوغدا يحرسون المقابر هكذا ؟

- ما هذا القول ، يا عم ، ما هذا الكلام ! فالمقابر عندنا مفتوحة البوابة تفضل متى ما شئت وكم من الوقت شئت . بل

وهل الأمر في ذلك ؟ فهذه المنطقة مغلقة . وأنت ايها العم قد خدمت وحاربت على ما أرى ، وتعرف على ما اعتقد ان الخدمة هي

الخدمة . والواجب يبقى امانة في عنقك أردت ذلك أم لم ترد . هذا صحيح - وافقه يديغي - ولكن الى أين نذهب بالجثمان ؟

وركنا الى الصمت . ثم عاد الجندي بعد تفكير عميق فهز رأسه الاشقر بأسى وقال :

- كلا ايها العم ، لا أستطيع ! ولا يحق لي !

- اذن فليكن - تتمم يديغي وهو في تمام الحيرة ذاهلا . كان من الصعب عليه نفسيا ان يدير وجهه ويستدير

نحو رفاقه طريقه وذلك لان ثابت جان استشاطت فورته ودنا نحو عادل باي الطويل قائلا :

- ألم اقل لكم انه لا داعي الى الذهاب بهذا البعد القصي فما هذه العقائد الا من رواسب الماضي . وليس من وراء عملكم

هذا سوى تصديق رؤوسكم ورؤوس الآخرين . وما الفرق اينما دفن الميت فليكن قبره حيث يكون . ولكنكم ليجتم في الخصام

واكثرتم من الكلام فحتى لو انفجرت لا معدى عن آنا-باييت . وأنت ايضا كنت معهم في هذا فظلمت تردد : رح ، سنقوم بالدفن

بدونك وما انتم الآن تدفنون ! فادفنوا ما شاء لكم الدفن ! وابتعد عنه عادل باي الطويل وهو صامت ولم ينبس ببنت

شفة .

- اسمع ايها الصديق والرفيق - قال للحارس وقد دنا حتى

قارب الحاجز - لقد سبق لي انا نفسي اداء الخدمة العسكرية ولي

معرفة وعهد ببعض هذه الوجائب والتعليمات ، اليس لديكم هنا تلفون ؟

- بلى ، طبعا .

- اذن فليكن الامر على هذا النحو - تحدث بالهاتف مع رئيس الدورية واخبره بان بعض الأهالي المحليين يرجون الاذن

لهم بالمرور الى مقبرة آنا-باييت .

- كيف ؟ ماذا قلت ؟ آنا-باييت ؟ - تساءل الحارس معيدا .

- اجل ، آنا-باييت . تلك هي التسمية التي تطلق على مقبرتنا العمومية . تلفن ايها الصديق وما من مخرج آخر .

فليستحصل شخصيا إذنا خاصا لنا . اما نحن ، فصدق بنا ، لا يهمنا هنا سوى المقبرة لا أي شيء آخر .

وفكر الحارس مليا مراوحا بين قدميه وتغضن جبينه من التأمل في التفكير .

- لا تشكن ولا تتردد يا أخ - قال عادل باي الطويل - كل شيء يجري وفق النظام . الأمر هو ان اشخاصا غرباء دنوا

الى المخفر وعليك ان تخبر بهذا رئيسك ما الذي عليك ان تفعله في واقع الأمر . انك ملزم بان تخبر الرؤساء .

- حسنا . - أوما الحارس برأسه - سوف اتلفن الآن . الا ان رئيس الدورية يمضي الوقت كله وهو يجول ويطوف في

ارض المكان بسيارة الدورية مفتشا ومتفقد المخابر . وارض هذه المنطقة كما تراها واسعة وشاسعة .

- عساك تسمح لي ايضا بالوقوف بجوارك - رجاء عادل باي الطويل - وعند اقتضاء الضرورة اذكر ما يلزم .

- هيا بنا . - وافق الحارس .

ودخلا الى مبنى المخفر . كان الباب مفتوحا وبلغ سمع يديغي كل ما دار من حديث بالتلفون . تلفن الحارس الى عدة جهات

مستفسرا عن مكان تواجد رئيس الدورية حاليا ولم يعثر له على اثر اذ لم يكن مكانه معروفا لاؤلك .

- كلا ، كلا ، اننى اطلب رئيس الدورية شخصيا - اوضح لهم - شخصيا . كلا ، كلا . ثمة قضية على جانب من الاهمية .



تهيجت أعصاب يديغي . الى أين رمت الروامي بهذا الرئيس  
للدورية ؟ من كان حليفه عدم التوفيق فلن يساعفه التوفيق  
ومن كان بلا حظ فمن أين له بالحظ !  
وأخيرا وجدوه .

- ايها الرفيق اللفتنانت . ايها الرفيق الملازم . - كان  
الحارس يصرخ عاليا بصوته الرنان الحاد في تائر وانفعال .  
واخبره بان ثمة عند مخفره اشخاصا من الاهالي المحليين  
قدموا ومعهم نعش ليدفنوا جثمان صاحبهم في المقبرة القديمة  
العريقة . فكيف العمل ؟ وأرهف يديغي سمعه . في حالة موافقة  
اللفتنانت وسماحه لهم بالمرور سيتم كل شيء على ما يرام . ما ان  
يقول انه موافق حتى تتم الامور . ما احسن ما تصرف عادل باي  
الطويل . احسنت يا عادل باي . ويا له من فتى فطن وثاقب  
الذهن . ولكن حديث الحارس التلغوني طال واستطال . وهو  
الآن يجيب طيلة الوقت عن الاسئلة الموجهة اليه :

- نعم . . . كم عددهم ؟ انهم ستة اشخاص واذا عدت جثة  
المرحوم شخصا فهم سبعة ، اي انهم ستة سابعهم ميتهم . والميت  
شيخ ما كبير السن . واكبر المشيعين سنا يمتطي سنامي بعير .  
ثم جرار يسحب عربة مقطورة وخلف الجرار حفارة كذلك . . .  
انهم يقولون ان ذلك لازم لحفر اللحد . . . كيف ؟ وما الذي  
اقوله لهم ؟ اذن ، لا يجوز وهو ممنوع ؟ لا يسمح به ؟ حسنا ،  
سمعا وطاعة .

وهنا ارتفع صوت عادل باي الطويل ويبدو انه خطف سماعة  
التلغون من يد الحارس وطفق يقول مندفعاً :

- ايها الرفيق اللفتنانت ، تصور نفسك فسي وضعنا .  
ايها الرفيق اللفتنانت لقد جئنا من بورانلي-بوراني . فالى أين  
يمكننا ان نذهب الآن ؟ نحن اشخاص محليون من ابناء وسكان  
هذا الموضع ولن نفعل أي شيء سيئ وكل ما نريد ان نفعله هو  
ان ندفن ميتنا ثم نعود رأسا ادراجنا . . . آ ؟ ماذا ؟ ولكن كيف  
هذا ! فليكن ، هلموا الينا ، تعالوا لنا . وسوف ترون بانفسكم  
وتقتنعون . ومعنا شيخ كبير السن سبق له ان حارب في جبهة  
القتال ابان الحرب . اوضحوا له الامر .

خرج عادل باي الطويل من مبنى المخفر وهو مضطرب الهال

ومنفعل ولكنه قال ان الضابط اللفتنانت سيأتي قريبا بنفسه  
ويقرر الأمر كله عن كئيب . واقترب يمشي في اثره الحارس  
الذي ذكر الأمر نفسه . وقد أخذ الحارس يشعر الآن بالارتياح  
وقد خفف عن نفسه وتنفس الصعداء نظرا لان رئيس الدورية  
ينبغي ان يتولى بنفسه حل القضية واخذ الآن يخلو بثقة ذهابا  
وايابا بمحاذاة الحاجز الممدود المقلّم باللونين الابيض  
والاسود .

واستغرق يديغي البوراني فسي التفكير . من كان  
يوسعه ان يتوقع مثل هذا الانقلاب للامور والنتيجة  
والعاقبة للقضية ؟ لا مفر من انتظار وصول اللفتنانت .  
فسي هذه الاثناء تخرج يديغي فساق بعيره نحو الحفارة  
ويربط مقوده الى مغرقتها نفسها . ثم رجع الى الخلف  
متوجها نحو الحاجز الممدد . وطفق سائقا الجرارين قالى بيك  
وجمعة على يتجادبان اطراف الحديث فيما بينهما بصوت غير  
مرتفع . وانصرفا الى التدخين . وراح ثابت جان يمشي بعصبية  
جيئة وذهابا فهو يروح ويحيى الى خلف والى امام مبتعدا الى جانب  
عن الجميع . اما صهر قازانغاب وهو زوج آيزاده فقد ظل طيلة  
الوقت جالسا على ظهر المقطورة بجانب جثمان الفقيد . وراح  
يستفسر من يديغي بقوله :

- ماذا وراءك يا يدিকে ، كيف تجرى الامور هناك ؟ وهل  
سوف يسمحون لنا بالمرور ؟

- ينبغي ان يسمحوا . سيأتي الآن رئيس الدورية نفسه ،  
وهو اللفتنانت . ولم لا يسمحون لنا بالمرور ؟ وهل  
نحن جواسيس ! يحسن بك ان تنزل من المقطورة لترى رجلك  
بالشمس لثلا تتنمل من طول الجلوس .

بلغ الوقت الساعة الثالثة بعد الظهر وهم لم يبلغوا بعد  
المكان المقصود والموضع المنشود ولم يصلوا الى مقبرة آنا-  
بايت رغم كونها لم تعد من البعد بمكان .

عاد يديغي الى الحارس وراح يخاطبه قائلا :

- قل لي يا ولدي هل سيطول انتظارنا قدوم رئيسك ؟  
- كلا ، سيصل قريبا على جناح السرعة . انه يستقبل



سيارة . والمسافة تستغرق عشر دقائق الى خمس عشرة دقيقة  
لا غير .

- طيب ، فلننتظر . وهل اقيم هذا السياج من الاسلاك  
الشائكة منذ امد ؟

- نعم ، ليس منذ قريب . ونحن الذين اقمناه . وانا في  
الخدمة منذ سنة . وعليه تكون قد مرت مدة نصف سنة على  
تطويق المنطقة به .

- اذن فالامر مفهوم . فلقد جهلت انا ايضا ان هذا الحاجز  
الشائك منصوب هنا . ولهذا السبب وقع ما وقع  
وكانما انا الآن بحكم المذنب وصاحب الجريمة فيه . وذلك  
لانني انا الذي الحفت في الدعوة الى جلب جثة  
المرحوم الى هنا بالذات لتثوي رفاته بعد وفاته في مئوآها  
الاخير في مقبرتنا العامة . ولنا هنا مقبرة عريقة هي مقبرة آنا  
باييت . اما المرحوم قازانغاب الذي جثنا لندفن جثمانه فلقد كان  
انسانا طيب النفس جدا . عشنا معا ثلاثين عاما امضيها في  
المفرق . كان بودي انجاز الامر على احسن ما يكون .

يبدو ان الجندي قد تعاطف مع يديغي البوراني في مشاركة  
وجدانية . توجه اليه قائلا بلهجة الجد العملية :

- اسمع يا ابتاه ، سيصل قريبا رئيس الدورية اللفتنات  
تنسيق بايف فاذا ذكر له الامر كله على حقيقته وبكل فحواه .

وهو على اية حال انسان له نفس وقلب . فليعرض الامر على  
الرؤساء ممن هم اعلى منه رتبة ومقاما فلعلمهم يرقون ويأذنون .

- شكرا جزيلا لك على الكلمة الطيبة . وبغير هذا ما سبيلنا  
وكيف هو منتهى امرنا . ما هو لقبه الذي ذكرته ، اهو تنسيق

بايف ؟ هل لقب اللفتنات تنسيق بايف ؟

- اجل ، انه تنسيق بايف . وهو جديد هنا ، نقل الينا منذ  
وقت قريب ، فهل انت تعرفه ؟ هو من ابناء منطقتكم . لعله ممن

لكم به معرفة او من اخصائكم .

- كلا ، ما قولك هذا - قال يديغي متضاحكا - ان لقب  
تنسيق بايف منتشر عندنا انتشار لقب ايفانوف عندكم ايها

الروس فما اكثر هؤلاء واولئك هنا وهناك . كل ما في الامر هو  
انني تذكرت شخصا يحمل اللقب ذاته .

وهنا رن جرس التلغون في المخفر واسرع الحارس راكضا  
ليرد على المتلفن . بقي يديغي لوحده . عاد حاجباه الى تقطيبهما

وتجهم وجهه من جديد . واخذ يتطلع عبوسا متجهم الوجه حو اليه  
ناظرا نحو الافق ليتبين ما اذا كانت سيارة قد ظهرت على الدرب

وراء الحاجز . وهز يديغي البوراني رأسه . «واذا ظهر ان هذا  
الضابط هو ابن ذلك الرجل صاحب العين التي تشبه عين الصقر

وهو الذي عرفته في وقت ما ؟ - خطرت على بال يديغي هذه  
الفكرة وسرعان ما طردها هو نفسه واخذ في لوم نفسه وتعزيرها

بينه وبينها زاجرا لها بقوله الداخلي : - ثم ماذا تظنين  
وتحسبين ؟ ما اكثر ما تخطر على البال من افكار واغربها ويا

للراس من محط لغريب الافكار . فما اكثر من يحملون هذا  
اللقب نفسه بين الناس . ليس ذلك متوقعا ولا يمكن ان يكون .

لقد اخذت النصفة من تنسيق بايف ذاك في نهاية المطاف وخاتمته  
وانتصف منه وفق ما يتطلب الانصاف . . . على اية حال ومهما

قيل فان الحقيقة لها مكانها على وجه الارض . انها مهما كان من  
امر هي التي تعلو وتفوز في آخر الامر . . .»

تنحى الى جانب واخرج مندبل الجيب ومسح به في عناية  
كبيرة اوسمته ومداياته وشارات المكافاة عن حسن العمل

وجودة حصيلته وعدلها على صدره لكي تلمع وتبرق وتشعشع  
ولكي يراها راسا ويلاحظها هذا اللفتنات تنسيق بايف .

## الفصل الثاني عشر

اما حكاية تنسيق بايف الملقب بستقرى العينين فقد جرت  
على النحو التالي .

في سنة ١٩٥٦ في اواخر الربيع عقد اجتماع حاشد في مرآب  
تعبيل ودعى اليه عندئذ جميع العاملين في خطوط السكك الحديد  
بالمنطقة فقدموا زرافات ووحدانا من كافة المحطات والمفارق .



ولم يبق في مواضع العمل سوى من كان عليهم في ذلك اليوم القيام بنوبة الشغل على الخطوط . ما اكثر ما عقد من كافة انواع الاجتماعات العامة التي حضرها يديغي البوراني ولكن ذلك الاجتماع بالذات كان مما لا ينسى على الاطلاق .

عقد الاجتماع في مبنى ورشة تصليح القاطرات . وتجمهر هناك جمع غفير ضاق بهم المكان على وسعه حتى لقد تسلسق البعض الى القسم العلوي بالغين حد السقف نفسه وجلسوا متعلقين على العوارض السقفية . ولكن الامر الاهم هو اية خطب نارية القيت ! اوضح امر بيريا كله حتى النهاية . ووصم بالعار والشنار هذا الجلاد اللعين ، ولم تعرض ثمة بادرة تنم عن رحمة او شفقة بل واسف عليه . وتعاقبت الخطب الحادة حتى حلول المساء واندفع الى منصة الخطابة عمال الكراج انفسهم ولم يخرج من الاجتماع قبل ختامه حتى ولا شخص واحد فكانهم كانوا متسمرين الى المكان بالمسامير على المعنى الحرفي لهذا التعبير . ولم يكن ثمة من شيء عدا دوي الكلام ورجع الاصوات وهو اشبه ما يكون بضجيج الغابة الناجم عن حفيف الاشجار وخنخشة الاوراق والاغصان فيها متصاعدا في ارجاء قبة المبنى . وانطبعت في الذاكرة عبارة تلفظ بها احدهم في الجوار مرددا اياها بهمس في لهجة روسية صميمة بقوله : «انها بالفعل مثل اضطراب البحر قبيل هبوب العاصفة» وهو كذلك . حتى لقد خفق القلب في الصدر مثلما كان يحدث في جبهة القتال ابان الحرب قبيل شن الهجوم . واشتدت الرغبة في ارواء العطش فلقد جف الحلق ويبست اللهاة ولكن اين السبيل الى الماء في مثل هذا الحشد الحاشد من الناس ؟ وانتي لك هذا وانت في هذا الجمع الغفير من البشر ؟ ولم يكن ثمة من سبيل سوى مواصلة الصبر وكظم العطش الشديد . وخلال فترة الاستراحة القصيرة اقترب يديغي الى المنظم الحزبي للورشة تشيرنوف رئيس المحطة السابق وكان من الجالسين في المنصة . وقال له :

- اسمعني يا اندريه بتروفيتش ، ربما يحسن بي ايضا ان اخطب مع هؤلاء الخطباء . ما رايك ؟

- هيا ، اذا كانت في نفسك مثل هذه الرغبة .

- الرغبة متوفرة بل وعارمة . ولكن هلم بنا في البداية

نتشاور . الا تتذكر انه كان قد اشتغل معنا في مفرقنا قطبايف ، ابو طالب قطبايف . وهو ذلك الذي كتب عنه المفتش تقريرا بشكل اخبارية زاعما انه يسجل مذكراته عن ايامه بيوغوسلافيا وكان ابو طالب هذا قد حارب هناك في صفوف الانصار . وكتب عنه ذلك المفتش الكثير غير هذا وجاء اولئك الجوالون من رجال الامن واعتقلوا الرجل فلقى حتفه من جراء هذا وهو رهن الاعتقال وضاع في شربة ماء . الا تتذكر ذلك ؟

- اجل ، اتذكره وما نسيته . وقد جاءت زوجته في طلب ورقة رسمية .

- اجل ، اجل . ثم رحلت العائلة . وانا الآن اذ سمعت ما سمعت ، خطرت على بالي افكار . اذ تربطنا حاليا بيوغوسلافيا واصر الصداقة وما من خلافات البتة فباي ذنب يلقي العذاب والنكال اناس ابرياء لا ذنب لهم ؟ لقد كبر اولاد ابى طالب هذا وهم الآن يتلقون التحصيل في المدرسة مع اقرانهم واترايهم . وينبغي شرح الامر كله ليكون الجميع على بينة . والا فلسوف يشير نحوهم كل من شاء ، ويقول ما شاء بينما نال هؤلاء الاولاد نصيبهم . وعانوا مرارة اليتيم وفقدان الاب المعيل .

- تمهل يا يديغي . افانت تريد التحدث في خطبتك عن هذا الامر بالذات ؟

- نعم ، بالفعل .

- وما هو لقب ذلك المفتش ؟

- من الممكن معرفته ، وان كنت في الحق لم اره بعد ذلك .

- وكيف يمكنك معرفته الآن وعند من ؟ ثم هل ثمة برهان بالوثائق على كونه هو بالذات الذي كتب التقرير ؟

- ومن غيره ؟

- هنا يحتاج الامر الى برهان فعلي يا عزيزي البوراني . وماذا اذا ظهر ان الامر ليس ولم يكن على هذا النحو ؟ هذه قضية ليست من باب المزاح . اسمع يا يديغي نصيحتي . اكتب رسالة عن هذا كله الى عاصمة الجمهورية اما - آتا . اكتب عن كل شيء كما حصل وارسلها الى لجنة الحزب المركزية فسي الجمهورية . وهناك سوف يمحسون الامر ، بدون تاخر . لقد



تولى الحزب بنفسه القضية بقوة وسترى بنفسك  
وتتحقق .

وسوية مع الجميع حاضري ذلك الاجتماع صرخ يديغي البوراني  
هاتفا بكل قوة وحزم : «المجد للحزب . تؤيد خط حزبنا» ثم  
عند اختتام الاجتماع ارتفع صوت أحدهم منشدا نشيد الاممية .  
ثم أيدته بعض الاصوات منشدة معه وعقب مرور دقيقة واحدة  
كان الجمع كله يردد كما لو كان بصوت واحد هذا النشيد الذي  
صاح تحت سقف ورشة التصليح ، هذا النشيد العظيم ، نشيد  
كل الازمان والعصور نشيد الجميع وكل من كان طيلة حياته  
من المضطهدين . لم يصادف قط من قبل ان  
انشد يديغي بهذا الشكل الجماعي . وكأنما قد رفعت الامواج  
وحملته مهيبا وفخورا وفي نفس الوقت شعر يديغي بكونه  
متحدا مع اولئك الذين هم ملح الارض وعرقها الناضح . واخذ  
نشيد الشيوعيين يتعالى ويرتفع نائفا في القلب والنفس  
الشجاعة والعزم على النود عن الحق وتأكيد حق الكثيرين في  
العمل على تحقيق سعادة الكثيرين . وكما هو الحال في حالات  
الانفعال الطاغي بدا ليديغي من باب الخيال وكأنه عاد مرة اخرى  
الى شاطئ بحر آرال وهناك شعر كما يشعر دوما بان روحه  
العائرة تتطاير كطائر النورس الحر فوق زبد الامواج في رغوتها  
البيضاء .

وبهذه المشاعر الجياشة عاد الى البيت . وحين جلس يرتشف  
الشمس على زوجته اوق بالا مفصلا وبحيوية كل ما جرى  
في الاجتماع . واخبرها كيف اراد هو نفسه ان يخطب ايضا  
وما الذي قال له ردا على ذلك الموجه الحزبي الحالى تشيرنوف .  
واستمعت اوق بالا الى حديث زوجها وهي تصب له من السماور  
الشمس قدما اثر آخر وهو يرتشف ويرتشف بلا توقف .  
- ما الذي دهاك ؟ ما انت قد افرغت السماور كله من  
ماه - قالت ذلك مستغربة وهي تضحك .

- في الاجتماع عطشت جدا واشتدت رغبتى في شرب  
شيء ما ، اى شيء . وذلك من شدة التاثر والانفعال . واين  
هناك الوصول الى الماء او ما يشرب . كان التجمع بحيث يصعب  
التحرك والتمليل . ثم بعد الانتهاء هرعنا قفزا لكي اروي عطشى .

ونظرت فاذا بقطار يتحرك نحو جهتنا ببطء . وأسرعت الى سائق  
القطار وعرفته فقد كان فتى من جماعتنا ، جاندوس من تمغريك -  
تام وفي الطريق سقاني الماء . ولكن هل ذلك يكفي ؟

- وهذا ما لاحظت بالضبط - همست اوق بالا مبتسمة  
وهي تصب له الشمس مرة اخرى . ثم قالت - انه لأمر حسن انك  
قد فكرت في شأنهم ، اولاد ابى طالب . ما دام الامر كذلك واذا  
كانت قد حلت ازمان كهذه ولن تكون بعد الآن مضايقات  
وملاحظات يتعرض لها هؤلاء الايتام ، اذن فكن جريئا ولا تخف .  
ان كتابة رسالة شيء حسن ولكن حتى تتم كتابتها ثم ارسالها  
ووصولها وقراءتها وتمحيصها يحتاج الامر الى وقت ما اطوله .  
والافضل ان تسافر انت نفسك الى الماء - آتا وهناك تقص الامر  
كله بنفسك وكما وقع .

- اهذا ما تعتقدينه ؟ ان اسافر الى الماء - آتا وتوجه  
راسا الى الرئاسة العليا ؟

- وماذا في ذلك ؟ الامر يتعلق بقضية . وكم مرة دعاك  
صديقك يليزاروف ولقد طال انتظاره لك وهو في كل مرة يترك  
عندنا عنوانه المنزلى . بدلا منى سافر انت . لست استطيع  
الابتعاد عن البيت وعند من استطيع ايداع الاطفال ؟ اما انت  
فافعل . اطلب اجازة من العمل . كم هي الاجازات التي تستحقها  
طيلة هذه الفترة من السنين . خذ اجازة ولو مرة على الاقل .  
وهناك في المكان تقص الامر كله على الناس الكبار ذوي  
المناصب .

وقال يديغي متعجبا من حكمة زوجته ورجاحة عقلها :  
- انت يا زوجتى تقولين الصواب . فلنفكر في الامر ونقلبه  
على وجوهه .

- لا تطل التفكير وعجل بالتدبير . كلما اسرعت بالانجاز  
كان الامر أفضل . وسوف يساعدك افاناسي ايفانوفيتش . وهو  
يعرف خيرا منك الى اية جهة ينبغي ان تذهب وعلى من يجب ان  
تعرض الامر .

- وهذا ايضا عين الصواب .  
- وهو ما اقوله لك . لا داعي للتأجيل والتسويف . وفي



الوقت نفسه سترى ما ترى ولعلك تشتري بعض الاشياء والحاجيات للبيت . بناتنا قد كبرن وسوف تقصد ساولا الى المدرسة فى الخريف . ولعلنا سندخلها الى مدرسة القسم الداخلى او ما راىك ؟ هل فكرت فى هذا الامر ؟ ألم تفكر فيه ؟ - فكرت ، فكرت بالطبع وكيف لا ؟ - قال البوراني متنبها ومحاولا ان يستر عنها شعوره بانه قد ادهشه كيف كبرت ابنتهما الكبرى على غفلة منه وحان موعد قصدها الى المدرسة لبلوغها سن التعليم .

وواصلت اوقبالا كلامها قائلا :

- اذا كنت قد فكرت فى ذلك فعلا اذن فسافر لتقص الامر على الناس وتحدثهم عما عايناه هنا طيلة تلك الاعوام . فليساعدوا الايتام ولو بتبرئة ساحة ابيهم . ثم اذا بقى لديك متسع من الوقت فاذهب وتطلع لعلك تجد ما تشتريه لبناتنا ولى ايضا فما فى ذلك من بأس . ولقد تجاوزت انا ايضا طور الشباب - قالت ذلك جاذبة حسرة خفية .

وتطلع يديغى الى زوجته . ما اغرب انه يمكن رؤيتها يوميا دون ملاحظة ما تراه بعد ذلك فى نظرة واحدة . انها بالطبع لم تعد شابة ولكنها لا تزال ايضا بعيدة بعد عن التقدم فى السن . ولكنه شعر فيها بشيء ما جديد وغير معهود . وادرك السر : فان التعقل فى نظرة زوجته قد لاحظته وكذلك اكتشف اول شعرة فى راسها قد وخطها الشيب ثم عد من هذه الشعرات البيض ثلاثا ورباعا كالخيوط البيض وليس اكثر ومع ذلك فانها كانت تدل على ما مر من العيش والمعاناة .

بعد يوم واحد كان يديغى فى محطة قطار قمبيل بصفته هذه المرة احد الركاب . اجل ، تعين عليه الانتقال بالاتجاه المعاكس من بورانلى - بورانى لكى يستقل القطار المتوجه الى الما - آتا . ولم يأسف يديغى على هذا . فعلى هذا النحو او ذاك كان ينبغى فى البداية ارسال برقية الى يليزاروف يخبره فيها بقدمه اليه . وهذا لم يكن ممكنا فعلة الا فى محطة القطار الكبيرة . . .

ثم وصل قطار موسكو - الما آتا وفيه ركب يديغى متجاوزا مفرقه بورانلى - بورانى . وكان محله فى عربة ذات مقاصير وأريكنه علوية . وبعد ان وضع الامتعة فى محلها خرج يديغى

راسا الى الممر ووقف عند النافذة لثلا يفوته القاء نظرة على مفرقه من القطار كواحد من الركاب وبعد هذا كان ممكنا الارتقاء الى الاريكة والاستغراق فى الرقاد فعليه ان يقطع بعد هذا فسى الطريق يوميين سيرتاح فيهما مستمتعا كما اعتقده الا انه ابتداءا من النهار التالى لم يعد يدري كيف يمكنه قضاء الوقت وكيفية تخليص نفسه من هذا الفراغ الاضطرارى . واخذ العجب من الركاب الآخرين فى القطار الذين كانوا كسالى ينامون وقتا طويلا ثم يعاودون الاكل والشرب بنهم وجشع وكانهم ممن لا يشبعون ولا هم لهم سوى النوم والاكل .

ولكن خلال اليوم الاول ولا سيما ساعاته الاولى غلب على نفسه الشعور بالابتهاج وحتى اختلاجة العبطة الممزوجة بهزة التائر لعدم اعتياده على مغادرة الاسرة لفترة طويلة . وقف عند النافذة متأثرا نهية الانفعال منتصب القامة يعتمر بقبعة جديدة ابتاعها خصيصا لهذه المناسبة فى مخزن مبيعات الحاجيات بمحطة القطار ويرتدى قميصا نظيفا وسترة من زمان الحرب ولكنها فى حالة جيدة من ملابس قازانغاب ، مفتوحة الأزرار الى النصف . وقد الزمه قازانغاب بارتدائها قائلا انها تتناسب مع الأوسمة والنياشين والمداليات على الصدر وساقاه فى بنطلون خيالة وجزمتان من جلد مكسو بالطلاء من النوع الجيد مما يلبسه الضباط . وكانت هاتان الجزمتان تعجبان يديغى البورانى اشد الاعجاب رغم ندرة المناسبات التى حدثت به الى انتعالهما . كان يديغى يعتبر ان الانسان لكى يحافظ على حسن المظهر بتبغى ان يكون لديه قبل كل شيء احذية جيدة ولباس رأس جديد . وكان لديه الآن هذا وذاك .

وهكذا كان واقفا عند النافذة . وكان يمر به العابرون فى ممر عربة القطار بعد القاء نظرات عليه يشعر فيها بالتوقير وبعضهم يعيد الالتفات . ورضى يديغى البورانى عن مظهره الذى كان يبدو انه يوحى بالتعبير عن اللياقة والحساسية فسى وجهه .

ورضى القطار فى سيره الرتيب مندفعا بسرعة قصوى فى رحاب ساروزيكى الربيعية وكأنه يسابق الريح ويتعجل اللحاق بسمت حاشية الافق الشفاف المتراكض عنه الى الامام . وكانا



خلا العالم الا من شيئين هما عرض السماء والسهب الرحب . وقد انطبعا على بعضهما البعض عند الافق البعيد الرضاء ونحو موضع انطباقهما كان يجرى مندفعاً هذا القطار السريع .

ولكن ها هي تتراكم الى اللقاء الاراضى البورانية . وكل طية من طيات الارض وكل حجر هنا قريب الى النفس ومعروف لديها . ومع الدنو نحو بوراني - بوراني تحرك يديغي بحيوية قرب النافذة وتراعت ابتسامته تحت شاربيه وكانما كانت قد مرت اعوام طوال وهو بعيد عن هذا المكان الحبيب وما هو يبدو الآن المفرق . ومرقت امام العين مصابيح الاشارات الضوئية والاكواخ والانشاءات وقطع القضبان المكومة والعوارض المرمية عند المستودع وبدا كل هذا بالسرعة الخاطفة قرب خط السكة الحديد الممتد وسط الرحاب الصحراوية الشاسعة المنبسطة على الجانبين . ولحق يديغي حتى ان يلمح ابنتيه . ويظهر انهما استقبلتا اليوم ارتقبا لوصوله جميع قطارات الركاب العابرة من الغرب الى الشرق . وكانت ساوولا وشرابات وهما تلوحان بكفيهما فرحتين وتتقافزان لجلب اللتفات اليهما وتبتسمان فى بشاشة لنوافذ العربات العابرة فى سرعة خاطفة . وكانت ضفائرهما تتلاعبان لدى ذلك بشكل يبعث على الضحك اما عيونهما فتبرق مشعشة . واندفع يديغي غريزيا نحو النافذة ولوح لهما بيديه متمتما بكليمتا رفاق ولكنهما اما لم ترياها واما لم تعرفاه وكيف كان ممكنا تميزه والتعرف عليه والقطار يمرق كلمح البصر . ومع ذلك كان مبهجا لنفسه ان ابنتيه كانتا تنتظران اوبته بلهفة وتستقبلان بالتحية كل قطار فى ذلك اليوم عسى ان يكون قطاره بالذات . ولم يحزر اى واحد من ركاب القطار انه خلف وراءه الآن لتوه عابرا طفليته وبيته ومفرقه ! ومن باب اولى لم يكن احد منهم ليستطيع ان يحزر انه كان يسرح ضمن سرب الجمال والنياق فى السهب الواقع خلف المفرق بعيده الشهير قره نار . اما يديغي فقد عرفه راسا من بعيد فسخت عيناه حين اغرورقتا بالدموع من شدة التأثر .

ثم فيما بعد عندما ابتعد القطار على مسافة عدة محطات عن بيته اغفى يديغي . نام طويلا ورغدا على وقع العجلات الرتيب

كالايقاع الموزون وتردد عبارات الركاب مجاوريه فى العربة وهم يتحدثون فى صوت خفيض .

وعند الظهيرة من اليوم التالى بدت للركاب جبال الاطاو الممتدة فى سلسلة متلاحقة من مدينة تشمقند على طول منطقة السبعة اناهار (سيميريتشيه) ويا لها من جبال رائعة لا تشبع العين من منظرها . ومهما متع يديغي البوراني ناظره بالمنظر الفخم لسلسلة الجبال المكلمة بالثلوج وهى التى ترافق طريق السكك الحديد حتى مدينة الما آتا نفسها طلبت نفسه وعيناه المزيد فالمزيد من النظر وكان هذا المنظر بالنسبة له كقدام من سهب ساروزيكى معجزة ساحرة واحساسا بالخلود الأبدى الأزلى . وقد اثار جبال الاطاو فى نفسه لا مجرد الاعجاب بعظمتها فحسب وانما ايضا الحاجة الى التأمل فى التفكير وهو يتطلع اليها تطلع المندهش المبهور . وقد اعجبه هذا التأمل الصامت والعين تسرح فى هذه الجبال . وتهايا بالفكر لملاقات الشخصيات ذوي المسؤولية الذين لا يعرف بعد من سيكونون وهم الذين اعلنوا للملا ان اخطاء الماضى لن تتكرر بعد الآن مرة اخرى مطلقا ولهذا السبب اراد ان يقص عليهم القضية المريرة التى وقعت فى نصيب عائلة ابي طالب . فليتحصوا وليتمحصوا وليقرروا الآن الكيفية التى ينبغى ان يجرى بها تصحيح القضية . و ابو طالب نفسه لا يمكن بعنه مرة اخرى الى الحياة ولكن اطفاله يجب ان يصانوا من كل اذى وترفع عنهم كل اساءة واهانة وينبغى ان تفسح امامهم كل الدروب . فليذهب اكبرهم سنا ، داول ، خريف هذا العام الى المدرسة غير خائف ولا وجل من اى شىء وغير مضطر الى اخفاء امره من اموره . ولكن اين هم الآن ؟ وكيف تسير شؤونهم ؟ وما هو شأن ظريفته ؟ وكيف تجرى حياتها ؟

جثمت كآبة ثقيلة الوطاة على الصدر وسرت رعشة باردة فى النفس حين خطرت على باله هذه القضية . كان الاوان قد حان لنسيان العاضى البغيض واسدال ستار النسيان عليه ولكي تهدأ النفس وتستقر وتطمئن بعد الغليان والفوران فلقد ابتعدت لكي تنسى وذهبت كى تقطع الافكار عنها ولكن الله وحده يعلم ما الذى نسي من امرها وما الذى لا ينسى ولا يحسى . شعس



يديغي البوراني بالحزن والأسى وهذا نفسه ما استطاع خاضعا  
للقدر ومستسلما للمصير . ولمن تبت ما في صدرك ومن الذي  
يفهم ما يجيش في نفسك ؟ عدا هذه الجبال المكللة بالثلوج والتي  
تناطح السحاب وتشهق الى عنان السماء ولكنها في عليائها وفي  
رفعة شأوها لا شأن لها بهموم أهل الارض ولا يعينها في شيء ما  
يعانيه الناس . وانما هي عظيمة جبال الاطوار هذه لكي يأتسى  
ويذهب العدد العديد من الناس الفانين وكانهم لم يكونوا شيئا  
مذكورا بينما تظل هي شامخة في العلاء وتبقى في حضن الخلود  
والأبدية ولكي تخطر على بال الناس شتى الافكار وتمر بخاطرهم  
مختلف الخواطر وهم يتطلعون اليها ويسرحون بصرهم عليها  
وهي صامتة لا تنطق ومهيبة لا تتحرك . . .

وتذكر يديغي كيف أن أبا طالب عقب تأليفه «نداء رحيم  
الله اغا الى شقيقه عبد الخان» وقد فكر كثيرا كما يبدو في  
الحكاية المأثورة التي سجلها تدوينا أدلى ذات مرة في الحديث  
بفكرته حول أن اشخاصا مثل رحيم الله اغا وبيغيماي اذ يلتقون  
على درب العمر يمنحون الى بعضهم البعض من السعادة والهنا  
مثلا يسببونه لهم من البلاء والشقاء حين يلقي أحدهم الآخر في  
حومة مأساة لا حل لها ولا منفذ منها وحول أن الانسان ليس في  
حل عن الانسان الآخر وليس في منجى من أحكام الناس الآخرين  
ولا في غنى عن حكمهم عليه ورايهم فيه . ولهذا تصرف على  
هذا النحو معه ، مع رحيم الله اغا ذروه القريبون اليه حاسبين  
كما ظنوا وواعقدوا أنهم يفعلون له الخير . وبدت ليديغي تلك  
العبارات الحكيمة آنذاك ليست سوى عبارات فيها ذكاء لا أكثر  
حتى أدرك بنفسه وتجربته مدى ما فيها من حقيقة عميقة وحكمة  
دقيقة وعرف ما تشتمل عليه من صواب حين عانى بنفسه ما  
عانى من العذاب . ورغم انهما هو وظريفة كانا بعيدين عن مثل  
هذه القصة بُعد السماء عن الارض وبعد الثرى عن الثريا اذ لم  
يحصل بينهما أي شيء عدا كونه كان يفكر فيها تفكيرا جما  
ويحبها حبا لماً ولكن ظريفة كانت الاولى في تلقي الضربة الاولى  
بغية التخلص من المصير الاكيد لعدم الحل وانعدام  
المخرج وقررت لنفسها قاطعة بحكم العقل كما تجرى الدماء  
من العروق عند النزيف عزمت وامضت بيد انها لم تفكر فيه وفي

شأنه وما الذي سيخلفه قرارها هذا في نفسه . من الحسن انه  
بقي على قيد الحياة على الاقل . وحتى الآن يشعر أحيانا بثوبة  
من الكآبة بحيث يجد نفسه على استعداد للجري  
الى حافة الارض ومنتهائها ومن اقصاها الى اقصاها لمجرد ان تقع  
عيناه عليها او يشنف سمعه صوتها ولو لمرة واحدة ولحظة  
خاطفة . . .

وتذكر يديغي ايضا وهو يضحك على نفسه ويسخر منها  
كيف اعتراه وبدا منه انفعال غير لائق حين أخبره أبو طالب  
بأنه عاش في ألمانيا كما يقال شخص مرموق وشاعر عظيم هو  
جوته ويرن لقبه هذا في اللغة القزاقية بمعنى ليس بالمطلوب  
والمرغوب ولكن هذا ليس مانعا وليس هو الجوهر فكل انسان  
يحمل ما قدر له واطلق عليه من اسم او لقب . وهذا الشيخ  
العجوز جوته وقد تجاوز سن السبعين من عمره يبدو انه أحب  
صبية حسناء وهي أيضا أحبته من كل قلبها . وعرف هذا الجميع  
ولكن لم يؤخذ جوته بالنواصي والاقدام ولم يعلن انه  
مجنون معتوه ومخبول مجذوب . . . ولكن كيف كان التصرف مع  
رحيم الله اغا . . . جعل عرضة للذلال والمهانة وسلط  
على هذا الانسان ما لا يليق بالانسان وكرامة الانسان  
وقالوا وظنوا أنهم يريدون به خيرا . . . أما ظريفة فانها هي أيضا  
أرادت له على طريقتهما الخير وتصرفت وفقا لما أوحى به لها  
ضميرها . . . ولهذا فهو لا يحس ازاءها بالضعينة . وهل يمكن  
أن يشعر المرء بالضعينة ازاء الانسان الذي يحبه وهل يحقد  
الانسان على محبوبه ؟ من الاخرى أن تتهم نفسك وتحملها الذنب  
من أن توجه ذلك الى من تحبه . فلينزل بك السوء لا بها وليكن  
العذاب والويل من نصيبك لا من نصيبها . . . واذا كان  
باستطاعتك فان هجرتك وتركتك تذكرها دوما واحبها  
دائما . . .

وبهذا رحل يديغي البوراني متذكرا اياها ومجبا لها كان  
يتذكر أبا طالب وأطفاله الذين أصبحوا بعده يتامى . . .  
وقد فكر يديغي فجأة وهو يوشك على الوصول الى المآ آتا  
على هذا النحو : وما العمل ان لم يكن يليزاروف هنا ؟ يا له من  
أمر ! ولماذا لم يخطر له هذا من قبل وهو لا يزال في بيته



واوق بالا ايضا لم تفكر في هذا . حكموا على الامر قياسا على  
انفسهم اذا كانوا هم يعيشون في منطقة ساروزيكي دون الانتقال  
منها او السفر منها فانهما يظنان ان الجميع مثلهما لا يسافرون  
ولا ينتقلون . بينما الاحتمال حتى كبير بان افاناسي ايفانوفيتش  
لن يكون في بيته . ان هذا الرجل يشتغل في الاكاديمية نفسها  
وهو في كل مكان مطلوب ومرغوب وما اكثر الاعمال والاشغال  
لدى عالم كهذا . يمكن ان يسافر في رحلة ايفاد وفي سفرة  
طويلة . «يا له من اخفاق واحباط سيكون في هذه الحالة» -  
فكر يديغي بقلق واخذ يفكر في انه سوف يتعين عليه عندئذ  
التوجه الى هيئة تحرير جريدته القزاخية التي تنشر عنوانها في  
كل عدد من الجريدة . وهناك سوف يشرحون له على الاربع كيف  
والى اين يتوجه . ومن اعلم من محرري الجريدة بالجهة التي  
ينبغي قصدها في مواضع كهذه . بدا له حين كان لا يزال في  
بيته ان الامور كلها بمنتهى البساطة فاستجمع امره وسافر .  
والآن مع دنوه من المكان اخذ يديغي البوراني يشعر بالقلق  
وليس عبثا ان مما يقال في الامثال قولهم ان الصياد غير  
الرشيد يحلم بما سيصيده وهو لا يزال بعد في بيته لم يخرج  
منه الى موضع الصيد والقنص . وهكذا فعل هو ايضا . ولكنه  
بالطبع اعتمد وعول على يليزاروف وهو عماده وصديقه منذ  
امد بعيد وقد نزل مرارا على ضيافته في المفرك وقد عرف قصة  
ابى طالب قطبايف . وسيكون بوسعهم فهم الامر من اقل اشارة  
واخصر عبارة . ولكن كيف يمكن التحدث الى اناس غرباء ومن اين  
ينبغي ان يبدأ وكيف ينبغي ان يدير الحديث - هل يلقي  
افادات شاهد العيان كما يجري في المحاكم ومرافعاتها ام يعمد الى  
القاء ما يشبه التقارير ام على نحو آخر ؟ وهل سوف يصغى اليه  
سامعوه وما الذي سوف يقال له في الجواب ؟ ام انهم سوف  
يستفسرون منه متسائلين في استفسار انكارى او شبهه من  
قبيل : ومن انت ؟ ولماذا تشعر بالحاجة الملحة لديك دون غيرك  
او اكثر مما لدى سواك لتبييض صفحة ابى طالب قطبايف وتبرئة  
ساحته ؟ وما هي علاقتك الشخصية بالامر وصلتك الخاصة به ؟  
ومن انت له ؟ انت اخوه الشقيق ام قريبه ام زميل  
ورفيق ام صاحب وصديق ؟

وفي هذه الاثناء كان القطار قد بلغ احد اطراف العالآنا بعد  
ان كان ينهب الطريق اليها نهبا . واخذ الركاب يتهياون  
للنزول عند الوصول وخرجوا الى العمر بامتعة  
سفرهم في انتظار وقوف القطار . وكان يديغي ايضا متهيئا  
وعلى استعداد للنزول من القطار . وها هي محطة القطار  
قد بدت وبلغت وها هي نهاية الدرب قد حلت وقد تمت الرحلة  
وقاربت نهايتها . وكان الخلق المتجمع في انتظار القطار جمهورا  
حاشدا لا اول له ولا آخر . وكان الناس في المحطة وعلى  
رصيفها كثرة كثرة من مودعين ومستقبلين ومن مسافرين  
وقادمين . واخذ القطار يسير ببطء . ويتها تدريجيا للوقوف .  
وعلى حين غرة لمح يديغي البوراني من النافذة بين الوجوه  
المتلاوحة على رصيف المحطة وجه يليزاروف وامتلكته بهجة  
غامرة عاصفة كفرحة الاطفال . ولوح له يليزاروف بقبعته في  
بشاشة وحفاوة وسار بمحاذاة عربة القطار مرافقا . يا له توفيق  
كبير . ان يديغي حتى لم يراود نفسه الحلم بان يليزاروف  
سوف يستقبله بنفسه . انهما لم يلتقيا ولم يريا بعضهما  
البعض منذ امد بعيد ، منذ الخريف الماضي . كلا . لم يتغير  
افاناسي ايفانوفيتش رغم انه تقدم في العمر . انه لا يزال على  
ما كان عليه : خفيف الحركة نشط اللفات وهو نحيف الوجه  
نحيل القوام حتى ان خبير الخيول قزانغاب يشبهه بجواد مطهم  
كريم الاصل من نوع سلالة ارغماق وهو من خيرة الجياد وكان  
ذلك خير اطراء له . وحين علم يليزاروف بالوصف الذي نعت  
به وافق على ذلك قائلا فليكن الامر كما شئت وارتدت . ثم  
اضاف لى ذلك اذا كان ولا بد من تسميتي ارغماق فاعلموا اني  
ارغماق كبير السن ولست مهرا في مقتبل العمر .  
فلكم الشكر على هذا التقدير . وكان يسافر في العادة الى  
ساروزيكي مرتديا بدلة العمل ومحتزيا بساطيل المشمع ويعتمر  
على راسه طاقية ابلتها السنون اما هنا فقد كان يشد على عنقه  
رباطا ويرتدي بدلة حسنة بلون ازرق غامق . وكانت هذه البدلة  
تلائمه جدا وتوافق قوامه والامر الرئيسي هو انها كانت تنسجم  
ولون شعره الذي وخطه الشيب الى حد النصف .  
والى ان استقر القطار سار افاناسي ايفانوفيتش



بجواره ملتفتا نصف التفاتة ومبتسما له عبر النافذة وكانت عيون يليزاروف الشهباء الوطفاء برموشها الطوال تشعان ببريق كشرار النار يتلألا فيها الارتياح الصادق والرضا الصميمي لهذا اللقاء المرغوب . وهذا قد بعث الدفء رأسا في صدر يديغي وغابت مرة واحدة وتبددت الشكوك التي خامرت نفسه مؤخرا . وقال لنفسه منتشيا بالجور : «انها بداية طيبة وان شاء الله ستكون الرحلة كلها موفقة وميمونة» .

- ها انت اخيرا قد حزمت امرك وعزمت على المجيء وجئت بالفعل . وكم من مرة هممت ولم تفعل واجلت ولم تنجز . مرحبا واعلا وسهلا بك يا يديغي ، مرحبا يا بوراني - قال يليزاروف هذا وهو يستقبله .

وتعانقا بقوة في احتضان . وبسبب شدة الزحام حولهما وبسبب الفرحة شعر يديغي بشيء من الارتباك . وبينما انتقلوا الى الساحة المقابلة للمحطة امطره يليزارف بسيل دافق من الاسئلة التي لها اول وليس لها آخر . وقد استفسر منه عن الجميع وعن حياتهم وشؤونهم : عن قازانغاب واوق بالا وبوكيه والاطفال ومن هو الآن رئيس المفرق ولم ينس ان يسأل عن غيره قره نار .

- وكيف هناك يا بوراني حال بعيرك قره نار ؟ - سألته مستفسرا باهتمام بعد ان ضحك سلفا بمرح لسبب ما - الا يزال على حاله كالاسد الهصور ؟

- انه يتمشى على هواه وما الذي سيحدث له ؟ انه يزمرج ويهدر - اجاب يديغي - ولديه هناك في ساروزيكي ما يشاء من مراح فهو مطلق السراح والمكان رحب فسيح وله كامل الحرية فماذا يريد اكثر من ذلك ؟

كانت واقفة قرب مدخل المحطة سيطرة سوداء كبيرة ملمعة ومغسولة . وهذه اول مرة تقع فيها عينا يديغي على مثلها . انها كانت من طراز «زيم» وهي خير سيارة سوفيتية كانت معروفة في اعوام الخمسينات . وقال يليزاروف مازحا :

- هذه هي قره ناري . اجلس يا يديغي - قال له وهو يفتح له بابها الامامي - فلنذهب .

- ومن الذي سوف يسوق السيارة ؟ - استفسر يديغي .

- انا نفسي ، سأسوقها بنفسى - قال يليزاروف وهو يجلس وراء المقعد . - في آخر العمر اصبحت ذا ابهة كما ترى . ما الفرق ما بيننا وبين الامريكان في هذا وغيره . وهل نحن اسوا منهم بشيء ؟

وشغل يليزاروف المحرك بثقة الواثق المطمئن وقبل ان تنطلق السيارة من مكانها تطلع بنظرة تساؤل وهو يبتسم نحو ضيفه قائلا :

- ها انت قد قدمت اذن . فقل لى راسا : اتنوى البقاء طويلا ؟

- اننى فى الحقيقة قادم من اجل قضية يا افاناسى ايفانوفيتش . والامر يتوقف عليها وعلى النتيجة وقبل كل شيء ينبغي اجراء التشاور معك فى الامر .

- هكذا حدثت وقدرت انك قادم من اجل قضية معينة والا لما جررت نفسك وغادرت ساروزيكي . كيف لا ، فليكن . هلم بنا نفعل على هذا النحو يا يديغي . الآن سوف نتوجه الى بيتنا . وسوف تسكن عندنا ولا تعترض . ودعك من التفكير فى اية فنادق كانت . انت عندى ضيف خاص وكما نزلت انا فى ضيافتك بساروزيكي ستنزل عندى ضيفا مكرما وعزيزا . . . صيدين سبي بار . . . افليست العبارة هكذا بلغتكم القزاخية ؟ ومعناها : احتراما باحترام ؟

- اجل انها على هذا النحو - قال له يديغي مؤكدا . - اذن فقد انتهينا من الامر وسيكون ذلك لي ابعت على المرح فلقد سافرت زوجتى يوليا الى موسكو ذاهبة الى ابنتنا فقد ولد لنا الحفيد الثانى .

- الحفيد الثانى ! لك منى التهانى - قال يديغي .

- اجل ، اسمع ، الثانى - كرر يليزاروف وهو يرفح كتفيه باستغراب - عندما ستغدو جدا مثلى سوف تفهمنى ، رغم انك لا تزال بعيدا عن الوصول الى هذا . عندما كنت فى مثل سنك كان الهواء لا يزال يعصف مزوبعا براسى ! ويا للعجب فانتى واياك نفهم بعضنا البعض دون النظر الى فارق السن . والآن هلم بنا فلنرحل ولنذهب عبر المدينة كلها الى الاعلى . اترى الجبال والثلج يكلل هامات ذرواتها ؟ هناك فوق الجبل



بمنطقة ميديو واظن اننى حدثتك حول هذا ، يقع بيتنا بضواحي  
المدينة عند القرية تقريبا .

- اتذكر يا افاناسى ايفانوفيتش . وقد قلت لى ان بيتكم  
يقع عند حافة النهر . ويسمع عندكم دوما صوت خرير الماء .  
- سوف ترى الآن هذا كله بنفسك راي العين .  
هيا بنا ما دام ضوء النهار لا يزال منتشرا . انظر الى المدينة  
انها الآن فى غاية البداعة والروعة والجمال والنصل هو فصل  
الربيع . وكل شىء غارق فى الورد والازهار ، فما ابدع وما  
اروع .

كان الشارع يمتد من محطة القطار مستقيما وبدا كما لو  
كان بلا نهاية ، عبر المدينة كلها وهو يرتفع تدريجيا محفونا  
بصفيين من اشجار الصفصاف ومكتنفا بجذائق غناء نحو قمة  
المرتفع . وكان يليزاروف يقود السيارة على مهل وبدون عجلة  
متحدثا اثناء الطريق ذاكرة الامكنة ومواقعها وصفاتها وكانت ثمة  
مؤسسات ودوائر رسمية شتى ومحلات بيع ودور سكنى . وفى  
قلب المدينة تماما كانت شاهقة فى ساحة كبيرة فسيحة ومكشوفة  
من كافة الجهات بناية سامقة عرف يدعى راسا وحالا من شكلها  
انها دار الحكومة .

- هذه هي لجنة الحزب المركزية . - قال يليزاروف وهو  
يشير اليها بايماءة من راسه . ومرا بجوارها دون ان يخطر على  
بالهما انه سوف يتعين عليهما القدوم فى اليوم التالى الى هنا فى  
عمل كما تتطلبه القضية . وعرف يدعى البورانى بناية اخرى  
حين استدارت بهما السيارة عن الشارع المستقيم الى اليسار  
وهي مسرح الاوبرا القزاخى . وبعد عبور حين استدارا مرة  
اخرى نحو جهة الجبال فى الدرب المفضى الى منطقة ميديو . خلفا  
قلب المدينة وراهما . وقطعا شارعاً طويلاً بين المنازل  
والبساتين ومجاري السواقي التى يتفرق فيها الماء المنحدر من  
الجبال . وكانت الحدائق والبساتين حولهما مزدهرة ومزهرة .  
- يا للجمال ! - ردد يدعى هامسا .

- اننى لمسرور لكونك قدمت فى هذا الوقت بالذات -  
اجاب يليزاروف - ان مدينة الماآتا فى هذا الوقت تكون فى

احسن اوقاتها وترتدى اهبى حللها . وهى فى الشتاء ايضا جميلة  
ولكنها الآن تطرب النفس وتغنى للروح .

- اذن فالمزاج عندك رائع . - قال يدعى مبهتجا مع  
ابتهاج يليزاروف .

ونظر ذاك اليه متطلعا بعينه الشهلاوين الجاحظتين واوما  
براسه واتخذ هيئة الجد مقطبا جبينه ومكفهر الوجه ثم عاد  
الى الابتسام وانفجرت اساريره وانزاحت تجاعيد وجهه من  
تحت العينين .

- هذا الربيع له خصوصية يا يدعى . ثمة تغيرات تجرى  
ولهذا تبدو الحياة مستطرفة ويطيب العيش بالرغم من كون الاعوام  
تجرى بسرعة . لقد افقنا ونظرنا الى ما حولنا مفتوحى العيون .  
هل سبق لك من قبل ان اصبت بعلة وبيلة ثم شفيت فراق لك  
مذاق الحياة على نحو جديد ؟

- لست اتذكر نفسي فى مثل هذه الحالة - رد يدعى  
بتأثره السريع المباشر - اللهم الا اذا اعتبرنا حالتى بعد الاصابة  
برجة الذهول فى الحرب .

- انك فى صحة وعافية وانت اقوى صحة من تور ! - قال  
يليزاروف ضاحكا - اننى اتحدث على وجه العموم لا عن هذا .  
كل ما فى الامر انه قد خطرت على بالى هذه العبارة فليس فى  
كلامى اية اشارة بل هو قول يقال . . . ان القضية هي ان الحزب  
نفسه قد قال الكلمة الاولى . وانا راض عن هذا كل الرضا  
واسهر ازاءه بمنتهى الارتياح رغم اننى ليست لدى فى ذلك من  
الناحية الشخصية اية اسباب خاصة . ولكن الفرحة تغمر القلب  
وتعم النفس وقد انتعشت الامال وكاننى قد عدت الى عهد  
الشباب . ام ربما يكون ذلك ناجما عن كونى انحدر فى واقع  
الامر الى هوة الشيخوخة ومنخفض الهرم ؟ ما قولك ؟

- وانا يا افاناسى ايفانوفيتش قد قدمت بالذات فى قضية  
من هذا النوع .

- وما هي ؟ - تساءل يليزاروف دون ان يفهم كنه الامر .  
- لعلك تتذكر ؟ لقد تحدثت اليك سابقا عن ابى طالب  
قطبايف .

- اجل ، وكيف لا ! اننى اتذكر حق التذكر . اذن فهذه



هي الحقيقة . يبدو انك بالفعل تنظر الى الجذر من الامر . احسنت صنعا . وحسنا فعلت بقدمك دون ارجاء .

- لست انا الذي احسنت صنعا بل انها اوق بالا التي اوحى لي بهذا وهدتني اليه . ولكن السؤال هو من اين نبدا والى اين ينبغي ان نتوجه ؟

- باى شيء نبدا ؟ هذا الامر يجب ان نتولاه انما وانت بالمناقشة والبحث وعلينا ان نقله بحثا . وسوف تفعل هذا في البيت جالسين حول المائدة نرتشف اقداح الشاي . وسوف نناقش الموضوع بتمهل ودون تعجل - وبعد ان صمت هنيهة قال يليزاروف بلهجة تحوى الكثير من المعاني : - ما اكثر ما تبدلت الازمان يا يديغي . فقبل ثلاثة اعوام حتى لم تكن لتخطر لك على بال فكرة القدوم بامر كهذا . اما الآن فما من اخطار ولا خوف من لذع النار . وهكذا ينبغي ان تكون كل الشؤون من حيث المبدأ ينبغي علينا جميعا حتى آخر فرد ان متمسك بهذا العدل ونقول فيه كلمتنا الفصل . ولن تكون لدى اى احد كان اية حقوق استثنائية او امتيازات خصوصية . وهكذا افهم الامر واره .

- الامر هنا لكم اوضح واجلى وفضلا عن ذلك انت رجل متعلم - ابدي رايه يديغي - وعندنا اثناء الاجتماع العام فى عنبر الكراج دار الحديث ايضا حول هذا . وقد دار براسى عندئذ راسا التفكير فى شأن ابي طالب . وهذا الموضوع مستقر فى نفسى منذ وقت طويل . حتى لقد اردت ان اخطب فى ذلك الاجتماع . لقد خلف ابو طالب اطفالا اصبحوا بعده يتامى وقد كبروا وسيدهب اكبرهم الى المدرسة خريف هذه السنة . . .

- واين هي الآن اسرته ؟  
- لا اعرف يا افاناسى ايفانوفيتش . منذ مغادرتها آنذاك وستحل قريبا على ذلك ثلاثة اعوام ونحن لا نعرف عنهم شيئا .  
- ليس هذا بالمشكلة المستعصية على الحل . لسوف نجدهم سنبحث عنهم الى ان نعثر عليهم . ان الامر الرئيسى حاليا هو كما يقال فى لغة الحقوقيين ان نرفع القضية بشأن قضية ابي طالب .

- اجل ، اجل . هذا هو الامر . لقد عثرت راسا على الكلمة

المناسبة . وانما لهذا كان قدومى اليك بالذات .

- اعتقد ان قدومك لم يكن عبثا ولن يذهب سدى .

كما عرف كان الذى حصل . فسرعان ما جرى المطلوب ، فانه عقب مرور ثلاثة اسابيع بالضبط على عودة يديغي وصلت ورقة من آنا - آنا كان مذكورا فيها بشكل صريح ان العامل السابق فى مفرق السكك الحديد بورانى - بورانى والمدعو ابو طالب قطبايف الذى توفى اثناء التحقيق معه اعيد اعتباره تماما لعدم توفى اركان الجريمة فى قضيتيه . هكذا ذكر ! وكانت هذه الورقة معدة لتلاوتها علنا على اسرة العمل التى اشتغل فيها هذا الرجل .

وفى نفس الوقت تقريبا مع هذه الوثيقة وردت رسالة من افاناسى ايفانوفيتش يليزاروف . وكانت رسالة بالغة الاهمية . وظل يديغي طيلة عمره يحتفظ بهذه الرسالة مع اهم وثائق الاسرة مثل شهادة عقد قرانه وشهادتى ميلاد البنيتين والمكافآت العسكرية من الاوسمة والمدايات والاوراق المتعلقة باصاباتة بالجراح فى جبهة القتال والوثائق المرتبطة بنوعية عمله وصفات شخصيته . . .

فى تلك الرسالة الضافية افاد افاناسى ايفانوفيتش بأنه يشعر بالارتياح الكبير لسرعة النظر فى قضية ابي طالب وانه مسرور لاعادة اعتباره وان هذه الحقيقة نفسها علامة طيبة من علائم الزمن وكما عبر فان هذا هو انتصار لنا على انفسنا .

ثم كتب مخبرا انه مر عقب رحيل يديغي مرة اخرى على تلك الدوائر الرسمية التى قصدا اليها هو ويديغي وعرف انباء هامة هي اولا ان المحقق تنسيق بايف قد فصل من عمله وخفضت رتبته وحرم من الحصول على المكافآت واحيل على المسؤولية . وثانيا كتب انه قد اعلم بان اسرة ابي طالب قطبايف تطلقن كما ظهر فى بافلودار (وما اقصى ما نأت اليه ! ) وان ظريفسة تشتغل معلمة فى مدرسة وهي حاليا متزوجة . وتلك هي المعلومات الرسمية الواردة من موضع اقامتها . ثم كتب له : « ان ظنونك يا يديغي بشأن ذلك المفتش قد تحققت اثناء اعادة النظر



في قضية ابي طالب وظهر انه هو بالذات الذي صاغ وحسّر التقرير عن ابي طالب قطبايف . فلماذا فعل هذا وما الذي دفعه الى ارتكاب هذا العمل الشرير ؟ لقد فكرت طويلا حول ذلك متذكرا ما عرفته عن امثال هذه الاحوال وما تحدثت به الي يا يديغي ومتصورا هذا كله حاولت ان افهم دواعي تصرفه . كلا ، من الصعب عليّ والعسير ان اعطي الجواب الشافي . ليس بوسعي شرح السر في ذلك الحقد الذي كان يضمه ويكنه حيال شخص غير معروف لديه بالمرّة وغريب عنه تماما هو ابو طالب قطبايف . ربما يكون ذلك مرضا وبائيا اصاب الناس في بعض الاحيان من التاريخ او لعله ما هو شبيهه بالخاصية الفتاكة الدفينة في اعماق نفس الانسان وهي غريزة الحسد وهي تتاكل النفس من الداخل وتخرها وتجعلها بالحقد ميالة الى الشر والشراسة في القسوة . ولكن اي حسد كان ممكنا ان تثيره وتستدعيه شخصية ابي طالب ؟ يبقى هذا الامر بالنسبة لى لغزا لا حل له ومعضلة يعوزها التعليل الشافي . اما بخصوص اسلوب التنكيل فانه قديم قدم العالم نفسه . كان يكفى نسي ذلك الوقت تقديم اخبارية عن أي أحد بانه مخالف في الرأي كما كان الهراطقة والزنادقة والمناطقة والشخص من هؤلاء ، كان يقتل في اسواق بخارى رجما بالحجارة اما في اوربا فكان يحرق على موقد من الحطب المشتعل . ولقد تحدثنا معك كثيرا حول هذا الامر يا يديغي عندما كنت عندي . وبعد استيضاح الحقائق واطهارها بصدد اعادة النظر في قضية ابي طالب اقتنع مرة اخرى بان الناس سيقظون حيننا طويلا من الدهر يجتثون من نفوسهم عروق هذا الداء الخبيث الدفين وهو الحسد والحقد على سواهم من الناس واستئصال بغض الانسان للانسان . وانه حتى لمن الصعب والعسير الشاق المعرفة او التكهن كم سيطول هذا الصراع وما هي المدة التي سوف يستغرقها مثل هذا النضال . ورغم هذا كله فاني ابارك الحياة لان الحقيقة لا يمكن محوها وهي راسخة في الارض كشجرة اصلها في التراب وراسها في السماء . وفي هذه المرة ايضا انتصرت الحقيقة ولا بأس ان الدرب اليها عر وطويل ومحفوف بالمخاطر والتضحيات ومهما كان الثمن غاليا فانها تستحقه وتسترخسه . وهكذا سيكون الامر

دوما وابدا وفي كل زمان ومكان ما دام العالم قائما والدينا معمورة . اننى راض كل الرضا يا يديغي لكونك قد توصلت الى تحقيق العدل واحقاق الحق بصدق واخلاص ونزاهة . . . . .  
بقى يديغي اياما طويلا يعيش تحت تأثير الانطباع الذي خلفته في نفسه هذه الرسالة المؤثرة . وكان مبعث دهشة يديغي نفسه كيف تغيرت واثرت نفسه وكانما قد اضيفت اليه زيادة جعلت نفسه اقوى ورؤيته اوضح واجلى . وعندئذ فكر لأول مرة بانه ينبغي ان يكون قد حان الاوان للتهيؤ للمرحلة القادمة من عمره وهي سن الاكتهال والشيخوخة التي لم تعد كما كان يبدو له بعيدة الوصول والمنال ومختفية وراء جبال وجبال . . . . .

كانت رسالة يليزاروف له بمثابة الحد الفاصل ما بين حياته التي سبقتها والتي لحقتها . وكل ما كان في حياته قبل هذه الرسالة ولى مع الماضى ملغما بالضباب وملغوبا بالدخان ومبتعدا كسيف البحر في عيني من تنطلق به سفينة الى عرض البحر وكل ما جرى بعدها كان يسير رخاءا هادئا يوما اثر يوم وكان يذكره بان الحياة سوف تطول وتطول ولكنها لن تكون قصة لاتنتهى . ولكن الامر الرئيسي هو انه عرف من تلك الرسالة ان ظريفة قد تزوجت . وهذا النبا جعله مرة اخرى يعانى ضغط لحظات ثقيل . وطمان نفسه بانه قد عرف وشعر بشكل خاص واكيد انها تزوجت برغم انه لم يعرف اين تعيش وما هي حال اولادها وكيف هي حياتهم بين الناس الاخرين . انه قد احس بذلك بصورة خاصة وهو في طريق العودة من رحلته . ويصعب عليه القول من اي مصدر جاءت هذه الفكرة الى راسه وخطرت على باله . ولكن ليس بالمرّة لانه كان يخالجه شعور كئيب . بل على العكس فلقد سافر يديغي من الما - آتا ونفسه مفعمة بمزاج رائق طيب . وفي كل مكان قصده هو ويليزاروف قوبلا بالتفهم والطيبة والاقبال . وهذا بحد ذاته قد بعث في النفس الثقة واليقين بصواب الافكار وطيب النوايا والامل فسي نهاية الامر الحسنى . وهكذا حصل فيما بعد بالفعل . وفي ذلك اليوم الذي ازمع فيه يديغي الرحيل من الما - آتا ذهب بصحبة يليزاروف لتناول وجبة الغداء في المطعم الملحق بمحطة القطار . وكان الوقت



الباقى على موعد بدء الرحلة وتحرك القطار كافيا وقد طالت جلستهما وطابت وتناولوا ما شاءا ومالذ وطاب من الطعام والشراب وتبادلا عند الوداع اطيب الاحاديث ما شاء لهما الحديث . وفى ذلك الحديث كما فهم يدبغي عرض افاناسى ايغانوفيتش فكرته الصميمية العريضة الغالية . لقد كان فى السابق عضوا فى منظمة الكمسمول بموسكو وقد ارسل فى اعوام العشرينات الى ناحية تركستان لخوض الكفاح ضد البصمجية اعداء الثورة فاستقر هنا بشكل دائم طيلة عمره مزاولا العلم الجيولوجى وهو يعتبر ان العالم كله لم يكن بتاتا على غير هدى حين علق كبار الامال على ما بدائه ثورة اكتوبر . ورغم الثمن الغالى والعبء الثقيل اللذين تعين دفعهما وحملهما مقابل الاخطاء والهفوات فان السير على الدرب غير المطروق لم يتوقف وفى هذا سر الامر وجوهره . وقال ايضا ان هذه الحركة تسير حاليا بقوة جديدة ، والضمانة على ذلك انما هى التصحيح الذاتى للاخطاء والتطهير الذاتى للمجتمع . واكد يليزاروف قائلا : «ما دمنا نستطيع ان نواجه انفسنا بهذا ونقوله ونردده فهذا معناه ان لدينا من القوى ما يكفى للمستقبل» . اجل ما احسن ما كان حديثهما حول مائدة الطعام .

وبهذا المزاج المرتفع عاد يدبغي البورائى الى منطقة سكناه فى ساروزيكى .

ومن جديد امتدت امام البصر سلسلة جبال الاطاو المكلفة بالثلوج البيضاء المشربة بزرقه الماء والسما منبسطة على الافق البعيد ومصاحبة لكل منطقة الانهار السبعة والمسماة لهذا سيميريتشيه . وعندئذ اخذ يفكر وهو فى الطريق حول فترة مكوثه فى الما آتا وادرك وكانما اوحى له بذلك صوت من داخله ان ظريفة لا بد وان تكون قد تزوجت .

وحين تطلع يدبغي الى الجبال ونظر الى الافق البعيد سارحا بالفكر والنظر على المروج الربيعية اخذ يفكر بان العالم فيه اناس مخلصون بالقول والعمل مثل يليزاروف وانه لولاه ولولا امثاله لكان الامر على الانسان فى هذا العالم اصعب واعسر بكثير . وايضا لدى انتهاء كل مراحل النظر فى قضية ابى طالب فكر فى تقلبات الزمن المتغير ذى الجريان السريع واخذ يفكر فى

انه لو كان ابو طالب قد بقى حيا يعيش لحد الآن ورفعت عنه التهم التى وجهت اليه ظلما وعدوانا فلربما استعاد من جديد حياة الرغد الهائنة والسكينة الهادئة بين اطفاله . آه ، لو كان لا يزال على قيد الحياة . وفى هذه العبارة كل المعنى والمعزى . لسو ظل حيا ، اذن لظلت ظريفة بالطبع تنتظره وفيه له حتى اليوم الاخير . وهذا امر اكيد . ان امرأة كهذه كانت ستظل فى انتظار زوجها مهما طال الانتظار ومهما كلفها ذلك من اعباء ومرار . ولكن اذا لم يكن من احد يمكن انتظاره ولا شىء ينتظر فلا داعى لعيش امرأة فى عهد الشباب وهى تعاني وحشة الوحدة ومرارة الانفراد وسوء العذاب . وما دام الامر كذلك فانها اذ تصادف شخصا مناسباً تليق به ويليق لها فانها سوف تتخذة زوجا وما المانع من ذلك ؟ وشعر يدبغي بانقباض النفس من جراء هذه الافكار . وحاول مجتهدا تحويل تفكيره الى مجرى آخر وحمل نفسه على الانقطاع عن التفكير فى هذا الامر ومنع خواطره من الانسراح فى هذا الفكر . ولكن هيهات ومشى بعد ذلك الى عربة المطعم .

كان المكان هنا قليل الناس ونظيفا ونقيا كما هو الامر عادة فى بداية الطريق . جلس يدبغي على انفراد قرب النافذة . فى البداية طلب قنينة جعة لمجرد ان يشغل نفسه بامر ما ، واتاح له المنظر الواسع الذى يطل عليه من نافذة عربة المطعم ان يتطلع بنفس الوقت الى الجبال والسهب والسما التى تطلل المكان كله . وهذه الرحاب الخضر التى تمر امام الناظرين بلمح البصر من جهة ومهابة سلسلة الجبال المكسوة بالثلوج البيضاء بلونها المشرب بالزرقه من جهة اخرى رفعت روحه الى اعلى عليين وبلغت به الى الرغائب غير المحققة واخذت بيده الى الاحزان الكئيبة العمرة . ومن مرارة الافكار احتاجت نفسه الى شىء مر فطلب الفودكا وارتشف منها عدة اقداح الا انه لم يشعر ولم يتحسن تأثير الشرب . عندئذ طلب مرة اخرى الجعة وظل جالسا واهبا نفسه كلها لافكاره سارحا فى واديتها . واذن النهار بالانتهاء . وفى شفافية الامسية الربيعية كانت الارض تنطوى على الجهتين من خط السكة الحديد . وعبرت سريعا صغار القرى والبساتين والدروب والجسور والناس والقطعان فى لمحنة



من أجل أي غرض كان واجبا مفروضا عليه ان يعيش وما هو  
 الداعي لرحيله الى مكان ما . . .  
 وتملكه الآن ايضا الشعور بالالابالية ولم يكن ليعنيه من  
 اين والى اين ولماذا هو مسافر وماله متعجلا وسط الليل  
 البهيم هذا القطار السريع لا يلوى على شيء . وفي أحد المعابر ما  
 بين العربات توقف عن السير سائدا جبهته الملتهبة الى الباب  
 المزجج وتجمد هنا لا يتلفت حوالبه ودون اعارة اي التفات الى  
 الركاب الحارين بقربه وجواره .  
 اما القطار فقد مضى لطيفته يترنح متأرجحا على سكتته ذات  
 اليمين وذات الشمال . وكان ممكنا له فتح باب العربة اذ كان  
 لدى يدغي شأن جميع العاملين في السكك الحديد مفتاحه الذي  
 يمكنه ان يفتح به الباب ويتخطى الحد . . . وفي موضع صحراوي  
 ما تميز يدغي في حلقة الظلمة ضوءين خافتين يومضان من بعيد .  
 وظلا طويلا يتراءيان له ولا يختفيان عن أنظاره ولا يزولان .  
 واما كانا يشعشعان من نافذتي بيت متفرد واما هما موقدان  
 صغيران يتجمران على الارض . ولا يدان يكون ثمة اناس حول  
 هذين الضوءين وبقربيهما ، فما هم ؟ ومن يكونون ؟ وما سبب  
 وجودهم هناك ؟ آه لو كانت هناك ظريفة مع أطفالها ! اذن لكان  
 قد قفز الآن من عربة القطار بعد فتح بابها بمفتاحه وهرع اليها  
 راكضا بأسرع ما يستطيع وجرى بنفس واحد دون ان يسترجع  
 انفاسه او يلتقطها ولكن يهوى عند قدميها ويجهش منخرطا في  
 البكاء دون استحياء لكي ينحب حتى يستفرغ كل ما اختزن في  
 نفسه الولهي من ألم وكآبة شوق وحنين . . .  
 وصدر عن يدغي البوراني أنين مكتوم ومحبوس في الصدر  
 وهو يتطلع نحو تانكما الضوءين اللامعين في السهب وقد اخذا  
 يختفيان عن الانظار في الجهة القصية . وظل واقفا متمسرا على هذه  
 الحال عند باب المعبر بين عربتي القطار وهو مختنق العبرات يبكي  
 بصوت غير مسموع دون ان يلتفت ودون اكتراث منه الى ضجيج  
 ركاب القطار وعجيجهم وهم يمرون عبر العربات . وكان وجهه  
 مبتلا بالدموع . . . كانت متاحة له الامكانية ان يفتح الباب ويقفز  
 متخطيا الحد . . .  
 ومضى القطار يترنح على الجانبين .

خاطفة . ولكن هذا كله قليلا ما مز يدغي او اثار في نفسه  
 الاحاسيس ذلك لان الكآبة الثقيلة التي حلت فيه بغتة بقوة  
 جديدة عكرت صفو نفسه وسحققتها ضاغطة عليها بشعور مقبض  
 مبهم كوطاة هدوء الاحساس بان الماضي قد ولى وانقضى . وابتعد  
 ومضى .  
 ومن جديد عادت الى ذاكرته عبارات الوداع من رحيم الله اغا :  
 وحين ينزل البداة الرحل الرعاة من الجبال السود في مهل وفي اناة  
 وحين ينزل البداة الرحل الرعاة من الجبال الزرق في مهل وفي اناة  
 لا تفتفي في السوق بانتظاري بدون جدوى طيلة النهار يا بيغيماي  
 في هذه الحالة خيل ليدغي البوراني بانه هو المشدود الى  
 شجرة البتولا واغصانها مثلما فعلوا في حينه برحيم الله اغا وانه  
 هو الذي قطع وبتر عن نفسه ومزق اشلاء واوصالا . . .  
 بقي جالسا على هذه الحال حتى حلول عتمة الظلام وحتى جاء  
 الى عربة المطعم جمع غفير من الناس وصارت تختنق الانفاس  
 بسبب سحابة الدخان التي رانت في المكان مخيمة فوق الرؤوس  
 من سجاثر المدخنين . ولم يستطع يدغي ان يفهم آنذاك ما  
 لهؤلاء الناس فارغى البال غير مشغولين بهم ولا غم بحيث  
 تلهيهم سقاسف الامور وصغار الترافه في احاديثهم التي لا  
 تنتهي حول المائدة وكيف يجدون اللذة والمتعة في  
 الفودكا والطباق وكانما لا هم لهم ولا استمتاع سوى بالسكر  
 والتدخين ؟ ولم يطب له ايضا منظر هؤلاء النسوة اللواتي جنن  
 الى هنا مع الرجال . وكان متفرا منهن على نحو خاص ضحكهن في  
 قهقهات . وقف ناعضا من مقعده وهو يترنح قليلا وبحث عن  
 النادل البدينة ليدفع لها الحساب فوجدها تحمل الصينية تسعى  
 مارقة بين الموائد الملاي بالوان الطعام والشراب من كل ما لذ  
 وطاب في هذا المطعم السفري الضائق بما فيه ومن فيه .  
 وبعد دفعه الحساب توجه الى محله في القمرة . كان عليه ان  
 يمر عبر بضع عربات . وبينما كان يسير مترنحا ومتمايلا على  
 الجانبين مع حركة القطار المترجرج الهزاز تزايدت عليه وطاة  
 الشعور الطاغى بالثقل واليتم من وحدته الكاملة ووحشته  
 الشاملة وغربته وهو بين الناس .



وحين ينزل البداة الرحل الرعاة من الجبال السود فى مهل وفى اناة  
وحين ينزل البداة الرحل الرعاة من الجبال الزرق فى مهل وفى اناة  
لا تقفى فى السوق بانتظارى بدون جدوى طيلة النهار يا بيغيماي

كانت القطارات فى هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب ،  
ومن الغرب الى الشرق .  
وعلى جانبى خط السكة الحديد كانت تمتد مساحات شاسعة  
من الاراضى الصعراوية - سارى-اوزيكى ، الاراضى الوسطى من  
البرارى الصفراء . . . .  
وفى هذه الانحاء كانت المسافات تقاس نسبة الى خط السكك  
كانه خط غرينيتش . . . .  
اما القطارات فواصلت سيرها من الشرق الى الغرب ومن  
الغرب الى الشرق . . . .

طار من وكره فى جرف ملكومديتشاب نسر كبير ابيض  
الذيل وحلق مستطعلا المكان بنظرة فاحصة ناقبة . كان هذا  
النسر يحلق متفقدًا موضع ملكوته مرتين فى النهار اولاهما فى  
راد الضحى والاخرى عند قيلولة الظهيرة .  
وبعد التفحص بعناية فائقة لسطح الارض فى السهب من اعالى  
الجو ملاحظا كل شىء يتحرك فى الاسفل الى حد الجعل الزاحف  
والعظاة والضب وسواهما من زواحف الحراذين ظل النسر يحلق فى  
صمت فوق منطقة ساروزيكى ملوحًا بجناحيه من  
مبسوطين بمهابة متصاعدا بتدريج على مراتب الجو لكى  
يلقى على مدى اوسع نطاقا وابعد مرمى بصره الحديد  
على السهب المترامى الاطراف تحته كبساط ممدود  
وبنفس الوقت دنا متنقلا بحركات انسيابية وكأنه يسبح فى  
الهواء كالسمكة فى الماء نحو مكان صيده المفضل وهو ارض  
المنطقة الممنوعة . منذ ذلك الحين الذى احيطت فيه هذه المنطقة  
الشاسعة الارحاء بالاسلاك الشائكة وحرمت على العابرين تكاثر  
هنا صفار الحيوانات ومختلف انواع ذوات الريش وذلك لان  
التعالب وسواها من الوحوش البرية لم تعد لتتجرا على التغفل

الى هنا دون عوائق وبلا مجازفة بالمخاطر . فى حين ان النسر لم  
يكن طوق السياج ليعنيه فى شىء . ولقد استغل ذلك خيسر  
استغلال وعاد هذا الشر المستطير لغيره بالنفع والجدوى عليه .  
رغم انه والحق يقال لمح قبل ثلاثة ايام من الاعلى ارنبا صغيرة  
وحين انقض عليها ساقطا كالحجر الهاوى وهو ما يفعله كل نسر  
واقع تسنى لتلك الارنب المروق من تحت ذلك السياج الشائك  
اما النسر فقد كاد يرتطم بقوة هاويا من العلاء بشوائك الاسلاك .  
واستطاع بالكاد النجاة قبل فوات الاوان منحرفا عن اتجاهه  
المهلك بشكل حاد مرتقيا صعدا الى الاعالى بعد ان مس بريش  
صدره الاشواك الحادة فى تلك الاسلاك وتناثر بعض الزغب من  
صدر النسر فيما بعد وتطاير هذا الريش فى الهواء على هواه .  
ومنذ ذلك الحين حاول النسر الابتعاد ما أمكنه عن هذا السياج  
الخطر .

وهكذا كان يطير محلقا فى تلك الساعة باعتباره ملك الجو  
وسلطان الهواء باعتداد واياه دون اسراف فى الحركة حتى ولا  
بخفقة واحدة زائدة عن اللزوم من جناحيه المبسوطين لئلا يلفت  
الى نفسه انتباه الزاحفين تحته على الارض من هذه المخلوقات .  
وفى هذا اليوم منذ الصباح الباكر - للمرة الاولى من التحليق  
والآن فى تحليقه الثانى - لاحظ النسر حركة نشيطة للناس  
والمكائن من سيارات وسواها على الساحات العريضة المبلطة  
بالخرسانة فى المطار الفضائى . كانت السيارات رائحة غادية  
ذهابا وايابا وكثر دورانها حول الهياكل التى تكتنف الصواريخ .  
هذه الصواريخ المسددة نحو السماء تقف منذ وقت طويل على  
ساحاتها وقد تعود النسر منذ امد بعيد على منظرها . ولكن  
يجرى اليوم حولها شىء ما . وما اكثر السيارات وما اكثر الناس  
وما اكثر التحركات . . . .

ولاحظ النسر ايضا ولم يفت عليه ان الرجل راكب البعير  
السائر منذ وقت فى السهب والجرارين المترجرين والكلب  
الاصهب الاشعث قد توقفوا الآن عند خط الاسلاك الشائكة من  
جهته الخارجية وكأنهم عاجزون عن اجتياز هذا الخط الى ما وراءه  
وخلفه . . . . واثار الكلب الاصهب امتعاض النسر بمظهره البهيج  
وبالاخص التصاقه بالناس واصطفافه معهم على قرب الا انه



لم يظهر بأى شىء نوعية شعوره اذاء هذا الكلب الاصهب اذ ليس له ان ينزل هابطا الى هذه الدرجة . . . بل اكتفى بالتحويم حول هذا الموضوع من فوق متطلعا بنظره الثاقب مترقبا ما الذى سيحدث لاحقا وما الذى ينوي ويجمع فعله هذا الكلب الاصهب الذى يبصص ويلوح بذيله لاعبا وهو بقرب الناس . . .

ورفع يديغى وجهه الملتحي ورأى فى السماء النسر المحلق مبسوط الجناحين وفكر فى نفسه : «يا له من نسر كبير من ذوات الذنب الابيض . اه ، لو كنت قد خلقت نسرا اذن لما كان يوسع احد ان يوقفنى ويحجزنى عن الحركة فى الهواء كما اشاء ولحلقت الى حيث اريد ثم احط لأرتاح فى تلك المقبرة البعيدة الثانية مقبرة آنا-باييت» .

وفى هذا الوقت ظهرت على الطريق فى المقدمة سيارة . وفكر يديغى البوراني بينه وبين نفسه : «انها تسير . حبذا لو ابتعدت عنى وتركتنى وشأنى» . وانطلقت السيارة بسرعة نحو حاجز الطريق وتوقفت بحدّة بجوار باب مبنى المخفر . كان الحارس ينتظر السيارة المقتربة وسرعان ما اتخذ وقفة الاستعداد وادى التحية العسكرية للضابط الملازم رئيس دورية الحراسة اللفتنانت تنسيق بايف حين نزل من السيارة وبدأ يقدم له التقرير النظامى :

- ايها الرفيق اللفتنانت ، اخبركم . . .

الا ان رئيس دورية الحراسة اوقفه باشارة من يده وعندما بلغ الحارس نصف الكلمة الثانى من عبارته المقطوعة وانزل كف يده عن الخوذة التى يعتمرها التفت الضابط الى الواقف عند الجبهة الثانية من حاجز الطريق واستفسر مخاطبا يديغى البوراني .  
- من هذا الغريب ؟ ومن ينتظر ؟ اهو انت ؟

وقال يديغى بلغته الفزاحية : «بيز بيزغوي قراغيم . انا بيتكيه جيلتبي طوريب قلديق . قلالي دا بولصا جردامديش قراغيم .»

\* انا ، هذا انا يا ولدى . لا يسمح لنا بالمرور الى المقبرة . ارجوك يا ولدى افعل شيئا ساعدنى فى هذا . الناشر .

نطق يديغى بعبارته جاهدا ان تجعل حركاته عين الضابط الشاب تقع على الاوسمة المرصوفة على صدره كمحارب قديم . ولم يترك هذا على اللفتنانت تنسيق بايف اى انطباع او اثر واكتفى بالتنحج فى جفاف كالجفاء وحينما هم يديغى العجوز بان يعاود الكلام قاطعه ببرود قاطعا عليه كلامه قبل ان يبداه بقوله :

- ايها الرفيق الغريب خاطبني باللغة الروسية . اننى اؤدى واجبات نوبة الحراسة العسكرية . - قال موضعا وهو يقطب جبينه مكفهر السحنة وقد انعقد حاجباه الفاحمان على عينيه الضيقتين .

واعترى يديغى البوراني ارتباك شديد فردد :

- اوه ، عفوا . اعذرني اذا كنت مقصرا - وسكت متحيرا ومضطربا ثم تلثم والتزم الصمت المطبق وكأنه فقد ملكة النطق وضاعت طائفة من راسه تلك الفكرة التى كان قد بدا التعبير عنها .

- ايها الرفيق الملازم ، اسمعوا لنا بعرض رجائنا - تدخل منجدا الشيخ العجوز عادل باى الطويل .

- هيا اعرضوه ولكن بأقصى ما يمكن من الايجاز والاختصار - قال رئيس الدورية محذرا .

- دقيقة واحدة ، فليحضر لدى ذلك نجل الفقيد . - وتوجه عادل باى الطويل نحو ثابت جان وطلب منه : - ثابت جان ، هيا يا ثابت جان ، تعال الى هنا .

ولكن المنادى تقهقر متنجيا واكتفى بقوله نافرا وهو يلوح بيديه :

- اتفقوا فيما بينكم ودعوكم منى .

واضطر عادل باى الطويل الى الانصياع والامتنال فعاد متوجها الى الضابط بالكلام :

- اعذرنا ايها الرفيق اللفتنانت انه منزعج لحصول الامر على هذا الوجه . انه ابن المتوفى صديقنا الشيخ قازانغساب . ومعها ايضا صهره وها هو الجالس على العربة المقطورة . ويبدو ان الصهر تصور من الاشارة نحوه انه يدعى للدنو فاخذ يترجل من العربة المقطورة .



- هذه التفاصيل لا تعينني في شيء . اعرض صلب القضية  
- طلب رئيس الدورية .

- حسنا .

- باختصار وحسب الترتيب .

- حسنا . باختصار وحسب الترتيب .

واندفع عادل باى مسترسلا محاولا طرح الامر كله وبحدافيره  
شارحا من هم ومن اين هم قادمون ولأى غرض وسبب ظهورهم  
هنا . وبينما كان يتحدث كان يديغي يتمعن فى وجه اللفتنانت  
تنسيق بايف متطلعا وادرك من أسايريه انه لا ينبغي لهم  
ان ينتظروا منه أى امر طيب فانه كان واقفا عند الجانب الآخر  
من حاجز الطريق لمجرد الاستماع بالانصات شكليا الى شكوى  
الاشخاص الغرباء . ادرك يديغي هذا فاخذت نفسه تغور وتغور .  
كل ما كان مرتبطا بوفاة قازانغاب وجميع تحضيراته للرحلة  
وما فعله لاقتناع هؤلاء الشبان بدفن الفقيد فى مقبرة آنا -  
باييت وجميع افكاره وكل ما رأى فيه واعتبره الخيط المقدس  
الذى يربطه بتاريخ ساروزيكى كل هذا قد تحول فى لحظة  
خاطفة وطرفة عين الى لا شيء . كل هذا بدا عديم الفائدة فاقد  
الجدوى امام تنسيق بايف هذا . وقف يديغي شاعرا بالمهانة  
والاهانة لخيرة مشاعره واسمى عواطفه . بدا له مضحكا مبكيا  
وانار سخريته الهازئة والمه الى حد ذرف الدموع ما رآه من  
ثابت جان الجبان الذى كان بالامس فقط وهو يتجرع كؤوس  
الفودكا دهاقا يثرثر عن الآلهة والاشخاص الذين يوجهون  
بالراديو محاولا ادهاش اهالى بورانلى - بورانى بسعة معارفه  
واطلاعه العريض ، اما الآن فلم يشأ حتى فتح فمه للفتوه بكلمة  
واحدة لا غير ! وشعر بالسخرية الضاحكة والاساءة المبكية لكل  
ما فعله بقره نار من الزينة بالبساط السجادى المنتهى بذوائب  
من الكراكيش . فلم يكن ثمة من داع الى هذا وهو كله زائد عن  
الحاجة الآن وما هو ذا اللفتنانت تنسيق بايف الذى لا يريد او  
يخاف تبادل الحديث باللغة القومية أفهل كان بوسعه تقدير  
زينة قره نار؟ كان مضحكا ومؤسفا ليديغي ان يرى صهر قازانغاب  
التعس هذا السكير الذى جاء معهم على ظهر العربة المقطورة  
الهزاة الرجاجة دون ان تمس لسانه قطرة من المشروبات

الكحولية ليكون بجوار جثمان الفقيد وهو الآن قد دنا ووقف  
بالجوار وكما تدل كافة الدلائل لا يزال يأمل فى حصولهم على  
الاذن بالمرور الى المقبرة ليدفنوا ميتهم . وخالج يديغي البورانى  
الشعور بالسخرية والاسى حتى للكلب الاصهب جولبارس ، فلماذا  
جاء معهم طوع ارادته ؟ وهو الآن ينظر بصبر فارغ متى سيبدأون  
بالتحرك الى الامام او ربما كان الكلب يهيجس ان سيده ستسوء  
حاله ولهذا السبب انضم اليهم لكى يكون فى هذه الساعة معه .  
وكان السائقان الميكانيكيان الشابان قالى بيك وجمعة على  
جالسين فى قمرتى الجرارين . فماذا لهما الآن وما الذى سوف  
يفكران فيه بعد هذا كله ؟

بيد ان يديغي الشاعر باهانة الاذلال مما افقده مزاجه  
وازعج نفسه شعر بكل جوارحه كيف ارتفعت فى داخله واخذت  
تمور فى نفسه وتغور موجة من النقمة والسخط وكيف ثار وفار  
فى عروقه الغضاب دمه حارا وملتهبا كالنار واخذ قلبه يندق  
بوجيب شديد والدم الفوار يتدفق منه كزوبعة اعصار وعرف  
لمعرفته بنفسه ومطالبته اياها على مدى عمره غير القصير مدى  
الخطر فى استسلامه لغورة الغضب وحاول جاهدا ومجتهدا ان  
يخمد فى نفسه عصف الازادة ويطفى فيها الاوار الطاغى . ولكن  
كلا ، ثم كلا ، لم يكن يمتلك الحق فى عدم امتلاك ناصية مشاعره  
والسيطرة على اعصابه النائرة طالما كان جثمان الفقيد دون ان  
يدفن مطروحا فى العراء على ظهر عربة مكشوفة . ولا يليق برجل  
شيخ وقور فى مثل سنه ان يفقد اعصابه ويرفع صوته . هكذا  
فكر وهو يحرق الارم ويصك اسنانه لثلا  
تفلت من لسانه كلمة او تند عنه حركة تفضح وتفضح عما كان  
يعتمل فى داخله اثناء تلك الهنيهة من الزمن .

وكما كان يتوقع يديغي سرعان ما تحول حديث عادل باى  
الطويل مع رئيس دورية الحراسة الى جانب اليأس واتقلب الى  
حوار طرشان لا جدوى من ورائه ولا طائل .

- ليس بوسعى المساعدة باى شيء ، فان المرور الى ارض  
المنطقة مقطوع وممنوع بصورة باتة على الاشخاص الغرباء . -  
قال اللفتنانت بعد استماعه الى كل الكلام الطويل الذى القاه  
على مسامعه عادل باى الطويل .



- لم تكن عارفين بهذا ايها الرفيق اللفتنانت والا فلماذا كنا لناثي الى هنا ومعنا جثمان الفقيه المسجى في نعشه فلماذا هذا ؟ اما الآن وقد اصبحنا هنا بالفعل فاننا نرجو ان تشاور الرئاسة الاعلى وتعرض عليها الامر عسى ان يؤذن لنا بدفن ميتنا ، فليس ممكنا ان نعود به ادراجنا من حيث آتينا ، - لقد سبق لى ان اتصلت لتقديم تقارير الخدمة فى النوبة وتلقيت ايعازا بعدم السماح لى احد بالمرور مهما كان السبب واية كانت الذريعة والحجة .

- عن اية حجة وذريعة تتحدث ايها الرفيق اللفتنانت ؟ - قال عادل باى الطويل مستنكرا - افانت تعتقد باننا نبحت عن ذريعة وتخترع حجة ؟ لماذا ؟ ما الذى لم نره هناك فى منطقتكم فنحن الى رؤيته تواقون ولمشاهدته مشتاقون ؟ وحتى اننا نلغق الحجج ونلتمس الذرائع لولا حاجتنا الى دفن المتوفى فقيدينا فما الداعى الذى حدا بنا الى قطع هذا الدرب الطويل ؟

- اننى اوضح لكم الامر مرة اخرى واخيرة ايها الرفيق الغريب بقولى ان الطريق من هنا فصاعدا مقطوع عن الجميع وممنوع على كل احد ايا كان ولن اسمح بالمرور للغريب . - ما معنى الغريب ! - اطلق صوته فجأة الصهر السكير الذى حافظ لحد الآن على صمته المطبق - من هو الغريب ؟ نحن هم الغرباء ؟ - قال وقد علا الاحمرار وجهه المتغضن والمحتقن وازرقت شفته .

- اجل بالذات : منذ متى ونحن غرباء ؟ - ايده فى القول عادل باى الطويل .

واجتهد الصهر السكير حرصا على عدم تجاوز حد ما لما هو مسموح به ان يكون صوته غير مرتفع عن القدر المقبول واقتصر على القول وهو لعلمه بضعفه فى التحدث باللغة الروسية كان اكثر احتراسا واحرص على انتقاء عباراته وكلماته ومع ذلك كانت عباراته ركيكة ومخالفة لقواعد اللغة حين قال :

- انها مقبرتنا مقبرة ساروزيكى هذه ونحن اهالى ساروزيكى نملك الحق فى دفن امواتنا فيها ونحن ندفن فيها موتانا منذ امد بعيد منذ دفن نايمان-آنا ولم يفكر احد منا فى يوم من الايام بانه ستكون هنا منطقة مغلقة .

- لست على استعداد ولا نية عندى فى خوض مجادلة معكم - اعلن اللفتنانت تنسيق بايف - انى باعتبارى رئيسا لدورية الحراسة فى هذا الوقت اعلن مرة اخرى انه لا دخول الى ارض المنطقة المحروسة ولن يكون باية اسباب مهما كانت .

وحلت فترة صمت . «الحفاظ على ضبط النفس والاعصاب وعدم الاعتداء عليه بالقول» ذلك ما اوصى به نفسه بالحاح يديغى البوراني واخذ يرنو بطرف عينه الى السماء وشاهد مرة اخرى ذلك النسر وهو يعلق باسطا جناحيه فى الاعالى . ومرة اخرى شعر بالحسد وغبط هذا الطائر الهادى والقوى . وقرر انه لا داعى الى مواصلة محاولة تغيير المصير وانه يتعين الانسحاب فلا مجال للاقتحام بالقوة ورنأ يديغى مرة اخرى الى النسر المحلق وقال :

- ايها الرفيق اللفتنانت سوف نذهب عاندين ولكن نرجو منك ابلاغ اولئك الذين عندكم فى القيادة لعله جنرال او ضابط فى رتبة اعلى انه لا يجوز التصرف على هذا النحو وانا كجندي قديم اقول ان هذا ليس بصائب وهو مخالف للصواب ومجانب له .

- ما هو عين الصواب وما هو مخالف له ليس من شأنى ولكن مناقشة الايعاز الصادر من فوق مما لا يحق لى مزاولته ، ولكى تعرفوا الامر فيما يخص المستقبل انا مكلف بابلاغكم ان هذه المقبرة قد تقرر محوها .

- مقبرة آنا-باييت ؟ - تساءل عادل باى الطويل مندهشا .

- اجل ، اذا كان هذا هو اسمها .

- ولكن لماذا ؟ من الذى تعرقله هذه المقبرة وتسيء اليه ؟ - قال عادل باى فى حيرة واستنكار .

- سيقام فى محلها حى سكنى جديد .

- عجيب غريب - قال عادل باى الطويل وهو يفرد يديه فى تعجب - الا تكفيكم جميع الاماكن الاخرى ولم يبق ثمة لهذا من مكان آخر ام ماذا ؟

- هذا ما نص عليه فى الخطة المرسومة المقررة .

- اسمع ، من هو ابوك ؟ - وجه يديغى البوراني هذا



السؤال بشكل مباشر وحاد الى اللفتنات تنسيق بايسف الذي استغرب جدا وكان زده :

- وهذا ما محله ؟ وما هو شأنك في الامر ؟

- شأنى هو أنك لا ينبغي ان تقول لنا ما كان ينبغي عليك قوله هناك حيث فكروا باتلاف مقبرتنا . ام ان اباك واجدادك لم يدركهم الموت ام أنك نفسك لن تموت الى ابد الابدين ؟ - هذا لا علاقة ولا صلة له البتة بالقضية .

- حسنا دعنا نتحدث فى صلب القضية . اذن هلم بنا ايها الرفيق اللفتنات من هو عندكم صاحب اعلى رتبة فليستمع الى كلامى . اننى اطالب بالسماح لى بان ارفع الشكوى الى آمرمك الرئيسى الاعلى . قل لهم ان المحارب القديم فى الجبهة واحد اهالى ساروزيكى يديغى جانغيلدين يريد ان يقول له كلمتين .

- ليس بوسعى القيام بهذا . صدر لى اليعازر بان اتصرف كما ينبغي وعلى النحو اللازم .

- وماذا بوسعك ان تفعله ؟ - تدخل مرة اخرى الصهر السكير وقال فى لهجة المستهتت الذى لا يفكر ولا يلوى على شىء - حتى رجال الميليشيا الذين يراقبون الاسواق افضل منك . - كفوا عن الهراء والوقاحة ! - قال رئيس دورية الحراسة وقد اعتدل فى وقفته شامخا وشحب وجهه من التأثر والانفعال - كفوا عن الكلام وخذوا هذا بعيدا عن حاجز الطريق وابتعدوا الجرارين عن الدرب .

امسك يديغى وعادل باي الطويل بالصهر السكير وسجباه بعيدا نحو الجرارين الواقفين على الدرب اما هو فقد واصل صراخه ناظرا حواليه :

- ساغان جول داجيتبيدى ، ساغان جبر داجيتبيدى ! اورديم سينديدين اوزين . \*

اما ثابت جان الذى ظل طوال هذا الوقت محافظا على الصمت متتحيا الى جانب فى كآبة فقد قرر هنا وفى هذا الوقت ان يظهر نفسه بالمشاركة فى اللقاء بالكلام قائلا :

\* انك لا تكفيك الدروب ولا تكفيك الاراضى انى لاصق عليك وفى وجهك . الناشر .

- وماذا حصل ؟ لا شىء غير الرفض ؟ وهذا بالضبط هو الذى كان من المنتظر ولا بد ان يحدث . كنتم راغبين فى الدفن بمقبرة آنا-باييت لا سواها ! اما الآن فيها انتم كالكلاب المضروبة .

- ومن هو الكلب المضروب ؟ - اندفع نحوه بجذ الصهر السكير - اذا كان بيننا كلب فانما هو انت ايها النذل الحقير . ما هو الفرق بين ذلك الذى يقف هناك وبينك ؟ ثم انت تفتخر بقولك : اننى انسان رسمى . بل انك ابعد ما تكون عن الانسان ! - وانت ايها السكير امسك لسانك . - هدد ثابت جان صارخا ليكون صوته مسموعا فى مخفر الحراسة كذلك - لو كنت مكانهم لدفعتك عقابا لك على هذه العبارات بعيدا بحيث لا يكون بالقرب لا جسمك ولا روحك . اية فائدة منك للمجتمع ، ينبغي القضاء على امثالك قضاء مبرما .

وبعد ان قال ثابت جان هذه العبارات استدار مديرا اليه ظهره وكأنه اراد ان يقول اننى ابصق عليك وعلى من معك واظهر بغتة نشاطا كبيرا وصار يتصرف ويتحدث بصوت مرتفع ومتطلب وكأنه السيد وصاحب الدار ويوجه الأوامر الى سائقى الجرارين : - وانتما ما لكما قد فترتما فيكما ؟ هيا شغلا محركى الجرارين . اما نحن فكما جئنا فسوف نذهب والى شيطان الام ! هيا نستدر ! يكفى كنت احمق وشبعت من سماع الآخرين ! شغل قالى بيك جراره واخذ يستدير ببطء ويدير العربة المقطورة نحو طريق الرجوع وفى هذه الاثناء قفز الصهر السكير الى العربة واشغل من جديد محله بجوار نعش الفقيد . اما جمعة على فقد انتظر حتى ينتهى يديغى البورانى من فك صاحبه قره نار من كفة الحفارة ولكن ثابت جان حين رأى هذا لم يمتنع بل على العكس اخذ يتعجل :

- وانت ما لك لا تشغل جرارك ؟ هيا ، شغل محركه . لا بأس حركه نحو الخلف . اهكذا يكون التشبيح والدفن . انشى عارضت ذلك بادى ذى بدء اما الآن فيكفى ما حصل ، عد بنا الى بيوتنا .

بينما كان يديغى البورانى يركب البعير وكان ينبغي فسى البداية حملة على البروك ثم الجلوس على الحدوج بشكل محكم



وبعد ذلك ضربه بالعصا لينهض من بروكه ، كان الجراران قد سبقاه الى الامام سائرين باتجاه درب العودة . وسار العائدون على اثرهم الذى خلفوه على الارض عند قدومهم الى هنا . وحتى لم ينتظروا يدبغى وكان الذى يستعجلهم على السير ثابت جان الذى ركب الجرار الاول . . . .

وكان يحوم فى الهواء ذلك النسر نفسه مراقبا من فوق الكلب الاصهب وقد اثار حنقه وسبب له المضايقة والانزعاج لسبب ما بهذا التصرف الذى لا غاية له . ولم يكن مفهوما لماذا لم يركض الكلب حين تحرك الجراران الى الامام بل بقى واقفا بجوار الانسان راكب البعير منتظرا حتى يكمل جلسته على الجمل ثم سار خلفه على الاثر .

وسار الجراران بركابهما وفى اثرهما راكب الجمل وفى الخلف الكلب الاصهب يجرى خبيا عاندين ادراجهم الى ساروزيكى باتجاه جرف ملكومديتشاب حيث كان فى المنحدر الى احدى الترع النائية فى التربة وكر نسر . ولو فى وقت آخر لكان النسر سيقلسق ويضطرب مرسلا زعقاته ولحاول الابتعاد ما امكن ولما حول نظره الناقب عن السائرين ولسارع فى طيرانه ولكن قد استدعى انشاء التى كانت تتصيد فى مكان بالجوار فى منطقة الاراضى التابعة لهما قانونيا لكى تنضم هى ايضا اليه تحسبا لما قد يحدث اذا ما احتاج الامر الى الدفاع عن الوكر وحمايته . ولكن النسر الابيض الذنب لم يشعر هذه المرة بأى قلق اذ كانت الافراخ قد تركت الوكر منذ وقت ليس بالقصير بعد ان نبت على جذعها الريش وتعلمت الطيران . وفى كل يوم زادت أجنحتها قوة واقتدارا واخذت هذه النسور الصغيرة ذوات العيون البراقة كحبات الكهرمان والمناقير المحدودة المعقوفة تنظم حياتها بشكل مستقل واصبحت لها مناطق صيدها الخاصة حوالى ساروزيكى ولم تعد الآن تلاقى بالود القديم ذلك النسر العجوز حين كان يحلق عابرا فى ناحيتها . . . .

راقب النسر هؤلاء الناس العائدين فى الدرب المعاكس وهو على عادته ينظر الى كل ما يجرى هنا وهناك داخل حدود منطقته . وكان ما اثار فضوله وتطلعه خصوصا ذلك الكلب الاصهب الاشعث الذى يرافق الناس على قرب شديد دون الابتعاد عنهم

الى مكان بعيد . فما الذى يربطه بهم ويشده اليهم ولا حبس هناك ولا رباط ولماذا لا يذهب ليصطاد لوحده بحرية وبحسد ذاته وانما كان يركض وهو يهز ذيله خلف اولئك المشغولين بشؤونهم ؟ وما جدوى هذا النوع من المعيشة له ؟ واجتذبت انتباه النسر ايضا قطع معدنية لماعة تبرق على صدر الرجل راكب البعير . ولهذا بالذات لاحظ النسر رأسا كيف ان ذلك الرجل الذى كان يسير بجمله خلف الجرارين ، انحرف بفتة بشكل حاد وعدل عن مساره منعزلا الى ناحية وذهب عبر منطقة العشب اليابس سابقا الجرارين اللذين واصلا السير يشقان دربهما فى هذه المنطقة بحركة التفاف . حث جملة بسرعة متزايدة ملوحا بالكرباج وكانت القطع اللماعة المعلقة على صدره تتقافز وتصلصل وجرى البعير راكضا ومادا اطرافه باخفافها فى خطى عراض طوال اما الكلب الاصهب فراح يركض . . . .

واستمر الحال على هذا المنوال لبعض الوقت حتى سبق راكب الجمل الجرارين جانبا وتوقف فى عرض الطريق عند المدخل الى جرف ملكومديتشاب وتوقف الجراران قربه .  
- ماذا ؟ ما الذى حصل ايضا ؟ - قال ثابت جان مطلا من احدى القمرتين .

- لا شيء . اوقفوا المحركين - قال يدبغى البورانى بلهجة آمرة - لدينا كلام .  
- واى كلام يمكن ان يكون بعد هذا ؟ لا تعطلنا . لقد شعبنا من هذا كله .

- الذى يعطلنا الآن هو أنت لا انا . سوف ندفن جثمان الفقيد فى هذا المكان .

- كفى سخرية بنا - قال ثابت جان متذمرا واخذ يشهد رباط عنقه بقوة على رقبتة وقد تدلى كالخرقة المدعوكة - اننى سأتولى بنفسى دفنه فى المفروق ولا اريد ان اسمع اى كلام آخر ، كفى .

- اسمع يا ثابت جان . انه ابوك ولا جدال فى ذلك ولا احد يناقشك فيه . ولكنك لست لوحدك فى هذا العالم ولست فيه الانسان الوحيد ، وعليك ان تسمع على أية حال . ان الذى حدث هناك عند المخفر قد رايتته أنت بنفسك ، رايت وسمعت . وليس



أى أحد منا يمدنّب فيه ولكن فكر فى أمر آخر . متى رثى وسمع  
ان الميت اعيد من موكب التشييع والدفن مرة اخرى الى البيت ؟  
هذا ما لم يحدث قط . انه عار وشنار ينزل على رؤوسنا  
وهاماتنا ، لم يحدث مثل هذا فى أى زمان كان .  
- ولست ابالي بأى شىء ولا شأن لى به فليكن ما يكون -  
اعترض ثابت جان نافرا ومستنكرا .

- أنت تقول ذلك الآن باصقا على كل شىء . والانسان فى  
ساعة الغضب قد يقول اى شىء يخطر على باله واين منه التروى  
وامعان النظر . ولكن فكر مليا فى الامر . ان العار لا يمحي .  
ان نعش الميت الذى حمل من البيت لدفنه فى القبر لا ينبغى ان  
يعاد مرة اخرى وفيه الجنة .

فى هذه الاثناء خرج ومن قمرة الحفارة عادل باى  
الطويل ترجل من العربة المقطورة الصهر السكير واقترب سائق  
الحفارة جمعة على ايضا كذلك ليعرف كنه الامر وما يجرى وقطع  
عليهم الدرب مانعا من التقدم يديغى البورانى وهو على الجمل  
قره نار .

- اسمعوا ايها الفرسان لا تخالفوا العادات والاعراف ولا  
تخرقوا عوائد الانسان ولا تخالفوا الطبيعة واستجيبوا لندائها  
الجار ! لم يحدث قط ولم يقع ان الميت اعيد من المقبرة دون ان  
يدفن فى اللحد ومن اخذ ليدفن يجب ان يدفن وغير هذا غير  
ممكّن . هذا هو جرف ملكومديتشاب وهو ايضا ارضنا وتابع  
الى ساروزيكى . وهنا فى ملكومديتشاب بكت نايمان-آنا ابنتها  
احرّ البكاء . اسمعوا كلامى وانا يديغى العجوز فليكن هنا لحد  
وقبر قازانغاب . وليكن هنا ايضا قبرى ولحدى . فليجعل الله  
انكم سوف تتولسون بانفسكم تقلى الى هنا ودفنى . وانسى  
لارجوكم القيام بهذا واتوسل اليكم ان تنجزوه . اما الآن فينبغى  
قبل فوات الاوان وما دام لنا ثمة فسحة من الوقت وفرصة من  
الزمن فلننقم بلحد فقيدنا وايداعه الى الارض فى ذلك الموضع  
عند وحدة الجرف .

وتطلع عادل باى الطويل نحو الموضع المومى اليه باصبع  
يديغى واستفسر من سائق الحفارة :  
- كيف يا جمعة على ، هل بوسع حفارتك الوصول الى هناك ؟

- يمكنها . ولماذا لا تستطيع ؟ يمكنها ان تسيّر عبر ذلك  
الطرف . . .

- على مهلك ، لا تتحدث عن ذلك الطرف . عليك اولاً ان  
تسألنى . - تدخل ثابت جان .

- وما نحن نسألك - رد جمعة على - ألم تسمع ما قاله  
الرجل ؟ ما الذى تريده اكثر من هذا ؟

- اما انا فاقول : كفاكم سخريّة بنا . هذه اهانة ، هلموا  
بنا نذهب الى المفرق .

- اذا كنت تفكر بذلك فان السخريّة والاهانة ستكون فى  
اعادة الميت من اللحد الى البيت . - قال له جمعة على - وينبغى  
عليك ان تفكر بعمق وقوة .

والتزم الجميع جانب الصمت وظلوا برهة لا ينبسون ببنت  
شفة وكان على رؤوسهم الطير .

- افعلوا ما شئتم . - قال جمعة على - اما انا فسوف اذهب  
لاحفر القبر . واجبى هو ان احفر اللحد واجعل حفرة اعمق ما  
استطيع . فلننقل ذلك ما دام فى الوقت متسع اما بعد حلول  
العتمة فلن يزاول ذلك احد . اما انتم فافعلوا ما تشاؤون ان  
شئتم هذا وان شئتم فذاك .

وتوجه جمعة على نحو حفارته من طراز «بيلاروس» ودون  
ان يلوى على شىء وبلا تردد شغل محركها واستدار بها نحو حافة  
الدرب وعبرها واتجه الى علوة الربوة ومنها الى حافة منحدر جرف  
ملكومديتشاب . وخطا خلفه عادل باى الطويل وحرك خلفه  
يديغى البورانى جملة قره نار .

وقال الصهر السكير لسائق الجرار قالى بيك :

- ان لم تذهب الى هناك - وأشار له الى الجرف فانسى  
سوف استلقى راميا نفسى تحت الجرار ولن يكلفنى هذا شيئاً  
ولن يعسر على - وبعد تلفظه بهذه العبارة جاء ووقف امام  
الجرار .

- ماذا تريد ؟ والى اين ينبغى الذهاب ؟ - استفسر قالى  
بيك من ثابت جان .

- الانذال فى كل مكان وحيثما وجهت وجهتك فثمة كلاب . -



قال متذمرا ثابت جان - ما لك جالسا ، هيا حرك المحرك وتحرك خلفهم .

كان النسر في السماء يراقب هذه المرة هؤلاء الاشخاص وهم يتجمعون عند حافة الجرف . اخذت احدي المكينتين ترتعش بتشنج وهي ترفع التراب وتكومه فسي اكوام حولها كما يفعل اليربوع . وفي هذه الاثناء زحف من الخلف الجرار بالعربة المقطورة ولا يزال جالسا عليها لحد الآن انسان وحيد وامامه جسم غريب لا يبدي حركة ولا نامة ملفوف في قماش ابيض ومطروح فسي وسط العربة المقطورة . وكان الكلب الاصهب الاشعث يجوب بين الناس وكان يقضي اكثر الوقت بقرب الجمل جاثما عند قائمته .

وادرك النسر ان هؤلاء القادمين سيظلون وقتا طويلا عند منطقة الجرف يحفرون في الارض وانساب سابجا في تحليقه الى ناحية وبعد ان قام بدورات واسعة فوق السهب طار متحولا الى جهة المنطقة المغلقة مزعما مزاولة اصطياده على طول الدرب ومشاعدا بنفس الوقت ما يجري هناك في المطار الفضائي .

هذا هو اليوم الثاني بليلتيهما والتوتر مخيم في مساحات هذا المطار ويجري فيها العمل الحافل قائما على قدم وساق وبدون توقف ليل نهار وكان المطار الفضائي كله بكل اماكن الخدمة الملحقة به والمناطق المصاحبة مضاءا بالنور الساطع الوهاج الذي ترسله المصابيح الكشافة الضخمة . وكان الضوء يغمس المكان في الارض حتى بدا الضوء هنا ليلا اسطع من نور النهار . كانت العشرات من السيارات والمكانن الكبيرة والصغيرة والخاصة والكثير من العلماء والمهندسين في خدمة التحضير لعملية «اوبروتش» .

كانت الصواريخ المضادة للاقمار الصناعية المعدة للقضاء على الاجهزة المحلقة في الفضاء قائمة منذ وقت طويل ومنصوبة على اهبة الاستعداد للانطلاق في ساحة خاصة بالمطار الفضائي . ولكنها وفقا لاتفاقية سولت - 7 جمد استخدامها حتى اتفاق آخر شأنها شأن الوسائل المماثلة لدى الجانب الامريكى . وقد وجدت لها الآن استخداما جديدا وفق البرنامج المستعجل لتحقيق العملية

الفضائية الواسعة «اوبروتش» . وجرى تحضير مثل هذه الصواريخ الروبوتات ايضا للانطلاق بوقت واحد في المطار الفضائي الامريكى بصحراء نيفادا .

كان وقت الانطلاق محددًا بالنسبة لمناطق خطوط العرض في سارووزيكى هو الساعة الثامنة مساءا . وفي هذه الساعة بالضبط يجب ان تنطلق الصواريخ دون اى تاخير . وينبغى ان تنطلق على التوالي وبين كل صاروخين منها فترة دقيقة ونصف دقيقة الى الفضاء النائي صواريخ سارووزيكية التسعة المضادة للاقمار الصناعية المعدة لتكوين اطار مانع دائم العمل وافقى في مجال الغرب - الشرق حول الكرة الارضية ضد تسلسل الاجهزة والاجرام الصناعية المحلقة من الكواكب الاخرى ان وجدت . وكان على الصواريخ الروبوتات النيفادية ان تشكل اطارا عموديا في مجال الشمال - الجنوب .

وفي تمام الساعة الثالثة بعد الظهر شغلت في مطار سارووزيكى - الفضائي منظومة الضبط لفترة ما قبل الاطلاق والمسماة «خمس دقائق» وخلال كل خمس دقائق صارت تشتعل وتضيء على كافة الشاشات واللوحات الكهربائية المضئثة لكل الخدمات والقنوات عبارة التذكير والتعذير مع الجملة الصوتية المصاحبة القائلة : «بقى على موعد الاطلاق اربع ساعات وخمس وخمسون دقيقة . حتى الاطلاق اربع ساعات وخمسون دقيقة . . .» وقبل ثلاث ساعات من الاطلاق سوف تشغل منظومة «الدقيقة» .

وحتى هذا الوقت تغيرت احداثيات موقع المحطة المدارية «باريتيت» في الفضاء وبنفس الوقت حولت شفرة الاشارات بقنوات الاتصال اللاسلكى لمنظومات المتن في المحطة بغية الخيلولة دون اى احتمال للاتصال براندى الفضاء ١-٢ و ٢-١ . وفي هذه الاثناء كانت تهسال من اتجاه الكون الاشارات اللاسلكية المتواصلة دون انقطاع من راندى الفضاء ١-٢ و ٢-١ المتكافئين ولكن دون اية جدوى تماما وكانها بالضبط كما يقول المثل المعروف صرخة في واد ونفخة في رماذ وكانا يربحوان بضراعة وتوسل وعلى نحو مستमित عدم قطع الاتصال معهما . انهما لم يشككا ولم يجادلا في جدوى قرار «اوبتسوبر» مقترحين



مرة ومرة اخرى دراسة مشاكل الاتصالات المحتملة مع التمدن في كوكب الصدر الغابى انطلاقا بالطبع قبل كل شيء من مصالح اهل كوكبنا الارض مما لم يصر على اعتبارهما الفوري موافقين على الانتظار وفعل كل شيء لكي يكون تواجدهما على ظهر كوكب الصدر الغابى جالبا للمنفعة المتبادلة للعلاقات بين المجرات ولكنهما اعترضا على عملية «اوبروتش» التي يجريها الطرفان ، تلك العزلة الذاتية الشاملة على نطاق العالم والمؤدية ، كما يعتقدان ، الى الجمود التاريخي والتكنولوجي للمجتمع البشرى الذي سوف يتطلب تذليله والتغلب عليه الوف الاعوام . ولكن كان الاوان قد فات . . . ولم يستطع اى احد في العالم سماع صوتهما ولم يتصور اى احد ان صوتهما يتردد في رحاب العالم وما من جواب . . .

وفي هذه الاثناء كانت قد شغلت في المطار الفضائى ساروزيكى - ١ منظومة «الدقيقة» التي تحسب بشكل غير قابل للرجعة دنو لحظة الاطلاق وفق عملية «اوبروتش» .

اما النسر الذي اتم دورة تحويم جديدة فقد ظهر مرة اخرى فوق جرف ملكومديتشاب . وكان الناس هناك عاكفين على عملهم مشغولين به كل الانشغال وكانوا يعملون المساحى حفرا ورفشا . وقد انجزت الحفارة اخدودا عميقا ، اخرجت منه اكواما من التراب رمته جانبا . واخذ الآن ينزل الرفش عميقا الى الحفرة قابلا آخر حفنة من التراب . وسرعان ما كفت عن الارتعاش والارتجاف وتحت الى جانب وراح الناس يسوون شيئا ما في قعر الحفرة . وكان الجمل باركا في مكانه بيد ان الكلب الاصهب لم يكن يرى . فآين كان يمكن ان يستتر ؟ اقترب النسر فى طيرانه ادنى قليلا وقام بتحليق انسيابى فوق موضع الجرف الجبلى مديرا رأسه مرة ذات اليمين وملفتا مرة اخرى ذات الشمال وأخيرا رأى ان الكلب الاصهب كان يرقد تحت العربة المقطورة متمددا عند العجلات نفسها . كان الكلب منطرحا فى اضطجاع يأخذ قسطه من الراحة او ربما يغط فى تعسيلة اغفائة . ولم يكن له شغل بالنسر ولم يفكر فيه . كم طار اليوم فوقه محلقا وهو لم يلتفت حتى ولا مرة واحدة رافعا رأسه وعينه الى السماء . وحتى اليربوع يقف على قائمته الخلفيتين

يتطلع فى البداية حواليه ثم يرنو الى فوق ليتحقق من خلو المكان من اى خطر عليه يهدد حياته . اما الكلب فقد تكيف للعيش بجوار الانسان ولم يعد يخشى اى شيء وصار خلو البال من اى هم وغم هادى الخاطر ولهذا فهو الآن متمدد مضطجع لا يفكر فى شيء ولا يشغل باله وخواطره شيء . وتسمر النسر فى الهواء هنيهة واستجمع قواه وانحدر فجأة من ناحية ذيله باندفاع حادة وكانه الطلقة مخلفا اثرا ابيض مشربا بالخضرة متجها نحو الكلب وكأنه يقول له : خذها اذن ان كنت لا تعلم !

وسقط شيء ما على اعلى رذن يديغى البورانسى وكان هذا ذراق طائر . ولكن من أين يمكن ان يكون ؟ ونفض يديغى القاذورة عن كفه ورفع نظره محدقا فى السماء . مرة اخرى هذا النسر ابيض الذيل هو نفسه . يحوم فوق رؤوسنا مرة اخرى . ما الذى يدفعه الى هذا ؟ ما احسن حاله ، ويسبح ويتأرجح فى الهواء . وقطع عليه حبل تفكيره هذا وسلسلة افكاره السارحة صوت عادل باي الطويل وهو يصرخ من قعر الحفرة :

- وماذا الآن يا يديكه ، انظر هل هذا يكفى ام نواصل الحفر ؟

وانحنى يديغى متجههم الوجه مقطب الجبين على حافة اللحد . وطلب من عادل باي الطويل قائلا :

- اذهب الى ذلك الركن اما انت يا قالى بيك فاصعد من الحفرة الآن . شكرا لك ويبدو لى ان العمق قد بلغ الحد الكافى . ورغم ذلك يا عادل باي ينبغى توسيع الحفرة قليلا فلتكن الهوة اقسطح .

وبعد اصدار هذه الاوامر والايمازات تناول يديغى البورانسى زمزية صغيرة ملاى بالماء واحتمى خلف الحفارة ليتوضأ تهيؤا لاداء فريضة الصلاة وعندها عادت نفسه بهذا الشكل او ذاك الى مكانها من نفسه وشعر بشيء من طمانينة النفس واستقرارها فمع انه لم يتح دفن قازانغاب فى مقبرة آنا - باييت ولكن على اية حال ومهما كان من امر تفادوا وقوع العار الاكبر واجتنبوا الوقوع فى كبير الشنار الذى هو اشنع من الاحتراق بالنار وذلك لو انهم عادوا بالميت الى البيت غير مدفون . ولولا ما ابداه من الاصرار لكان قد حدث ذلك المعكروه



والمحذور . والآن كان ينبغي الانتهاء من الامر فى الوقت المناسب بغية العودة الى بورانلى - بورانى قبل حلول عتمة المساء . وهم هناك فى البيت طبعاً ينتظرون ولسوف يقلقون كثيراً فى حالة تأخرهم عن الرجوع . فأنهم وعدوا بالعودة قبل الساعة السادسة او على الاقل ليس بعدها وفى هذه الساعة كان الموعد المضروب لاقامة احتفال التابين لقراءة الفاتحة . ولكن كان الوقت عندئذ الساعة الرابعة والنصف وكان لا يزال لازماً اتمام الدفن ثم الطريق فى ساروزيكى . وحتى فى حالة السير السريع يستغرق هذا الطريق ساعتين . ولكن الاستعجال واختصار الدفن كان ايضا مما لا ينبغي وغير مستحب . وعلى أية حال فلتكن قراءة الفاتحة واداء مراسيم التابين فى وقت متأخر من المساء . ولا بد مما ليس منه بد . . .

عقب الانتهاء من الوضوء شعر يدبغى بأنه أصبح متهيئاً لاداء الفريضة الاخيرة . فاغلق بالسداة حلق الزمزية وتقدم من خلف الحفارة وعلى وجهه تعابير الجد واخذ يمسح على لحيته ويمسدها وهو يقول :

- تعال الى قربى يا ثابت جان نجل عبد الله قازانغاب الذى انتقل الى رحمته تعالى وقف بجنبى عن شمالى وانتم الاربعة احملاوا جنمان المرحوم وضعوه عند حافة اللحد موجهين رأس الفقيد الى جهة الغروب . - تلفظ بذلك كله بصوت ترن فيه لهجة مهيبية ويخالطه خشوع وبعد ان تم تنفيذ كل ما طلبه قال : - والآن فلنتوجه جميعاً نحو القبلة . ارفعوا راحاتهم بالدعاء وفكروا فى طاعة الله متأملين فى حكمته وروعة تدبيره خاشعين مخلصين له الدين لكى يقبل صلواتنا ويسمع دعواتنا وتكون اقوالنا وافكارنا ونوايانا فى هذه الساعة خالصة له وخاشعة بين يديه فى تضرع وابتهاال .

ومن الغريب انه لم تصدر من خلف يدبغى اية همسة او نامة تدل على التملل او الهز او التذمر فلا تمتمة ولا نممنة . وقد شعر هو نفسه لذلك بالارتياح ورضا النفس اذ كان من المتوقع والممكن ان يقولوا له : دعك من هذا ايها الشيخ العجوز ولا تزعج رؤوسنا بما هو باطل فاين انت ويا للسخرية من الملا الحقيقى وهل انت من الاتقياء الصالحين بحيث تستحق ان نتخذك

اماما فى الصلاة وناتم بك وكانك امام حقيقى . هلم بنا ندفن الميت بأسرع ما يمكن لكى نعود سريعا الى بيوتنا فى الوقت المناسب وقبل قوت الوقت علينا . فضلا عن ذلك فان يدبغى ادى صلاة الدفن على الميت فى وضع الوقوف وذلك لكونه قد سمع من العارفين ان المسلمين فى البلدان العربية وهى مصدر الدين يؤدون صلاة الميت فى المقابسر واقفين دون ركوع ولا سجود . وسواء كان الامر بالفعل على هذا النحو او لم يكن فان يدبغى كان يريد ان يكون رأسه اقرب الى السماء .

ولكنه قبل الشروع فى اداء صلاة الميت التفت منحنيا نحو اليمين ونحو الشمال وكذلك بتلك الالمامة من الرأس توجه نحو السماء ونحو الارض وبذلك نفسه كان يؤدى للبارى الخالق واجب الشكر على حسن خلقه فى احسن تقويم لهذا العالم الذى يظهر فيه الانسان بالمصادفة ويزول منه كما جاء ويظل الليل والنهار . وهنا وقعت انظار يدبغى البورانى مرة اخرى على ذلك النسر يحلق سابعا فى الهواء وكان النسر ابيض الذيل كأنه معلق فى الجو امامه يحرك جناحيه بيسر ويخفق بهما على نذرة وهو يدور فى الاعالى دورات واسعة دورة بعد دورة . ولكن النسر لم يصرفه مطلقاً عن مشاعره الداخلية بل على العكس ساعده فى تركيز الذهن على محور دائرة سامى الخواطر والافكار . وكان مطروحا امامه عند حافة اللحد المفتوح على الحملات جسد المتوفى قازانغاب محنطاً فى كفن ابيض واخذ يدبغى يردد فى صوت شبه هامس عبارات الصلاة والادعية التى تتلى على القبر وهى العبارات الصالحة والمعدة مسبقاً للجميع وكل فرد ولكل فى كل الازمان وفى كل مكان حتى نهاية هذا العالم الفانى وهى عبارات يتردد فيها التحذير والنذير بالمصائر المحتومة على كل حى يرزق ولجميع البشر وكل انسان سواء للغنى والفقير والوجيه والحقير والسيد الوزير والحاجب الغفير ايئما كانوا وفى اى مكان او عصر عاشوا وذلك محتوم ايضا حتى على اولئك الذين لم يولدوا بعد . واذ كان يدبغى البورانى يتلو هذه العبارات التى اوصى بها الانبياء والاولياء حاول فضلا عن ذلك ان يضيف شيئا من افكاره وثمرات خبرته الشخصية فى الحياة وتجربته الذاتية



في العيش . اذ لم يكن عبثا ولا سدى ان يعيش الانسان هذا العمر الطويل .

وكانت افكاره الخاصة على النحو التالي : « اذا كنت تسمع بالفعل ايها الرب العالى صلاتى ودعائى وعباراتى هذه التى ارددها على اثر الاباء والاجداد وسيقراها فى الكتب الدينية الابنساء . والاحفاد فارجو ان تستمع الى صوتى منطلقا بافكارى الدائرة فى راسى والنابعة من نفسى والمسيطرة على حسى واعتقد ان هذا لا يمنع من ذلك ولا تعارض فى الكلام ما بين الخاص منه والعام .

ها نحن جميعا نقف هنا عند حافة اللحد الذى سوف نقبر فيه ميتنا قازانغاب فى مكان مقفر موحش وذلك لاننا لم يتح لنا دفنه فى العقبرة العامة المقدسة . اما النسر المحلق فى الهواء فهو ينظر الينا من علياء ويشاهد كيف نبسط راحات اكفنا مودعين صاحبنا قازانغاب . انك انت العظيم الرحيم اذا كنت موجودا ومائلا فى الوجود ، اغفر لنا خطايانا واستجب لضراعتنا ودعوانا واسمع نواحنا وشكوانا وتقبل منا اذ ندفن عبدك قازانغاب واسدل عليه ستار عدلك ورحمتك ودعه يدخل من باب رضوانك ومغفرتك واسبع عليه رضاك واذا كان من المستحقين للخير بما ابداه من حسن الطاعة وفعل الاحسان فاجعل لروحه مكانا فى عالمك الفسيح وهيبى له النصيب الوافر والمريح فى فردوسك وجناتك فلقد اجتهدنا ان نفعل له كل ما تقدر عليه وكل ما بوسعنا وما هو مطلوب منا والباقى عليك ايها الحى الباقي .

والآن ما دمت اخاطبك فى ساعة كهذه فاستمع الى " يا رب العالمين ، ما دمت لا ازال على قيد الحياة وبوسعى ان افكر وانطق . ومن الجلى ان الناس لا هم لهم سوى ان يطلبوا منك ارضاء طلباتهم وهم يرجون منك اجابة الدعوات وتلبية الرغبات وتحقيق الامنيات اللهم اسمعنا اللهم اجعلنا اللهم ابعث لنا فارحمهم يا رب وابعث لهم وساعدهم واحمهم انهم ينتظرون منك الكثير الكثير فى كل مناسبة وبكل صدد بالحق وبالباطل وباستحقاق وبدونه وحتى القاتل يمتنى فى نفسه لو انك كنت معه ووقفت الى جانبه وصرت له عوننا وسندا . اما انت فانك صامت لا تجيب ولا تتكلم ولا تقول لهم شيئا وما الذى يمكن ان

يقال ، وما نحن سوى بشر يخيل الينا وبالاخص حين تعسر علينا الامور وتضيق علينا المسالك انك انما وجدت فى السموات لكى تعيننا وتأخذ بايدينا وتفرج عنا كربنا وتخفف مصابنا . وهذا كله صعب عليك وعسير وانا افهم ما انت عليه وفيه وما تعانیه وتقاسيه فصلواتنا كثيرة لا تنتهى وطلباتنا اكثر واكثر وانت وحدك واحد احد فكيف تلييها كلها وكيف يمكن ان تستجيب للجميع . ولكنى لا اطلب منك شيئا وكل ما اريده منك هو ان تسمع منى كل ما اريد قوله فى هذه الساعة .

اننى اشعر بالاسى والقهر لان مقبرتنا العزيزة على نفوسنا حيث تثوى رفات نايمان . آنا غدت لنا منذ الآن فصاعدا بعيدة المنال . ولهذا ارجو ان يقبض لى ايضا ان اتوى انا ايضا فى هذا الموضع وتستقر عظامى فيه وهنا بالذات فى ملكومديتشاب حيث وطئت قدماهما وسارت رجلاها . فليكن الامر بحيث انى ارقد بجوار قازانغاب وبجنتيه وهو الذى سوف نسلمه الآن للشراب ونعطيه للارض ونودعه القبر . فان صحيحا وحقا قول القائلين بان الروح تنتقل بعد الموت الى جسد آخر وتحل عن طريق تناسخ الارواح فى احد المخلوقات فلا حاجة بى الى الحلول فى نملة او سواها من الدواب والحشرات ، كلا ثم كلا انى لاود ان اغدو بعد موتى نسرا ابيض الذيل لكى احلق بعيدا فى الاعالى فوق سطح الارض سابحا فى الهواء واحوم فى الجو حول ساروزيكى وانظر من العلاء دون ان اشبع من النظر الى ارضى وديارى وهذا هو كل شىء . وجملة ما اشتهى واريد .

اما بخصوص وصيتى فاننى سوف آمر هؤلاء الشبان الذين قدموا معى الى هنا . وساقول لهم ان رغبتى ومناى وما اطلبه منهم واكلفهم به هو ان يدقنوني هنا بالذات . ولكنى فقد لا ارى من الذين سوف يؤدون على ورحى الصلاة ويصلون على جناتى صلاة الميت . انهم لا يؤمنون بالله ولا يعرفون اى نص للنصلاة ولا طقوسها اذ لا يدري احد ولن يعرف اى احد مطلقا وفى اى وقت على وجه التحقيق ما اذا كان لهذا العالم خالق ورب ومن هو واين هو ، فبعضهم يقول بانه موجود اما الاخرون فانهم ينفون وينكرون . وانا اريد ان اكون مؤمنا بوجودك وانك مائل فى افكارى . وانا حين اخاطبك فى الصلوات فاننى فى واقع



الامر اخاطب من خلالك نفسى وبوسعى الآن فى ساعة كهذه ان افكر مثلما كنت ستفكر أنت ايها الغالى البارى فى هذا مجمل القضية والامر ! اما هم ، هؤلاء الشبان ولكنهم لا يفكرون فى هذا وينظرون الى الصلاة باستخفاف . ولكن ما الذى يمكنهم قوله وماذا سيكون بوسعهم قوله لانفسهم او لسواهم من الناس فى ساعة الموت العظيمة الرهيبة ؟ اننى ارئى لهم واشفق عليهم وآسف لحالهم اذ كيف لهم ان يبلغوا كنه جوهرهم البشرى الغالى النفيس فى حين لا درب لهم للارتفاع بالفكر الى اعلى عليين واذا اصبح كل واحد منهم وكأنه رب . اغفر لى يا ربى هذا الكفر وابعث لى العفو والغفران عن هذا التجديف القريب من البهتان فان اى واحد منهم لن يصبح ربا ولكن بدون ذلك لن يكون لك أنت ايضا وجود يا رب العالمين فان الانسان ان لم يكن بوسعه ان يجعل نفسه بالسر والخفية ربا وآلها حريصا على الجميع وراعيا لشئون الجميع كما ينبغى ان تفعل انت ايها الاله وتكون حريصا على الناس ومحيطا اياهم بالحنن والعناية والرعاية فانك انت ايضا ايها الرب لن يكون لك كذلك من اثر ولا وجود فتكون غير معبود وغير موجود . . . وانا لا اريد ان تختفى وتزول من الوجود وتغدو شيئا غير موجود .

وفى هذا كل نجواي وشكواي وفيه حزني وبلواي . ولكن اعذرني واغفر لى اذا كان الامر ليس كما ينبغى وان كنت فى هذا مقصرا فى حقك ومذنبا فى امرك . فاننى انسان بسيط ساذج التفكير افكر بالشكل الذى أستطيعه والآن سأعود لاتمم الصلاة بأى من الذكر الحكيم وأتلو ما يتلى فى هذا المقام من منطوق مصحف القرآن الكريم ثم نشرع فى دفن ميتنا الفقيد فبارك لنا عملنا هذا وكن غافرا لنا ذنوبنا آمين يا رب العالمين . . .

- آمين - وبهذا ختم يديغى البورانى الصلاة وبعد خلوده هنيهة الى الصمت رنا مرة اخرى نحو النسر المحلق وادار وجهه بكتابة مدهشة فى بطنه شديد نحو الشبان الواقفين قربيه وبجواره وهم الذين ذكر لتوه رايه فيهم وخاطب بذلك الرب نفسه . وقد انتهت المحادثة مع الغالى البارى وغدا يرى مرة اخرى امامه اولئك الاشخاص الخمسة انفسهم الذى قدم معهم الى هنا والذين

من المتعين عليهم الانتهاء اخيرا من عملية الدفن التى طال امدها معهم .

- والآن - قال لهم متأملا فى تمنع - ما كان ينبغى قوله فى الصلاة قلته بالنيابة عنكم جميعا . والآن فلنشرع فى القيام بالعمل المطلوب .

وخلع يديغى البورانى عنه السترة التى علقته على صدرها الاوسمة والنياشين ونزل بنفسه الى قعر الحفرة وساعده عادل باى الطويل . وتنحى ثابت جان باعتبارها نجعل المتوفى جانبا معبرا عن حزنه واساء باطراق راسه واخفاء هامته على صدره وعمد اولئك الثلاثة - قالى بيك وجمعة على والصهر السكرير - الى رفع التابوت عن الحملات وفيه الجثمان وانزلوه الى اللحد مسلمين اياه الى ايدى يديغى البورانى وعادل باى الطويل .

«ها قد حانت ساعة الفراق وحل وقت الوداع - فكر يديغى البورانى وهو يضع جثة قازانغاب برفق على تراب الارض فى متواه الاخير ومدده فى عمق اللحد - اغفر لنا كوننا لم نستطع كل هذا الوقت الطويل ان نودعك متواك وظللنا طيلة النهار نحمك وننتقلك تارة الى هناك وفيئة اخرى الى هنا . ولكن هكذا حصل . ولم يكن ذلك بارادتنا وليس الذنب فى ذلك ذنبنا وكذلك فى كوننا لم ندفن رفاتك فى مقبرة آنا-بايت . ولكن لا تفكر ولا تحزن نفسك فاننى لن اترك الامر على هذه الحال ولن ادعه على هذا المنوال بل سأذهب الى حيث ينبغى ولن اهدأ او استقر طالما بقيت حيا فلن اسكت عن هذا وساقول لهم ما ساقول ! ولسوف يعرفون ويسمعون ! اما انت فاهدا بالا واستقر فى متواك نفسا . ان الارض واسعة رحبة مترامية الاطراف شاسعة الابعاد اما موضعك منها فقد ظهر انه لا يتجاوز العشرة اشبار وكما رايت فقد كتب لك ان تشوى فى هذا المكان لا سواه . وانت هنا لن تظل وحيدا فاننى سوف اعود قريبا الى هنا يا قازانغاب فانتظرنى يا عزيزى رويدا ولا يخالجنك الشك والريب . ولكن ان لم يحدث من البلاء ما لا يتصور ولا يتوقع واذا حلت ساعة وفاتى وجاء وقت مماتى وكان موتى على فراشى وبين اهلى واخوانى فاننى سوف آتى انا ايضا الى هنا وسنعود معا كما كنا صديقين وجارين وسنتحول الى تراب ارضنا ،



ارض ساروزيكى . ولكننا لن نعرف بهذا فان المرء يعرف ويدرك ما دام لا يزال حيا يرزق . ولهذا فاننى اتحدث كأنما معك وانا فى واقع الامر اكلم نفسى لا سواها اذ لم يعد موجودا ذلك الشخص الذى كنته انت ونحن ايضا سوف نذهب بهذا الشكل من هذا الوجود ونفادره شئنا ام ابينا بغير رجعة والى ابد الأبد من الدنيا الغانية الى الاخرى الباقية . اما قطارات السكك الحديدية فسوف تظل تمر عبر ساروزيكى وسيأتى محلنا اناس غيرنا . ويخلفنا قوم آخرون . . . . .

وهنا لم يستطع الشيخ العجوز يديغى ان يواصل رباطة جاشه فاجهش بالبكاء والنسيج وانخرط فى النحيب . وكل ما جرى ومضى وانقضى على مدى الاعوام الطوال طيلة عمرهما فى مفرق بورانى - بورانى كل هذا الذى وقع خلال حقبة طويلة من الزمن وكافة الآلام والبلايا والعلل والاحزان والافراح والاتراح بدا له وكأنه قد تجمع فى لحظات وتمثل فى عبارات الوداع التى تضمنت بضع كلمات فحسب والدقائق القصار التى استغرقها الدفن فما أكثر وما أقل ما منح للانسان .

- اتسمع يا عادل باي ؟ - نطق يديغى وهو يلامسه فى الحفرة الضيقة كئفا لكئف - يجب ان تدفنى ايضا هنا لأكون بجواره وبجنبه وعليك ان تلحدنى بنفسك وتضع جثمانى على التراب بيديك هاتين وقم بالأمر كما نفعل نحن الآن لكى أرقد انا ايضا فى راحة وسكون . فهل تعطينى على ذلك الكلمة وتقطع على نفسك العهد بان تفى بالوعد ؟

- كف عن هذا الكلام يا يديكه ولنتحدث عنه فيما بعد . والآن هيا فاخرج من هذا المكان لتعود الى عالم الحياة ودعنى اكمل الامر بنفسى دون معونتك . اهدا يا يديكه واصعد ولا تطل الكلام .

ومسح يديغى البورانى الطين عن وجهه المبلول وارتنى صاعدا من قعر الحفرة ومدت اليه الايدى لتعاونه وتعينه على الارتقاء والصعود وقفز الى الاعلى وهو يبكى ويدمدم متمسكا بعبارات ما آسية متقطعة الالفاظ . وجلب قالى بيك زمزية الماء لكى يغتسل يديغى . ثم أخذوا يرمون الى الاسفل حفنات التراب وبهيلونه على

اللحد وينثرونه من الجهة التى تهب منها الريح . واستخدموا فى البداية الرفوش وبعد ذلك جلس جمعة على وراء مقود الحفارة ودفع التراب المتكوم ركاما الى الحفرة . ثم راحوا يسوون التراب على اللحد بالرفوش من جديد .

وكان النسرا الأبيض الذيل كل هذا الوقت يحوم ويحوم فوقهم مراقبا من خلال سحب التراب والعثير هذه الحفنة من الناس الذين يقومون بعمل لا يخلو من الغرابية عند منطلقه جرف ملكومديتساب . ولاحظ انتعاشا خاصا ما فى الحركة بينهم حين راحت تكبر وتنمو ربوة طرية من التراب . والكلب الاصهب ايضا نهض بعد ان تشاب وتمطى فى هذه الاثناء من مكانه حيث كان يرقد مضطجعا تحت العربة المقطورة وأخذ الآن يدور ايضا حول هؤلاء الناس فما الذى كان يحتاجه ويريد هذا الكلب ؟ والبعير العجوز وحده المزدان على سنامه بحدوج مكسوة ببساط سجادى تتدل منه الكراكيش ظل على حاله يواصل اجتزازه دون التفات الى شىء وهو يحرك فكاه بلا تعصب ولا كلل . . . . .

وخيل اليه ان هؤلاء الناس يزمعون الرحيل وقد تهيأوا له . ولكن كلا ، فما هو أحدهم وهو بالذات صاحب البعير قد مد يده مبسوطه الكف وهو واقف أمام هؤلاء الناس وفعل الجميع مثله . . . . .

لم يعد الوقت يحتمل الارجاء والبقاء بعد هذا فقد ازف مرعد الذهب ومرر يديغى البورانى على الجميع نظرة مستطيلة غير عجول ثم قال بصوت مرتفع :

- ها قد انتهى الأمر وحلت النهاية . أفليس انسانا طيبا قد كان صاحبنا قازانغاب ؟

- بلى ، انه انسان طيب القلب حسن الخلق . - اجابوا جميعا .

- هل أبقى وخلف وراءه ديننا على ذمته لأحد منكم ؟ هذا هو هنا نجله فليتعهد بوفاء دين ابيه وتسديد كل ما عليه لكم ان وجد .

ولم يقل أى أحد منهم أى شىء . وعندئذ قال قالى بيك نيابة عن الجميع :



- كلا ، لم يكن لدينا لاي احد باى دين ولم يخلف وراءه  
دينا بل مضى صافى الذمة طاهر الذيل .  
- اذن فى هذه الحالة ما الذى تقوله يا ثابت جان بسن  
قازانغاب ؟ - توجه اليه يديغى مخاطبا اياه .  
- شكرا لكم جميعا ، شكرا جزيلا وجزاكم الله عنا خير  
الجزاء - كان جوابه باقتضاب .  
- اذا كان الامر على هذا النحو اذن هلم بنا لنعود الى  
البيت - قال جمعة على .  
- الآن . بقيت كلمة واحدة ينبغى ان تقال - اوقفه عن  
الاسترسال يديغى البورانى - اننى بينكم الاكبر سنا . وعندى  
رجاء موجه اليكم جميعا . اذا حدث لى ما هو مقدر ومنتظر فادفنونى  
هنا بالذات جنبا الى جنب بجوار قازانغاب . اسمعتم ؟ هذه هى  
وصيتى فيكم وطلبى منكم فافهموه وحققوه لى عندما يحين وقته .  
- هذا ما لا يعرفه اى احد يا يديكه فلا احد يدري كيف  
وما الذى سيحصل ويقع ، فلماذا التفكير سلفا بما لم يحن اوانه  
بعد . - قال ميديا شكك قالى بيك .  
- مع ذلك وعلى اية حال - اصر يديغى على قوله - يحق  
لى القول ويجب عليكم ان تسمعوه فاذا حان الحين فعليكم ان  
تفعلوا ما طلب منكم وتذكروه ولا تنسوه وينبغى الا تغيب عن  
بالكم هذه الوصية .  
- وماذا سيكون ايضا من هذه الوصايا العظيمة الجليلة ؟  
هيا ، يا يديكه اذكر لنا مرة واحدة كل ما لديك منها - قال  
مازحا عادل باي الطويل بنبرة ساخرة راغبا فى التخفيف من الجو  
المرهق .  
- وانت لا تسخر ولا تمزح فليس هذا وقت دعاية وهزل -  
قال يديغى جادا ومغضبا - فاننى قلت الامر بجهد .  
- سوف نتذكر يا يديكه ولن ننسى هذا - قال عادل باي  
الطويل يطمئنه ويهدى خاطره وباله - اذا حدث هذا فاننا سنفعل  
كل ما تقول . فلا تشكن واطمئن .  
- هذا هو كلام الفرسان - تمتم يديغى البورانى بنفس  
راضية مرضية .  
اخذ الجراران يدوران ويستديران تهيؤا للعودة والابتعاد عن

منطقة الجرف . وقاد يديغى البورانى جملة قره نار نحو درب  
الرجوع وسار حتى وقف بجوار ثابت جان منتظرا انتهاء الجرارين  
من النزول الى الاسفل واراد تبادل اطراف الحديث معه فى خلوة  
وعلى انفراد عما كان يشغل باله كل الانشغال .  
- اسمع يا ثابت جان ، لقد انتهينا من كل شىء واصبحت  
ايدينا فارغة وثمة الآن موضوع واحد ينبغى علينا تناوله  
بالحديث . كيف سيكون امرنا مع مقبرتنا آنا - باييت ؟ - قال  
له فى لهجة تساؤل .  
- وما هو الذى يمكن فعله ؟ ليس ثمة فى هذا امر يستحق  
ان نصدع به رؤوسنا . - اجاب ثابت جان - الخطة هى الخطة  
وسوف تنفذ مهما كان من امر وعلى اية حال من الاحوال سواء  
شئنا ام ابينا . انهم سوف يزيلون تلك المقبرة ماداموا قد  
قرروا ذلك وسيجرى هذا وفقا للخطة المرسومة .  
- اننى لست عن هذا ادير زمام الحديث . بهذه الطريقة  
يمكن صرف النظر عن كل امر والتلويح باليد انصرافا عن كسل  
قضية . انك ولدت هنا فى هذه المنطقة وفيها نشأت وترعرعت  
حتى بلغت مبلغ الرجال . وعلمك ابوك ما فى حوزته من العلوم  
ما علمك . وما نحن الآن قد ودعناه وشيعناه الى مثواه الاخير  
ودفناه وتركناه وحيدا فى القفر والعراء ولا عزاء الا امر وحيد هو  
انه على اية حال يرقد فى ارضه لا سواها . انك انسان متعلم  
وتعمل فى مركز الاقليم والحمد لله وبوسعك ادارة الحديث مع  
اى احد كان وعلى اى مستوى رفيع . ولقد قرأت الكتب بشتى  
انواعها . . . .  
- وماذا فى ذلك ؟ وما الذى يترتب على هذا ؟ - قاطعه  
ثابت جان .  
- انه كونك ينبغى ان تساعدنى فى ادارة دفعة الحديث  
وحبذا لو ذهبنا معا انا وانت قبل قوات الاوان دون ارجساء  
وتأجيل بل بالضبط يوم غد نتوجه الى الرئاسة المحلية افليس  
فى هذه المدينة احد ما هو الرئيس الاكبر فيها . لا يجوز البتة  
تسوية المقابر فى مقبرة آنا - باييت سوية التراب ومسحها من  
وجه الارض لانها تمثل جزءا من التاريخ .  
- هذا الكلام كله كالحكايات القديمة . وينبغى ان تفهم



يا يديكه انه يجرى هنا حل قضايا عالمية فضائية ونحن نذهب طارحين شكوى حول مقبرة ما من المقابر . ومن هو في حاجة الى هذا ؟ بالنسبة لهم هذا الامر كله لا شيء . ولا قيمة له ولا يساوي اى شيء حتى ولا شروى تقير بل وانهم على اية حال حتى لن يسمحوا لنا بالذهاب الى هناك .

- اجل ، ان لم نذهب فلن يسمحوا لنا . اما اذا طلبنا والحفنا في الطلب فانهم سوف يسمحون . والا فان الرئيس نفسه ربما سيأتى بنفسه الى اللقاء . انه بالطبع ليس بالجبل الذى لا يمكن ان يتحرك من مكانه وحتى لا يتزحزح .

والقى ثابت جان على يديغى نظرة امتعاض وقال :

- دع عنك هذا واتركه ايها الشيخ العجوز ما هذه الا عبارات فارغة جوفاء . اما عليّ فلا تضع اى اعتماد فلست فى هذا بصاحبك . ولا علاقة لى بهذا .

- كان ينبغي ان تقول هذا من البداية وعندئذ ما كانت ثمة حاجة الى الكلام ولا داعى الى قول ما قلت .

- وما الذى فكرت فيه انت ؟ وما الذى كنت تظنه ؟ اكنت تحسب اننى سوف اهرع راكضا معك دون ان الوى على شيء . وكأنتى معتوه ؟ ومن اجل ماذا ؟ انا عندى اسرة واطفال وعمل . وما الذى يدفئنى الى البصق بعكس الرياح والسباحة ضد التيار ؟ يكفى اجراء مكاملة هاتفية واحدة ويكون نصيبى رفسة فى الظهر وركلة فى المؤخرة . كلا ثم كلا ، فلست بالمجنون واعفنى من هذا ولك الشكر على ما تدعوننى اليه .

- تقبل انت نفسك شركك الجزيل وخذ نفسك فانست به جدير وحقيق - قال يديغى البوراني رافضا ثم اضاف فى حقد - يبدو انك لا تفكر الا فى مؤخرتك ولا تعيش الا لها ! - وانت ما الذى تعتقده وتراه ؟ وما الذى كنت تظن ؟ ان الامر لهو على هذا النحو بالذات وهو لك بالذات هين ويسير فمن انت بين الناس ؟ لا احد . اما نحن فينبغى ان نحافظ على مؤخرتنا لكي نضمن امتلاء فمنا بالحلوى وكل ما طاب وحلا وما عز وغلا .

- هذا هو الامر . فى السابق كان الناس يعززون الرأس ويحرصون على الحفاظ عليه وتكريمه اما الآن ففي المقدمة

لدى الناس مقام المؤخرة كما يبدو وهى عندهم اغلى حتى من الرأس .

- كيفما شئت فافهم وفكر كما بدا لك ولكن لا تبحث عن الحمقى والمغفلين فانك لن تجدهم .

- اذن فالامر واضح وجلى . والحديث انتهى وكأنه لم يبدأ فلنقطعه فى الحال - قال يديغى البوراني زاجرا - فى حدة سوف تكون معا فى الاحتفال بالتأبين واقامة الفاتحة ثم لن يجمع ما بيننا جامع وليمض كل واحد منا فى حال سبيله وعسى ان ينعم علينا الله فيعفيننا من اللقاء معك الى الأبد .

- فليكن ما يكون - قال ثابت جان منصرفا بوجه عبوس قمطير .

وعند هذا الحد افترقا متغاضبين . وبينما راح يديغى البوراني يعتدل فى جلسته على سنام البعير انتظروه سائقا الجرارين بعد تشغيل المحرك ولكنه قال لهما رأسا ان يسيرا ولا ينتظراه بل وان يسرعا وبأسرع ما يستطيعان فالناس هناك ينتظرون وهم قلقون ليبدأوا الفاتحة والتأبين اما هو على ظهر بعيره فالطريق امامه مفتوح وسوف يسير على حدة ويصل وحده متى سيصل . وعندما تحرك سائقا الجرارين بجراريهما منطلقين كان يديغى لا يزال فى مكانه دون ان يتحرك يفكر فى الذى عليه ان يفعله لاحقا وليقرر كيف سوف يتصرف .

هو الآن قد غدا وحيدا وانفرد بنفسه وخلا اليها انه فى وحدة كاملة منفردا مع سازوزيكى اذا لم يعتبر ويعد فى الحساب كلبه جولبارس الذى ركض فى البداية جاريا خلف الجرارين المبتعدين ثم عاد يركض الى الخلف حين أدرك ان سيده لا يسير معهم فى الدرب . ولكن يديغى لم يعره التفاتا . وحتى لو كان الكلب ظل يركض حتى وصل الى البيت لما كان قد لاحظ حتى ذلك . كان كل شيء ثقيل الوطأة عليه وضاق عليه العالم على وسعه . ولم يكن ليستطيع ان يقهر باى شيء حرارة ما فى جوفه ولذعة شعوره الداخلى الجياش بالألم كان يملا داخله فراغ مقلق حراق وناخر فى النفس وذلك عقب المحاورة التى دارت له مع ثابت جان . وكان يعتدل فى نفسه فائرا ذلك الفراغ الناخر من الألم الذى لا يخمد ولا يهدم كخرم المسمار وكالشق الذى فى



الجدار او الفج والشرح في الجبل لا تشعر في داخله بغير البرد ولا ترى من خلاله سوى الظلام الدامس . كان يديغي البوراني شاعرا بالندم الشديد لانه عبثا وبلا جدوى فتح باب هذا الحديث والقي العبارات جزافا وكأنها صرخة في واد . فهل ثابت جان هو ذلك الشخص الجدير بالتوجه اليه طلبا للمشورة بله العون ؟ لقد خادع نفسه بالامل وحدثها بانه متعلم ومثقف ومن الاسهل الاهون عليه ادارة دفة الحوار مع امثال هؤلاء الذين هم على طرازه . ولكن ما الذي نتج عن كونه قد تلقى التحصيل في شتى الدورات الدراسية وفي مختلف المعاهد ؟ ولكن ربما يكونون قد علموه ليكون على هذه الشاكلة التي بدا له عليها لتوه . ربما يكون ثمة من هو ثاقب الذهن المعى الظن كابليس اللعين الذي اجتهد كثيرا ليدخل في نفس ثابت جان لكي يغدو ثابت جان كما هو ثابت جان الآن وليس احدا آخر غيره وسواه . افليس ثابت جان نفسه قد تكلم ووصف بكل تفصيل ومن كافة النواحي مثل تلك التفاهة حول الاشخاص الذين يمكن توجيههم وادارتهم بواسطة جهاز الراديو اللاسلكي وكانهم اجهزة ميكانيكية ومن البشر الآليين . وستحل على حد قوله ازمان يتحصل فيها هذا الامر في الواقع . وماذا اذن لو كان ذلك الجبار غير المرئي والقادر على كل شيء يديره الآن بالراديو .

وكلما أوغل الشيخ العجوز يديغي في مجاهل التفكير وامعن سارحا في وادي الافكار متأملا في هذا الامر شعر من جراء هذه الافكار بالمزيد من التالم والتظلم والاحساس بانسداد المخرج عليه وتعذر الحل والعتور على المنفذ اليه .

- انك لمنكورت ، منكورت حقيقي ! - همس في داخله شاعرا بمنتهى الحقد والسخط والأسف على ثابت جان هذا . ولكنه لم يزمع بالمرّة التسليم بما حدث . فلقد أدرك ان عليه ان يفعل شيئا ما وان يقدم على شيء ما لئلا يتعنى وينثنى وينطوي ثلاث طيات . لقد أدرك يديغي البوراني انه ان تنازل وتراجع فان ذلك سيكون هزيمته في الميدان وذلك سيجعله محتقرا في عين نفسه . ونظرا لاحساسه بانه يتعين عليه الاقدام على فعل امر ما معارض لحصيلة ذلك النهار لم يكن ليستطيع بعد ان يقول بالضبط ما هو الذي كان يوده فعله بالذات وبأى

شيء ينبغي ان يبدأ ومن أية نقطة عليه ان ينطلق وكيف سيشرع في الامر الذي يجعل افكاره بشأن مقبرة آنا-باييت تصل الى اولئك الذين بوسعهم بالفعل تغيير الامر الصادر . لكي تبلغهم تلك الافكار وتتفاعل فيهم وتحملهم على القيام بأمر ما وتقنعهم . . . ولكن كيف يكون ذلك ممكنا ؟ والى أية جهة ينبغي التحرك ؟ وما الذي يتوجب اتخاذه ؟

وتلقت يديغي حواليه وهو غارق في غمرة تفكيره ومستغرق في حومة افكاره الشاغلة وهو راكب على بعيره قره ناز محاطا من كل جانب بالسهب الصامت صمت القبور . واخذت عتمة الغروب تزحف متسللة فوق حمرة رمال ملكومديتشاب . وكان الجراران قد اختفيا منذ امد بعيد عن ناظريه . ذهب الشبان . ولقد كان آخر من عرف واحتفظ . في ذاكرته بواقع الحياة في منطقة ساروزيكى وما جرى فيها من احداث وامور هو الشيخ قازانغاب وما هو الآن يرقد في مئواه الاخير في الجرف تحت التل الرملي الطرى الذي اهلوه عليه في قبر منفرد وحيد في وسط السهب الممتد شاسعا مترامى الاطراف . واخذ يديغي يتصور كيف ان هذه العلوة سوف تتطامن رويدا رويدا ويتغير لونها وتندمج مع لون نبات الشيح المنتشر في منطقة ساروزيكى والطاغى فيها وعليها وسيكون من العسير تمييزها في هذا المكان والتعرف عليها ومعرفة موقعها . وهكذا سيكون ، فلا احد يعيش اكثر من عمر الارض ولا احد يستطيع ان يجد عنها محيصا .

تناقل قرص الشمس وناء تحت ثقل نفسه اذ تدركه نهاية النهار متهاويا تحت هذا الثقل الشاق عليه ومنحدرا أدنى فادنى نحو الافق . وكان ضوء الشمس الغاربة يتغير من دقيقة لاخرى . كان الظلام يتولد بصورة غير مرئية من بطن الغروب وهو يصب الزرقة القاتمة بسبب الحلقة على الرحاب الشاسعة المضاءة بشعاع الشمس الذهبي الذي يغمرها . واذا راح يديغي البوراني يمعن في التفكير متأملا في الوضع والموقف وسارحا في وادي افكاره الفسيح الرحب أقر العزم على العودة كرة اخرى الى ذلك الحاجز الذي يقطع الطريق على المارين عند المدخل الى المنطقة المغلقة المحرمة . ولم يكن بوسع



التوصل الى اى اسلوب آخر وطريقة اخرى . والآن وقد انتهى امر التشييع والدفن ولم يعد يشعر بانسه مرتبط بأى شيء ولهذا أصبح قادرا على الاعتماد على نفسه بالكامل لاطلاق ما فى نفسه من القوى حتى آخرها والى النهاية . وكان بوسعها ان يسمح لنفسه بالتصرف غير خاش على غير نفسه ولا مجازف بسواها وفقا لمشيئته وحدها وعلى هواها . وقبل كل شيء آخر كان يريد ان يسعى لحمل رجال دورية الحراسة على الاضطرار الى اخذه ولو مخفورا الى الرئيس العسكرى الاعلى او اذا احتاج الامر ان يضطر ذلك الامر الرئيسى الى المجيء الى ذلك الحاجز والاستماع الى اقواله هو ، يديغى البوراني ، وعندئذ سوف يقول له كل شيء مما يضمه ويكنه فى نفسه . سيقول له كل ذلك فى وجهه دون ان يخشى لومة لائم او توبيخ . . . .

دارت كل هذه الخواطر فى رأسه وقرر يديغى البوراني ان يتصرف على الفور دون ابطاء ولا تاخير وكان الدافع المباشر الى هذا والذريعة الرئيسية التى ينوى طرحها الحادث الذى وقع وهو الحادث المؤسف الذى منع من دفن قازانغاب حيث كان ينبغى . لقد قرر بقوة وعزم وحزم ان يبدي عند حاجز الطريق كل ما لديه من اصرار مطالبا بالحصول على اذن بالدخول او سماح باللقاء وسيبدأ بهذا وهو حمل الحراس على ادراك انه سوف يظل يسعى لتحقيق غايته وبلوغها الى ان يستمع الى كلامه اعلى رئيس وليس احد ما من امثال هذا الشخص المدعو تنسيق بايف . . . .

وبهذا وعليه عزز نفسه وقوى عزمها . . . .

- تاوبا قيل ! اذا كان للكلب صاحب فان الذئب له رب ! - اخذ يشجع نفسه بهذا ونخز جملة قره نار واتقا وعازما موجها وجهته نحو الجهة التى يقع فيها حاجز الطريق المانع . وفى هذه الاثناء غربت الشمس واخذ الظلام يرخى اسداله ويهبط سريعا ليغمر الدنيا بسواده الحال ك . . . .  
وحين دنا الى المنطقة المغلقة كان الظلام دامسا . وكانت باقية مسافة نصف كيلومتر قبل الوصول الى الحاجز نفسه عندما صارت ترى بوضوح الى الامام مصاييح مخفر الحراسة . وهنا قبل بلوغ الحارس ترجل يديغى من الحدوج

وبدا له أنه فى غنى عن الجمل فى هذا الامر . وما وجه حاجته الى هذا العائق ؟ ثم انه لم يكن يدري اى رئيس سوف يقضى له ومن اى نوع من الناس سيكون ذلك الشخص ولربما سوف يرفض تبادل اطراف الحديث أصلا وسيقول : «فلتذهب من هنا انت وبعبيرك من حيث جنت وطلعت ! ولا حاجة الى اية مقابلة معك او رؤية لوجهك !» ولن يسمح له حتى بالولوج الى القمرة الداخلية . ولكن الامر الرئيسى هو ان يديغى لم يكن ليبرى بم سوف تختتم فعلته والى اية نتيجة ونهاية سوف تنتهى وهل سيتعين عليه الانتظار طويلا لمعرفة النتيجة . وعليه كان من الافضل له ان يذهب الى هناك لوحده منفردا اما بعبيره قره نار فليتركه هنا معقولا فى السهب يرعى العشب .

- انتظرنى هنا ايها الجمل وسأذهب لاحاول ان اعرف كيف ستكون نهاية الامر - قال متمتما يخاطب بعبيره قره نار ولكن ذلك كان اكثر منه توجهها اليه مخاطبة للنفس بعنا للثقة فيها . وتعين على اية حال حمل الجمل على البروك الى الارض اذ كان ينبغى عليه ان يخرج من الزكائب مقاود البعير وعقاله . وبينما كان يديغى مشغولا فى الظلام بكل هذا العمل كان الهدوء مخيما على المكان وسائدا فيه وكان هدوا مطبقا بحيث كان يسمع لهاث أنفاسه والطنين والحفيف والرفيف الذى تبعته فى حنايا الهواء اجنحة الحشرات والهوام المتطايرة فيه وكانت تشعشع فى قبة السماء فوق سمت رأسه نجوم ساطعة فى عدد عديد لا عد له ولا احصاء ولقد ظهرت على حين غرة فى السماء الصاحية الصافية فمالات بساطها بدررها المتلألئة . كان الهدوء ضاربا اطنابه وكأنما كل شيء كان مكتوم الانفاس فى انتظار شيء وفى حالة ترقب لشهود ما سيحدث ويقع . . . .

وحتى الكلب جولبارس الذى كان معتادا على الهدوء المعهود فى منطقة ساروزيكى اخذ يتسمع باحتراس ويهرّ فى تحفز متحسبا ما الذى قد يعرض له هذا الليل البهيم ؟

- ما لك انت ايضا تدور بين الرجلين مسبيا مزيدا من الارتباك والتعذر ؟ - قال سيد الكلب لكلبه فى امتعاض وزجر . ثم اخذ يفكر : واين يمكن ايداع الكلب خلال فترة الانتظار ؟ وتصور لبعض الوقت وهو يقلب مقاود البعير وعقاله فى يديه



مفكرا في طريقة التصرف مع كلبه . من الواضح الجلي ان هذا الكلب لن يدعه يمضى بدون . ولسوف ينهره ويزجره ويدفعه عنه بعيدا ولكن الكلب لن يبتعد على اى حال عنك مهما حاولت . اما الذهاب مع الكلب في طلب كهذا فانه ليس ممكنا ولا مقبولا . واذا لم يقولوا له شيئا فانهم سوف يضحكون ويسخرون ويفكرون بان هذا الشيخ العجوز جاء مدافعا عن الحقوق ليس معه سوى الكلب وكأنه لم يجد صحيبا سواه . وعليه فمن الأفضل والاولى ان يكون الذهاب بدون الكلب فلا خير فيه . وعندئذ قرر يديغي ربطه بحبل طويل الى عدة الجمل . فليكونا معا مشدودين بربطة واحدة وليجمع وناق واحد كلا من الكلب والبعير فتسرة غيابه عنهما . «جولبارس ، جولبارس ! تعال الى هنا !» وانحنى لكي يدخل عقدة الانشوطة في عنق الكلب . وهنا بالذات حدث شيء ما في الجو وانطلق شيء ما متحركا في رحاب الهواء بفرقة شديدة أشبه ما تكون بهدير صادر عن انفجار البركان وهو يتزايد ويتعاطم فيصم الأذان . ومن مكان قريب جدا وعلى قاب قوسين او أدنى في المنطقة المغلقة اياها التي يقع فيها المطار الفضائي اندفعت الى عنان السماء في عمود باهر من الضياء موجة عارمة من شعلة رهيبية . واجل يديغي البوراني مفزوعا كأنه قد القى الى هوة فاغرة ليس لها قرار اما البعير فقد قفز هانجا وهو يصرخ . . . ولز الكلب في فزع لاثدا بالانسان سيده وملتصقا بقدميه . . .

هذا كان اطلاق الصاروخ الاول من الصواريخ الروبوتات المعدة للعملية الفضائية الواسعة الهادفة الى الحماية والدفاع المسماة «اوبروتش» . كان الوقت في منطقة ساروزيكي بالضبط في تمام الساعة الثامنة مساء . وعلى اثر الصاروخ الاول انطلق الثاني وبعدها الثالث ثم الآخر فالآخر . . . واندفعت الصواريخ الى الفضاء الثاني لتشكل حول الكرة الارضية حلقة حماية دائمة العمل لتلا يتغير اى شيء في الشؤون الارضية وليظل كل شيء على حاله ويبقى القديم على قدمه . . .

سقطت السماء على الراس وتحولت الدنيا الى كتلة فائرة من اللهب والدخان . . . وركضت في جنون تبعد دون ان تدري الى اين ثلاثة مخلوقات ما أبسطها في هذا الوجود وهي عبارة عن

رجل وجمل وكلب . وكان يلغها رعب فظيع وركض الجميع سوية خشية الافتراق عن بعضهم بعضا هارعين في انحاء السهب الذي عانت فيه بلا اية رحمة او شفقة حمم من النار هائلة الحجم تضى بنور باهر يعشى العيون . . .

ولكنهم مهما ركضوا فان جريهم كان ركضا في نفس المكان ومروحة بلا ان لان كل انفجار جديد من هذه الانفجارات المتعاقبة كان يبعث فوقهم ما يغطيهم من حرارة الضوء الطاغى والفرقة الدواية منتشرا حواليهم في كل مكان فلا عيون ولا آذان حيث اختلط المكان بالزمان . . .

وركض الثلاثة جميعا - الانسان والبعير والكلب ، ركضوا لا يلون على شيء ولا يعون من أمرهم ما يعول عليه وفجأة شعر يديغي بظهور طير ابيض جاء لا يعلم من اين طائرا على الجبهة الجانبية وكانما هذا الطير الابيض هو الذي كان قد تحول في الزمان القديم من منديل نايمان - آنا حين وقعت من السرج عن صهوة الحصان الذي كانت تمتطيه بعد ان اصابها السهم الذي صوبه نحوها ورشقها به ابنا المنكورت . . . طار الطائر الابيض بسرعة في جوار الانسان وهتف به في ذلك الدوى الهائل والنور الغامر وكانما ساعة الحشر قد دقت :

- من انت ايها الانسان ؟ والى من انت عائد من الناس ؟ وما هو اسمك الذي تدعى به وتنادى ؟ حاول ان تتذكر اسمك : اسم ابيك دونباي ، دونباي ، دونباي ، دونباي ، دونباي ، دونباي . . .

وظل صوت الطائر يدوى ويتردد على مدى وقت طويل بعد غيابه في غياهب الظلام العالك الدامس الذي أعقب ذلك الصوت البهير . . .

بعد مضي بضعة ايام جاءت من قزل اورطة الى بورانلى - بورانلى ابنتا يديغي كلتاها ، ساوله وشرابات ، ومع زوجيهما وأولادهما بعد تلقي البرقية بنعى قازانغاب مختار ساروزيكي وشيخها لتأبينه واحياء ذكره وابداء الحزن والاسى على فراقه والتوجه بمصاب وفاته الفادح وبنفس الوقت اغتنام الفرصة



للنزول يوما او يومين في ضيافة الوالدين وكما يقال في الامثال :  
رب ضارة نافعة ، ورب خير في بطن شر .

وحين نزلوا من القطار بكل حوائجهم ومتاعهم ووصلوا الى  
عتبة دار يديغي لم يكن الاب في بيته وهرعت اوق بالا لملاقاتهم  
بالترحاب وهي تبكي وتذرف الدموع مدرارا وراحت تعانق وتقبل  
الصغار من شدة الشوق والتوق وهي لا تخفى فرحتها وتبسدي  
بهجتها بالقادحين قائلة :

- الحمد والشكر لك يا رب العالمين . ما أشد ما سنتكون  
فرحة ابينا عند قدومه بقدومكم . ما احسن انكم جئتم ولقد جئتم  
جميعا صغارا وكبارا . ما أشد ما سيفرح والدنا .  
- ولكن اين هو الآن ؟ ولماذا لا نراه هنا ؟ - تساءلت  
شرايات .

- سوف يعود في المساء . لقد ذهب منذ الصباح الباكر  
قاصدا مكان الرئاسة ، فلديه هناك امور وامور . وسوف احدثكم  
فيما بعد عن هذه الامور . ما لكم واقفين بالبواب ؟ هيا ادخلوا على  
الرحب والسعة فهذا بيتكم وانتم اصحابه ، يا اولادى الاعزاء .

ظلت القطارات في هذه الانحاء تسير من الشرق الى الغرب  
ومن الغرب الى الشرق .

وعلى جانبي خط السكة الحديد كانت تمتد مساحات شاسعة  
من الاراضي الصحراوية - سارى اوزيكي ، الاراضي الوسطى من  
البرارى الصفراء . . .

### الى القراء

ان دار وراذوغا تكون شاكرة لكم اذا  
تفضلتم وايدتتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة  
الكتاب وشكل عرضه وطباعته وامر بتم لها عن  
رغباتكم .

العنوان : زويوفسكى بولغار ، ١٧  
موسكو - الاتحاد السوفييتى